كتاب

نظم الحكم والادارة في الدولة العثمانية في عهد مرادجه دوسون

اى

في أواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر

للمؤلف

مرادجه دوسون سفير دولة اسوج في الاستانه المتوفى سنة ١٨٠٧

نقله الى العربية : فيصل شيخ الارض

رسالة قدمت الى دائرة التاريخ في جامعة بيروت الاميركية

لنيل شهادة استاذ في العلوم

الجامعة الاميركية في بيروت

يناير ١٩٤٢

منهاج البحث

———— • ————

تمهيد

لمحة مختصرة عن حياة دوسون

موءلفه في تاريخ الدولة العثمانية

راى المورخين فيه

قيمة الكتاب التاريخية

المقدمة :

أ ـ نظم الحكم والادارة في السلطنة العثمانية في عهد السلطان سليمان القانوني

ا ـ النظم والعادات التي حملوها معهم عند مجيئهم الى برالاناضول

أ : ما اخذوه عن الصين : النظام والترتيب

ب : = = = اجدادهم التتر

١) من حيث لغتهم التركية في تركيبها ولفظها ومقاطعها وقواعدها

٢) = = العادات

٢ ـ ما اقتبسوه عن الاتراك السلاجقة الذين كانوا يجاورونهم جهة الشرق

ا : كان الاتراك السلاجقة واسطة توفيق بين الاساليب والنظم التركية القديمة العجمية والاسلامية ـ وبين اساليب ونظم العثمانيين .

ب : منتوجات السلاجقة انفسهم التي وهي ثمرة اختباراتهم = في فن مسك الدفاتر في فنهم الخاص في تشييد الابنية العامة مثل الفنادق والخانات والمساجد .

ج : انشاء السلاجقة عدة طرق دينية مهمة احتلت مركزها في الحياة العثمانية .

٣ ـ النظم والمعارف التي اقتبسها العثمانيون عن العباسيين

ا ـ في الناحية الدينية

ب ـ في الناحية الاجتماعية

ج ـ اخذوا الالف باء عنهم

د ـ في القرن التاسع جاء شبان اتراك للخدمة عند الخلفاء العباسيين واحتلوا

ارفع المراكز . ان تثقفهم في بلاطات الخلفاء والحكام اثر كثيرا على افكارهم

٤ ـ النظم التي تاثر بها العثمانيون من العجم .

ا) ـ تعاليم الملاء

ب) ـ التفريق بين موظفي البلاط وبين موظفي الحكومة

ج ـ تقسيم الوزارة الى خمس دوائر

د ـ ايجاد مجلس شورى للدولة

هـ ـ اعطاء صلاحيات واسعة لحكام الولايات

و ـ وضع الضرائب

ز ـ ابهة واحتفالات البلاط

ح ـ تاثروا بهم عندما احتكوا معهم في العصر العباسي

ط ـ من الناحية الادبية .

٥ ـ النظم التي استمدوها من البزنطيين

ا) ـ موافقة تعاليمهم وتعاليم افلاطون

ب) ـ النظام الادارى والحربي ،في الترتيبات الحكومية

ج) ـ نظام الضرائب

د) ـ حفلات البلاط والابهة والعظمة

هـ) ـ التمثيل الخارجي

د) ـ في العادات والاعمال ـ بصورة اقل ـ

ز) ـ لعلهم اخذوا عنهم الاسلوب الاقطاعي في شكله النهائي

ح) ـ حبهم للرواتب والهدايا .

٦ ـ ما اخذه العثمانيون عن غير البزنطيين من الشعوب المسيحية

ا) ـ عن سكان اسيا الصغرى الاصليين الذين كانوا يحفظون تعاليم اربعة عشر قرنا واكثر .
اذ لايمكن لهذه التعاليم ان تزول في خمسة قرون او اقل حتى الى الابد .

ب) ـ عن سكان جنوب اوروبا الذين كانوا مثل سكان اسيا الصغرى يحملون ~~معي~~ الثقافات
والتعاليم نفسها .

ج) ـ كثيرون من رجالات الدولة العثمانية يتحدرون من اصل مسيحي . لهذا يمكننا القول بان قسما من مدنيتهم ونظمهم الحكومية جاءت عن طريق المسيحيين كما جاءت عن طريق المسلمين .

ب ـ صلاحيات السلطان

ا) ـ يحد الشرع من سلطته

ب) ـ العادات القديمة تمنعه من سن القوانين والانظمة

ج) ـ صلاحياته تتفق حسب قوة وضعف شخصية السلطان .

ج ـ صلاحيات الصدر الاعظم

د ـ صلاحيات الوزراء

هـ ـ حالة السلاطين بعد السلطان سليمان

ا) ـ اخلدوا الى الدعة والسكينة وانقطعوا الى ملذاتهم

ب) ـ عدم ذهابهم الى الحرب على راس جيوشهم

ج) ـ تركوا زمام الامور للصدور العظام .

و ـ حالة الجيش العثماني بعد عصر السلطان سليمان

ا) ـ ضعف نظام التجنيد وضعف القيادة العسكرية .

ب) ـ عدم الطاعة بين الجنود وتجروءهم على السلاطين

ج) ـ سوء الادارة في الجيشين البرى والبحرى .

ز ـ حالة الدولة الداخلية بعد القرن السادس عشر

ا) ـ فوضى التعيين وعدم اهلية رجال الدولة .

ب) ـ البطء في سير الاعمال الدولة الداخلية والخارجية

ح ـ حالة الشعوب النفسية والثقافية

ا) ـ التعصب الاعمى لعاداتها القديمة

ب) ـ الجهل العام المتفشي بينها .

تمهيد

ان المؤلفات التي تبحث في تاريخ السلطنة العثمانية كثيرة جدا تعد بالمئات كتبت بلغات عديدة .
ولما الادوار التي مرت بها الدولة منذ اول عهدها حتى يومنا هذا وما صار فيها من الاحداث الجسيمة
وما قامت به من علاقات حربية وسلمية وتجارية مع مختلف ممالك اسيا واوروبا وافريقيا والادوار التي
لعبتها في مصير هذه الممالك . ان كل هذه الامور وغيرها لفتت انظار كبار المؤرخين ودفعتهم
الى كتابة تاريخ الدولة العثمانية .

وقد فالمادة واسعة والموضوع طريف ومتشعب الى اقسام عديدة ساهم الكتاب في طرقها وكان اغلبها
اغلبها يدور حول الناحية السياسية والحربية والتجارية . ولم يتكلم عن الناحية الادارية وعن نظام
الحكم سوى نفر قليل منهم . وهذا النفر القليل لم يعن العناية الكافية بهذا الموضوع فلم يفرد له
كتبا خاصة ولم يوفه حقه من البحث والاستقصاء انما جاء عرضا مع سياق الحديث ، ويستثنى
من هذا النفر القليل المؤرخ "ليبير" *Lybyer* مؤلف كتاب : "*The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent*" "Cambridge 1913"
الذي صدر عام ١٩١٣ ، والمؤرخ الاسوجي *Mouradgea D'ohsson* وقد افرد كتابا خاصا من مؤلفه
الكبير "*Tableau Général de l'Empire Ottoman*" الذي صدر في باريز سنة ١٨٢٠ في التكلم عن
ادارة الحكومة العثمانية والولايات ووصف السلطان والبلاط والصدر الاعظم والوزراء والديوان
والجيش والبحرية وعلاقات الدولة مع الدول الاجنبية . اي كل ما هو متعلق بالناحية الادارية
وذلك كما كانت في ايامه اي في اواخر القرن الثامن عشر واوائل القرن التاسع عشر . وهو اوفى
بحث ظهر في هذا الموضوع حتى الان لتلك الحقبة من الزمن . وما يؤسف له ان هذا المؤلف
العظيم نادر الان وخصوصا في الشرق ولا يوجد منه نسخ كاملة حتى في كبرى المكاتب .
كما هو الحال في كالمكتبة الظاهرية في دمشق ومكتبة الاباء اليسوعيين في بيروت . ولا يوجد
منه في مكتبة الجامعة الاميركية في بيروت سوى القسم الاول فقط من هذا المؤلف . الامر الذي
دعا استاذي الفاضل الدكتور اسد رستم(١) الى توجيه اهتمامي نحو هذا الكتاب النفيس وان

(١) يقتني الاستاذ الدكتور اسد رستم نسخة كاملة من هذا المؤلف الكبير من الطبعة الممتازة هي من مخلفات الامير محمد سليم به
[illegible]

اجعله موضوع رسالتي وذلك بنقله الى اللغة العربية التي تفتقر الى مثل هذا البحث القيم املا ان تحصل المنفعة المرجوة منه وان يطلع العرب على ناحيتي نظام الحكم والادارة في الدولة العثمانية التي حكمت بلادنا مدة اربعة قرون .

سوف اذكر في بادىء الامر الان شيئا عن حياة المؤلف دوسون وعن كتابه كما عرضها هو . ثم انتقل بعد ذلك الى التكلم عن شتى المصادر التي استمد منها العثمانيون نظم ومبادىء الحكم وذلك كي يتعرف القارىء الى الاسس التي بنى عليها العثمانيون قوانين الادارة في سلطنتهم لان دوسون كما ذكرت سابقا لم يبحث مفصلا الا حالة الدولة كما كانت في عهده .

يقول دوسون في افتتاحية مؤلفه بانه من " الصعوبة بمكان خرق السحب الكثيفة التي تحجب امة ليس من السهل الاتصال بها لان هناك موانع وعصبيات دينية تفصلها عن شعوب اوروبا اضف الى ذلك الصعوبات الطبيعية والاخلاقية والسياسية . ولهذا السبب لكيما يتمكن الانسان من تكوين فكرة صحيحة عن هذه الامة يترتب عليه ان يعيش بينها . ولقد اتصلت بوزراء وسفراء الدول الاجنبية الذين اقاموا في العاصمة العثمانية فاخبروني عن الصعوبة التي يجابهها الانسان اذا حاول القيام بدرس هذه الامة . هاعدا الاخطار التي يمكن ان تعترضه في عمله هذا . "

ومثل هذا الدرس يتطلب دون ذلك اموالا كثيرة واحوالا مناسبة . وعلى الباحث ان يعيش زمنا طويلا بين السكان وان يحسن لغتهم ويتعرف الى منتوجات افكارهم وان تكون عنده مبادىء عن ديانتهم وعن مدى عبقريتهم . ويجب ان يكون له معارف من بين كبار رجال الدولة ومن الضرورة اخيرا ان يكون الباحث في منصب سياسي وفي خدمة دولة صديقة للبلاط العثماني والا يكون موضع ريبة او شك من وزراء وموظفي الدولة . ويمكننا القول اذاً بانه اذا لم تتوفر للباحث كل هذه السبل فانه من الصعب جدا عليه ان يصل الى معرفة هذا الشعب وحكومته معرفة صحيحة حقة .

فلقد ولدت في الاستانة وربيت فيها وكنت طيلة حياتي في خدمة دولة متصلة بالباب العالي بروابط صداقة متينة . لهذا فان السبل فتحت امامي اكثر من اي انسان اخر للتغلب على هذه الصعاب التي ذكرتها ولانهاء العمل الذي انتويت القيام به .

وبعد ان قرأت كتب المؤرخين العثمانيين وقابلتها مع مؤلفات الكتاب الاجانب الذين لم يحسنوا كتابة تاريخ السلطنة وجدت ضرورة كتابة تاريخ الدولة العثمانية فباشرت العمل مستمدا معلوماتي

من الاصول عينها اي من النصوص والسجلات التي تدونها الدولة . ولكني وانا في وسط هذا العمل الطويل شعرت بضرورة اطلاع القارئ قبل كل شيء على الامة العثمانية من ناحية عقائدها ودياناتها وعاداتها وادارة حكومتها . واطلاعه بصورة خاصة على ذلك القانون العام الذى دونه ابراهيم الحلبي وسماه " ملتقى الابحر " والذى يؤلف التشريع الديني الاسلامي لهذه المملكة الواسعة ولكل الشعوب الاسلامية .

"ولكن يعترض هذه الناحية من العمل صعوبات عديدة غير التي تعترض كتابة التاريخ . اذ يتطلب الحصول على هذه المعلومات الضرورية استقصاءات جمة وجهودا قوية . الا ان كل هذا لم يفلّ من عزمي . فان عملي المتواصل ووسائل الاستعلامات التي كنت احصل عليها يوميا بواسطة منصبي والاعمال الخاصة التي كنت اقوم بها في خدمة الباب العالي مباشرة وعلاقاتي الشخصية مع كبار موظفي الدولة ان كل هذه العوامل جعلت مؤلفي يتجاوز حد الاتقان الذى كنت اتصوره له .

" فقد اخذت من جهة استعلم عن كل فروع الدولة واخذت من جهة ثانية ادرس في الكتب الاصلية عقائد وقوانين الاسلام العامة . وكان ذلك بمعونة عالم ديني وفقيه اشتهرا بثقافتهما ولهما اعتبار جليل في البلاد .

" فلقد حصلت على كل الدقائق المتعلقة بادارة الدولة من الوزراء والموظفين وكذلك من كل رؤساء ~~كتاب مختلف~~ الدوائر الحكومية المختلفة . فقد اولوني كل هولاء عطفهم وثقتهم واطلعوني حتى على منتخبات سجلاتهم الخاصة وهي الان بين يدى ومرجعي في التحقيق عن كل شيء ادونه . لان الحقيقة والاتقان الصحيح يؤلفان في نظرى قيمة هذا الكتاب الرئيسية الذى هو ثمرة جهود ~~لتعب~~ عشرين سنة . وكان سرورهم عظيما من عملي هذا في ترجمة تواريخهم لاعطاء اوروبا فكرة صحيحة عن الدولة العثمانية . وظلوا يولوني عطفهم ويشرفوني به حتى يوم سفرى من الاستانة وكان ذلك في التاسع من شهر اذار عام ١٧٨٤ .

" وكانت معلوماتي المتعلقة بالسراى والسلطان وقصره مستقاة من موظفي البلاط انفسهم . وانا مدين للنساء والجاريات المنتمين للسراى بحصولي على دقائق معلوماتي عن السلطانات والخواتين والحرم السلطاني . اذ من المعلوم ان كثيرات منهن يتمكن من الحصول على حريتهن بعد خدمة عدة اعوام و بعدها يغادرن القصر ويقدمن كزوجات لموظفي البلاط الذين يجدون

دائما في طلب ايديهن آملين الترقية بواسطتهن لانهن يتمتعن بعطف السلطانات .

" ولقد تمكنت بواسطة النساء والموظفين المسيحيين الذين يمكنهم الوصول بسهولة الى اميرات وسلطانات القصر عندما يكن خارج السراى من تصحيح الافكار الخاطئة التي كانت عندى عما يتعلق بالسلطانات وحريم السلطان .

" وانني سوف ابحث في القانون الديني بكامله وكل ما يتعلق بتطبيقه واعماله مع وصف البلاط والسراى والولايات والمالية والحالة العسكرية والقوى البرية والبحرية والقضاء وحياة السلطان الخاصة والمراسيم المتعلقة بآداب ابلاط وكل ما يتعلق بالسلطانات والحريم . ونلاحظ من هذا ان الكتاب ينقسم بصورة عامة الى قسمين كبيرين متميزين ومنفصلين تمام الانفصال بعضهما عن بعض الاول يتناول ناحية الشرع الاسلامي والثاني يبحث في ادارة السلطنة العثمانية "

هذا ما قاله دوسون عن نفسه اما حكم الكتاب الذين نقلوا عنه فان معظمهم مجمع على مدح مؤلفه وعلى الاخص القسم الاول الذى يؤلف اكثر من ثلاثة ارباع مادته . اما القسم الثاني فان الحكم عليه كما اعرف حتى الان قليل لان المؤرخين كما ذكرت سابقا لم يعنوا بناحية نظم الحكم والادارة في الدولة العثمانية عدا " ليبير" Lybyer الذى يبحث عن ذلك ولكن عما يتعلق بعصر السلطان سليمان اى في القرن السادس عشر . لهذا فان كتاب دوسون لايمكن ان يكون مرجعا للمؤرخ " ليبير" Lybyer الا ان هذا الاخير يقول : ان دوسون وفون هامر فهما النظام الديني للسلطنة العثمانية ولكنهما لم يعرفا النظام الادارى وقد توصل Ranke الذى استعان بالمؤلفات الطليانية اكثر منهما على فهمه . والاكثر اطلاعا من Ranke ايضا هو المؤرخ Zinkeisen الذى استعان بالمؤلفات الطليانية اكثر من الاول " ونلاحظ من هذا اهمية معرفة اللغة الطليانية لمعرفة التاريخ العثماني لان سفراء البندقية هم اول من اتصل بالدولة العثمانية وفهموا حالتها الداخلية والخارجية ومؤلفاتهم عديدة وقيمة كما يشهد على ذلك كبار المؤرخين .

نلاحظ من حكم "ليبير" Lybyer عن دوسون ان القسم الاول من مؤلف هذا الاخير هو افضل من القسم الثاني . انما يجب علينا الا نهضم حقه والا نخفف من قيمة واهمية بحثه

ونقول بانه كان بامكانه ان يعطينا وصفا طويلا وافيا عن تاريخ النظام الادارى للسلطنة العثمانية لو انه اطلع على المؤلفات الطليانية ولكنه لم يفعل واراد فقط اعطاء صورة عن النظام الادارى والبلاط العثماني كما هما في عهده . ان دوسون ذكر بايجاز بعض نواحي النظام الادارى ولكن هذا لايعني بانه اساء فهم بحثه او جهله . وعلينا ان نقدر الظروف التي الف دوسون فيها بحثه ولعله فضل الاهم على المهم كما رآه هو في زمانه . فمثلا كان لمدرسة البلاط اهمية كبرى في القرن السادس عشر اى في العصر الذى كتب عنه " ليبير " Lybyer وقد خفت اهميتها في القرن الثامن عشر اى زمن دوسون لهذا فانه من المحتمل انه لم يطل البحث فيها بسبب ذلك.

المقدمة

نظم الحكم والادارة في السلطنة العثمانية قبل عصر دوسون

نظم الحكم والادارة في السلطنة العثمانية في عهد سليمان القانوني (١)

لقد اجمع المؤرخون على ان السلطنة العثمانية وصلت في عصر السلطان سليمان الى ذروة مجدها وابان عزها وكمال قوتها . ولهذا فلمعرفة ادارة الحكم في ذلك الوقت لايمكن الاقتصار على وصف البلاط والعادات والاحتفالات والتكلم عن الموظفين ووضع لائحة باسماء الولايات واعمالها . ان معرفة عامة لاهم الافكار السياسية التي كونت حياة السلطنة هو ضرورى واساسي . وبما ان اكثر هذه الافكار قديمة ومجربة وقد مرت بصور مختلفة فاصبح من اللازم ان نطلع على هذه الافكار تاريخيا من اساسها اى من مصادرها الاصلية . ومن هنا نلاحظ بانه ليس بكاف الرجوع الى الزمن الذى ظهرت فيه السلطنة العثمانية الى حيز الوجود لان الاتراك الذين كانوا يؤلفون قلب هذه الدولة والمسلمين والمسيحيين الذين التفوا حولها وقد اتوا من مختلف البلاد الدانية والقاصية كل هؤلاء كانوا يحملون معهم ولكن بصورة ضئيلة اكثر هذه الافكار التي كونت الادارة الحكومية . لهذا يجب ان نرجع بعيداً الى الوراء الى البيزنطيين اليونان والسلاجقة الاتراك والمسلمين

---

(١) اعتمدت على كتاب "ليبير" Lybyer بصورة خاصة في كتابة هذه الناحية من البحث .

من العجم والبلاد العربية والى الاتراك من اواسط اسيا حتى ان كبيرا من هذه الافكار يمكن ارجاعها الى الصين والتتر وبارت وروما وبابل ومصر (١)

بعد ان هاجمت القبائل البربرية امبراطورية الصين مدة من الزمن بدأت هذه بدورها في النصف الثاني من القرن الثالث قبل الميلاد تقوم بهجمات على كل البلاد الممتدة من سور الصين حتى بحر قزوين فخضعت كل هذه الارجاء لها وارسلت جيوشها وحكامها وساست جميع تلك البلاد . الا ان امرها ضعف في القرن الثالث للميلاد ولكن ما لبثت ان قويت عند اتساع الحكومة الاسلامية وتقدمها نحو الشرق وتمكنت من الوقوف بوجه توسع المسلمين وسيطرت على بلاد اواسط اسيا فخضعت لها القبائل التترية في القرن السابع والثامن والتاسع فتعلمت هذه القبائل منها النظام والترتيب وغير ذلك من الاعمال والتعاليم الادارية .

ان كلمة تتر تطلق على الشعوب والقبائل الساكنة بين الصين وبحر قزوين . وقد انقسموا منذ القرون الوسطى الى فرعين كبيرين : المنغول والاتراك . وهذا التقسيم يطبق بصورة عامة الى مدى كثرة او قلة شبههم بالصينيين والى مدى بعدهم او قربهم من بلاد الصين . وهناك كثير من القبائل لايمكن تطبيق هذا الحكم عليها . فالقبيلة التي يشبه اهلها الصينيين هي منغولية والقبيلة التي تختلف كثيرا عن الصينيين هي تركية . فالشعوب التركية هي اذا تلك التي دخل في دمها اكبر كمية من الدم القوقازى . كان مركزها الاصلي في بلاد منغوليا ولكنها في العصور التاريخية سكنت البادية الممتدة ما بين صحراء غوبيا والفولغا متصلة باشباهها القبائل المنغولية من الشرق بالايرانيين في الجنوب وبالسلافيين في الغرب .

ان قسما لاباس به من الافكار والعادات التي كانت للعثمانيين في القرن السادس عشر جاءهم عن طريق اجدادهم التتر . من ذلك لغتهم التركية في تركيبها ونطقها ومقاطعها وقواعدها وعدد كبير من الكلمات التي تتعلق بالحياة . فاللغة التركية الاصلية هي بالنسبة للعثمانيين كما هي اللغة الانجلوسكسونية للانكليز وتكون اللغة العجمية لتلك كما هي اليونانية لهذه والعربية لتلك كما هي اللاتينية لهذه . وسبب ذلك ان العثمانيين كانوا يقبلون الشيء الغريب كما ياخذون اسمه ايضا بدون اجراء اى تحريف فيه تقريبا . ومن هذه العادات العثمانية الراجعة لاصل تترى محبتهم للضيف .

---

(١) كتاب Lybyer ، The Govt. of the Ottoman Empire in the Time of "Suleiman the Magnificent" ص (٤)

وللحرب والغزو مع اراء صائبة في الطرق والوسائل التي تمكنهم من الوصول الى هدفهم هذا مع ميل فطري للحكم والسيطرة أضف الى كل ذلك حبهم للقديم وللحياة الحرة. كما عندهم مثل التتر نوع من بلادة الذهن وعدم الابتكار والصبر على المكاره .

اقام الامير عثمان - مؤسس الدولة العثمانية في اواسط اسيا الصغرى مع قبائله المؤلفة من اربع مئة واربعين عائلة وقد كان على راسها . وكان يحد البلاد التي سكنها جهة الشرق دولة السلاجقة الاتراك وجهة الغرب الامبراطورية البيزنطية وكانت كلتاهما على درجة عالية من المدنية والرقي فكان من الطبيعي على القبائل التركية البدوية ان تتاثر منهما وتاخذ عنهما من جراء احتكاكها بهما . وفعلا فانها اقتبست عنهما اشياء كثيرة تتعلق بالحياة العقلية والاجتماعية والادبية والفنية والادارية . فساعدهم ذلك في انشاء دولة قوية بسطت سلطانها على شعوب وممالك عديدة وان سرعة تقدمهم هذا وهم من اصل حقير وضمن مناسبات غير جيدة وانشائهم دولة قوية هو من اغرب الاشياء في التاريخ كما يقول " ليبير" Lybyer وفعلا فانه بعد مضي قرنين وربع من تاريخ استقلالهم تمكنوا من توحيد كل المدنيات التي على البحر الابيض المتوسط ضمن امبراطورية واحدة وهذه هي اخر مرة يحصل فيها مثل هذا الامر .

لقد اخذ العثمانيون عن السلاجقة اشياء كثيرة . وبما ان الفريقين احتكا بالعباسيين فانه من الصعب تعيين ما اخذه العثمانيون عن العباسيين وما اخذوه عن السلاجقة . انما يمكن القول بان الاتراك السلاجقة كانوا الواسطة توفيق بين الاساليب والنظم والعادات التركية القديمة وبين الاساليب والنظم العجمية والاسلامية . عدا ذلك فقد اخذ العثمانيون عنهم منتوجاتهم الخاصة التي هي ثمرة اختباراتهم منها مثلا مسك الدفاتر وفنهم الخاص في تشييد الابنية العامة مثل الفنادق والخانات والمساجد . وقد كان انشأ السلاجقة عدة طرق دينية مهمة اقتبسها عنهم العثمانيون واحتلت مركزها في حياتهم الداخلية .

وساذكر الان ما اقتبسه العثمانيون عن العرب وعن العباسيين بصورة خاصة . وكان يجب ان اتكلم عن تاثير البيزنطيين عليهم ولكن سوف ارجيء ذلك الان لعلمنا بان ما استمدوه من العباسيين هو متمم لما اخذوه عن السلاجقة مع العلم بان هولاء ايضا قد تاثروا بالعباسيين واخذوا عنهم اشياء كثيرة . ولقد ذكرت بانه ليس من السهل تعيين دقائق الاشياء التي اخذوها عن كلا الفريقين . لهذا فاننا نكتفي بايراد ما تاثروا به من العباسيين .

اخذ الترك منذ اواخر القرن الثامن ينزحون عن بلادهم الاصلية في اواسط اسيا متجهين نحو بلاد العجم والعراق . وكان عمال ابي العباس السفاح مؤسس الخلافة العباسية يبثون دعوتهم في خراسان وما جاورها من البلاد فحصل بينهم وبين العرب احتكاك لانعرف مدى تاثيره فيهم ولكن نقول بصورة عامة غير معينين المكان والزمان ان تاثير العرب على الترك كان اكثر من كل شي ء في الناحيتين الدينية والاجتماعية كما اعطوهم الالف باء العربية . اما تاثير العباسيين عليهم فقد بدء تقريبا في القرن التاسع عندما اخذ كثيرون من شبان الاتراك يفدون الى العراق ويخدمون عند الخلفاء كجنود ثم كقواد وظلوا كذلك يتقدمون الى ان احتلوا ارفع المراكز في الدولة واصبح الخلفاء العوبة بين ايديهم يولون من يريدونه منهم ويخلعون من لايعجبهم الى ان اصبحت مقدرات الخلافة العباسية كلها في يدهم واصبح يطلق على دورهم دور (او عصر) النفوذ التركي وهو يقع بين سنة ٨٤٧ و ٩٤٥ . ان اقامتهم هذه الطويلة بين العرب وتثقفهم في بلاطات الخلفاء والحكام قد اثر ولا بد كثيرا على عاداتهم وطرق معيشتهم واخلاقهم ونظمهم . ويوجد في كتاب سياسة نامة شيئا عن هذا التاثير نجد فيه على الاخص كيف يحصل تعليم الجندي . هكذا تعلم الترك من العرب والفرس وبهذه الطريقة علم العثمانيون الشبان المسيحيين في تلك المدارس الشهيرة مدارس البلاط .

لقد قلت بان تاثير العرب على الترك كان اكثر كل شيء في الناحيتين الدينية والاجتماعية الا ان هاتين الناحيتين تتضمنان اشياء كثيرة لايمكننا سردها كلها الان انما نكتفي بالاشارة الى بعضها منها مثلا كل تعاليم القرآن والشرع وما لهما من تاثير على سلطة السلطان وعلى ادارة الحكم وسن الضرائب واجراء العدل والقضاء الخ ...

لم يكن تاثير الفرس على العثمانيين باقل من تاثير العرب . اذ يظهر بان الفرس الاقدمين اعطوا العثمانيين عددا لاباس به من النظم التي تتعلق بالحكم والادارة نكتفي بتعدادها وهي تعاليم الملك . ومن المعلوم ان الشرائع المبنية على اعمال النبي محمد واعمال الخلفاء الراشدين تمنع الابهة والظهور والجاه والعظمة من اي نوع كانت ولكن في العصر العباسي تاثر الخلفاء بالفرس واخذوا عنهم ابهة وعظمة الملك . وقد كان اول سلاطين آل عثمان بسطاء وظلوا كذلك حتى زمن مراد الثاني . ولكن بعد فتح القسطنطينية كانت اكثر قوانين محمد الثاني تبحث في اصول ومراسيم الحفلات وتنظيم الرتب ، " قانوني تشريفات " ويظهر انهم اخذوا عنهم ايضا

سياسة السماح للرعايا الذين يعتنقون دينا غير دين الدولة ان يؤلفوا لهم نظماً وقوانين خاصة يسيرون بموجبها . وقد ذهب فون هامر الى ابعد من ذلك اذ قال : " ان كل التحريات التي جرت في اقدم قوانين الدولة الشرقية كالتنظيمات والدساتير الملكية ومراسيم احتفالات البلاط وترتيب المناصب ترجع كلها الى مملكة الفرس الاقدمين وقد تحدرت منها الى الخلفاء العرب حكام ثلاث قارات والى الاتراك السلاجقة الذين قاموا على انقاض الدولة العربية في اسيا والى البزنطيين الذين قاموا على انقاض الدولة الرومانية في اوروبا . ومنهم جميعا تسربت كل هذه العوامل الى العثمانيين الذين خلفوا السلاجقة والبزنطيين ."

وقد اخذ المسلمون عن الفرس الساسانيين نظام سن الضرائب على الاراضي وتقسيمها الى قسمين قسم يدفع الضرائب العشرية وقسم يدفع الجزية . وهذه الطريقة اخذها العثمانيون بدورهم عن المسلمين بعد ان اعتنقوا ديانتهم . وقد اثر الفرس على العثمانيين ايضا في الاسلوب الاقطاعي . ثم في العصر العباسي اخذ الفرس والترك يحتلون المناصب الهامة في الادارة المدنية والعسكرية وبذلك احتكوا مع بعضهم واقتربوا اكثر من ذي قبل فكان من الطبيعي على الفرس ان يؤثروا عليهم في نواح عديدة ولا سيما انهم يحملون ثقافة اعلى ومدنية ارقى . كما انهم اثروا ايضا في الناحية الادبية والشعرية واضافوا الى اللغة التركية اسماء عديدة وافكارا كثيرة .

ان الحادث الخطير الهام في حياة الدولة العثمانية هو استيلاؤها ووراثتها لبلاد ونظم وقوانين اكبر امبراطوريتين شرقيتين في القرون الوسطى وهما الامبراطورية العربية والامبراطورية البزنطية فاستمدوا منهما اشياء كثيرة من معارفهم ونظم حكمهم وعاداتهم وطقوسهم .

ان النظام الديني الذي اخذه العثمانيون عن العرب كان قد ظهر وانتشر في البلاد الاسلامية ولم يكن يحتاج العثمانيون الا الى التعرف عليه ونقله الى بلادهم . اما النظام الاداري والحربي الذي يمكن ان يغيروه حسب ذوقهم فانهم اخذوه عن البزنطيين . لقد اخذوا عنهم التفاصيل الادارية والترتيبات الحكومية المتعلقة بالسلطنة نفسها وبالولايات . واقتبسوا عنهم حفلات البلاط والابهة والعظمة فان سلاح فرقة الحرس ونظامها ولباسها مثلا التي يسمى رجالها Péiks وهم من حاملي الرماح وعددهم مئة تقريبا كان سلاحهم وترتيبهم ولباسهم مقتبس عن حرس الملوك البزنطيين . كما اخذوا عنهم ايضا اصول التمثيل الخارجي ، كما كان هناك

ايضا تاثير في العادات والاعمال الا انها بصورة اقل . ولعل الاسلوب الاقطاعي العثماني اخذ شكله النهائي عن البزنطيين ولعلهم اخذوا عنهم ايضا حبهم الزائد للرواتب والهدايا .

لقد اهتم المؤرخون في عصرنا هذا بمدرسة البلاط التي كانت تقوم بتربية وتثقيف الشبان وتهيئتهم للقيام بشؤون مختلف اعمال الدولة . تذكر Halidé Edib في مقدمة كتاب "Beyond the Sublime Porte" New-Haven لمؤلفته Barnette Miller ان ميلر تقول عن اهمية هذه المدرسة وتذكر ان محمد الثاني هو الذي بناها ولكنه لما بناها ووضع برنامجها لم يكن متاثرا بأي مصدر بزنطي او اسلامي . فتعارضها Halidé Edib وتقول : " بماذا اذا تاثر عندما وضع البرنامج ——— السياسي التربوي لهذه المدرسة ؟ هناك مصادر عن حياة السلطان تقول انه كان عالما محبا للعلم واسع الاطلاع ويعرف اللغات اليونانية والفارسية واللاتينية . وفوق كل هذا ومما يدعو الى العجب انه كان يريد ان يحتفظ بالعلماء البزنطيين وكان محبا للفلسفة اليونانية . وان هذه الفكرة التي ترمي الى اعداد فئة خاصة للحكم ترجع الى افلاطون وانه لمن المفيد حقا درس هذه المسالة وهي كيف ان العثمانيين وسعوا واظهروا الى حيز الوجود اكثر الطرق الاستبدادية صلابة ومناعة من تعاليم واراء افلاطون . انه لمن سخريات القدر ان يكون افلاطون الذي اثر كثيرا على الاتراك بشخص جلال الدين الرومي في النواحي الفلسفية والفكرية وحرية الراي يعود ايضا وبعد عدة قرون ليوحي لمحمد الثاني خلق مثل هذه الادارة الاستبدادية السياسية الا وهي مدرسة البلاط . " الا ان النظام العثماني لم يكن ارستقراطيا كما كان افلاطون يريده ان يكون . لان العثمانيين كانوا يعدون العبيد ليصبحوا وزراء وحكاما للدولة . ولكن افلاطون يوافق على طيلة مدة تعليمهم والاعتناء باجسامهم وعقلهم ، والتفريق بين الجيش وبين الحكام بالرغم من ان هذا لم يكن تاما . والتحرر النسبي من الروابط العائلية والمراقبة الدقيقة المفروضة على الفرد وخصوصا مراقبة العقلاء لرجال الحكومة انه لايمكن قط معرفة ما اذا كان قد عرف مؤسسو النظام العثماني كتب افلاطون انما يظهر انهم اقتربوا من تعاليمه كما يمكن القول بانهم تخطوها في بعض النواحي وذلك بعدم التقيد بمعرفة نسب رجال الدولة وجعل نظامهم قادرا على ادارة امبراطورية واسعة .

ان قسما كبيرا من الشعب العثماني يرجع الى اصل مسيحي . لأنّ عوامل شتى كانت تضطر سكان اسيا الصغرى وجنوب اوروبا الى اعتناق الديانة الاسلامية عندما افتتح العثمانيون .

بلادهم . ويمكن القول بان هولاء المسيحيين من بزنطيين وبلغاريين ورومانيين والبانيين وصربيين الخ ... من الذين اسلموا او من الذين بقوا على ديانتهم الاصلية قد اثروا على ثقافة العثمانيين ونظمهم وعاداتهم وذلك انه منذ معركة Issus (٣٣٣) ق.م. حتى Menzikert ملاذكرد (١٠٧١) كانت اسيا الصغرى قسما من اوروبا ثم اصبحت بعد مجيء الاتراك قلب ومركز السلطنة العثمانية . ولسنا بحاجة الى التعمق في معرفة القوى التاريخية لنعلم انه غير ممكن ان تزول في جنوب اوروبا وفي اسيا الصغرى تعاليم اربعة عشر قرنا او اكثر في مدة خمسة قرون او اقل ولا يمكن ان تزول حتى الى الابد . لذلك فان العثمانيين قد تاثروا بهذه التعاليم من فتحهم اسيا الصغرى وجنوب اوروبا . ونحن اذا نظرنا الى الامبراطورية العثمانية كدولة شرقية فقط نكون قد اخطأنا في قراءة وفهم التاريخ واخطأنا في معرفة الطبيعة البشرية . لقد كانت بلاد السلطنة العثمانية قائمة في الشرق والغرب كذلك كان شعبها وكذلك هي ثقافتها وادارتها الحكومية . يقول ليبير Lybyer بان هناك تجانسا بين المسيحية والاسلام اذ كلاهما مشتقة من العهد القديم والخلاف الرئيسي هو في طبيعة السيد المسيح . وقد حكم العثمانيون على كثير من الشعوب المسيحية وبما ان كثيرين من رجالات دولتهم يتحدرون من اصل مسيحي فيمكننا القول بان قسما من مدنيتهم ومن نظمهم الادارية جاءت عن طريق المسيحيين كما جاءت عن طريق المسلمين .

ان السلطنة العثمانية هي حكومة ملكية مطلقة محصورة بشخص واحد هو السلطان . وهي حكومة عسكرية قبل كل شيء يدعمها الجيش وان جميع موظفيها عدا البعض منهم هم من رجال الجيش ولكل رؤساء الجيش اعمال ومناصب في الدولة . فالعثمانيون هم مثل اتراك اواسط اسيا ولدوا في الحرب واعدوا للفتوحات . وكانت الحروب في الاصل تحتل المرتبة الاولى من اعمالهم ويكون العمل الثاني ادارة الدولة والحكم . ثم بعد فتح القسطنطينية تحولت الاهمية للثاني اذ كانت الضرورة تقضي بادارة حكم بلاد واسعة . انما حتى زمن السلطان سليمان كان هذان العملان على درجة متماثلة في القوة . فكان كل رجال الدولة يتبعون السلطان الى الحرب وكان الجيش والحكومة شيئا واحدا .

للسلطان سلطة مطلقة على موظفي الدولة وهم يعتبرون كعبيد له يتصرف بحياتهم واشخاصهم واملاكهم كما يشاء وليس عليهم الا الطاعة . الا ان الشرع يحدد من سلطته المطلقة ولا يمكن اعتباره كدستور ثابت لايتغير انما يمكن للسلطان بمعونة وآراء رجال الدين ان ينص المراسيم

او القوانين في بعض النواحي التي لم يرد ذكرها في الشرع . وهكذا فالسلطان مقيد بهذا
الدستور الثابت كما انه مقيد بالقوانين والمراسيم وبعادات شعب متحفظ جدا وحريص ومتعلق
بتراثه . فالسلطان والحالة هذه لايتمكن من الحكم بحرية الا في بعض النواحي فقط والتي
لايمكن معرفتها اذ تختلف حسب قوة وضعف السلطان وحسب المناسبات والظروف .

لقد قلت بانه يمكن للسلطان ان ينص المراسيم والقوانين التي لم يذكرها الشرع ولكنه
لايمكنه ان يغير فيه شيئا . ان التشريع مضوع طالما ان الله بواسطة النبي محمد قد نص
القوانين بصورة نهائية . وهكذا فالقوانين لا تعتبر كانها ثمرة اجتهاد رجال الدولة ومفكري
الامة بل تعتبر نازلة من فوق من عند الله .

لقد كان يعتقد بان الشرع كان كافيا لكل اعمال الدولة ولهذا ما لبث ان اصبح
دستورا سياسيا ولكنه ظهر انه غير ممكن تطبيقه وهذا يرجع الى سببين وهما : توسع الدولة الاسلامية
والمجتمع الاسلامي وظهور احوال ومعضلات غير منصوص عنها في الشرع . والاعتقاد بان الشرع هو
من عند الله . هذا مما يجعل امر تطبيقه بمنتهى الصعوبة . ولقد اصبح من الضرورة على
السلاطين وضع قوانين توافق المسائل الجديدة المستحدثة وتكون غير مخالفة للشرع . ومن هذا
نلاحظ بان الشعب في السلطنة العثمانية يخضع الان للشرع وللقوانين التي ينصها السلطان
وللعادات وللعرف اي ارادة السلطان الحاكم . ولكن الشرع هو اهمها اذ انه فوق سلطة
السلطان ولا يمكنه اجراء تغيير فيه . وعندما يكون العرف مكتوبا يصبح قانونا ويلغي كل
القوانين والعادات التي تناقضه .

ان هذه القوانين التي يصدرها السلطان بعد اخذ راى رجال الدين فيها كانت
تسمى فرمانات او اوامر سلطانية الا انهم اطلقوا عليها مع الوقت كلمة " قانون " البزنطية .
وهكذا فالشرع يوافق عند الغربيين القوانين الدينية . والقوانين توافق عندهم القوانين المدنية .
ان هذه القوانين العثمانية تبحث بصورة عامة في الشؤون العسكرية والمالية والاقطاعية والجزائية
والامن ومراسيم الاحتفالات . وهي كلها موجودة في الشرع عدا الاقطاعية والمراسيم . ولهذا
فللسلطان مطلق السلطة عليها ويمكنه اجراء التغيرات التي يريدها فيها .

انه يمكن القول من الوجهة النظرية واذا صح التعبير من الوجهة الدستورية ان
سلطة السلطان سليمان اى صلاحياته كانت نفس صلاحيات خلفاء المسلمين القدماء . وباعتباره -

خليفة فهو الرئيس الاعلى للدين يحقق عمليا تعاليم القران ويدافع عن العقيدة الاسلامية . وعلى كل الرعايا المسلمين الصالحين الذين يقطنون السلطنة ان يخضعوا له خضوعا تاما بعد الله والرسول . كما يعتبره اهل الذمة ايضا سلطانهم الشرعي عينه الله لهم كعقاب لهم على خطاياهم .

يمثل الكتاب العثمانيون حكومتهم بصورة خيمة قائمة على اربعة عواميد : ١ - الوزراء ٢ - قضاة العسكر ٣ - الدفترداريون اى وكلاء الخزينة ٤ - النيشنجي . ويجب القول بانهم ليس لهم كلهم نفس الاهمية او ان تكون اعباء اعمالهم متماثلة . فالاهمية الكبرى هي للوزراء وعلى راسهم الصدر الاعظم .

يتقلد الصدر الاعظم كل صلاحيات السلطان تقريبا اذ يعتبر كنائب او وكيل له يمثله في رئاسة الادارة المدنية والعسكرية ويعد كرئيس للقضاة . ولم يكن للصدور العظام سلطة قوية في بادئ الامر وفي عهد اول سلاطين آل عثمان الذين كانوا يقومون بكل الاعمال ويرأسون كل شؤون الدولة ولا يتركون الصدور العظام يتصرفون كما يشاؤن وتشاء اهوائهم . ولكن مع الزمن وبعد ان هدأ الامر في البلاد واستتب الامن فيها ولم يعد هناك فتوحات وحروب انزوى السلاطين في قصورهم يتمتعون بلذاتهم ولهوهم وتركوا ادارة الدولة للصدور العظام الذين اصبحت لهم بمقتضى ذلك صلاحيات واسعة ونفوذ عظيم في مقدرات السلطنة . ومن صلاحيات الصدر الاعظم وميزاته كما يذكرها Lybyer نقلا عن فون هامر : انه يحمل الماهر السلطاني ويمكنه عقد ديوان خاص له في قصره يكون بمثابة محكمة عدل . ويحرسه الجاويش باشي مع رجاله من قصره حتى السراى . ويزوره قضاة العسكر ووكلاء الخزينة كل اربعاء كما يزوره اغا الانكشارية مرة كل اسبوع والوزراء مرة كل شهر . وله الحق في القيام بدوريات تفتيشية في العاصمة ومراقبة الاسواق مصحوبا بقاضي الاستانة واغا الانكشارية وحاكم المدينة . ويأتي الوزراء والقضاة وقواد الجيش وبقية رجال الدولة اليه في ايام الاعياد لتقديم تهانيهم له . الخ ....

لم يكن للصدر الاعظم قبل عهد السلطان سليمان اهمية كبرى انما بدأت تظهر في زمانه واصبح لهم نفوذ عظيم في الدولة ويمكن القول بان الصدارة وصلت في ذلك الزمن الى اوج مجدها . وكان ابراهيم اول صدر اعظم للسلطان سليمان الذى اشتهر بحسن تدبيره ومهارته في ادارة امور الدولة العسكرية والمدنية . وفي ابتداء حملة سنة ١٥٢٩ اعطاه السلطان سليمان صلاحية سر عسكر اى قائد عام للجيوش . وهذا مما يضع النظام الادارى والديني والامة العثمانية

وكل رعايا السلطنة تحت امرته . وذهب ابراهيم الى ابعد من ذلك //وقد اضاف لقب سلطان على لقب سرعسكر الذى كان يحمله الا ان سليمان لم يكن سلطانا ضعيف الهمة فانه لما راى ان ابراهيم ذهب الى ابعد مما يجب عليه امر بقتله .

ثم جاء بعده الصدر الاعظم رستم الذى تزوج ابنة السلطان واشتهر كسلفه بمقدرته الفائقة في الحكم والادارة وجمع المال ؛ وفي اخر حكم سليمان الذى دام اربعين سنة وبعد ان خف تاثير رستم "وروكسيلانا" عليه وصل الى منصب الصدارة واحد من اقدر رجال السياسة العثمانيين وهو محمد الصقلي . كما كان يترأس النظام الديني واحد من اشهر رجال الدين وهو ابوالسعود . وقد اوصل هذان الاثنان النظامين الادارى والديني الى ذروة عظمتهما كما اوصلا السلطنة الى اوج مجدها وذلك مدة ثلاثين سنة كان نصفها بعد وفاة السلطان سليمان .

انما يجب ان نلاحظ ان اخطارا عديدة تحيط بهذا المنصب لان الصدر الاعظم مع كل صلاحياته ونفوذه وسطوته هو عبد للسلطان يمكن لهذا الاخير ان يقضي عليه ويستصفي امواله في اى وقت اراد وكيفما شاء . فمن المئتي شخص الذين احتلوا هذا المنصب مدة الخمس مئة سنة قتل منهم عشرون عند عزلهم .

ياتي بعد الصدر الاعظم الوزراء الذين يقومون بادارة الدولة وتسيير الدوائر وهم يعتبرون كروساء شورى للسلطان في الشؤون السلمية والحربية والادارية والعدلية . وهم يتناقشون ويعرضون على بساط البحث في الديوان كل الامور الهامة . ويحملون كلهم رتبة الباشوية وهم غير مسؤولين عن اعمالهم كمستشارين . ولم يكن عددهم محدودا انما كانوا اربعة في عهد السلطان سليمان ولهم واردات مباشرة وغير مباشرة . ويسكنون قصورا شبيهة بقصر السلطان ويقلدونه في كل شيء فيما يتعلق باقتناء الحريم والخدم والخصيان وفي مظاهر الابهة والعظمة .

لم يكن للوزراء في بادىء الامر اى في زمن اول السلاطين العثمانيين اهمية كبرى كما كان الحال ايضا مع الصدور العظام . وكم من الوزراء والصدور العظام من لاقوا حتفهم لمجرد عدم الموافقة مع السلطان في امر سياسي ما . لقد كان وزراء السلطان سليم الاول

لايبدون اراءهم وقد امتنعوا عن ذلك منذ ان ظهر بانه امر بقطع رؤوس سبعة من وزرائه لمخالفتهم في ارائه . وقيل بانه لماخرج السلطان سليم من مصر بعد ان افتتحها قال للصدر الاعظم يونس باشا الذى كان يسير بجانبه لقد اصبحت بلاد مصر الآن وراءنا اى انه اصبح بمامن منها فلم يتمالك الصدر الاعظم الذى لم يكن من رايه فتح مصر ان اجاب ، " ماهي الفائدة التي حصلنا عليها سوى خسارة نصف جيوشنا ". فلم يجبه السلطان انما امر رجاله باشارة منه بقطع راسه في الحال (١) واذا كان هذا هو حال الصدر الاعظم ثاني شخصية في السلطنة فما تكون اذا حالة الوزراء في ذلك الوقت ؟ ولكن صلاحياتهم وصلاحيات الصدر الاعظم ما لبثت ان اخذت تعظم شيئا فشيئا بعد ان ضعفت شخصية السلاطين الذين اخلدوا الى الدعة والسكينة وانكمشوا في زوايا الكسل والملذات .

---

(1) Lord Eversley . " The Turkish Empire " ص (١١٢)

حالة السلاطين بعد السلطان سليمان

كان البغض مستحكما بين دول اوروبا بصورة هائلة جعلتها تتعامى عن خطر العثمانيين في تهديد استقلالها وتقويض كيانها . وكم من هذه الدول كانت تفضل الذل والاستعباد على ايدى الاتراك المسلمين من الخضوع لدولة اخرى مسيحية اوربية مجاورة . ويشير التاريخ الى حوادث عديدة كانت فيها بعض الدول الاوروبية تحالف العثمانيين ضد غيرها من الدول المجاورة . ويمكن القول بانه في اول عهد السلطنة وفي زمن اول السلاطين الشهيرين لم يكن تحالف دول اوروبا (لو حصل فعلا) في وجه العثمانيين ليوثر شيئا كثيرا امام التقدم العثماني انما بعد ان افل نجم السلاطين وضعفت شخصياتهم وبعد ان انزووا في قصورهم يتمتعون بملاذهم ولهوهم كان يمكن لدول اوروبا اذا تحالفت واخلصت النية بعضها لبعض ان تصل الى نتائج باهرة وكان بمقدورها ان تقضي على الامبراطورية العثمانية وتعجل بزوالها من الوجود قبل قرنين او ثلاثة مما قدر لها ان تعيش ولكن الطمع والحسد والخوف بين تلك الدول كان من حظ العثمانيين وكان سببا مهما في دوام سلطانهم .

بعد عصر السلطان سليمان الذى وصلت السلطنة العثمانية الى ذروة عظمتها وتوسعها اعتلى العرش سلاطين ضعاف عدا القليل منهم وجد وانفسهم غير قادرين على اضافة شيء من الممتلكات على اراضي الدولة او القيام بفتوحات جديدة او صد غارات الدول الاوروبية التي اخذت تهاجم ممتلكاتهم فانقطعوا الى نسائهم وما اكثرهن في قصورهم وكان سليم الثاني اول من دشن هذا العهد الجديد اى الانزواء داخل القصر السلطاني والعيش في عزلة وهدوء . فكانت النتيجة ان اهملوا ادارة امور الدولة وتركوا كل شيء للصدور العظام الذين اخذ نفوذهم يزداد واصبحت مقدرات الدولة بين ايديهم . ولقد ظهر منهم اناس اشتهروا بالمقدرة وسداد الراى والحزم والادارة امثال الصدور العظام من عائلتي الصقلي وكوبريللي . الا ان كثيرين غيرهم كانوا غير اهل لحمل اعباء ادارة امبراطورية واسعة موءلفة من شعوب مختلفة . وكان من سوء حظ السلطنة ان اخذت دول اوروبا تقوى وتتقدم في معارج الرقي والتمدن والعلوم والفنون واخذت الى حد ما تتحد وتجابه القوى العثمانية بقوى مماثلة ان لم تكن احيانا متفوقة عليها فكان المستقبل لايبشر بخير للدولة العلية لانها كانت تسير القهقرى بينما اوروبا تتقدم بخطى واسعة فكان انحطاط السلطنة العثمانية لهذا السبب مزدوجا وتاثيره مضاعفا .

لم يطلعنا دوسون عن حالة السلاطين العثمانيين في عصره ولم يتكلم الى اى حدما كانوا يباشرون ادارة اعمال الدولة بينما نرواه يصف بدقة ومهارة كيفية اعتلاء السلطان الجديد العرش وما يصحب ذلك من مراسيم واحتفالات وعن زياراته المتخفية للمدينة والتكنات الانكشارية وعن معيشته الداخلية وطعامه وحاشيته وخدمه ودور تنزهاته وعن مدخوله الخ ... هذا ما يمكن ان نواخذ على دوسون عليه خصوصا وانه يسمي كتابه هذا " تاريخ الاسبراطورية العثمانية " ولكننا اذا عالجنا هذه المسالة من طرفها الثاني نرى ان لدوسون بعض العذر في ذلك ان لم نقل كله . فانه كان بامكانه وهو الرجل السياسي وسفير دولة اسوج في العاصمة العثمانية والمطلع على اخبار الدولة والمتصل كما يذكره هو نفسه بكبار رجال الدولة وعظماء الموظفين السياسيين والمدنيين كان بامكانه ان يتكلم عن اعمال السلطان الادارية ومدى صلاحياته في الدولة وما يقوم من اعمال سياسية . لقد كان بامكانه ان يفعل ذلك وهو اقدر واحق من غيره في هذا الباب . انما يمكن ان نعذره في تقصيره هذا ان كان هناك تقصير اذا عرفنا حالة الضعف التي كانت فيها الدولة آنئذ وحالة السلاطين الذين انزووا داخل قصورهم حتى انه لم يبق لهم من عمل سوى الاطلاع على التقارير التي يقدمها لهم الصدور العظام والتوقيع عليها . هذا من ناحية ومن ناحية ثانية الا يمكن القول بان دوسون اختص في ناحية من نواحي التاريخ العديدة فترك لغيره وصف اعمال السلاطين السياسية الحربية (على قلتها في زمانه) واهتم هو بسرد اعمالهم الداخلية في بلاطهم وفي عاصمتهم وعلاقاتهم مع رجال الدولة ورجال الجيش ومع افراد عائلتهم . فما اكثر المؤرخين الذين عالجوا الناحية الاولى وما اقل من عالج الثانية .

حالة الجيش العثماني بعد عصر السلطان سليمان

قلنا سابقا بان الدولة العثمانية هي دولة عسكرية قائمة على قوة سلاحها فاذا ما اعترى الجيوش وهن او ضعفت او اسيئت قيادتها وعمت الفوضى والاضطرابات بين افرادها وقوادها فان مصير السلطنة يكون والحالة هذه في خطر ومعرض لاقسى التجارب وهذا ما حصل فعلا فاذا اطلعنا على حالة الجيش الداخلية اي ما هو متعلق بامر تدريبه وتزويده بالمؤن والاعتدة والملابس وكيفية قيادته اذا اطلعنا على كل هذا نكون حصلنا على فكرة تامة تقريبا عن الجيش العثماني . ويمكن ان نحصل على هذه المعلومات من كتاب دوسون في الباب السابع الذي يصف فيه حالة

الجيوش العثمانية والباب الثامن الذى يصف فيه حالة الاسطول . يصف دوسون في الباب السابع وصفا دقيقا ومطولا الفرق التي يتالف منها الجيش العثماني منذ زمن انشائها حتى عصره فيبحث عن الجيوش المنظمة من الانكشاريه والجبه جية والطوبجية والطوبعربجية وفرقتي الفرسان السباه والسلحدار وعن الجيوش الغيرالمنظمة امثال عساكر الولايات والعساكر المتطوعة وتلك التي تعيش من الاقطاعات العسكرية " الزعامة والتيمار " . يتكلم دوسون عن تاريخ كل واحدة منها واسباب تكوينها وبعدد قوادها وضباطها وكيفية الانخراط فيها وعن انظمتها ، وقوانينها وادارتها المالية وطرق تموينها وعن البسة جنودها وقوادها واسلحتها وعن المكافآت التي تمنح للمبرزين والعقوبات التي تنزل بمن يخالف الاوامر ويهرب من الجندية الخ ..... ان دوسون يصف كل هذا بدقة متناهية ولعله افضل من قام بمثل هذه الابحاث عن قوى السلطنة العسكرية . واذا اردنا ان نعرف هذه القوى وترتيبها وكيفية توجيهها وتسييرها . اذا اردنا ان نحصل على صورة حية لتلك الاداة الحربية الجبارة التي قضت على امبراطورية من اكبر الامبراطوريات التي عرفها التاريخ والتي القت الرعب في قلوب اقوى دول اوروبا . تلك القوى الهائلة التي قوضت العروش ورمت الحصار مرتين على مدينة فينا العظيمة . اذا اردنا الاطلاع على اقسام وفروع الجيوش التي بسطت سلطة العثمانيين على القارات الثلاث ومعرفة حالة هذه الجيوش بعد عصر السلطان سليمان وبصورة خاصة في اواخر القرن الثامن عشر ليس لنا الا الرجوع الى كتاب دوسون حيث نجد فيه ما يشبع رغبتنا وينير عقلنا ويفهمنا حقيقة ناحية مهمة من تاريخ الامبراطورية العثمانية ظلت لدى اكثر الناس ناحية غامضة كانها اسطورة من اساطير الازمنة الغابرة .

الا ان هذا التقدير وهذا الاعجاب اللذين يتولدان في نفوسنا بادىء الامر نحو جيوش السلاطين العظام لايلبث ان يزول شيئا فشيئا ويحل محلهما شعور الخيبة والاسف عندما نطلع على الوهن الذى دب فيها والخلل الذى اصابها بعد عصر السلطان سليمان وفي زمن سلاطين ضعاف لاحول لهم ولا قوة ، فلم تعد الدولة تتقيد بالانظمة الصارمة المفروضة على من يريد الانضمام في الجيش . يقول دوسون "...... ان هذه الانظمة ظل يعمل بها مدة ثلاثة قرون تقريبا الا ان مناسبات خطيرة ادت الى مخالفتها في زمن مراد الثالث فان قلاقل في داخلية الدولة وفي خارجها وحروبا غير موفقة اجبرت الجنرال عثمان باشا

كما اجبرت من بعده الصدر الاعظم سنان باشا على قبول رجال ينتمون الى جميع طبقات الشعب ومن كل سكان الدولة على اختلاف جنسياتهم . وقد وصل الحال حتى الى تجنيد المتشردين والاشقياء . وفي وقتنا هذا لاتزال تقبل الدولة في الفرقة رجالا من جميع الاجناس والطبقات بالرغم من الممانعات الشديدة التي ابداها كثير من السلاطين . وخصوصا السلطان احمد الثالث عام ١٧٢٧ " ثم اخذ عدد الجند يقل ويكثر تبعا للظروف وتبعا للقلاقل التي يقوم بها من يسرح من الخدمة العسكرية بعد انتهاء الحرب . واخذ السلاطين شيئا فشيئا يستعيضون عن عساكر الانكشارية بجنود الولايات والجيوش الغيرالمنظمة التي لايتناول افرادها مرتبات الا وقت الحرب انما يقول دوسون بان هذه العملية التي كان يراد منها تهدئة الحالة الداخلية والتوفير على خزينة الدولة كانت نتيجتها سيئة على الدولة يشهد على ذلك حوادث الحربين الاخيرين ضد روسيا " .

ان الفوضى وسوء الادارة كانا يعمان الجيوش ولا يمكنا هنا تعداد كل العوامل التي ادت الى انهيار تلك المنظمة العسكرية انما نذكر اهمها . لم يكن السلطان مثلايعرف عدد جنوده وعلى الاخص الانكشاريه منهم ويمكن القول بان قائدهم نفسه كان يجهل عددهم ويرجع ذلك الى ان الضباط كانوا يقدمون اسماء مستعارة لجنود وهميين غير داخلين في الجنديةوذلك

...

كي يقبضوا مرتباتهم ويأخذوها لانفسهم • وكذلك كان يفعل كبار رجال الدولة المدنيين والعسكريين في الاقطاعات التي تمنحها الحكومة في الاصل للجنود ويكون واردها كمرتبات لهم • فان رجال الدولة كانوا يحتفظون بهذه الاقطاعات لانفسهم او يؤجرونها ؛ وقد تدهورت هذه المؤسسة العسكرية الى درجة جعلت السلطان مصطفى الثالث يعجب في ابتداء الحرب التي اعلنتها الدولة على روسيا سنة ١٧٦٨ من ان يجد في الجيش فقط عشرين الف فارس تقريبا • واراد السلطان عبدالحميد بعد صلح قينرجه ان يعيد الى هذا الجيش نظامه القديم واصدر من اجل ذلك سنة ١٧٧٦ مرسوما شديد اللهجة الا انه لم يؤثر شيئا لان الضجة التي قام بها كل الذين كانوا يتمتعون بتلك الاقطاعات اخافت الوزارة الى درجة جعلتها تطلب من السلطان ان يتخلى عن مشروعه •"

وكانت الدولة نفسها لاتقوم بواجبها نحو جيوشها في تقديمها يلزمها من الالبسة والعتاد • فانها لاتقدم الملابس (وتكون غير كافية ايضا) الا لاثني عشر الف انكشاري من المقيمين في الاستانة بينما كان يصل عددهم الى اضعاف ذلك • وكذلك من ناحية المرتبات فان المال المعطى للجنود لايكفي لاعاشتهم لهذا السبب كانوا يشتغلون باحدى المهن او يقومون باعمال السلب والنهب " انما الامر الذي يدهش اكثر من ذلك هو في انه يجب على الجندي نفسه تامين ما يلزمه من السلاح وتترك له الحرية في اختيار النوع الذي يريده •"

واذا اراد السلطان ان يقود جيوشه فان العلماء والمفتي والقاضيي عسكر يمنعونه من ذلك لانهم يضطرون حينئذ الى مرافقته وهذا ما لايريدونه • وقد اخذ الصدور العظام ينوبون عن السلاطين في قيادة الجيوش ولكنهم يذهبون في غالب الاحيان مكرهين وقد قال دوسون في ذلك : " وبما انه يترتب ايضا على وزراء الدولة مرافقة الصدر الاعظم الى الحرب فانهم يبدون نفس الممانعة نحو فكرة الحرب لانها تسبب لهم مصاريف زائدة وتمنعهم من التنعم بحياة ناعمة سعيدة • وليس عند الصدر الاعظم ايضا دوافع تجعله يطلب الحرب اذ هناك ما يجعله يخاف كثيرا من مكائد منافسيه مدة غيابه عن العاصمة وخصوصا من الذي ينوب عنه لان القائمقام هو عادة من اكبر اعدائه اذ يقدح فيه ويعمل في معارضته ليتمكن من اخذ مركزه وقد حصل في عهد عدة سلاطين ان قامت خصومات فاضحة بين الصدر الاعظم الذي يكون على رأس الجيوش وبين نائبه في العاصمة تسبب قلاقل في الدولة ولهذا فان الصدور العظام يبدون كل ما بوسعهم للرجوع الى العاصمة او لاقناع السلطان للمجيء واستلام قيادة الجيش ••• • واذا هاج الجند فان الصدر الاعظم يتخذ ذلك وسيلة للانسحاب من امام العدو او لوضع نهاية للحملة •"

كي يقبضوا مرتباتهم وياخذوها لانفسهم . وكذلك كان يفعل كبار رجال الدولة المدنيين والعسكريين في الاقطاعات التي تمنحها الحكومة في الاصل للجنود ويكون واردها كمرتبات لهم . فان رجال الدولة كانوا يحتفظون بهذه الاقطاعات لانفسهم او يوءجرونها ؛ وقد تدهورت هذه الموءسسة العسكرية الى درجة جعلت السلطان مصطفى الثالث يعجب في ابتداء الحرب التي اعلنتها الدولة على روسيا سنة ١٧٦٨ من ان يجد في الجيش فقط عشرين الف فارس تقريبا . واراد السلطان عبد الحميد بعد صلح قينرجه ان يعيد الى هذا الجيش نظامه القديم واصدر من اجل ذلك سنة ١٧٧٦ مرسوما شديد اللهجة الا انه لم يوءثر شيئا لان الضجة التي قام بها كل الذين كانوا يتمتعون بتلك الاقطاعات اخافت الوزارة الى درجة جعلتها تطلب من السلطان ان يتخلى عن مشروعه ."

وكانت الدولة نفسها لاتقوم بواجبها نحو جيوشها في تقديم ما يلزمها من الالبسة والعتاد . فانها لاتقدم الملابس (وتكون غير كافية ايضا) الا لاثني عشر الف انكشارى من المقيمين في الاستانة بينما كان يصل عددهم الى اضعاف ذلك . وكذلك من ناحية المرتبات فان المال المعطى للجنود لايكفي لاعاشتهم لهذا السبب كانوا يشتغلون باحدى المهن او يقومون باعمال السلب والنهب " انما الامر الذى يدهش اكثر من ذلك هو في انه يجب على الجندى نفسه تامين ما يلزمه من السلاح وتترك له الحرية في اختيار النوع الذى يريده ."

واذا اراد السلطان ان يقود جيوشه فان العلماء والمفتي والقاضيي عسكر يمنعونه من ذلك لانهم يضطرون حينئذ الى مرافقته وهذا ما لايريدونه . وقد اخذ الصدور العظام ينوبون عن السلاطين في قيادة الجيوش ولكنهم يذهبون في غالب الاحيان مكرهين وقد قال دوسون في ذلك : " وبما انه يترتب ايضا على وزراء الدولة مرافقة الصدر الاعظم الى الحرب فانهم يبدون نفس الممانعة نحو فكرة الحرب لانها تسبب لهم مصاريف زائدة وتمنعهم من التنعم بحياة ناعمة سعيدة . وليس عند الصدر الاعظم ايضا دوافع تجعله يطلب الحرب اذ هناك ما يجعله يخاف كثيرا من مكائد منافسيه مدة غيابه عن العاصمة وخصوصا من الذى ينوب عنه لان القائمقام هو عادة من اكبر اعدائه اذ يقدح فيه ويعمل في معارضته ليتمكن من اخذ مركزه وقد حصل في عهد عدة سلاطين ان قامت خصومات فاضحة بين الصدر الاعظم الذى يكون على راس الجيوش وبين نائبه في العاصمة تسبب قلاقل في الدولة ولهذا فان الصدور العظام يبدون كل ما بوسعهم للرجوع الى العاصمة او لاقناع السلطان للمجيء واستلام قيادة الجيش ... واذا هاج الجند فان الصدر الاعظم يتخذ ذلك وسيلة للانسحاب من امام العدو او لوضع نهاية للحملة ."

كي يقبضوا مرتباتهم ويأخذوها لانفسهم . وكذلك كان يفعل كبار رجال الدولة المدنيين والعسكريين في الاقطاعات التي تمنحها الحكومة في الاصل للجنود ويكون واردها كمرتبات لهم . فان رجال الدولة كانوا يحتفظون بهذه الاقطاعات لانفسهم او يوءجرونها ؛ وقد تدهورت هذه الموءسسة العسكرية الى درجة جعلت السلطان مصطفى الثالث يعجب في ابتداء الحرب التي اعلنتها الدولة على روسيا سنة ١٧٦٨ من ان يجد في الجيش فقط عشرين الف فارس تقريبا . واراد السلطان عبد الحميد بعد صلح قينرجه ان يعيد الى هذا الجيش نظامه القديم واصدر ٪ من اجل ذلك سنة ١٧٧٦ مرسوما شديد اللهجة الا انه لم يوءثر شيئا لان الضجة التي قام بها كل الذين كانوا يتمتعون بتلك الاقطاعات اخافت الوزارة الى درجة جعلتها تطلب من السلطان ان يتخلى عن مشروعه ."

وكانت الدولة نفسها لاتقوم بواجبها نحو جيوشها في تقديم ما يلزمها من الالبسة والعتاد . فانها لاتقدم الملابس (وتكون غير كافية ايضا) الا لاثني عشر الف انكشارى من المقيمين في الاستانة بينما كان يصل عددهم الى اضعاف ذلك . وكذلك من ناحية المرتبات فان المال المعطى للجنود لايكفي لاعاشتهم لهذا السبب كانوا يشتغلون باحدى المهن او يقومون باعمال السلب والنهب " انما الامر الذى يدهش اكثر من ذلك هو انه يجب على الجندى نفسه تامين ما يلزمه من السلاح وتترك له الحرية في اختيار النوع الذى يريده ."

واذا اراد السلطان ان يقود جيوشه فان العلماء والمفتي والقاضيي عسكر يمنعونه من ذلك لانهم يضطرون حينئذ الى مرافقته وهذا ما لايريدونه . وقد اخذ الصدور العظام ينوبون عن السلاطين في قيادة الجيوش ولكنهم يذهبون في غالب الاحيان مكرهين وقد قال دوسون في ذلك : " وبما انه يترتب ايضا على وزراء الدولة مرافقة الصدر الاعظم الى الحرب فانهم يبدون نفس الممانعة نحو فكرة الحرب لانها تسبب لهم مصاريف زائدة وتمنعهم من التنعم بحياة ناعمة سعيدة . وليس عند الصدر الاعظم ايضا دوافع تجعله يطلب الحرب اذ هناك ما يجعله يخاف كثيرا من مكائد منافسيه مدة غيابه عن العاصمة وخصوصا من الذى ينوب عنه لان القائمقام هو عادة من اكبر اعدائه اذ يقدح فيه ويعمل في معارضته ليتمكن من اخذ مركزه وقد حصل في عهد عدة سلاطين ان قامت خصومات فاضحة بين الصدر الاعظم الذى يكون على رأس الجيوش وبين نائبه في العاصمة تسبب قلاقل في الدولة ولهذا فان الصدور العظام يبدون كل ما بوسعهم للرجوع الى العاصمة او لاقناع السلطان للمجيء واستلام قيادة الجيش ... واذا هاج الجند فان الصدر الاعظم يتخذ ذلك وسيلة للانسحاب من امام العدو او لوضع نهاية للحملة ."

ولم تكن القوى البحرية بافضل من القوى البرية من حيث النظام والترتيب والقيادة فان الاسطول بعد عصر السلطان سليمان اخذ ينحط بسرعة كلية رد على ذلك بان العثمانيين من طبيعتهم غير متقدمين كثيرا في علم الملاحة " واذا وجد بين عساكرهم البحرية ضباط مهرة حصلوا على تقدمهم هذا بعد اختبار طويل فانه يوجد غيرهم يجهلون حتى المبادىء الاولى . ويعاد هنا نفس الخطأ الذى ارتكب نحو الجيوش البرية وهي في ان المحسوبية وحدها التي تقرر امر انتخاب امير البحر الذى يوءخذ عادة من بين موظفي البلاط ويكون لايفقه شيئا عن امور البحر . ولايحصل اهتمام ايضا عند تجنيد البحارة وذلك في ان تعمل الدولة على انتقائهم من بين الذين يحسنون الخدمة . اذ يجرى قبول كل من يتقدم "

هذا وصف مختصر عن الحالة الحربية بعد عهد السلطان سليمان بصورة عامة اما في اواخر القرن الثامن عشر فان حالة الجيش كانت اجمالا مماثلة لما كنا ذكرناه ان لم نقل بانها ازدادت ضعفا من حيث الجنود ومن حيث القيادة ومن حيث الفن الحربي . اذ بمقتضى النظام الجديد تتالف الجيوش من عساكر غير منظمة ومن جماعات كثيرة من المغامرين والاشقياء فيجتمع منهم ما بين الثلاث والاربع مئة الف رجل (كما جرى في حملة سنة ١٧٦٩) بدون ان توءمن لهم الدولة معيشتهم والاعتدة الحربية الكافية . ومما يزيد في الفوضى ايضا وجود طائفة من العمال المدنيين ورجال الدين والدراويش والبائعين والخدم وكمية هائلة من الامتعة والخيم الخ ... " اما من الناحية الفنية فانه لم يكن يوضع اى تصميم للحركات الحربية وكان الجيش لايدخل الحرب قبل الثالث والعشرين من نيسان ويلجأ الى معسكره الشتوى في السادس والعشرين من شهر تشرين اول ... ولا يكون في الغالب عند الرؤساء اى فكرة عن الفن الحربي وكانوا ينتخبون بدون تمييز من مختلف هيئات الدولة . واذا كان عندهم نبوغ في هذه الناحية فان الافكار الخرافية تعرقل حركتهم اذ لايقيمون باى مشروع مهم بدون ان يوافق عليه المنجمون . ويحدث ان تتناقض الادلة التي يشير عليها منجمو الجيش ومنجمو السراى الامر الذى يجعل القواد في حيرة غريبة . ويرجع القواد ايضا الى التقاويم لانتقاء الايام المناسبة للقيام باعمالهم الحربية ومن القواد من يكون قد احرز انتصارا في احد ايام الاسبوع فنراه يرفض ان يحارب في غير مثل ذلك اليوم . ولكل ايضا يومه المشوءم يمتنع فيه الشروع باى عمل وكثيرا ما يرجعون الى ايات القران اى انهم يفتحونه كيفما صدف ويمشون حسب معنى اول اية من الصفحة . ويحصل تغيير كثير في منصب قيادة الجيش

وذلك مسبب عن الدسائس والاهواء والمعتقدات الخرافية واسوأ من كل ذلك هو ان الجندي عندما لايتناول كل مرتبه يثور ويبيح لنفسه القيام بكل انواع التعديات ."

حالة ادارة الدولة الداخلية

هذه هي حالة الجيش الذي كان فخر السلطنة العثمانية ولكن انقلبت الاية وآل امره الى الدمار بسبب الفوضى وعدم النظام وجهل القواد . ولكن رب قائل يقول بان الدولة اصبحت بعد عهد السلطان سليمان واسعة الارجاء تمتد اراضيها من المجر حتى خليج العجم ومن باب المندب حتى بلاد مصر مع كل شمال افريقيا تقريبا وانها بحكم ذلك ليست بحاجة الى فتوحات جديدة ولهذا فقد لايضيمها عدم وجود جيوش قوية جرارة اذ يكفيها ان تحفظ الامن في البلاد التي تحتلها وذلك بايجاد جيش صغير قوي منظم وان تحسن من الناحية الادارية حكمها وادارة اعمالها الداخلية وذلك بانتقاء عمال وموظفين من ذوي المقدرة . انما لسوء الحظ لم يكن لديها ذلك الجيش الصغير القوي المنظم ليحفظ الامن داخل البلاد كما لم يكن عمالها وموظفوها من اصحاب المقدرة .

كانت الدولة تتالف من ايالات يحكم كلا منها وال يعينه السلطان ويكون مستقلا في ادارة شؤون وظيفته وهو بمثابة ملك صغير مستقل يقوم كل سنة بارسال خراج ولايته الى السلطان ويمكن القول بان هذه التقسيمات الادارية كانت تجعل الامبراطورية العثمانية مفككة الاجزاء ضعيفة الارتباط مع بعضها بعضا ومع العاصمة فكانت تتجه الدولة بمقتضى ذلك نحو اللامركزية وفي ذلك ما فيه من الخطر على كيان السلطنة بكاملها . وتذكرنا حالة الدولة اذ ذاك بحالة الخلافة العباسية في اواخر ايامها عندما اخذت اللامركزية تعمل عملها في تعجيل انهيارها فاخذت الولايات تبتعد شيئا فشيئا عن الخلافة وتؤلف دولا مستقلة تناوئ وتهدد العباسيين انفسهم . وهذا تقريبا ما حصل للدولة العلية عندما اخذت ولايات شمال افريقيا وبلاد مصر وولايات الروم ايللي تستقل الواحدة بعد الاخرى . ومما كان يزيد في عاقبة تلك الحالة ان الدولة كانت لاتحسن انتقاء واختيار عمالها وموظفيها ليس فقط في الولايات بل في العاصمة ذاتها . فاذ اعرفنا كيفية تعيينهم وكيف يقومون بشؤون اعمالهم وماهم عليه من قلة الاختبار والدراية والثقافة يمكننا عندها ان نتصور الحالة المريعة التي كانت فيها ادارة الدولة الداخلية .

عندما افل نجم الدو لة العثمانية بعد عصر السلطان سليمان ودخلت في دور الانحطاط او بالاصح دور النزاع الذى دام عدة قرون وهو طويل ورقم قياسي في حياة الدول لم يكن السلاطين يبدون الاعتناء الكافي في تعيين حكام الولايات وانتقاء اشخاص اشتهروا باخلاصهم وحزمهم ومقدرتهم انما كانوا يعينون من يدفع مالا اكثر من غيره ولم يكن للاستحقاق الشخصي اى اعتبار عندهم .

عندما ارادت الدولة عام ١٥٩٢ عزل حاكم طرابلس الشام بسبب اختلاساته اخذت جموع المتقدمين لهذا المركز تسعى للحصول عليه وتدفع من اجله اموالا طائلة ولقد عرف واحد منهم ويدعى حسن باشا كيف يزلل العقبات امامه ويحصل على حكم الولاية وذلك انه وضع في قلعة الديوان عشرة الاف فندقلي (سيكان) كدفعة اولى للدولة فامر مراد الثالث بدون تردد لعطاء هذا المبلغ لموظفي مائدته من اصل المبلغ الذى لهم عنده وان يذهب حسن باشا لاستلام مهام منصبه في طرابلس .

وبما ان الحاكم يكون قد دفع ثمن منصبه غاليا فانه يستعمل السرعة والجرأة في ارهاق السكان بالضرائب لانه غير متاكد من دوامه في منصبه ولكنه مطمئن تقريبا مع انه لايقاصص على اعماله هذه . ولا تصل شكايات المظلومين الى الدولة الا بصعوبة واذا صدف ووصلت فان اعوان الحاكم وحماته يخففون من قوة تاثيرها . وان اكثر الوسائل التي يستعملها حاكم طماع للاستيلاء على ثروة شخص غني تكون في الكناية اتهامه بارتكاب خيانة ما ثم اجباره على دفع قسم من ثروته يفتدى بها حياته . "

" وهم يفعلون ذلك لان نفقاتهم كثيرة وحاشيتهم كبيرة . ويجب عليهم عدا ذلك ان يدفعوا ثمن مناصبهم وثمن بقائهم فيها وثمن ابعاد التشكيات المسببة عن جورهم . واذا سخطت الدولة على احد الحكام واستصفت امواله فان الايالة التي كان يحكمها لاتستفيد شيئا وتبقى على ماهي عليها اذ ان الدولة لاتعوض شيئا على اولئك الذين اختلس الحاكم اموالهم ويسير عادة الحاكم الجديد على منوال سلفه . واذ زادت هذه المظالم الى درجة انها سببت قلاقل في البلاد فان الدولة ترسل حينئذ موظفا كبيرا يحمل لقب مفتش وتمنحه صلاحيات واسعة الا انه في معظم الاحيان عوضا من ان يهدىء الحالة يزيد في خراب الناس بما ياتيه من اعمال الرشوة والظلم . "

انه يمكن القول بصورة عامة ان كل مناصب الدولة من اعلاها حتى ادناها تباع وتشرى . فالجندى البسيط يدفع ضريبة من راتبه لضباطه ولقائد فرقته . والضباط يدفعون للقائد والقائد يدفع للسلطان وللصدر الاعظم . قل الامر نفسه عن بقية الموظفين في كل مكتب وفي كل دائرة ان هذه الطريقة في بيع المناصب ادخلها على الدولة الصدر الاعظم الجندى زاده علي باشا

زمن حكم السلطان بايزيد الاول (١٣٨٩ —١٤٠٣) واثبتها رسميا رستم باشا وزير السلطان سليمان (١٥٢٠ —١٥٦٦) . وبالمقابل فان همّ الموظفين الرئيسي يكون في الاستفادة مدة توليهم وجمع المال بسرعة مغتنمين كل الفرص والمناسبات التي تهيوءها لهم الفوضى الادارية.

ولايقوم عمال الدولة وموظفوها بقضاء الاعمال بسرعة اذ كل شيء يترتب حسب مشيئتهم وذوقهم . وقد ذكر دوسون شيئا عن ذلك عندما تكلم عن السفارات والسفراء واعمال الدولة السياسية بانه : " من شعار اعضاء الحكومة ان يتمهلوا في قضاء الاعمال التي على شيء من الاهمية والتي تخرج عن دائرة الشوءون العادية فيوءجلون النظر فيها من وقت الى اخر ويوءخرونها سنين عديدة بدون ان يبتوا فيها . واذا سوءلوا عندما يرددون القول وبمنتهى البرودة: سننظر فيها انشاء الله . وهذا التردد ناشيء عن جهلهم وخوفا من تحمل المسوءولية . اذ بما ان الوزير يكون غير متاكد ابدا من ان يظل في منصبه حتى الغد فانه يترك للذى سيخلفه مايمكن ان يعرضه للمكاره . وان الاعمال العادية لنفس هذا السبب ايضا تقضى بسرعة مدهشة " فيهتم كل موظف ان يقضيها حالا لكيما يقبض المال الراجع له منها .

لقد تكلمنا عرضا عن الجهل المتفشي بين كبار موظفي وعمال الدولة واظهر مثال على ذلك ما كتبه دوسون نقلا عن الموءرخ التركي نعيمة . قال : " عندما رجع حسين بك مندوب السلطان محمد الرابع في احدى الماموريات في بلاط دهلي سنة ١٦٥٣ ساله هذا بفضول عن اغرب شيء استرعى انتباهه وهو في الهند . فاجابه حسين بك بمنتهى السكون بانه لم يلاحظ شيئا وانه كان ملتفتا فقط الى مهمته وانه كان عديم الصبر لترك البلاد التي لا يمكن في اية حال مقارنتها بجمال البلاد التي لها الحظ بان تكون خاضعة لجلالته . " نذكر هذا المثال لانه كان يترتب على كل سفير ان يقدم تقريرا عن رحلته حين رجوعه الى العاصمة . ويمكننا الحكم على قيمة هذه الملاحظات التي يبديها اشخاص لايعرفون اى لغة اجنبية وهم غير مثقفين ويكونون قد مكثوا مدة ضئيلة فقط في مقر عملهم . هذه هي حال كبار رجال الدولة فما تكون اذا حال بقية الموظفين ياترى ؟

ومما يدعو الى الغرابة نظرة الناس والدولة الى هوءلاء الموظفين وكيف يجب ان يكونوا اذ انه يتطلب من موظف الدولة ان يكون متقدما في السن وذا لحية بيضاء . وكان من العار عند الناس ان يكون في احد المناصب العالية موظف يتراوح سنه بين الاربعين والخامسة والاربعين اذ يعتبر كصبي بعد . ومن الاقوال الدارجة عندهم ان سنا كبيرا واختبارا طويلا في الاعمال هما افضل من

من علم افلاطون وارسطو . "

حالة الشعب وسكان الدولة العثمانية

ان الناس على دين ملوكهم . فاذا كانت شخصية السلاطين ضعيفة وغير اهل لحكم سلطنة واسعة . واذا كان الجيش قليل التنظيم والطاعة وضعيف القيادة . واذا كانت الفوضى تعم ادارة الدولة والحكومة والجهل مخيم على الموظفين فان الشعب لابد من ان يكون في حالة سيئة جدا . وفعلا فقد كان من النواحي المعنوية والثقافية والنفسية والمادية في تأخر مريع . فالضرائب كانت باهظة وتجبى منه بقسوة وظلم وكان معرضاً دوما لطمع الحكام والموظفين ويتكلف زيادة على ذلك من جراء تنقلات الحكام ومندوبي ورسل الدولة اموالا كثيرة اذ يترتب عليه ان يقدم لهم كل ما يحتاجون اليه وكل ما يلزمهم في سفرهم وتنقلاتهم مع تقديم الهدايا لهم ولحاشيتهم . وكان السكان غير امنيين على اموالهم وارزاقهم ولا يجرأون على تشغيل اموالهم في الزراعة والتجارة والصناعة خوفا من تعديات الاشقياء والحكام وخوفا من العساكر التي لاتحترم ارزاق الناس عند اجتيازها اراضي الدولة كل هذا مما يمنع ازدهار البلاد التجاري والصناعي ويدفعها الى حالة اقتصادية سيئة .

هذا من الناحية المادية اما من الناحية المعنوية فان الجهل كان يخيم على معظم سكان الدولة وقليلون هم الذين كانوا يجيدون القراءة والكتابة . فالثقافة كانت وظلت ثقافة دينية تنحصر في معظم الاحيان في قراءة القران والحديث وتعاليم الائمة وكبار رجال الدين . اما العلوم والفنون والمعارف فانها كانت شبه معدومة عند العثمانيين . ولاتقع مسؤولية ذلك على الدولة وحسب بل على الشعب ايضا . فلقد ظهر بين السلاطين والصدور العظام اشخاص احبوا العلوم والفنون وحبذوا انتشارها في البلاد مع تقدير المدنية الاوروبية حق تقدير ولكن كانت تنقصهم العزيمة الصادقة والصرامة في ادخال المعارف الاوروبية الى الدولة هذا من جهة ومن جهة ثانية فانه لم يكن هناك استعداد وتحمس عند الشعب لتقبلها اذ كان ينظر اليها كانها بدعة من البدع وانها تنافي الدين والتعاليم الالهية . لقد كان تعصبهم الديني قويا لدرجة منعهم من التطلع الى افق جديد وحصرهم في نطاق ضيق مما جعل امر تحرر افكارهم ونفوسهم صعباً جدا . وغير قادرين على ان ينهلوا من منابع علوم اوروبا التي اخذت تسير شوطا بعيدا في عالم التقدم والرقي

حاملة مشعل المدنية في العلوم والفنون . وسط يريد الامر سوءا ان الشعب كان يحمل مع العصبية الدينية عصبية قوية لعاداته القومية القديمة لايتحول عنها على كر الايام ومر السنين . وكم كان حقد العثمانيين عظيما نحو كل من هو اجنبي ان في الدين او الجنس او الثقافات والعلوم .
ولا نرى بدا من الاشارة الى الصعوبة التي جابهتها الدولة العلية عندما ارادت في اواخر القرن الثامن عشر ان تعين سفراء لها في بلاطات باريس وفينا ولوندره وبرلين . قال دوسون :
" ويترتب حسب هذه الخطة ان يلتحق ثمانية او عشرة شبان عثمانيين بكل سفارة من هذه السفارات وان تؤمن لهم الوسائل اللازمة لتعلم اللغات والعلوم والفنون الاوروبية ولكن هذا العمل لم يكن من الممكن اجراؤه الا بعد مدة طويلة وذلك لانه كان يتعارض كثيرا والعصبية الوطنية ولقد جابه الباب العالي في بادىء الامر صعوبة ايجاد اشخاص من ذوي المكانة يمكن تذليل كراهيتهم للذهاب الى بلاد مسيحية ولقد اضطر في اخر الامر ان يعدهم بان مهمتهم لن تدوم اكثر من ثلاث سنين ... ولكن بعد بضعة اعوام اخذ الباب العالي يلغي هذه السفارات وعين بدلا من السفراء في هذه البلاطات مندوبين يونانيين ".

لقد كان العثمانيون الورثة لاكبر امبراطوريتين من الامبراطوريات التي عرفها التاريخ وهما الامبراطورية البزنطية والامبراطورية العربية . ولقد وصلت كل منهما الى درجة عالية في عالم الفكر والثقافة والتمدن والرقي وكانت الاسباب مهيئة والطريق سهل للعثمانيين لاقتفاء اثرهما واخذ العلوم عنهما ومتابعة ثقافتهما ولكنهم لم يفعلوا ولعل السبب يرجع الى طبيعتهم التترية المنغولية اذ يقول Lybyer كما ذكرنا ذلك قبلا " ... ومن هذه العادات العثمانية الراجعة الى اصل تتري هي محبتهم للضيف والحرب والغزو مع آراء صائبة في الطرق والوسائل التي تمكنهم من الوصول الى هدفهم هذا مع ميل فطري للحكم والسيطرة اضف الى ذلك حبهم للقديم وللحياة الحرة . كما ان عندهم كالتتر نوعاً من بلادة الذهن وعدم الابتكار والصبر على المكاره ".

لقد خرجوا من اواسط اسيا وهم على حال البداوة واستقروا في اسيا الصغرى وتوسعوا في اوروبا واسيا الغربية وشمال افريقيا . كما خرج قبلهم العرب من الجزيرة وهم على حال البداوة وانتشروا في بلاد الشام والعراق وفارس ومصر وشمال افريقيا والاندلس . ان وجه الشبه بهذا الخصوص قريب بين العرب والعثمانيين . قام العرب على انقاض الامبراطورية البزنطية في الشام ومصر

والامبراطورية الفارسية في العراق والعجم. كما قام العثمانيون بعد ذلك على انقاض الامبراطوريتين البيزنطية والعربية ولكن عدا هذا الشبه فان الفرق كبير بين الامتين. فلقد كان العرب على الفطرة البدوية ولكن سرعان ما اقتبسوا المعارف ونهلوا من منبع المدينتين البزنطية والفارسية وادخلوا فيهما اشياء من عندهم وكيفوها لتوافقا روحهم فكان لهم ما ارادوا. اما العثمانيون فانهم وان اقتبسوا بعض علوم ونظم البيزنطيين والعرب والفرس الا انهم كانوا مقصرين في هذا الباب ولم ينهضوا بالتراث المتروك لهم كما يجب ان يفعلوا وكانت النتيجة هي موت الثقافة والتقدم البزنطي والعربي على ايديهم. ولم تطلعنا التواريخ على وجود فنون اومدنية اوثقافة اومعارف عثمانية وهذا مما يوءسف له حقا. كان اقل ما يجب ان يفعلوه هو حفظ تراث الامم التي خلفوها اذا لم يكن بوسعهم ان يزيدوا عليها. ولكنهم لم يفعلوا ذلك بل بالعكس قضوا على معالم تلك الامم كما سنذكر بعد قليل. ولقد تدهوروا في انحطاط معيب وجروا معهم في تقهقرهم البلاد التي استعبدوها مثل الشام والعراق مثلا. وكان من حسن حظ مصر وبلاد اوروبا المحتلة ان استقلت شيئا فشيئا عن السلطنة وتقدمت في معالم الرقي والتمدن فسبقت بكثير الدولة العثمانية نفسها كما يشهد التاريخ على ذلك وكان من سوء حظ هذه البلاد ان ظلت تحت حكمهم حتى اواخر الحرب العامة. وكما انه من سوء حظ الاتراك انفسهم ان ظل العثمانيون سلاطين عليهم.

لقد قلنا بانه كان يجب على العثمانيين على الاقل ان يحفظوا مدنيات الغير وكيف انهم لم يفعلوا ذلك بل بالعكس قضوا عليها. وعلى سبيل المثال نذكر حكم احد الموءرخين العثمانيين وهو علي محمد افندى على اعمال العثمانيين بهذا الخصوص في حادث نهب مدينة تبريز العجمية لقد اتخذ الصدر الاعظم ازدمير اوغلو باشا بعد ان استسلمت هذه المدينة عام ١٥٨٥ كل التدابير للمحافظة عليها وعلى ارواح سكانها ولكن بدون فائدة اذ اشتبك الجنود والاهالي في مذبحة قتل فيها عشرة الاف شخص اما تبريز وهي من اكثر المدن العجمية ازدهارا فقد اصبحت خرابا. وبعد ان يصف الموءرخ افخم وصف قصورها وجوامعها وحماماتها وفنادقها وحدائقها وجميع انواع ابنيتها يقول: "يجب ان نقدر ذوق العجم نحو الفنون وما يبذلونه من عناية في تحسينها كما يفعل الاوربيون. ولا يسعنا ان نقول الشيء نفسه نحو امتنا العثمانية التي عوضا من ان

تقتبس مثل هذه الثمرات من المدنية فانها تحتقر حتى المحافظة على المنشآت التي تكتسبها بحروبها وابعد من ذلك فان عندهم جنون دافع يدفعهم الى تدمير كل شيء ."
وهكذا فقد شهد شاهد من اهلهم .

ولكن رب قائل يقول اذا كانت هذه هي حالة السلاطين والجيش والادارة والشعب فما السبب في ان السلطنة العثمانية عاشت طويلا حتى الحرب العامة الماضية بينما اقل خلل او فوضى بين الحكام وفي الجيش والادارة والشعب تكفي في غالب الاحيان للقضاء على اية دولة كانت . يقول ليبير بان النظام الاداري في القرن السادس عشر كان قويا لدرجة انه تمكن من ان يعيش ويدوم حتى مطلع القرن العشرين . ولكن الاحداث التاريخية تدل عن ان السلطنة العثمانية مدينة بطول بقائها وحفظ كيانها لا لقوة نظامها الاداري الذي انحط كثيرا في القرنين الاخيرين بل لعدم وجود خصم قوي يقضي عليها وللنزاع الشديد الذي كان قائما بين الدول الاوروبية . فلم يكن هناك في بادئ الامر اي بين القرن الرابع عشر والثامن عشر دولة اوروبية قوية يمكنها وحدها القضاء على العثمانيين . ثم بعد ذلك اي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كان الحسد والبغض متحكمين بين الدول الاوروبية الى حد انه كان من الصعب ان لم نقل من المستحيل ان تتحد مع بعضها للقضاء على العدو المشترك لان كل واحدة منها كما يقول جارمن ، كانت تخاف ان تحتل الاخرى دونها اراضي الدولة العثمانية وتستاثر بها وتستولي على المضايق . وهكذا فان الدول الاوروبية بحكم موقفها العدائي بعضها ضد البعض اجبرت سلاطين آل عثمان ان يعيشوا اكثر من اللازم واكثر مما يجب واكثر مما كان يمكنهم ان يعيشوا .

الادارة في الدولة العثمانية في عهد مرادجه دوسون

يتالف هذا الموضوع من سبعة ابواب تبحث في : (١)

١ ـ البلاط

٢ ـ الباب العالي ـ الوظائف السنوية ـ الديوان .

٣ ـ دائرة المالية

٤ ـ الولايات

٥ ـ الحالة العسكرية .

٦ ـ البحرية

٧ ـ علاقات البلاط العثماني مع الدول الاجنبية

الباب الاول

البلاط

كان محمد الثاني اول سلطان عثماني قام بترتيب بلاطه . الا ان بعض الذين خلفوه اجروا بعض التغييرات غير اننا لانرى فائدة في بحث التفاصيل ونكتفي في اعطاء صورة للبلاط العثماني في حالته الحاضرة وسنتكلم عن :

١ ـ السراي

٢ ـ موظفي السراي

٣ ـ موظفي داخل البلاط والغلمان من الخدم

٤ ـ حرم السلطان اى نسائه

٥ ـ السلطانة الوالدة

(١) يذكر دوسون هنا ان كتابه يتألف من سبعة ابواب ولكننا سوف نرى بأنه يقسم بحثه الى تسعة ابواب .

٦ ـ السلطانات الاميرات

٧ ـ السلطانات الاميرات

٨ ـ ابناء السلطان الحاكم

٩ ـ الامراء من العائلة المالكة

١٠ـ السلطان نفسه

الفصل الاول

السراى

لما كانت الافكار الخرافية لاتسمح لفاتح القسطنطينية بسكنى قصر القياصرة القديم الواقع قرب باب ادرنه خان محمد الثاني شيد بناء واسعا في وسط المدينة على انقاض احد الاديرة . الا انه بعد بضعة اعوام امر بانشاء قصر جديد في منتهى القسم الشرقي من المدينة على راس تحيط به مياه البوسفور من ناحية ومياه بحر مرمره من الناحية الثانية وهو يقع مقابل مدينة اسكدار على الشاطيء الاسيوى وكانت الاشجار وبصورة خاصة اشجار الزيتون تظلل ذلك المكان .

سكن السلطان محمد مع بعض موظفيه القصر الجديد تاركا بقية حاشيته وحرمه في القصر الاول الذى سمي منذ ذاك السراى القديمة . وتبعه في ذلك السلطان بايزيد الثاني والسلطان سليم الاول . الا ان السلطان سليمان الكبير نقل حاشيته وحرمه الى السراى الجديدة . ومن ذلك العهد لم يعد يسكن السراى القديمة سوى النساء والجوارى اللائي عشن مع السلاطين اسلاف السلطان الحاكم .

فاصبح القصر الجديد بعد ان وسعه وجمله السلطان سليمان الاول يحتل ارضا واسعة محاطة بسور تقوم عليه الابراج . ومدخل هذا السور المسمى بالباب الهميوني يشرف على مكان يحده من احدى الجهات جامع اياصوفيا حيث يقوم في وسطه بناء ماء سبيل محلى بنقوش ذهبية . واذا ما دخلنا الى باحة القصر الاولى وجدنا الى اليمين بيت المال وبستان اشجار البرتقال والمستشفى والفرن والى الشمال مسكن الجابي محصل الضرائب المتاخرة وورشة الاعمال ومستودع الاسلحة ومكان

ضرب النقود وجناح الوكيل العام للابنية وجناح نائب رئيس الخصيان السود وقاعة الديوان القديمة والاسطبلات الكبيرة ومسكن رئيس رجال الحرس .

وعلى الداخل الى الباحة الثانية ان يجتاز رواقا بطول خمسة عشر قدما تقريبا مغلق من جهتيه ببابين يسمى الخارجي منهما بالباب المتوسط . ويعرف هذا الرواق باسم : (ايكي قبواره سي) اى المسافة بين البابين . وعلى الحيطان اسلحة وملابس حربية قديمة مما غنمه السلاطين العثمانيون . وهذا الرواق هو شر مكان على الامراء المغضوب عليهم اذ يدعون بواسطة ما الى السراى فيقبض عليهم في هذا الرواق حيث يسلمون صورة الحكم الصادر بحقهم . فاذا كان هذا الحكم قاضيا بالموت اعدموا بالموضع نفسه . ويقوم فوق الرواق بناء يسكنه حجاب القصر .

وتحتل في الباحة الثانية المكاتب والمطابخ الجناح الايمن كله . واهم الابنية القائمة في الجهة الشمالية هي : مستودع الدفترخانة اى السجلات القديمة وقاعة الديوان الجديدة ومسكن رئيس الخصيان السود . ومستودع الخيم والسرادقات ومخزن الخلع السنية .

وهناك باب ثالث يعرف بباب السعادة يقع مقابل البابين السابقين وهو يوءدى الى القسم الداخلي للقصر الذى يسكنه السلطان وافراد عائلته وحرمه وموظفو قصره وخدمه وفرقتا الخصيان السود والبيض .

وهناك طائفة من المنازل (الاكشاك) والابنية متفرقة داخل هذا السور الواسع اما في وسط الجنائن او على شاطيء البحر وهي متنزهات السلطان يرتادها غالبا ليمضي فيها بعض يومه . وهذه الابنية مغطاة بالرصاص وقائمة على شكل مدرج بين اشجار السرو والصنوبر والدلب وهي تشرف على مكان بديع يطل على منظر خلاب يبهج النظر . الا وهو مدخل البوسفور .

ويفصل باب السعادة بين مركز موظفي داخل القصر المخصصين لخدمة السلطان ومركز موظفي خارج القصر الذين يوءلفون حاشيته .

الفصل الثاني

موظفو القصر

ان هوءلاء الموظفين الملقبين باغاوات القصر الخارجي يوءلفون طبقة منفصلة تمام الانفصال عن اغاوات القصر الداخلي وتلقى على عواتقهم اعمال الدولة واعمال القصر . وبما انهم يسكنون ابنية

توسط باحتي القصر فانه يسمح لهم بان يتركوا القصر ويمضوا الليل في بيوتهم بينما ان خدم السلطان الخصوصيين لا يتمكنون من ذلك .

وبحق للاولين ارخاء لحاهم اما افراد الفريق الثاني الذين يعتبرون بمثابة خدم فانه يترتب عليهم حلقها .

ويقسم موظفو القصر الخارجي الى ثمان طبقات .

الطبقة الاولى

الموظفون المنتمون الى هيئة العلماء

١ - خواجة السلطان اى معلمه ، وكانت تعطى هذه الوظيفة فيما مضى الى العلماء الذين يتوصلون فيما بعد الى المراكز الاولى في الحكم . وفي ايام البوءس التي جاءت بعد انهزام بايزيد الاول امام تمرلنك كوفيء معلم ابنه محمد الاول الذى لقب بيايزيد صوفي على خدماته بان عين قاضي عسكر لانه اشترك بصورة فعالة في اعادة السلطنة (بما ابداه من نصائح حكيمة) الى السلطان . وكثيرون من السلاطين الذين خلفوا السلطان محمد الاول قدرقوا معلميهم الى المراكز الاولى في القضاء . فان عثمان الثاني عين معلمه رئيسا لهيئة العلماء ثم تزوج ابنته . وقد توصل في زمن محمد الثاني الخوجه سعدالدين الشهير وهو اول من كتب تاريخ الدولة العثمانية الى منصب الافتاء محتفظا في الوقت نفسه بلقب خوجة . وحصل الشيء نفسه لسعيد فيض الله زمن حكم مصطفى الثاني ، الا ان ترقيه السريع الذى ينافي قوانين هيئة العلماء ، وسلوكه الغامض وسوء استعمال ثقة السلطان به ادت كلها عام ١٧٠٣ - الى سقوطهما هو والسلطان معا . ومنذ ذلك الوقت لم يتوصل هولاء العلماء قط الى المناصب العالية وزال ما كان لرتبتهم من بهاء . وقد عين في الزمن الاخير لتعليم السلطان موظفون مدنيون ، وكانوا غالبا من الخصيان الذين اشتهروا بمعارفهم واخلاقهم ، الا ان دروس هولاء المعلمين كانت لاتتعدى المسائل الدينية قط .

٢ - الامام الاول ويدعى ايضا امام السلطان . يقوم بالاعمال الدينية في السراى . ويمنح يوم تعيينه رتبة مدرس . وله الحق وحده بالنيابة عن السلطان في العيدين . اذ انه يجب على السلطان ان يترأس تمثلا بالنبي جماعات الموءمنين ويصلي بهم .

ويساعده في اعماله امام ثان فيتقاضى الوظيفة اما في جامع القصر او في الجامع الذى يؤدى فيه السلطان صلاة الجمعة .

٣ — الامام الثاني الذى يخلف الامام الاول ويمنح ايضا يوم تعيينه رتبة مدرس .

وعلى من يريد التوصل الى هذين المركزين ان يكون حسن الصوت . وفي مسجد السراى (٢٢) موءذنا يتبعون السلطان الى الجامع في الاعياد الكبيرة ليرتلوا مع الامام .

٤ — رئيس الاطباء (او حكيم باشي) ويمنح كسابقيه يوم تعيينه رتبة مدرس . فاطباء القصر وجراحوه واطباء العيون والصيادلة كلهم تابعون له ويخضع لرقابته كل من يمتهن مثل هذه الاعمال في سائر انحاء الدولة . وكانت هذه الرقابة سابقا اسمية فقط ، اذ كان كل انسان حرا في مزاولة مهنة الطب او في بيع العقاقير . الا انه بعد وفاة رئيس خصيان السلطان مصطفى الثالث فجاة سنة ١٧٦٨ وذلك على اثر تناوله دواء قدمه له احد المشعوذين صدر امر يقضي بان يمتحن رئيس الاطباء كل من يريد مزاولة مهنة الطب .

ووظيفة رئيس الاطباء كثيرة الربح . فهو يكافأ بسخاء على خدماته في جميع المناسبات ، واذا اراد السلطان منح عطفه على مريض من كبار رجال الدولة فانه يرسل له طبيبه . وتعود عليه هذه الزيارة بهدايا ثمينة . وقد اعتاد الناس ايضا ارسال اطبائهم الى المرضى من اصحابهم لاهتمامهم بهم . فيكون ذلك في الغالب وبالا على صحة هولاء وعلى جيوبهم . لأنه عليهم مراعاة لخاطر اصدقائهم ان ياخذوا كل ما يقدمه لهم الطبيب من دواء . ويسحب ايضا رئيس الاطباء مرابح عظيمة في تحضيره المعاجين القوية المؤلفة من روح الافيون وعود الند والعنبر ومن بقية الطيوب التي يقدمها للسلطان في الاواني الصينية قبل عيد النيروز بخمسة عشر يوما وهي تقدمة اسمها النيروزية ويقدم مثل ذلك ايضا للامراء والاميرات من الاسرة المالكة ولنساء القصر وكبار الدولة فيعطونه الهدايا الثمينة . وهناك ايضا عادة في ان يقدم اطباء المدينة في ذلك الوقت مثل هذه المعاجين للاشخاص الذين يداوونهم .

وعندما يصاب السلطان او احد افراد عائلته بمرض شديد يعتمد حينذاك على مقدرة اشهر الاطباء الاوروبيين الموجودين في بيرا . فيدعون الى السراى للتشاور مع رئيس الاطباء الذى يقوم بتقديمهم وتكون ارشاداتهم خاضعة لموافقته .

ان اطباء القصر وعددهم تقريبا ثمانية عشر ينتمون ايضا الى صف العلماء ويكون دائما في

الخدمة اثنان منهم لمدة اربع وعشرين ساعة . فيقيمان مع طبيبين جراحين في حجرة مجاورة لغرفة رئيس الخصيان السود . يوجد في السراى ثمانية اوعشرة من الجراحين .

٥ ـ رئيس الفلكيين والمنجمين (منجم باشي) . ان المسلمين لايميزون بين علم الفلك والتنجيم وهم يطلقون الاسم نفسه على كليهما . ومع ان الدين يمنع كل ما يتعلق بالعرافة فان العثمانيين على جميع طبقاتهم يعتقدون بالتنجيم . حتى انه من تقاليد الباب العالي ان لايقوم باى عمل قبل استشارة اولئك الذين يمتهنون حرفة التنبوء بتاثير الكواكب على حوادث هذا العالم. وانهم يعرفون كيف يبينون السبب اذا ما جاءت النتيجة على عكس ما تنبأوا فتراهم يرمون من يقوم على ادارة الاعمال غالبا بعدم المقدرة او بسوء الطالع .

وقد حصل غير مرة انه اذا ما دعي وزير جديد الى السراى ليتقلد منصبه يتضرع الى السلطان ان يرجيء الانعام عليه بالخاتم بضع دقائق او بضع ساعات كيما يقترن وقت الانعام بطالعه ويكون السلطان حينئذ حاملا الساعة بيده يرقب الوقت . ويمكننا الاتيان بمثال حديث العهد عن هذا التطير وهو ان راتب افندى الذى ارسل كسفير الى بلاط فينا عام ١٧٩١ بعد صلح سيستوفا كان قد استلم ليلا قبل بضعة اشهر رسالة من السلطان سليم الثالث يخبره فيها رغبته بتعيينه في اليوم التالي " رئيس افندى " اى وزيرا للشوءون الخارجية وبما انه كان لراتب افندى سابق معرفة خاصة بالسلطان لكونه قد اعطاه فيما مضى دروسا في الكتابة تجرأ وتضرع اليه ان يوءخر منح نعمته عليه هذه الى ما بعد الغد والى ساعة معينة معتقدا ان ذلك احسن فالا له . غير ان نجمه قد خدعه هذه المرة وذلك ان غيره توصل في تلك المدة بفضل بعض الدسائس الى احتلال المنصب الذى كان معينا له .

ان عمل المنجم باشى من الناحية الفلكية يقتصر على اعداد تقويم سنوى كان يدل ايضا على ايام السعد والنحس ويشير بصورة خاصة الى الايام التي كانت تلائم بعض الاعمال كالابتداء بمهمة او شراء عبيد اوعقد زواج او لبس ثوب جديد او التماس شيء او القيام بسفر الخ .. وهم يعينون ايضا الايام التي على الدولة ان تختارها وتفضلها على غيرها لاجراء مختلف الاعمال .

٦ ـ رئيس الجراحين اوجراح باشي . هو الذى يختن امراء الاسرة المالكة ويفحص الخصيان قبل قبولهم في خدمة القصر .

٧ ـ رئيس اطباء العيون او " كحال باشي " يحضر الكحل الذى تستعمله نساء القصر .والدافع الى استعماله هو دافع ديني اكثر منه صحي ، لأن النبي محمدا استعمله في بلاد يعتقد فيها ان الكحل يقوى النظر وقد احتفظ الرجال حتى الان كما احتفظت النساء بعادة استعماله .

ويلبس كل من موظفي البلاط هولاء لباس العلماء)

الطبقة الثانية

الموظفون الملقبون باغاوات الركاب السلطاني

١ ـ حامل العلم او " ميرعلم " . هو الحارس للاعلام الامبراطورية "وللاطواغ" الستة (الاطواغ : اذناب الفرس) وهو الآمر على روساء الحجاب (قبوجي باشي) ويرأس موسيقي السراى العسكرية . وهو الذى يقدم لحكام الولايات الجدد العلم واذناب الخيل وهي العلامات المميزة للقيادة العسكرية . وتؤمن له الضرائب المتعلقة بهذا المركز موردا كبيرا . فهو وحده بين موظفي البلاط الذى يحضر الجلسات التي يقيمها السلطان لاصحاب المناصب العالية .

٢ ـ البستنجي باشي او رئيس رجال الحرس . هو حاكم السراى ودور متنزهات السلطان فان شواطيء البوسفور وبحر مرمره من البحر الاسود حتى الدردنيل خاضعة لرقابته . ولا يمكن لاى شخص ما ان يبني او يرمم بيتا او اى بناء اخر بدون اذنه . وهو من اجل ذلك ينال ضرائب عديدة تفرض في الغالب على غير اساس . وهو الذى في نزهات السلطان البحرية يقبض على دفة الزورق الهمايوني ويكون بذلك قريبا من السلطان لاعطائه الايضاحات عن كل ما يعرض لانظاره من الاشياء التي هي تحت حكم البستانجي باشي .

وهو يقوم ايضا بوظيفة حاكم ، ويرأس اعدام كبار رجال الدولة ممن حكم عليهم بالموت داخل السراى . ويقوم بتفتيش السجن حيث يوضع فيه الموظفون الذين يراد تعذيبهم ليقروا بالجرائم المنسوبة اليهم ، او ليقروا بثرواتهم لتضبطها الدولة .

وهذا السجن الكائن داخل السراى قرب فرن البستنجي يسمى "الفرن" والاسم وحده يلقي الرعب في القلوب .

وكمفتش عام للاحراش والمياه الواقعة في اطراف العاصمة يمارس البستجي باشي ايضا وكالة الصيد برا وبحرا . وتخضع تجارة الخمر والكلس لرقابته . وهو يؤجر الضرائب التي تخصص له من كل

هذه الاعمال لقواد من جماعة "الخاصكي" .

وهو لايظهر تقريبا ابدا امام الناس اذ ان رؤيته وهو المكلف بتنفيذ احكام الاعدام يولد في نفوسهم شعور الاشمئزاز والخوف . اما يذهب دائما ليلا لزيارة كبار رجال الدولة لتقديم واجباته لهم او للبحث معهم . وهو يتقلد رتبة الباشاوية ويحمل حاكم ادرنه ايضا لقب بستنجي باشي ويامر على فرقة مؤلفة من (١٠٠٠) من رجال الحرس تقريبا .

٣ - رئيس الاسطبلات . وهو رئيس اسطبلات وعربات السلطان له وكالة المروج والمراعي الواسعة الممتدة ما بين ادرنه وبروسه وهو يسمح للناس برعي خيلهم في المروج مقابل جعل خاص .

ويخدم تحت امرته رجال السلاخور والخاص اخورلو والقويونوك والقورداغا . فالجماعة الاولى هم من خدم الاسطبلات وعددهم الفان . والثانيةهم السواس وعددهم ست مئة تقريبا . ويطلق اسم قويونوك على جماعة من البلغار عددهم (٦٠٠٠) يقومون بخدمة الجيش زمن الحرب . اما القورداغا او المختصون بالغابات فانهم يلتزمون كل الغابات التي تخص الدولة والمنقسمة الى سبع وعشرين مقاطعة . ويأتي اخيرا سراجو وجمالو وبغالو القصر وهم تحت امرة رئيس الاسطبلات .

٤ - رئيس الحجاب ، وهو الذي يستلم "العرضحالات" المقدمة للسلطان لما يظهر امام الناس . ويقوم هذا الموظف مع الجاويش باشي في الاحتفالات الكبرى بوظيفة مشير للبلاط . فيلبسان حينذاك ملابس قواد الحجاب "قبوجي باشي" ويحمل كل منهما بيده عصا محلاة بالفضة .

٥: رئيس الاسطبلات الثاني : يقوم بتفتيش الاسطبلات الصغيرة المعدة لخيل موظفي البلاط .

ويعرف هولاء الموظفون الخمسة باغاوات الركاب لانهم يقتربون من السلطان اكثر من غيرهم . ويخصص السلطان عادة المأموريات الحسنة لرئيس الاسطبلات او لرئيس الحجاب . كالذهاب مثلا الى احد الباشوات ومنحه حلة من فرو السمور او خنجرا مرصعا بالجواهر او غير ذلك من التقدمات التي تدل على عطف السلطان عليه . ويعطي الباشا حاكم الولاية وصاحب الهدية رسول السلطان اربعين او خمسين الف قرش كمصروف سفره .

٦ - قواد الحجاب ؟ قبوجي باشي " وعددهم مئة وخمسون تقريبا . ولايقبل في هذه الفرقة الا البكوات ابناء الباشوات او ابناء كبار رجال الدولة . ويقوم كل ليلة واحد من هولاء القواد بحراسة باب السراى الثاني .

وهم يقومون في ايام الاحتفالات بوظيفة حجاب ويلبسون بذلك رداء طويلا من الجوخ المذهب محلى بفرو السمور (١) ويتبع اثنا عشر منهم السلطان الى الجامع كل يوم جمعة . واذا قبل السلطان مقابلة احد سفراء الدول الاجنبية فهم الذين يدخلونه اليه. ويعطى للمبرزين من هولاء القادة قيادة احدى فرق الجيوش . وهم الذين يحملون الاوامر السرية والكثيرة الاهمية . واذا ارادت الدولة التخلص بصورة فجائية من احد الباشوات المشتبه بهم فانها ترسل عادة لقتله احد هولاء القواد .

الطبقة الثالثة

الامناء

١ – الامين العام للابنية السلطانية

٢ – الامين العام للنقود والمناجم

٣ – امين مطابخ ومكاتب السراى

٤ – امين العلف المقرر لاسطبلات القصر

٥ – وكيل امين المطابخ

ويوءلف هولاء الموظفون الخمسة قسما من جماعة " الخوجوات " ويمكنهم الوصول الى المراتب الاولى في ادارة الصدر الاعظم ودائرة المالية (٢)

الطبقة الرابعة

موظفو الصيد

١ – البازدار الاول (اى المولج بيبزان الصيد شاهنجي باشي)

٢ – رئيس المحافظين على العقبان (شاكرجي باشي)

---

(١) يلبس الميرعلم والجاويش باشي ولغاوات الانكشاريه والسباه والسلحدار ورئيس الجبجيه هذه الملابس نفسها الرسمية وقت الاحتفالات .

(٢) وهم يلبسون ملابس الخوجوات

٣ ــ رئيس المحافظين على الصقور   (دغنجي باشي)

٤ ــ " " " البيزان

الطبقة الخامسة

الموظفون التابعون لرئيس الخصيان السود

١ ــ "رئيس الرجال" الذين يقومون بالمحافظة على خيم وسرادقات السلطان وهم يوءلفون فرقة من ثمان مئة رجل منقسمة الى اربعة بلوقات ووظيفتهم (او فصائل) منحصرة الان في نصب السرادق في المكان الذي يعين لها عندما يريد السلطان تمضية يومه في حدائق القصر او في موضع من الاماكن الجميلة الواقعة في اطراف القسطنطينية . ويوءلف اربعون من افرادهم فرقة الوازنين (وزندام) ورئيسها الوزنداراباشي مفتش خزينة الدولة الواقعة في باحة القصر الاولى . اما بقية افراد هذه الفرقة اى الذين يحافظون على الخيم يقومون بوظيفة جلاد او سياف حيث يقف اربعة اوخمسة منهم دائما على "الباب الاوسط" قرب جناح قواد الحجاب لكيما يكونوا قريبين لتلبية اوامر السلطان او الصدر الاعظم .

٢ ــ امين الخزنة الخارجية " خزنداراباشي) وهي مستودع لسجلات المالية القديمة ، والمخزن الذي يحفظ فيه الخلع السنية من فراء او قفاطين وهي التي تفرق في السراى او في قصر الصدر الاعظم كما تحفظ ايضا اكياس الحرير الاطلس ومن الجوخ المذهب حيث توضع فيها الاوامر والرسائل المرسلة من مجلس الوزراء . ويامر هذا الموظف على عشرين موظفا لحراسة هذا المخزن .

٣ ــ الموظف القائم بتقديم الجوخ والاقمشة على انواعها اللازمة لبيت السلطان .

٤ ــ حارس الهدايا ، اى امين المستودع الذى تحفظ فيه الهدايا المقدمة للسلطان من رعاياه او المقدمة من وزراء الدول الاجنبية باسم ملوكهم .

الطبقة السادسة

الموظفون التابعون لرئيس المكتب

١ - امين مائدة طعام السلطان (حاشنكير باشي) وهو رئيس خمسين "جاشنكير" تقريبا وليس لهم من عمل سوى القيام بتقديم الطعام للصدر الاعظم ولبقية وزراء الدولة في الايام التي يلتئم فيها الديوان

٢ - رئيس الموسيقي العسكرية (مترباشي) وهي مؤلفة من ستة عشر مزمارا وستة طبول واحد عشر بوقا وثمانية دفوف وسبعة صنوج واربع نقارات . هذه الفرقة المؤلفة من اثني وستين موسيقيا يضاعف عدد رجالها عندما يخرج السلطان مع الجيش وهم لايعزفون في القصر عادة الافي ايام العيدين وعندها يقف رئيسهم امام رجاله ويداه على خصره .

وتتالف موسيقي الصدر الاعظم والباشاوات من ذوى الثلاثة الاطواخ من نفس هذه الالات انما يكون عددها تسعة وبغير نقارات . انما في ايام الحرب وعندما يقود الصدر الاعظم الجيش فانه يتمتع بمزية ادخال دف كبير الى موسيقاه .

٣ - رئيس الفرن (اكمكجي باشي) وهو يامر على مئة وخمسين فرانا تقريبا .

٤ - رئيس المكتب او القلم وتحت امرته مئة من الغلمان الخدم .

٥ - رئيس المطابخ (عشي باشي) وهو يامر على مئتي عشي .

٦ - رئيس الحلوانيه او صانعي الحلوى . وعددهم مئة وخمسون تقريبا .

الابيض

ويلبس رجال الاقسام الثلاثة الاخيرة زيا متشابها وهو كساء من الجوخ وقلنسوة من اللباد الابيض دقيقة الراس حيث ترجع عادة استعمالها الى اول ايام الدولة . وكانت اذ ذاك لباس الراس العام لرجال جميع الطبقات . ويقول المؤرخ سعد الدين انه من زمن حكم السلطان عثمان الاول لم يكن يلبس الناس غيرها وكانت كل الالوان مسموح بها . الا انه عندما انشأ اورخان الاول جيش الانكشارية جعل لون القلنسوة مختلفا بين الجند وبقية الناس ، وكان للفريق الاول فقط الحق في لبس القلنسوة البيضاء . ولكن بايزيد الاول خصص استعمال هذا اللون لرجال السراى وللفرق المنظمة لكيما يميزوا

عن جند المقاطعات وعن خدم كبار رجال الدولة الذين كان عليهم استعمال اللون الاحمر . وبما ان استعمال العمامة اصبح عاما في عهد السلطان محمد الثاني فانه لم يبق من رجال السراى من يلبسون القلنسوة القديمة سوى البلطجيه والطباخين وصانعي الحلوى الخ ... وقد بدىء في الوقت نفسه باستعمال ازياء مختلفة للباس الجسم والراس عند كل فرقة من فرق الجند وعند كبار موظفي القصر الا انه خصصت القلنسوة البيضاء المزركشة بالذهب او الفضة لضباط الانكشاريه .

ويجب الاضافة الى هذه اللائحة فرقة موءلفة تقريبا من ثلاث مئة عامل من خياطين وصانعي الفراء والاحذية الخ ... مخصصين فقط لخدمة رجال القصر .

الطبقة السابعة

رجال الحرس

١ — السلاك Solaks وهم جماعة موءلفة من اربع فرق انكشاريه يتألف كل منها من مئة رجل مع قائد واثنين من الملازمين . وعندما يخرج السلطان بموكبه الكبير يمشي الى جانب فرسه القواد الاربعة والملازمون الثمانية مع ستين جنديا من السلاك . وتكون ثياب الجند من الجوخ الثمين وقلنسوتهم محلاة بريشة طويلة ، ويرتدى القواد كساء من القطيفة الخضراء محلى بفرو فهد .

ويتمتع السلاك براتب اكثر من بقية رواتب الجند . ويمنح لهم يوم عيد المولد النبوى مبلغ الف قرش . وهم يقيمون في ثكنتهم في المدينة كبقية الانكشاريه . ويوجد دائما اربعة منهم لحراسة القصر يبدلون بغيرهم كل اربع وعشرين ساعة .

٢ — ال Peiks وهم يوءلفون فرقة من مئة وخمسين رجلا برئاسة قائد لهم . اما ثكنتهم فهي كائنة قرب جامع السلطان احمد ، الا انه عليهم جميعا المكوث في القصر اثناء النهار . ويمشي ثلاثون منهم في موكب السلطان على جانبيه بين جماعة السلاك . ولا تقل ثيابهم قيمة عن ثياب هولاء يلبسون على راسهم خوذة من النحاس المذهب محلات بريشة سوداء ، ويتسلحون بالحراب وهو زى حرس الملوك البزنطيين . وعندما يذهب السلطان للنزهة يتبعه اثنا عشر منهم يرتدون آنئذ مثل رجال شرف الصدر الاعظم (الشطار) اى رداء من الجوخ المذهب مع منطقة عريضة محلاة بالجواهر

وخنجر موصع بالذهب واضعا كلا منهم ريشة على عمامته وحاملا رمحا بيده .

وكان لايحمل رجال الـ Péiks والسلاق اسلحة فيما مضى الا عندما يرافقون السلطان الى الحرب ، ولكن على اثر حادثة الاغتيال التي قام بها احد الدراويش عام ١٤٩٢ على شخص السلطان بايزيد الثاني صدرت الاوامر بان يرافقوا السلطان وهم دائما مسلحون حتى ولو كان ذلك في العاصمة نفسها .

وتتمتع فرقة الـ Péiks بميزة خاصة وهي يقوم واحد من اقدم رجال هذه الفرقة كل سنة بوظيفة (مجدجي باشي) اى حامل الاخبار السارة ، اى انه يذهب الى مكة ويأخذ من يد شريفها رسالة تطلع السلطان على خبر سلامة دخول قافلة الحجاج الكبرى ويترتب عليه ان يكون في العاصمة يوم عيد المولد النبوي كي يقدم للسلطان رسالة شريف مكة عند الاحتفال بهذا العيد في المسجد .

الطبقة الثامنة

حرس السراى

١ - " البستجيه " وهي فرقة مؤلفة من الفين وخمس مئة رجل منقسمة الى ارطات اوفصائل داخلة في جيش الانكشاريه وهم علاوة على انهم معدون لحراسة السراى والحدائق والجنائن وبيوت متنزهات السلطان فانهم يشتغلون ايضا في الحدائق .

ولقد اطلق عليهم هذا الاسم " بستنتجي " لانهم كانوا في بادىء الامر مكلفين بتحويل الاراضي الغير المزروعة الواقعة داخل السراى الى رياض وبساتين . وهم يعملون كجذافين في زوارق السلطان وزوارق موظفي القصر . وعندما يخرج هولاء يتبعهم اثنان منهم او اربعة او غيرهم من الخدم " الجوخدار " مرتدين نفس الثياب التي " للبستنجيه " ويمكن تمييز هولاء عن غيرهم بقلنسوتهم المصنوعة من الجوخ الأحمر .

وهناك تحت امرة رئيسهم " البستنجي باشي " الموظفون الاتية اسماؤهم :

١ - الخاصكي اغا وهو ملازمه ويكون عادة خليفته

٢ - الاجاق كيخيه " (كولونيل) او قائد الفرقة

٣ - الـ القهجي باشي مفتش الغابات وهو تابع للبستنجي باشي .

٤ ـ التركه جي باشي " وهو محصل الضرائب المخصصة لمنصب البستنجي باشي .

٥ ـ " البستنجي لراوضه باشي " وهو وكيل رئيسه لدى الدولة ولهذا فهو يقيم في قصر الصدر الاعظم .

٦ ـ " الوزيرقره قولاى " رسول بين السلطان والصدر الاعظم .

٧ ـ " الاغا قره قولاى " يكون مركزه في قصر اغا الانكشاريه حيث يوجد برج عال مخصص لمراقبة الحرائق . ويقوم فيه الحراس ليلا ونهارا ، وعند اول اشارة لحريق ما يذهب الاغا قره قولك راكبا عربته الى رجال حرس المكان الذى حصل فيه الحريق وياخذ من رئيس الاورطه بيانا يعين فيه مركز البيت الذى شب فيه الحريق ومدى الخطر الممكن حدوثه . ثم يذهب بسرعة فائقة ويقدمه لرئيس الخصيان السود الذى يقدمه بدوره للسلطان في اى ساعة كانت من الليل او النهار .

وقد بنى السلطان مصطفى الثالث جامعا في السراى لرجال "البستنجيه" واقام قربه مكتبة يستعملها موظفو هذه الفرقة .

٢ ـ جماعة " الخاصكي " هي فرقة موءلفة من ثلاث مئة نائب ضابط يوءخذون عادة من بين البستنجيه تكون ثيابهم مصنوعة من الجوخ الاحمر ويعلقون سيفا في وسطهم ويحملون عصا بيدهم . والذين يقبلون في هذه الفرقة يستلمون هذه العصا من القائد بحضور كل الفرقة . وعلى كل منهم ان يدفع لهذا القائد ذهبا (دوقة) ويضحي خاروفا يذبحه بيده في تكنة الفرقة الكائنة في السراى . ويدخل ستون منهم في موكب السلطان ويعتبرون لهذا السبب من رجال الحرس . ويرسلهم رئيسهم البستنجي باشي في احيان كثيرة في ماموريات الى الولايات .

ولمهم موظفيهم :

١ ـ الباش خاصكي او القائد

٢ ـ "القرجيجي باشي وهو ملتزم معامل الكلس ويدفع من اجلها عشرة الاف قرش في السنة للبستنجي باشي

٣ ـ " البولق امينى" وهو وكيل امكنة صيد السمك في المرفأ وفي ضواحي الاستانة يستاجرها من رئيسه بخمسة عشر الف قرش سنويا .

٤ ـ " الشراب امنيي " وهو وكيل الخمور ولا يمكن لاى مسيحي او يهودى صنع الخمر بدون اذنه ، وله من اجل ذلك ضرائب توءمن له كما توءمن لرئيسه اموالا طائلة .

٤ _ التركه جي باشي " وهو محصل الضرائب المخصصة لمنصب البستنجي باشي .

٥ _ " البستنجي لراوضه باشي " وهو وكيل رئيسه لدى الدولة ولهذا فهو يقيم في قصر الصدر الاعظم .

٦ _ " الوزيرقره قولاي " رسول بين السلطان والصدر الاعظم .

٧ _ " الاغا قره قولاي " يكون مركزه في قصر اغا الانكشاريه حيث يوجد برج عال مخصص لمراقبة الحرائق . ويقوم فيه الحراس ليلا ونهارا ، وعند اول اشارة لحريق ما يذهب الاغا قره قولك راكبا عربته الى رجال حرس المكان الذى حصل فيه الحريق ويأخذ من رئيس الاورطه بيانا يعين فيه مركز البيت الذى شب فيه الحريق ومدى الخطر الممكن حدوثه . ثم يذهب بسرعة فائقة ويقدمه لرئيس الخصيان السود الذى يقدمه بدوره للسلطان في اى ساعة كانت من الليل او النهار .

وقد بنى السلطان مصطفى الثالث جامعا في السراى لرجال "البستنجيه" واقام قربه مكتبة يستعملها موظفو هذه الفرقة .

٢ _ جماعة " الخاصكي " هي فرقة مؤلفة من ثلاث مئة نائب ضابط يؤخذون عادة من بين البستنجيه تكون ثيابهم مصنوعة من الجوخ الاحمر ويعلقون سيفا في وسطهم ويحملون عصا بيدهم . والذين يقبلون في هذه الفرقة يستلمون هذه العصا من القائد بحضور كل الفرقة . وعلى كل منهم ان يدفع لهذا القائد ذهبا (دوقة) ويضحي خاروفا يذبحه بيده في ثكنة الفرقة الكائنة في السراى . ويدخل ستون منهم في موكب السلطان ويعتبرون لهذا السبب من رجال الحرس . ويرسلهم رئيسهم البستنجي باشي في احيان كثيرة في ماموريات الى الولايات .

ولهم موظفيهم :

١ _ الباش خاصكي او القائد

٢ _ "القرجيجي باشي وهو ملتزم معامل الكلس ويدفع من اجلها عشرة الاف قرش في السنة للبستنجي باشي

٣ _ " البولق اميني " وهو وكيل امكنة صيد السمك في المرفأ وفي ضواحي الاستانة يستاجرها من رئيسه بخمسة عشر الف قرش سنويا .

٤ _ " الشراب اميني " وهو وكيل الخمور ولا يمكن لاى مسيحي او يهودى صنع الخمر بدون اذنه ، وله من اجل ذلك ضرائب تؤمن له كما تؤمن لرئيسه اموالا طائلة .

٣ _ " البلطجية " وعددهم تقريبا اربع مئة مخصصون لحراسة الامراء والاميرات من العائلة المالكة ولحرم السلطان ، ولهذا السبب فهم خاضعون لرئيس الخصيان السود ، ويستعملون كغطاء للراس قلنسوة دقيقة الراس من اللباد الاشقر . وثكنتهم كائنة في السراى القديمة الا انهم يقضون النهار في السراى الجديدة .

ويعين اشهرهم لخدمة القزلراغا وملازمه وكاتبه وللرئيس الثاني لفرقة البلطجية ، ولكل امرأة من حرم السلطان ثلاثة منهم يقومون بخدمتها . وواحد لكل امير واميرة من عائلة السلطان .

ويلقب البرزين منهم بقهوجي باشي اى رئيس القهوجيه . وعندما يرافق السلطان في ذهابه للحرب بعض نساء حرمه يمشي " البلطجيه " قرب عرباتهن ويعسكرون حول خيمهن .

وكانوا يحملون اذ ذاك رمحا او حربة طويلة تنتهي بفأس (بلطة)ولهذا السبب اخذوا لقب "بلطجي " اى حاملي الفؤوس مما ادى للقول بان عملهم هو في تكسير الحطب .

وعند موت السلطان او اى شخص من عائلته او من نساء حرمه فالبلطجية هم الذين يحملون نعش المتوفي ويتناوبون في حفلة الجناز .

واشهر قوادهم بعد القزلر اغا هم :

١ _ " البلطجي لركيخيه سي " هو رئيس الفرقة . يعرف بمنطقته العريضة المصنوعة من الجوخ المذهب ويقوم بوظيفة ساعي الدولة لانه هو الذى يُعين عادة لحمل اوامر السلطان للصدر الاعظم .

٢ _ " اليازجي افندى " امين سر القزلر اغا والقائم بشؤون الاوقاف الدينية المخصصة لمدينتي مكة والمدينة . وهو يحمل في وسطه كاشارة لوظيفته البارزة هذه دواة فضية ذات ثلاثة انابيب .

٣ _ " القوخاصكي " وكيل القزلر اغا في دائرة الصدر الاعظم

٤ _ " الخاصكي باشي " المحصل العام للاموال الاتية من الاوقاف المذكورة اعلاه .

٥ _ كاتب " الخاصكي باشي " الاول. ويلبس كل هولاء الموظفين على رؤوسهم قلنسوه من الجوخ الاحمر شبيهة بقلنسوة البستنجيه .

٤ : " الزلفو بلطجي " فرقة مولفة من مئة وعشرين رجلا مخصصون لخدمة موظفي غرفة السلطان . وتابعون للسلحدار اغا . وهم يلبسون نفس ملابس البلطجيه مع فرق واحد وهو ان قلنسوتهم ليست محددة الراس كثيرا . وينحدر منها على الخدين ضفيرتان من الصوف . وهذه الضفائر المسماة زلف هي التي اعطت اسم زلفوبلطجي لهذه الفرقة .

وهولاء اهم موظفيهم :

١ ـ الكهخيه رئيس الفرقة

٢ ـ ثلاثة من قدماء الاسكلري متساوون في الرتبة .

٣ ـ ستة من "القوجيجيه" يقومون بتوصيل اوامر السلطان او اوامر السلحدار اغا الى اصحابها

٥ ـ "الجواش" فرقة مؤلفة من ست مئة وثلاثين رجلا ومنقسمة الى خمسة عشر فرعا يحكمها الجاوش باشي ويوجد دائما فصيلة منها تحت امرة قائدها "البلوه باشي" للخدمة في السراى . ويقوم رجال هذه الفرقة بافساح الطريق للسلطان في الاحتفالات .

٦ ـ جماعة القبوجي اى الحجاب وعددهم ثمان مئة يقومون بحراسة بابي السراى الاولين . وهناك اربعون منهم يقفون امام مدخل الحريم اى قرب مركز الخصيان السود وهم خاضعون للقزلر اغا . وهم يميزون عن غيرهم بلقبهم "بابا" ويتخذ قائدهم لقب اغا باباسي .

ويتبع اقدم رجال هذه الفرقة السلطان لما يظهر للناس فيحمل مقعدا صغيرا محلى بقطع الفضة يضع عليه السلطان قدمه لما يمتطي صهوة جواده او عندما ينزل عنه . وهو يلقب موظف المقعد "اسكمله اغا" وهناك غيره يخدمون في المحاكم كحجاب لمناداة اصحاب الدعاوى .

——×——

الفصل الثالث

موظفو داخل البلاط والخدم الغلمان

يقسم خدم السلطان الخصوصيين الى ستة فروع وهم :

١ ــ فرع رجال الحرس الخصوصيين
٢ ــ = القائمين على بيت المال
٣ ــ = عمال المكاتب
٤ ــ = رجال السفر
٥ ــ الخصيان السود
٦ ــ = = البيض

الفرع الاول

فرقة رجال الحرس

وهي موءلفة من تسعة وثلاثين موظفا يدعون " خاص اوضه لي " ويعتبر السلطان نفسه من هذه الفرقة فيصبح عدد رجالها اربعين رجلاً وهو رقم يتفاءلون به . وهاك القاب ووظائف اشهر رجالها بحسب ترتيب درجاتهم :

١ ــ السلحدار اغا او حامل السيف وهو رئيس الارطات او البلكات الاربع الاولى التي ذكرناها ويعتبر " كالزلفوبلطجي " اى الرئيس الاكبر لقصر السلطان . وعندما يخرج السلطان يتبعه حاملا له على كتفه الايسر السيف السلطاني ، الا انه في الاحتفالات الكبيرة يحطه على كتفه الايمن . وهو القائم على اسلحة السلطان وثيابه الحربية التي يستعملها .

٢ ــ " الجوخدار اغا " اى رئيس خزانة ثياب السلطان . وهو يتبع السلطان الى الجامع في الاعياد الكبيرة ويرمي للناس قطعا فضية صغيرة جديدة .

٣ ـ "الركاب دار اغا" اى موظف الركاب يقبض على ركاب السلطان لما يعتلي هذا صهوة جواده .

ويمكن لهولاء الموظفين الثلاثة ان يتعمموا، اما بقية " الخاص اوضلي " فانهم يضعون على روؤسهم قلنسوة مزركشة بالذهب . وللسلحدار اغا وحده الحق في لبس الفراء . اما البقية فانهم يرتدون ثوبا طويلا مشدودا على وسطهم بمنطقة من الكمشير ويطلق على ثيابهم هذه اسم "اورطة كوجك" .

٤ ـ "الدلبند اغا" هو مخصص للاعتناء بعمامات السلطان . ويتبعه في الاحتفالات الفخمة راكبا جواده وحاملا له عمة سلطانية يميلها بيده من وقت الى اخر نحو الناس الذين يحيونها باحترام . ويسير الى شماله خاص اضلي اخر يحمل بيده عمة اخرى يميلها ايضا نحو الجماهير

٥ ـ "الانتار اغا" اى الذى يحتفظ بالمفاتيح وهو وكيل مصاريف الارطة ووكيل مائدة السلطان Anahtar .

٦ ـ " البشكير اغا " اى المخصص لحفظ مناديل او مناشف السلطان . وهو يخلف وكيل الخرج في حال غيابه .

٧ ـ " البنيش بشكير اغا " يقوم بمساعدة " البشكير اغا "

٨ ـ "الابريقدار اغا " اى الموظف الذى يحمل الابريق وهو يسكب الماء على يدى السلطان .

٩ ـ ١٠ الـ Keussé - Baschis هما موظفان يقومان بوظيفة الشرطة في الارطة .

١١ ـ المؤذن باشي اى كبير المؤذنين في مسجد السراى . ويشرف على المسجد الذى يذهب اليه السلطان يوم الجمعة وهو الذى يقيم الصلاة .

١٢ ـ " السركاتب " اى امين سر السلطان الخاص هو من رجال موكب السلطان يحمل كل ادوات الكتابة في محفظة مزركشة بالذهب يحملها في وسطه . ولا يحق لاى انسان غيره ان يحمل محبرة من الذهب في منطقته . ويقراء للسلطان عند رجوعه الى السراى العرائض التي قدمت له

وهو في طريقه الى المسجد . وهو يعتني ايضا بمكتبة السلطان الخصوصية .

١٣ - " الباش جوخدار " اى رئيس الخدم وهو يامر على ا ربعين منهم وهم ينتمون للارطات الثلاث الاخرى . وهم يتبعون السلطان ويكونون مرتدين ثيابا ثمينة واضعين في وسطهم خنجرا فضيا وسوطا ينتهي بسلاسل طويلة من الفضة ، اما التي لرئيسهم فتكون من الذهب . وهو يمشي على يمين السلطان واضعا يده على ردف حصانه وواضعا في جيب ردائه على صدره نعال السلطان محفوظة في غلاف من الحرير . ولرئيس الخدم هذا مساعد يمشي على شمال السلطان .

١٤ - " الساركجي باشي " Sarikdji يلف عمائم السلطان المصنوعة من الحرير الناعم الابيض . ويدعى لباس الراس هذا " سارك " وتوضع العمائم في غرفة خاصة اسمها " سارك اوضه " على قواعد صغيرة مكسوه بصفائح الذهب والفضة .

١٥ - " القهوجي باشي " اى رئيس صانعي القهوة وليس له من عمل سوى صنع القهوة المخصصة لشرب السلطان .

١٦ - " التفنكجي باشي " اى حامل البندقية التي يقدمها للسلطان عندما يذهب للصيد . ويستلم من صيادي القصر ما اصطادوه .

١٧ - " البربرباشي " اى رئيس الحلاقين يحلق شعر السلطان وهناك عادة في انه عندما يحلق لاول مرة شعر امير من ابناء السلطان عليه ان يذهب الى الصدر الاعظم باحتفال ليخبره بذلك . وهو يتناول منه بهذه المناسبة فروة من جلد السمور وكيسا من خمس مئة ذهب (دوقة) وجوادا مجهزا باثمن عدة .

وهولاء السبعة عشر موظفا هم الوحيدون من رجال الارطة الاولى الذين يحملون القابا خاصة . ويقوم السبعة الاخرون منهم مع خمسة من اقدم الاثني وعشرين خادما الذين يخدمون السلطان بخدمة هذا الاخير في المكان المسمى " مابين " المجاور لمكان الحريم ويسمون "مابينجي" ويترتب على موظفي الارطة الاولى ان يحرسوا المسجد الذى تحفظ فيه بردة النبي ورايته وبقية مخلفاته [illegible] وهو قريب من سكنهم . ويكون دائما اثنان منهم في الحراسة لمدة اربع وعشرين

ساعة . ويمكن للخمسة المقدمين منهم ان يعفوا من الخدمة .

الفرع الثاني

بيت المال

ان موظفي هذه الدائرة مختصون لحراسة كنوز السراى المحفوظة في بناء واسع مؤلف من اربع قاعات كبيرة ذات قبب قائمة فوق سراديب عظيمة . ويحوى هذا المستودع على عدد كبير من الاشياء الثمينة قد جمعت منذ اول ايام الدولة . انما زادت بصورة خاصة بعد الاستيلاء على القسطنطينية وافتتاح بلاد مصر والشام . ويعتقد بأنَّ في هذا المستودع كتباً خطية قديمة يونانية ولاتينية . واذا كانت هذه الكتب فعلا موجودة ضمن هذه الذخائر فانه يُنظر اليها بعين التطير كطلاسم لايمكن لمسها لو عرضها على انظار الفضوليين (١) واخيرا يحفظ في هذا المستودع ايضا صورة كل سلطان من سلاطين آل عثمان مع ثياب كاملة من ثيابه .

وهناك لائحتان كبيرتان باسماء جميع الاشياء الثمينة الموجودة في هذا المستودع وعليهما توقيع وزير المالية ، ويقوم على حفظهما السلحدار اغا و" كيخيه الخزينة " رئيس الدائرة الثانية هذه وفي كل مرة يستبدل فيها هذا الاخير بغيره يجرى التثبت من وجود كل هذه الاشياء الثمينة المذكورة في اللائحة داخل المستودع . ويكون ذلك امام كبار موظفي الخزينة ، وتدوم هذه العملية عادة من خمسة الى ستة اشهر . والداعي لهذا الاحتراز هو الاختلاس الكبير الذي حصل في عهد السلطان محمد الرابع . وذلك انه بعد وفاة المرمر محمد باشا سنة ١٦٨٠ وكان امينا للخزينة توصل بعدها لمركز " وزير قبة " وجد بين متروكاته جواهر الدولة وغيرها من الاشياء الثمينة التابعة لكنوز السراى .

واشهر موظفي هذه الدائرة هم :

" كيخية الخزينة " اى وكيل الخزينة الداخلية ورئيس الدائرة وهو القائم على مصاريف السراى ويقدم للسلطان في اخر كل شهر لائحة بنفقات السلطان الذى يوافق عليها بان يخط هذه

---

(١) كل مجهودات المؤلف التي بذلها للدخول الى هذا المكان المقدس ذهبت عبثا .

الكلمات : " مقبول همبوني در" اى ان حضرتي السلطانية توافق عليها .

ويستلم هذا الموظف عند تعيينه الختم الذى عليه ان يختم به الباب الخارجي للكنوز السلطانية . وهو نفس الختم الذى استعمله السلطان سليم الاول لما رجع من حملته على مصر . وقد اكد هذا السلطان بخط من يده على كل السلاطين الذين يخلفوه ان يستعملوا دائما هذا الخاتم ولنفس الغرض الا اذا كان احدهم سعيد الحظ يتمكن من زيادة هذا الكنز باشياء اثمن من التي قد غنمها من فتوحاته . وهذا الختم هو من العقيق الاحمر وضع فوق خاتم وكتب في وسط العقيق " شاه سلطان سليم " وكتب على الاطراف الاربعة : " توكل على الخالق " الخضوع لله " ولا يحق لامين الخزينة ان يفتح باب مستودع الكنز الا باذن رسمي من السلطان وامام كبار موظفي دائرته وبعد ان يكون فحص الاختام .

وبما انه هو الذى يحفظ ايضا فراء وجواهر السلطان التي يستعملها عادة فانه يكون حاضرا عندما يفصل ثوب جديد للسلطان ويجرى ذلك بشئ من الحفاوة مصحوبا بالادعية للسلطان. وهو الذى يخلف عادة السلحدار اغا .

وله نائبان هما : " القفتم Gugum باشي " والباش قلعتجي " . وينوب هذا الاخير عنه في بيوت متنزهات السلطان عندما يقيم فيها في اثناء فصل الربيع وذلك لانه لايمكن لوكيل الخزينة ان يتغيب ابدا عن السراى . اما بقية موظفي هذه الدائرة فهم : الانتار اغا " وهو شرطي دائرة الخزينة . " الباش يازجي " رئيس الكتاب ومخصص لتفقد حالة الخزينة واعمال الاشخاص الذين يؤلفون موظفي الدوائر الاربع .

" الشنطجي " واسمه مشتق من كلمة شنطة اى حقيبة وهي من الجلد السختيان المزركش تملأ بالذهب والفضة يحملها عندما يتبع السلطان .

" السرغجي " مخصص للاعتناء بنياشين السلطان المرصعة بالحجارة الكريمة التي تحلي عمة السلطان

" الكنينجي " ويحافظ على ثياب السلطان الرسمية المخصصة للاحتفالات وهي مزينة بفراء اسود من جلد الثعلب يرتديها السلطان في الاحتفالات الكبيرة . وهو لايقدم هذه الثياب للسلطان الا بعد ان يعطرها بالعنبر ويجرى تعطيرها وهو يغني الاناشيد مع بقية موظفي هذه الدائرة

" الطبق السكي " مخصص للاعتناء بالاواني الصينية .

اثنان من " التفنكجية " وهما خادمان يتبعان السلطان في نزهاته ويحمل كل منهما بندقية محلاة

بالذهب والحجارة الكريمة .

الطبقة الثالثة

دائرة المكتب

تتالف هذه الدائرة التي يرأسها موظف يسمى " كيلركيخية " من موظفين يقومون بتقديم الخبز والطيور والفواكه والمربايات والشراب وغيره من المشروبات اللازمة لمائدة السلطان وحريمه كما انهم يقدمون الشموع لمسجد السراى . وهم يصنعون نوعا من النسيج الحريرى الدقيق (تافتس) المشمع ويقدمونه للبائسين لضميد جراحهم ، ويعتقد بان هذا العمل الخيرى الذى يطلق السنة هولاء المساكين بالصلاة والدعاء تجلب البركة والمنفعة للسلطان .

الطبقة الرابعة

دائرة السفر

كان خدم هذه الدائرة فيما مضى يتبعون السلطان عندما يذهب للحرب وكان عملهم الرئيسي غسل ملابس السلطان الداخلية الا انها الان مدرسة تعد الموسيقيين والمغنين والمهرجين والحلاقين والمغسلين للخدمة في السراى . يدعى رئيسها "سفركيخية" ويخصص احد موظفيه وهو "الباش قلقجي" لغسل اقمشة عمائم السلطان الحريرية مرتين في الاسبوع في وعاء فضي كبير . وهو في عمله هذا يقوم بقية خدم هذه الدائرة بترتيل الاناشيد .

ان رؤساء الدوائر الثلاث الاخيرة ينتقون من بين موظفي الدائرة الاولى وحيث لايمكنهم الرجوع اليها الا اذا ترقوا الى رتبة سلحدار اغا .

ولكل من هذه الدوائر الثلاث الاخيرة اثنا عشر نائب موظف يدعون " بيجقلي اسكلرى " لانه يحق لهم حمل خنجر مرصع بالذهب والفضة في منطقتهم .

وفي كل دائرة ثلاثة او اربعة من الخرسان يرأسهم اقدم واحد بينهم من المنتمين للدائرة الثانية . وهو يقف على باب غرفة السلطان عندما يكون في جلسة ، سرية مع الصدر الاعظم او مع

المفتي • وهم يضعون على راسهم قلنسوة مزركشة بالذهب تختلف شكلا عن بقية قلنسوات الخدم • ويتخاطبون فيما بينهم باشارات سريعة يفهمها ايضا بقية رجالات السراى ونساء الحريم كما يفهمها السلطان نفسه ~~الزهو~~ بطبيعة الحال لايصدر اوامره الا الى من حوله الا باشارات من يده • وعلى كل حال فانه لايحق الا للصدر الاعظم والكيخية باى وحكام الولايات اقتناء الخرسان في خدمتهم •

~~ويوجد~~ في كل دائرة ثلاثة او اربعة اقزام بملابس خاصة • ويشدون منطقتهم بمشبكين من الفضة ويلبسون قلنسوة اسمها يلكن • ويعين لهم رئيس من الدائرة الثانية • وينحصر عملهم بتسلية اهل البلاط بدعاباتهم التي يقومون بها في بعض المناسبات وبمنتهى الاباحة امام السلطان • ~~ويوجد~~ في دائرة الحريم ثلاثة او اربعة اقزام من الخصيان هم سعاة بين السلطان ونسائه •

يخرج من الدوائر الثلاث الاخيرة عدد من الموسقيين يدعون جواش يلبسون نفس ملابس الاقزام ويقوم دائما بخدمة السلحدار اثنان من كل دائرة يحملون اوامره الى مختلف الدوائر •

وكثيرون من هولاء الخدم مخصصون لخدمة كبار موظفي داخل السراى ويطلق عليهم اذ ذاك اسم "قلقجي" الا ان كل واحد منهم يلقب حسب نوع العمل الذى يقوم به مثلا هناك "التتجني" والقهوجي الخ ...

وهناك اخيرا في كل دائرة من هذه الدوائر الثلاث الاخيرة موظف يدعى "نوبتجي باشي" يشرف على مصاريف دائرته • وهو يستعين باثنين من المحكومين بالاشغال الشاقة يكونون مقيدى الارجل بالسلاسل لتادية الاعمال المتعبة المرهقة •

ان زى رجال هذه الدوائر الثلاث الاخيرة هو نفس زى موظفي الدائرة الاولى غير ~~ه~~ ان قبعتهم اقل زركشة وعوضا عن الشال الهندى يتمنطقون بحزام على الطريقة الفارسية • ويدعون Itch-Oghlans اى غلمان خدم القسم الداخلي Itch-Aghalaris اى اغاوات القسم الداخلي و"غلمان خاصة" اى عبيد السلطان الخصوصيين • ويقبل العبيد السود في الدوائر الثلاث الاخيرة حتى انه يمكنهم الوصول الى ارفع الدرجات الا انهم لايمكن قبولهم ابدا في الدائرة الاولى ح•

وكان فيما مضى ~~كل~~ الخدم الغلمان ~~م~~ من الشبان الذين تفضل الدولة ان تاخذهم من الولايات الاوروبية وعلى الاخص من البوسنه والبانيا ؛ فكانوا يتلقون اول تربيتهم في ثلاث مدارس وهي : مدرسة غلطة ومدرسة ابراهيم باشا الكائنة في استنبول ومدرسة ادرنة • ثم ينتقلون من بعدها الى دائرتين في

السراى تعرفان بالدائرة الكبيرة والدائرة الصغيرة لاكمال تدريبهم . ومن ثم يوضعون في الدوائر الثلاث الاخيرة حيث ينتقلون منها الى الدائرة الاولى ويكون ذلك على اساس الاقدمية . ان هذه القوانين الشبيهة بالقوانين المتخذة في فرقة الانكشارية في اول انشائها اخذت تضمحل شيئا فشيئا فالسلطان ابراهيم الاول ازال مدرستي ابراهيم باشا وادرنه وازال محمد الرابع الدائرتين الكبرى والصغرى .

وبقي قصر غلطة منذ ذلك الوقت المدرسة الوحيدة لتدريب الخدم من الغلمان المعدين لخدمة السراى . وهم ينقسمون الى ثلاثة اقسام تحت رياسة خصي ابيض يدعى " سراى اغاسي " يكون تابعا للسلحدار اغا .

واعتاد السلطان زيارة هذه المدرسة مرة كل عامين او ثلاثة وهو ينتقي من هولاء الغلمان الذين يقدمهم له رئيس قصره عشرة او اثني عشر فيتبعونه الى السراى حيث يوضعون في احدى الدوائر الثلاث الاخيرة . ولكن بالرغم من ان القوانين لاتسمح لاحد بدخول هذه الدوائر الا بعد ان يكون قد اقام في مدرسة غلطة فان العطف يدفع احيانا الدولة الى قبول بعض الشبان المنتمين لعائلات كبيرة او من اليتامى الفقراء المنتسبين الى عائلات شهيرة . فتسجل اسماؤهم منذ حداثة سنهم وعند بلوغهم سن التاسعة او العاشرة يدخلون في احدى الدوائر الثلاث الاخيرة حيث يترقون بسرعة تحت رعاية السلحدار اغا . وكان السلطان محمد الثاني والسلطان سليم الاول لايقبلان اى غلام في خدمتهما قبل ان يعرفا حسن فاله من المنجمين . وكان عدد غلمان مختلف الدوائر والمدارس فيما مضى اكثر من الف . الا انه لم يبق الان منهم سوى ستمئة . ثلثهم في غلطة والثلثان الباقيان في السراى .

ان مسكن هولاء الذين في السراى قريب من دار السلطان المسمى "مابين" يسكنون ~~جماعة كل دائرة~~ معاً في غرفة واسعة تدعى coghosch الا ان كبار الموظفين ~~منهم~~ يسكن كل واحد منهم في جناح خاص . ويحد تلك الغرف صفين من الدرابزون تعلوها المنابر ويحتلها اقدم الخدم منهم . وفي منتهى كل صالة غرفة من الزجاج تستعمل لسكنى احد رؤساء الدائرة . ان هذه الدوائر مزينة باثمن زينة ذلك لان السلطان يشرفها بعض الاحيان بحضوره . حتى انه من المعتاد ان يمضي في الدائرة الاولى الليلة التي تسبق يوم العيد حيث يسمع خطبا في مواضيع اخلاقية وفلسفية ويشاهد بعد ذلك العابا مختلفة يقوم بعرضها

غلما نًّ مختلف الدوائر .

وبقرب هذه المساكن يوجد الجامع المخصص للخدم مع مكتبة جميلة خصصها لهم السلطان احمد الثالث وهو الذي وضع بيده عام —١٧١٩— الحجر الاساسي لهذا البناء بحضور كبار رجال بلاطه . ولكل دائرة حمامها الخاص وهناك حمام خامس اكثر اناقة مخصص لرؤساء موظفي الدوائر الاربعة .

وهناك قوانين قديمة تقرر النظام الداخلي لكل دائرة او فرقة . معينة وقت النوم ووقت الاستيقاظ ووقت الاستراحة ومواد الدرس . فعلى غلمان الدوائر الثلاث الاخيرة ان يستيقظوا قبل الفجر بساعتين وذلك في جميع الفصول ولا يمكنهم النوم بعد صلاة الصبح الا بين اول نيسان واول تموز . ويعطى شرطي كل دائرة اشارة الاستيقاظ بان يضرب ثلاث ضربات بمطرقة على لوح من الحديد معلق باحدى عواميد الغرفة . وتعطى نفس الاشارة للنوم بعد صلاة العشاء اى بعد غياب الشمس بساعتين تقريبا .

ويخصص اساتذة لهذه الدوائر يقيمون باعطاء دروس عامة . ولكل دائرة امامها الخاص مع ثلاثة موذنين وتنص القوانين على ان تقام في كل دائرة مساء كل يوم خميس وبعد صلاة العشاء ادعية لحفظ السلطان ولانزال اللعنات على اعدائه وعلى كل خائن للدين وللدولة من رعيته . ويشدد الرؤساء على الا يحصل تهاون قط في تادية هذه المراسيم الدينية . فيناظرون الدروس وينتبهون لحفظ النظام والادب حتى في اوقات الراحة . وليتاكد السلحدار اغا من يقظتهم فانه يقوم غالبا ومتخفيا بدورات تفتيشية في هذه الدوائر

يتداول موظفو الدائرة الاولى كراتب سنوى الف قرش وحلية من الجوخ المذهب . ويعطون يوم قبولها مبلغ الف قرش تحت اسم " ثمن الخنجر " مع فروة سمور وثوب كامل وعدة فرس بقيمة الفي قرش . ولاياخذ خدم الدوائر الثلاث الاخرى سوى مبلغ ستين قرشا في السنة . وهذا الراتب داخل ضمن المبالغ المعطاة للانكشارية . وكل منهم ياخذ ايضا يوم دخوله مبلغا من الدراهم يسمى *Adjemilik* اى دراهم مدة الابتداء وهي : خمسة واربعون قرشا لخدم الدائرة الثانية ، واربعون لخدم الدائرة الثالثة وخمسة وثلاثون للرابعة . ويفرق عليهم علاوة على ذلك كمية من النقود الفضية في عيد المولد النبوى وفي اوقات اخرى من السنة .

ويسمح لخدم الدائرة الرابعة ان يقدموا للسلطان في الخامس عشر من رمضان شرابا يسمى *Boukhour Souji* مصنوع من العنبر وروح عود الند ومن مختلف الطيوب حيث تملاء في اربعين زجاجة طويلة وتوضع فوق طبق وتقدم له . ويمنحون من اجلها الف بارة للواحد اى ثمانية قروش وثلث ويسمح لهم

وذلك حسب عادة قديمة ان يطلبوا هذه المنحة بعريضة توضع فوق الطبق حيث يوافق عليها السلطان بان يكتب بيده كلمتين عليها . ويقدم غلمان الدائرة الثالثة ايضا تقدمتهم الا انها ابسط من سابقتيها وهي مؤلفة من ماء اول مطر نيسان يجمع من على سطح وتوضع في اوان من الصيني . اذ يعتقد ان هذا الماء نافع للصحة الا انه يحصل في بعض الاحيان ان المطر لايهطل في نيسان ولكن الخدم يستعيضون عنه بما كانوا قد حفظوه من مطر نيسان في السنة الماضية . ويمنح ايضا لكل واحد منهم الف بارة .

وبما انه يترتب على هؤلاء الموظفين والخدم ان يقيموا دائما في السراى فانهم لايتزوجون ويسمح فقط للسلحدار اغا ولامين الخزينة السكنى في المدينة وبذلك يمكنهما الزواج . الا انه ايضا لايحق لهما الغياب عن القصر سوى مرة واحدة في الاسبوع ولبضع ساعات فقط في مساء يوم الخميس .

كان يحق للخدم فيما مضى ان يتركوا دائرتهم بعد ان يخدموا سبع سنين فيها وان يتوظفوا في الدولة كل حسب درجته فالذين ينتمون للدائرة الاولى كانوا يحصلون عادة على وظيفة قبوجي باشي . اما البقية فقد كانوا يعينون في فرقة الفرسان . الا انهم خسروا هذه الحقوق التي زالت منذ امد طويل . ولكنهم طالبوا بها بقوة على اثر ثورة فرقة الفرسان اثناء الاضطرابات القوية التي قامت بعد نكبة السلطانين عثمان الثاني وابراهيم الاول . اما الان فليس هناك غير العجزة من خدم " الخاص اوضلي " والمتقدمين في السن وخدم السراى الداخلية الذين ظلوا في المراتب البسيطة الذين يلتمسون اطلاق سراحهم . وهم يحصلون اذ ذاك بمعونة السراى على عمل صغير . الا ان موظفي الدائرة الاولى يتوصلون بسهولة الى اعتلاء المراكز الرفيعة . وانه من النادر الا يحصل السلحدار اغا على منصب حاكم ولاية مع منحه الرتبة الباشوية من ذوات الاطواغ الثلاثة حتى انه شوهد بين موظفي السراى هؤلاء من تقدم راسا الى قصر الباب العالي متقلدا رتبة الصدارة .

الطبقة الخامسة

الخصيان السود

ان هؤلاء الخصيان وعددهم يقارب المئتين وهم مخصصون لحراسة الحرم السلطاني ولهذا السبب يدعون اغاوات الحرم . ورئيسهم هو القزلراغا اى اغا الفتيات وهو بنفس الوقت يرأس فرقة " البلطجية "

وهو المدير العام للاوقاف الدينية المخصصة لمكة والمدينة ولجميع باقي الاوقاف المعينة لاكثر جوامع العاصمة والولايات . ان هذا المنصب يجعل له اعتبارا كبيرا . وتحصل بواسطته جميع المخابرات التي تقوم بين السلطان وبين الصدر الاعظم وهو يحمل رتبة الباشوية من ذوات الاطواغ الثلاثة وهو الوحيد من بين موظفي السراى الذين يحق لهم استخدام النساء الجوارى . واذا ابعد نفي فانه يرحل دائما الى مصر . يخلفه عند ذاك اما امين الخزينة او رئيس السراى القديمة او حاكم المدينة المنورة .

ويأتي بعده في رئاسة هولاء الخصيان الخزندار اغا وهو وكيل مصاريف الحريم وفرقة " البلطجية " يقدم كل ثلاثة اشهر مرة حساباته لامين الخزينة رئيس الدائرة الثانية . وهو يحمل ايضا رتبة الباشوية من ذوات الثلاثة الاطواغ .

ان اهم موظفي الخصيان السود بعد الخزندار اغا هو الباش محاسب الذى يبقى دائما قريبا من السلطان لكي يحمل اوامره الى القزلراغا .

وهناك ثمانية اوعشرة من اقدم موظفي هذه الفرقة يطلق عليهم اسم "محاسب" يخدم كل اثنين منهم دار السلطان مدة اربع وعشرين ساعة ويقومون بتوصيل اوامره لرئيسة الحريم . وهم يتوصلون عادة الى منصب حاكم المدينة المنورة .

اما بقية الموظفين فمنهم : "الاوضة لالا" ووكيل الخزينة " والباش قبو اوغلان" واليبلك باش قبو اوغلان" الذين يقومون عادة مقام حاكم السراى القديمة .

تجرى لهولاء العبيد السود وهم في حداثة سنهم عملية الخصي التامة . وافضل طريقة تعمل لشفائهم من هذه العملية غالبا ما تكون مميتة هي ان يغمروا الى وسطهم بالرمل مدة اربع وعشرين ساعة . ان اباءهم انفسهم هم الذين يخصونهم لكيما يبيعوهم باثمان باهظة . ويقوم حكام الولايات وخاصة حاكم ولاية مصر بواجب تقديم مثل هولاء الخصيان هدية للسراى . ولكبار الشخصيات ميزة استخدام خصيين او ثلاثة في حرمهم .

الطبقة السادسة

الخصيان البيض

يوجد في السراى ثمانون خصيا تقريبا من الذين اجرت لهم عملية " الخصي " الغير الكاملة او

او البسيطة . يدعى رئيسهم قبوطلر اغا . واهم الموظفين من بعده هو : " الخاص اوضة باشي " يحمل احدى الاختام السلطانية الثلاثة التي يستعملها في ختم الاشياء الثمينة التي تحفظ في بيت السلطان كما تحفظ ايضا زجاجات المياه التي بوركت بوضع طرف بردة النبي عليها والتي يفرقها السلطان في الخامس عشر من رمضان على كبار رجال الدولة . وهو الذى يلبس الشخصيات الخلع السنية او الفراء التي انعم بها السلطان عليهم بحضوره . وبما انه في كل مرة يحلق السلطان شعر راسه يقف الخدم مصطفين امامه وايديهم على صدورهم فان " الخاص اوضه باشي " يقف اذ ذاك على بضع خطوات من الاريكة قابضا بيده اليمنى على عصا محلاة بصفائح الذهب والفضة .

اما بقية موظفي هذه الفرقة فهم : اغا السراى الذى يحكم السراى عندما يكون السلطان في احد دور متنزهاته ، والخزندار باشي وكيل مصاريف الفرقة وهو يقدم حساباته لرئيس الدائرة الثانية ، والقلرجي باشي " مفتش حسابات مصاريف المطابخ ومكاتب القصر .

يسكن الخصيان السود قرب الحريم اما الخصيان البيض فيسكنون وراء باب السراى الثالث المسمى بباب السعادة . والسراى هي سجنهم وقبرهم اذ لايمكنهم مفارقتها قط . وليس للخصيان البيض من امل سوى الترقي الى منصب مدير مدرسة غلطة المخصصة للخدم الغلمان وهو منصب يمكن ان يتوصل صاحبه عادة الى منصب القبواغا .

وظلت رئاسة الخصيان البيض اول وظيفة في السراى مدة ثلاثة قرون وهو لايترك هذا المركز الا ليستلم وظيفة حاكم ~~ولاية [illegible]~~ تكون او ولاية مصر في ~~غالب الاحيان~~ الاعم الغالب . وقد توصل كثيرون منهم الى رتبة الصدارة كالخصي علي باشا والخصي بنان باشا والخصي سنان باشا الخ .. واشتهر معظمهم بمقدرتهم وبراعتهم في الفنون الحربية ولكن اشهرهم كان غضنفر اغا وهو من اصل مجرى اسر في صغره وربي بين غلمان السراى واعتنق الاسلام . وقد خضع لاوامر السلطان سليم الثاني وقبل ان تجرى له عملية الخصي المميتة لكيما يصبح رئيسا للخصيان البيض الذين كانوا الوحيدين اذ ذاك في خدمة السلطان . ثم توصل الى منصب رياسة الخصيان البيض حيث بقي فيه يتناول مرتبا كبيرا مدة ثلاثين سنة اثناء حكم سليم الثاني ومراد الثالث ومحمد الثالث وكان له تاثير كبير في شوءون الدولة الا انه قتل سنة —١٦٠٢— في ثورة قام بها الجند . ومذ ذاك اخذ الاعتبار المعطى لرئيس الخصيان البيض في الزوال ولوحظ ارتفاع شان موظفين من موظفي القصر وهما : رئيس الخصيان السود والسلحدار اغا . وكان علو مركز الواحد بالنسبة للاخر يختلف حسب تقربهما وحظوتهما من السلطان . وكان رجال

السلحدار اقوياء مدة حكم كثير من السلاطين . فالسلحدار مصطفى باشا والسلحدار يوسف باشا الاول
زمن مراد الرابع والثاني زمن السلطان ابراهيم كانا من وزراء القبة يقومان بوظيفتهما هذه في السراى .
وقد توصل السلحدار يوسف باشا الى منصب امارة البحر وقاد اول حملة على جزيرة كانديا . مع ان
وظيفة سلحدار كانت دائما تابعة واقل شانا من منصب رئاسة الخصيان البيض ، وهولاء لم يخسروا
افضليتهم الا سنة -١٧١٠- في حادثة تستحق الذكر . وهي ان عثمان اغا رئيس الخصيان البيض
وكان رجلا قاسيا ومتكبرا حاول استرداد ما كان لمركزه من افضلية . وبما انه كان يحسد السلحدار
علي اغا على ماكان عليه من الحظوة السلطانية فقد صمم على ازالته من امامه . ففي احد الايام عندما اراد السلطان
احمد الثالث ان يقوم بنزهة الى " سعد اباد " وهو مكان معروف الان باسم " المياه العذبة "
تجرأ رئيس الخصيان البيض ومنع السلحدار من الدخول الى عربة السلطان وهدده ان فعل يسلخه
حيا . وما ان وصل السلطان بزورقه الى المكان الذى كان ينتظره فيه موكبه حتى تعجب جدا من رؤية
السلحدار ينتحل مختلف الاعذار بعدم مرافقته . الا انه اخيرا امره بالصعود الى المركبة واكد عليه
ان يشرح له سر ذلك . ولما فعل ذلك غضب السلطان من وقاحة رئيس الخصيان ولم يكد ينزل في
" سعد اباد " حتى اصدر امرا بخلع رئيس الخصيان البيض من رئاسة قصره واعطاها للسلحدار اغا .
وظل السلاطين من بعده يعملون وفق هذا الترتيب . واشتهر هذا السلحدار نفسه فيما بعد
باسم الداماد علي باشا اذ رقي الى منصب الصدارة وتزوج احدى بنات السلطان وقد اخذ الموره من
البنادقة ومات عام -١٧١٦- في معركة Peterwardein التي انتصر فيها الامير اوجين انتصارا باهرا .
وقد صمم زمن تسنمه الوزارة ان يحط من شان الخصيان السود حتى انه اراد اقصاءهم بالمرة .
وقد قدم لهذه الغاية كل العروض والاسباب الى السلطان احمد الثالث الا ان هذا راى انه غير
مناسب بعد نقض عادات القصر القديمة . الا ان روساء الخصيان السود استردوا بعد موت منافسهم
القوى ماكان لروساء الخصيان البيض من شان وخلفوهم في ادارة شوءون الاملاك المخصصة لمكة
والمدينة ولمعظم مساجد الدولة .

فالقزلراغا هو الان اليوم اول موظف في السراى ولهذا يدعونه الاغا الكبير . وتاتي رتبته حالا
بعد رتبة الصدر الاعظم والمفتي . وكان روءساء الخصيان السود هولاء يديرون شوءون الدولة في اثناء
قصور الامراء او اثناء حكم السلاطين الضعاف العديمي المقدرة . وقد حصلت في غالب الاحيان من

اجل ذلك منازعات فاضحة بينهم وبين الصدور العظام .

فرئيس الخصيان السود ورئيس الخصيان البيض والسلحدار والجوخدار واغاوات الركاب ورؤساء الدوائر الثلاث الاخيرة يعينون من قبل السلطان الذي يقلدهم مناصبهم بان يخلع عليهم بحضرته فراء من جلد السمور . وهذه الميزة تجعلهم مستقلين عن الصدر الاعظم الذى يشرف على كل المناصب حتى على اولى مناصب البلاط . ويحق لهم مقابل ذلك ان يقدم كل منهم للسلطان مذكرات عن شؤون دائرته .

ويجب ان يكون بلاط السلطان لما يكون تاما مؤلفا من فرقة تعد (١٢٠٠٠) رجل تعرف باسم " قلج " اى سيف دلالة على صفتها العسكرية . وهو ايضا عدد عينه محمد الثاني لفرقة الانكشارية وهذا راجع لاعتقاد ديني يشير الى هذا العدد (١٢٠٠٠) مسلم المتهيئين للمحاربة من اجل الدين . غير ان هذا العدد يختلف كما يختلف عدد الانكشارية حسب المناسبات وبقدر ما يكون ~~حسب درجة اقتصاد~~ السلطان مقتصداً .

الفصل الرابع

الحرم الهمايوني

كان اول السلاطين العثمانيين يتزوجون من اميرات مسلمات ومسيحيات فاورخان تزوج نيلوفر خاتون ابنة امير Yar Hissar اليوناني كما تزوج تيودورا ابنة الامبراطور Jean Cantacuzène وتزوج مراد الاول اميرة بزنطية وهي ابنة عمانوئيل الثاني . وكان لبيازيد الاول ثلاث نسوة : ابنة ملك كرميان Kermeyan واميرة بزنطية ومارى وهي اميرة صربية وقعت معه في الاسر في حربه مع تمرلنك . اما زوجة محمد الاول فقد كانت اميرة من البيستان Elbistan وتزوج خليفته مراد الثاني اميرة من قسطمونيا كما تزوج من ايرين ابنة جورج ملك الصرب . واخيرا فالسلطان محمد الثاني كان متزوجا اميرة من البيستان واخرى من قرمانيا .

وقد شرف ثلاثة سلاطين بعض النساء من رعيتهم وذلك بضمهم الى حرمهم . فعثمان الاول تزوج ابنة المفتي الشيخ اضبالي وعثمان الثاني تزوج ابنة المفتي اسعد افندى . وفي سنة ١٦٤٧ احتفل ابراهيم الاول بزواجه من احدى نساء حرمه Telly Khasseki التي لقبت بعد ذلك بالشاه

سلطانة . ومنذ ذلك الوقت لم يتزوج احد من سلاطين ال عثمان ، الا ان كثيرين منهم عقدوا روابط اتصال جسمية مع بعض نساء حرمهم وذلك لجعل اولادهم منهن قانونية كما سنرى فيما بعد . ولهذا فان حرمهم لم يكن مؤلفا الا من السراري . واغلبهن كن يشترين والبقية كن يقدمن للسلطان كهدية من السلطانات وكبار رجال الدولة وحكام الولايات . ومن كان يريد ان يقوم بمثل هذا العمل نحو السلطان فانه يُعنى بتربية فتيات ممن خصتهن الطبيعة بالمزايا الحميدة . وعندما يصرن في العاشرة او الحادية عشرة من سنهن يرسلن الى السراي بافخر زينة .

اما الجواري اللاتي يشترين للسراي فانهن ينتقين من قبل رئيس جمرك الاستانة . وهو يفضل اكثرهن جمالا وجاذبية ويخصصن لاشغال بعض المراكز الشاغرة في اخر مراتب الحريم . الا انه ما من فتاة تقبل مهما كان الشخص الذي قدمها قبل ان تفحصها امراة مخصصة لمثل هذا العمل . ووجود اقل عاهة جسدية فيها كافية لرفضها .

واللاتي يقبلن حديثا يتعلمن مبادىء الدين الاسلامي على ايدي بعض النساء ، كما يتعلمن القراءة والكتابة والخياطة والتطريز ويدربن على الموسيقي والرقص اذا اظهرن استعدادا لذلك . وبعد هذا التدرب الاولي يبدأ عملهن في الحريم الذي يقسم الى خمس مراتب : مرتبة الخاتون Cadine وهي كلمة محرفة من خاتون وهو لقب يعطى للنساء اللاتي من اصل طيب ويقابل كلمة سيدة Dame ومرتبة ال Guediklis وال Oustas وال Shaguirdes والسراري .

١ ـ النساء من رتبة خاتون . وهن حظيات السلطان . ويحصلن على الامتيازات التي كانت للسلطانات القديمات زوجات السلاطين ويتمتعن بها . ويكون عددهن عادة اربع الا انه كان لمحمود الاول ست منهن ولعبد الحميد في اخر ملكه سبع . وان عدم الاعتدال هذا ومصاريف الحريم الكبيرة في زمن كثرت فيه المصائب كان من اسباب ملامة الشعب له .

ويعرف هولاء النساء بهذه الاسماء : الخاتون الاولى او الثانية او الثالثة الخ . . . وذلك حسب اقدميتهن . وقبل عهد احمد الثالث كان يعطى لقب " خاصكي سلطان " للتي تلد من السلطان ولدا ذكرا . اما التي تضع انثى كانت تلقب فقط " خاصكي خاتون "

وعندما ترقى احدى السراري الى مرتبة خاتون فان رئيسة السراي تدخلها قصر السلطان عند الحريم وتلبسها فروة من جلد السمور . وبعد ان تحصل على هذا الاعتبار الممتاز تذهب وتقبل رداء السلطان الذي يجلسها الى جانبه . وفي اليوم نفسه يعين لها مكان سكن خاص كما يعين لها جواري لخدمتها . وموظفين خصوصيين ولكنها لاتراهم ابدا .

وكثيرون هم السلاطين الترية تزوجوا محظياتهم قبل ان يرفعوهن الى رتبة خاتون • وقد استعملوا هذه الطريقة لكي يزيلوا تبكيت ضميرهم الورع • فالقانون الديني يمنع استعباد شخص ولد حرا ومسلما لهذا فان اى علاقة بين سيد وجاريته لاتكون قانونية الا اذا كان متاكدا من انها لم تولد مسلمة ولا حرة • واذا كان يفتقر الى مثل هذا الاثبات ويريد معاشرتها عليه كي يطمئن ضميره ان يعتقها ويتزوجها • ويتزوج السلطان عند ذاك جاريته المعتقة بحضور المفتي بدون اى احتفال • وفعل مثل ذلك في ايامنا مصطفى الثالث والسلطان عبد الحميد • الا ان هذا الزواج الذى يظهر فائتنا جدا لايرفع خاتونا فوق رفيقاتها الا اذا تمتعت باعتبارات شخصية عالية •

٢ _ النساء من رتبة (١) Guédiklis

هن مخصصات لخدمة السلطان • وكثيرات منهن يحملن اسم وظيفتهن مثلا ناظرة المائدة وناظرة الملابس الخ ••• (جاشنكير اوسطه) (وجامشير اوسطه الخ •••) ولكل واحدة من الاثنتي عشرة اصغرهن سنا عمل مقابل لعمل موظفي القصر الداخليين (خاص اوضه لي) ويلقبن مثلهم باسم وظيفتهن الخاصة • واذا ماتت خاتون • او احيلت الى السراى القديمة فان السلطان ينتقي الفتاة التي تخلفها من بين هولاء الفتيات اللائي يوءلفن نخبة الحرم • وخيانة السلطان لنسائه تكون مع هولاء الفتيات • وتلقب تلك التي يقع اختياره عليها " اقبال " اى المنتقاة او المختارة او " خاص اوضه لك " (٢) اى خادمة غرفة السلطان الا انها تبقى مع رفيقاتها ولا تحصل على رتبة خاتون الا اذا حملت منه •

لم يكن السلاطين سابقا يتبعون اى قاعدة من هذا القبيل فقد كان لهم عدد كبير من النساء ويغيرونهن مرات متعددة • وكان لكثير منهم مدة حكمهم اكثر من ثلاث مئة • ولم يكونوا يمنحون رتبة خاتون الا لواحدة او اثنتين من اللواتي انجبن لهم ابناء • وكان مراد الثالث من اكثر سلاطين ال عثمان ميلا للنساء فقد كان له مئة وثلاثون ولدا وترك عند موته ستا وعشرين ابنا وعشرين ابنة • وكان يعاشر اربعين محظية من " الخاص اوضه لك " ولم تتوصل والدته التي هالها افراطه الى اقناعه بهذا العدد الا بعد جهد كبير •

---

(١) كودكلي معناها اجرة وراتب ويدل هذا الاسم ايضا على عدد كبير من الموظفين المدنيين والعسكريين

(٢) يراد بكلمة "خاص" كل ما هو مخصص لخدمة السلطان وبكلمة "اوضه لك" ما هو متعلق بالغرفة

واخذ السلاطين منذ محمود الاول يعدلون في ميولهم ولم يحيدوا الا قليلا عن قاعدة تمشوا عليها في مراعاة الخزينة والراى العام .

٣ _ النساء من رتبة " اوسطه " ويدعين ايضا " خلفس " وهن يخصصن لخدمة السلطانة الوالدة ولخدمة نساء السلطان من رتبة خاتون واولادهن ويقسمن الى فرق تتالف الواحدة منها من عشرين الى ثلاثين فتاة . وتحمل كل فرقة من هذه الفرق اسم الشخص الذي تخدمه .

٤ _ الShaguirdes او المبتدئات يهيئن لاشغال المراكز الشاغرة في رتبتي الكدكلي واوسطه

٥ _ اما بقية نساء الحريم فانه يطلق عليهن لقب جارية .ويقمن بالاعمال العادية . ومن النادر ان يخرجن من هذه المرتبة الاخيرة .

فالحرم الهمايوني يتالف اذن من خمس الى ست مئة امراة من مختلف الاقطار من اوروبا واسيا وافريقية . ومعظمهن يجهلن اصلهن . ويتخذن اسماء تختلف عن اسماء النساء الاحرار كاسم حياتي وصفائي و Dolbesté اى التي تربط القلب ، ونور الصبا وكلبهار اى زهرة الربيع الخ .... ولهن رئيسة كبيرة يطلقون عليها اسم " كيخية خاتون " ينتخبها السلطان عادة من بين اكبر نساء الGuédikhs سنا . وللدلالة على مركزها ورتبتها فانها تحمل عصا الرئاسة محلاة بصفائح الفضة وخاتما همايونيا تستعمله في ختم مختلف الحاجيات الموجودة في جناح السلطان . ويحفظ لها كل النساء منتهى الاعتبار حتى ان السلطان يمنحها لقب والدة اذا لم تكن والدته على قيد الحياة .

وتساعدها في وظيفتها هذه نائبة لها تحمل لقب خازنة (خازنةدار اوسطه) وهي تعنى بثياب السلطان وتشرف على مصروف الحريم . وترافق نساء القصر عندما يذهبن الى دور النزهة لقضاء الصيف بينما تبقى الرئيسة الكبيرة في المدينة مع بقية الحريم .

ويحيط بدائرة الحريم في القصر سور عريض له منفذ واحد الى الداخل وهذا المنفذ مغلق ببابين من البرونز وببابين اخرين من الحديد . ويقوم على حراسة هذه الابواب في الليل والنهار جماعة من الخصيان السود ولا يمكن لرئيسهم نفسه ان يتعدى هذا الحد الا بامر رسمي من السلطان . ويقع في وسط دائرة الحريم هذه جناح السلطان الخاص . والامكنة الهامة فيه هي غرفة النوم وغرفة العرش . ففي غرفة النوم يقوم سرير السلطان على مكان مرتفع ويحيط به سجاف من الحرير الاطلس

مزركشة بالذهب والدرر الثمينة . ويتالف اثاث بقية الغرفة من اريكة مغطاة بقماش من الجوخ المذهب وفي غرفة العرش يستقبل السلطان الاميرات من عائلته والنساء من رتبة خاتون كما يحتفل بها باكثر الاعياد المدنية والدينية . وهي محلاة بنقوش مذهبة ، وموثثة باثمن الارائك وتقوم في الزوايا الاربع عروش تتلألأ بالذهب والحجارة الكريمة . ويوجد وراء هذا الجناح بناء مكون من ثلاث عشرة غرفة توءلف دائرة ثياب السلطان الذى يسمى "كنز الحريم" وهو تحت عناية نائبة رئيسة القصر . وبالقرب من هذا المكان توجد غرفة الحمام ارضها من الرخام تقوم فيها عواميد من الرخام السماقي . ويخدم السلطان في الحمام نساء من رتبة الـ "Guédikli" [١]

وهناك بناء مدور واسع ذو قبة اسمه "صوفا" يوءدى من ناحية الى جناح السلطان ومن الناحية الثانية الى دور النساء من رتبة "خاتون" . وهذه الدور ملتفة حول هذا البناء المدور وكل واحدة منها موءلفة من عشر الى اثنتي عشرة غرفة ويسكنها النساء من رتبة "خاتون" بحسب اقدميتهن . وتقوم من الجهة الخلفية دار رئيسة القصر الكبرى ودار مساعدتها . ثم تقوم على مسافة قريبة ابنية الـ Guédiklis والـ Oustas والـ Shaguirdes والـ "الجوارى" وهي مفترقة عن بعضها البعض ولكل خاتون حمامها الخاص وكذلك لرئيسة القصر الكبرى . وهناك حمام عام لبقية نساء الحريم يكون حاضرا في جميع اوقات الليل والنهار .

ولا يشاهد النساء من رتبة خاتون بعضهن بعضا الا نادرا ولا يتزاورن الا في الايام الرسمية حتى هذا لايحصل الا باذن من السلطان او على الاقل بموافقة رئيسة القصر .

وهن يرتدين ملابس الاميرات من ازياء السلطان . والعلامات البارزة في ملابسهن هي شبابك من الماس واكمام خارجها من الفرو تصل حتى الكوع ، وخصل من الشعر فوق الجبين ، ويكون بهذه الملابس بصورة خاصة في جمال الشال الكشميرى الذى يستعمل كوشاح لتغطية الراس والكتفين . وترتدى النساء من رتبة "اقبال" الاجواخ الثمينة وفي الشتاء الثياب ذات الفراء . اما ثياب الـ Guédiklis والـ Oustas فهي طويلة الذيل وغير مسموح لهن بلبس الفراء ، الا انهن يضعن على وسطهن الشال مثل النساء من رتبة "اقبال" او بزنانير تنتهي بشبابك من الذهب محلاة احيانا بالحجارة الكريمة .

وتتقاضى النساء من رتبة خاتون حسب درجاتهن . فالاولى منهن تتقاضى عشرة اكياس في الشهر اى "٦٠٠٠" قرش سنويا . اما الباقيات فتاخذ كل واحدة منهن كيسا انقص من التي اعلى

ويوجد في الاابيه وهي "سنة ادخة" جماعة آخرى يقوم على خدمة السلطان فيها موظفوه وغلمانه

منها . اما الرئيسة فتاخذ خمسة اكياس ونائبتها ثلاثة . وتوءخذ هذه النقود من اموال اوقاف مكة والمدينة التي يشرف عليها رئيس الخصيان السود . اما الرئيسات الكبيرات فانهن يتناولن منذ عام ١٦٨٩م جعلا من ٧٥٠٠ قرش في السنة وقد عين لهن ذلك سليمان الثاني .

اما بقية النساء فانهن ياخذن كل فرقة بفرقتها . تتناول Guedikhs ومعهن النساء من رتبة اقبال كل واحدة منهن على ٢٥٠ قرشا كل ثلاثة اشهر وال Oustas ٢٠٠ وال Schaguirdes ٥٠ والجاريات ٣٥ . وهذه الاموال توءخذ من جمرك الاستانة . وتفرق على كل نساء الحريم في عيدى الفصح والاضحى ويوم المولد النبوى وعندما يذهب السلطان الى قصره الصيفي وحين رجوعه الى العاصمة . وعندما تصبح احدى نساء السلطان أماً تحصل على الهدايا الثمينة على جعل "خاص" من ثلاثين او خمس وثلاثين الف قرش سنويا .

وما من سلطان كان كريما نحو حريمه كما كان السلطان عبد الحميد الذى كان يسرف في اعطاء المجوهرات لنسائه اللاتي كن يخترعن في لبسهن ازياء جديدة . وهذا التبرج ما فتيء ان تسرب بصورة تدريجية الى نساء العظماء . الا ان ذلك زال بموت هذا السلطان الضعيف . الذى اوجده والذى كلفه (١٥) مليون قرش تقريبا .

ويعاشر السلطان نساءه بالمناوبة اذ لكل واحدة منهن يومها او دورها . والتي منهن دبكون مستعدة لمقابلته في دورها فان السلطان لا يتوانى عن مقابلة غيرها في تلك الليلة .

وعندما يصرف السلطان ليلته عند الحريم فانه ينام دائما في غرفته حيث تدعى الخاتون التي يكون دورها في تلك الليلة . فاذا طلبها قبل طعام العشاء فانها تتناول الطعام ولكن ليس على مائدته بل على غير مائدته لانه لايحق لسوى السلطانات فقط تناول الطعام معه .

ومن النادر ان يذهب السلطان لزيارة احدى نسائه الا اذا كانت او كان احد اولادها ضعيفا . وهو دائما يلبس عند دخوله دائرة الحريم احذية نعالها من الفضة حيث يدل صوتها على قدومه كي تختفي النساء عن انظاره . لان وجود احد في طريقه يدل على قلة الاحترام (١)

ان هذه الحالة التي تسير على نمط واحد في دائرة الحريم لاتتغير الا في اوقات الوضع عند احداهن . اذ تقام حينئذ عوائد مالوفة منذ القديم . فبعد الوضع بثلاثة ايام تنتقل الخاتون الى غرفة خاصة اعدت لها مزينة بفاخر الرياش . ويتالف هذا الاثاث التي تحصل عليه كل خاتون في ايام وضعها الاول من سرير اغطيته من الحرير الاطلس القرمزى اللون مزركشة بالياقوت والزمرد واللوءلوء .

---

(١) كذلك الامر اذا كان يتنزه في حدائق السراى فلا يحق لاحد ان يظهر وينزل العقاب على من يخالف ذلك

واللؤلؤ . وعلى زوايا السرير الاربع كرات من الفضة محلاة بالاحجار الكريمة ويتدلى من اعلاه اثنتا عشرة حبة من اللؤلؤ والياقوت . ومن طنافس من الحرير الاطلس القرمزي اللون ايضا ومن اريكة من الاطلس الازرق . (١) الا انها لاتحتفظ بهذا السرير الامدة ستة اسابيع فقط اذ بعدما ينقل الى مكان معد لحفظ الاثاث حيث لايخرجونه مرة ثانية الا عندما تكون الخاتون نفسها/حالة منه في حالات الوضع. وبما ان الحجارة الكريمة التي تزين هذه الاجهزة تبقى دائما في بيت المال فان المصاريف لاتكون باهظة جدا .

وبعد ان تستقر الخاتون في هذه الغرفة ترسل رئيسة القصر بطاقات دعوة تدعو فيها السلطانات المتزوجات ونساء اهم شخصيات الدولة ليحضرن ويقدمن تهانيهن . وتكون بطاقات الدعوة هذه مصحوبة بالأواني الصيني المملوءة شرابا . وتجتمع النساء المدعوات عدا السلطانات عند زوجة الصدر الاعظم حيث يركبن العربات ويذهبن معاً الى الحرم السلطاني .

وبعد ان يدخلن الى غرفة النفساء يحيينها بوضع شفاههن على طرف غطاء السرير ثم يجلسن على الارائك . وبعد برهة وجيزة تدخل السلطانات . وبقية نساء السلطان فيقدمن تهانيهن للنفساء ثم يجلسن على اريكة نصبت لهن خصيصا مقابل السرير كي يميزن عن بقية المدعوات. وفي اثناء هذه المقابلة تقف جاريتان فترفعان الاستار عن السرير حيث تكون القابلة في اسفله قرب المرضع التي تكون حاملة المولود الجديد . وتسمع اثناء ذلك انغام شجية لطيفة صادرة عن جاريات موسيقيات جاثيات فوق الطنفسة .

ويضاء في نفس الوقت الحرم السلطاني كما يضاء باقي السراي ويكون هذا اشارة لافراح الدولة . وتلمع الانوار في ذلك البناء المدور الواسع الذي يفصل بين بيت السلطان وبيوت نسائه . وفي هذا المكان تتسلى الشابات من نساء القصر في القيام بجميع انواع الفكاهات .فتطلق لهن الحرية للقيام بجميع انواع الالعاب المرحة . فيتخفى البعض منهن على هيئة اتراك والبعض الاخر على هيئة اوروبيين فيقلدن بسخرية مقابلة احد السفراء الاجانب للصدر الاعظم ليسمع منه خبر اعلان الباب العالي الحرب على بلاده . فيقبضن عليه ويسقنه مصحوبا بعياط السخرية والاستهزاء . او انهن يقلبن الى هزء مآتم اليونانيين فيظهرن بملابس رجال الدين حاملين المبخرة ويرتلن مثلهم بينما تردد باقي النساء ما

---

(١) لقد اتيح للكاتب مشاهدة مثل هذا الاثاث سنة ١٧٧٩ عند جوهري السراي حيث كانت تشتغل ثمانون طرازة تقريبا كلهن مسيحيات .

يرتلنه . وهن يقلدن ايضا رجال الشرطة ويضربن بالعصا اسفل ارجل من يقع بين ايديهن . وهن في هذه الاوقات المباحة يقلدن حتى السلطان نفسه . فقد قلدن السلطان عبد الحميد امامه شخصيا في الاعياد التي اقيمت عام ١٧٨٠ احتفالا بميلاد الاميرة السلطانة ربيعة . اذ كان السلطان قد امر بداعي الاقتصاد نساء القصر الا يلبسن ثيابا لها اطواق طويلة متهدلة . الا انه بينما كان يتمشى وهو متخف لاحظ ان بعض النساء لم يتقيدن بامره فغضب الى درجة انه اراد ان يقصر اطواقهن بيده . فهذه الحادثة التي كان لها تاثير في المدينة كانت بعد حديثة العهد عندما مثلتها شابات القصر . وكانت احداهن لابسة ملابس السلطان فهجمت وبيدها خنجرا على جماعة من رفيقاتها كانها تحاول قطع اطواق ثيابهن الا انهن هربن من امامها صارخات خوفا وفزعا . وقد طرب السلطان عبد الحميد كثيرا لهذا المشهد وكان جالسا مع السلطانات على مرتبة محجوبة بشعرية . اما النساء المدعوات فقد كن في المرتبة المخصصة لنساء السلطان .

وتعاد الالعاب نفسها في اليوم التالي . ويخصص اليوم الذي بعده اي السادس من ايام الوضع للاحتفال بتسليم المهد ويقوم على تكريمه الصدر الاعظم فانه يرسله الى السراي بموكب مؤلف من وزراء الدولة ومن معظم موظفي قصره . واذا كان المولود ذكرا فان المهد الذي يكون مرصعاً بالذهب والحجارة الكريمة محلى بنيشان ثمين وينقل باحتفال حتى باب الحريم من قبل موظفي الدائرة الاولى والدائرة الثانية وهم يرتدون زي الانكشارية ورجال السباه واللوند . للقيام بتمثيل جنود المشاة والفرسان والبحرية . ويكون على راسهم اسلحدار الذي يقدم المهد لرئيس الخصيان السود وهذا بدوره يتقدم بضع خطوات داخل سراي الحريم ويقدمه لرئيسة القصر فتاخذه لغرفة النفساء حيث تقدم كل النساء المجتمعات لاستقباله . اما الوالدة التي تكون جالسة في ركن الاريكة فانها ترمي داخل المهد قبضة من النقود الذهبية (دوقة) ويكون على يمينها السلطانات ونساء السلطان . وعلى يسارها النساء المدعوات اللاتي يقتفين اثرها ويضعن الذهب في المهد . ومن ثم تمدد القابلة المولود وهي تقول بعض الادعية والتمنيات وتردد كل الحاضرات كلمة امين . ومن ثم بعد ان تهزه ثلاث مرات تاخذه بين يديها . واذ ذاك تضع النساء الاقمشة الثمينة فوق المهد وتكون كلها هدية للقابلة .

وبعد هذه الحفلة تظهر جاريات يتقدمهن الموسيقيات ، يحملن بيد الشموع وباليد الثانية

اطباق الفاكهة والحلوى او اهرامات مصنوعة بخيوط وصفائح الذهب والفضة عليها باقات الورد . فيضعنها امام النساء المدعوات اللائي يحملنها معهن الى دورهن في اليوم التالي عندما يتركن السراي . وهولاء المدعوات يقمن طيلة ايام العيد الثلاثة في مساكن نساء السلطان ومساكن مديرتي القصر . وعند ذهابهن عليهن ان يقدمن هدايا ثمينة للنفساء وللمولود الجديد وللنساء اللائي اقمن عندهن وللسلطان نفسه ولاولاده . ان هذه الاعمال التكريمية تكلف زوجة الصدر الاعظم ما يقارب السبعين الف غرش وتبقية النساء كل واحدة حسب مقامها . ولا يستثنى من ذلك سوى زوجة المفتي فقط . ويمنح السلطان كل سيدة حلى وشالا واقمشة وفراء ونقودا ايضا . ولهذا السبب فان المصاريف العظيمة التي تسببها هذه الاعياد قد دعت السلطان عبد الحميد في اخر ايام ملكه الى ان تقصر الدعوة على الاميرات من عائلته فقط.

ولكن عدا هذه الحالات الغير الاعتيادية وعدا ايام عيد الاضحى التي تسمح بمثل هذه الافراح فان الحرم الهمايوني هو مكان تسوده الهدوء ويسير على نمط واحد . فلا يسمح لاي امرأة الخروج من القصر حتى انه ليس لهن الحرية في الذهاب الى الجامع الكائن في نفس القصر الا في الخامس عشر من رمضان بعد الاحتفال بمباركة المياه بتغطيس البردة فيها . وبعد ان يكن وحدهن اذ ذاك في الجامع المحاط بالخصيان السود يملأن زجاجات من هذه المياه التي يرسلها السلطان كهدايا لكبار رجال الدولة . ولا تتمكن النساء حتى من التنزه في حدائق القصر الا باذن من السلطان . ويعطى لهن من وقت لاخر الاذن بتمضية النهار في احد الاكشاك او البيوت المبنية داخل الحدائق . الا ان حفلات السرور فقط هي التي تتطلب دائما تجهيزات كبيرة . فقبل كل شيء تعطى الاوامر "للبستنجيه" وهم بوابو الاكشاك للابتعاد عن مراكزهم . وتنصب حول المكان الاستار يحرسها الخصيان من الخارج . وبعدها تقبل النساء منذ الصباح . وفي ساعة الافطار يحضر السلطان وينضم اليهن . الا انه يتقيد بالعادات فلا يتناول الطعام الا وحده . وهناك عادة في هذه المناسبات وهي ان يظهر الصدر الاعظم خضوعه لمولاه وذلك بان يرسل له الوانا كثيرة من الطعام معدة في مطابخه . فانه يرسل له باحتفال واحدا وعشرين طبقا عليها مئة وخمسون صحنا تقريبا . ان الصحون التي تغطي تسعة من هذه الاطباق والتي هي مخصصة للسلطان ونسائه هي مغطاة بنسيج احمر مختومة بيد "الكيخيه "بك" وزير الدولة الذي يذهب الى مطابخ الصدر الاعظم خصيصا من اجل ذلك . وعلى الموظف الذي يرافق حفلة الغذاء هذه ان يقدم للقزلر اغا رسالة من قبل الصدر

الاعظم تشير الى هذه المناسبة . واذا تناول السلطان في هذه المأدبة لونين او ثلاثة فان ذلك يعني انه منح كبير عطفه على وزيره الاول الذي غالبا ما يقدم مع هذه التقدمة لمولاه جوادا جميلا مجهزا باثمن عدة . وعلى السلطانات المزوجات والساكنات في المدينة وعلى امير البحر ولغا الانكشارية ورئيس الجمارك ان يرسلوا ايضا للسراي وبهذه المناسبة اواني من الصيني مملوءة ورودا وفاكهة . ان حفلات السرور هذه السماح بالخلوة الهمايونية تحصل اربع او خمس مرات في السنة . ولكنها تصبح رسمية بوجود السلطان فيها فلا يتخلى حتى يتنازل عن رزانته اذ من المعتقد انها ضرورية للعظمة السلطانية . ولهذا فلكيما يفسح مجال الحرية لنسائه فانه يتخلف احيانا عن مرافقتهن .

تقضي نساء السلطان عادة فصل الصيف مع السلطان في قصر يسمى بشكطاش وهو يقع على الضفة الاوروبية من البوسفور . وتؤخذ عندما يذهبن جميع الاحتياطات كي لا يشاهدهن احد ما . فيخرجن قبل بزوغ الشمس ويجتزن القصر في عربات محجوبة بالشعريات وتنصب الاستار من دائرة الحريم حتى "يلي كشك" حيث يصعدن الى القوارب المعدة لهن وعندما يدخلن يضعن شالا يحجب كل جسمهن . اما الخيمة التي تجلس فيها كل خاتون مع اولادها وحاشيتها فانها مغلقة بشعرية ويحرسها خصيان سود من الخارج . وعندما يأتين في القوارب يخفرهن رجال الحرس حيث يقفون على قوارب بسيطة كل منهم ممسك عصاه بيده وذلك ليبعدوا مراكب الناس .

لا يمكن لاحد من الرجال الدخول على الحريم عدا الاطباء ومع ذلك فهم لا يدخلون الا بامر خاص من السلطان عندها يرافقهم رئيس الخصيان السود . وتكون المريضة وكل النساء اللائي يحطن بها محجوبات بالشال . واذا اراد الطبيب جس نبضها فان يدها تكون مغطاة . واذا اراد النظر الى لسانها او عينيها يجب ان يكون باقي وجهها محجوبا . فالقزلر اغا نفسه لا يجرأ ان يلقي نظره على امرأة من الحريم . وعندما يصادف خاتونا او سلطانة عليه ان يقبل ثوبها .

ولا تشاهد نساء السلطان تقريبا ابدا نساء غريبات عن الحريم عدا جواري القصر القديمات اللائي اعتقن وتزوجن . وتفتح ابواب الحريم ايضا في بعض الاوقات لنساء عجائز يقدمن انفسهن كبائعات او طرازات او مدعيات علم الطب ويكون ذلك بتوصية من سلطانة او احدى كبار السيدات الا انه يجب ان تقدم اسماؤهن للقزلر اغا وان يؤذن لهن من السلطان .

وبواسطتهن تتمكن النساء اللائي اوصين بهن من الاتصال بالحريم وبالخاتون التي تكون لها

اكبر حظوة عند السلطان فتعمل هذه لصالح عائلات تلك السيدات.

ان التاريخ يعطي بعض الامثلة عن تاثير بعض النساء على السلاطين الضعيفي الارادة . فنساء السلطان ابراهيم الاول كن يتداخلن في شوؤن الادارة العامة . وقد افرطن في استعمال تاثيرهن الى درجة انهن كن يحصلن على ادارة حكم بعض الولايات ويمنحنها لاناس يحكمونها باسمهن . فان احداهن وهي السلطانة خاصكي تزوجها السلطان ففتنت لبه الى درجة انه غضب في احد الايام على السلطانات شقيقاته لعدم اعتبارهن كفاية زوجته فاجبرهن على ان يخدمنها وهي على الطعام وان يقمن حتى على صب المياه على يديها قبل الطعام وبعده . .

وتتمكن ايضا الجاريات اللائي اعتقن من الحريم بما بقي لهن من الاتصال بالسراى من تقديم مساعدات مفيدة للاشخاص الذين يستعطفوهن . ولهذا فانهن مرغوبات في الزواج (١) ويكون زواجهن غالبا متفقا عليه من قبل مع رفيقاتهن القديمات اللائي يكن قد تزوجن . ويكون عتقهن اما بدافع ديني او لوفاء نذر ما او لمناسبة وضع احدى نساء السلطان . الا ان ذلك يحصل غالبا عندما يتسنم العرش سلطان جديد . اذ من التقاليد ان يمنح السلطان الجديد الحرية لكثير من النساء الجواري وبصفة خاصة لنساء السلطان المتوفي وللنساء اللائي كان لهن حظوة عنده واللائي لم يصبحن امهات .

ولكن النساء اللائي انجبن اطفالا من السلطان السابق فهن وان كن معتقات قانونا فانه لايمكنهن التزوج والتمتع بحريتهن . اذ يحصل ابعادهن الى السراى القديمة بعد ان يحرمن من بعض مجوهراتهن ويفصلن عن اولادهن الذين لم يحتاجوا الى عناية امهاتهم . ولكن تعطى لهن الحرية في بعض الاوقات للذهاب ومشاهدة اولادهن في السراى . وان اللائي لهن اولاد من الذكور يكن موضع احترام زائد وتلك التي يكون ابنها الوصي على العرش تعامل بصورة خاصة بمنتهى الاعتبار .

---

(١) يتمكن الانسان بواسطة ازواج هولاء العبدات القديمات من معرفة الاشياء الخاصة التي تتعلق بالحرم الهميوني . وهذا العمل كلف الكاتب اتعابا وهدايا اكثر من جميع المواد الضرورية لبقية الكتاب .

الفصل الخامس

السلطانة الوالدة

عندما يعتلي احد السلاطين العرش تنتقل والدته باحتفال من السراى القديمة الى القصر .
ويخصص لها مبلغ موءلف من (٣٠٠٠٠٠) قرش تقريبا ويدفع السلطان من ماله الخاص مصاريف قصرها .
وتتالف حاشيتها من عدة موظفين اشهرهم وكيلها او (كهخيتها) وهو القائم على ادارة اموالها .
ولهذا المركز اهمية بما يكون للقائم على ادارة شوءون السلطانة الوالدة من تاثير اكيد على افكارها .
وهي تتمتع دائما بحظوة عالية ويعود هذا الى الاحترام الزائد الذى يكنه في قلبه كل سلطان عثماني لوالدته .
ومن اجل ذلك فهي غير مضطرة الى الاتصال بولدها لحل بعض الامور . اذ اى كلمة او بطاقة منها
تجعل الصدر الاعظم يخضع لارادتها اذا كان غير متصلب ولكونه خاضعا لهذا التاثير القوى فهو
لايحل الاعمال الكبيرة الا بموافقة السلطانة الوالدة او بالاحرى حسب مشيئة وكيلها . يمكننا والحالة
هذه ان نتصور مبلغ نفوذ مثل هذا الموظف اذا كان ماهرا جريئا وان نعرف الاساليب التي
يستخدمها لجمع الاموال حيث يعني باستخدام بعضها ليظل ذا حظوة وذلك بتقديم الهدايا
للسلطانة الوالدة وللسلطان . وعدا ذلك فانه بحكم مركزه يتقدم على كثير من وزراء الدولة .
ان السلطانة الوالدة مراعاة للتقاليد القديمة لاتنادى ولدها ابدا الا بالسدى او بالمرى بطلة .

الفصل السادس

السلطانات

منذ زمن محمد الرابع كان لايطلق اسم سلطانة الا على بنات السلاطين . وتقوم على تربية السلطانة
والدتها واذا فقدتها يعين لتربيتها خاتون ليس لها اولاد او احدى عجائز النساء من رتبة "كودكلي" .
ويعين للسلطانة جناح خاص كما يخصص لخدمتها النساء اللاتي كن في خدمة امها .
وكن يتزوجن فيما مضى من امراء اسيا الصغرى المسلمين كامراء قرمانيا وقسطمونيا الخ ... الا انهن
انهن لايجلبن ابدا لازواجهن كبائنة او مقاطعة او ممتلكات ما . كما انهن ايضا يتزوجن باسياد
عظام او علماء . والسبب في ان محمد الثالث كان يتساهل ويزوج السلطانات باشخاص من عامة

الموظفين وقد كان له (٢٥) اختا وكثيرات من البنات والقريبات . ولهذا فالمؤرخون يذمون هذه الزيجات عندما يتكلمون عنها . الا انه منذ زمن احمد الثالث اصبحن يتزوجن بباشاوات من ذوى الثلاثة الاطواغ اي من رجال من ارفع المراتب في الدولة .

وتتزوج هؤلاء الاميرات وهن في سن صغيرة وعلى الباشا الذى يعطى له شرف التزوج باحداهن ان يكون قادرا على اعاشتهـــا . ويقع الاختيار عادة على رجال كبيرى السن اغنياء وتتزوج الاميرة غالبا وهي في السادسة عشر من عمرها بعد ان تكون قد خطبت مرتين او ثلاثة . ويحتفل بزواجهن في السراى بنفس المراسيم التي يقيمها سائر الناس .

ويقوم رئيس الخصيان السود بتمثيل السلطانة في الاحتفال اما الباشا فيمثله وكيله او احد شخصيات البلاط . ويرأس المفتي حفلة عقد القران هذه حيث يعين فيها المهر الذى يترتب على الزوج ان يدفعه . ويكون من خمسين الف الى مئة الف ذهب ويصل احيانا الى اكثر من ذلك . ولا تحضر السلطانة ابدا حفلة عقد القران هذه . والباشا نفسه لايحضر الا كمتفرج ليس الا . اما السلطان فانه لايكون دائما موجودا فيها . الا انه يقدم لكل الحضور خلعة من قبل السلطان . ويقوم القزلر اغا ويلبس الباشا فروة ثانية من جلد السمور تكون من قبل السلطان كما يفعل ذلك مع المفتي ومعاونه . ومع امام مسجد ايا صوفيا .

ويتقدم ويعقب حفلة عقد القران هذه اعياد فخمة يقيمها الباشا حيث يدعو بالدور كل هيئات الدولة . ويبتدئ باحتفال ارسال هدايا الباشا لزوجته وهي مؤلفة من الجواهر كالخواتم والاساور والاقراط والمشابك ومن خزانة توضع فيها ادوات التبرج ومن وشاح ونعال وقبقاب عالي الكعب للحمام وكل هذه محلاة بالحجارة الكريمة او الدرر الثمينة . كما يضاف الى ذلك كيس من الجوخ المذهب يحتوى على الفين او ثلاثة الاف ذهب مع اربعين صحنا من الفضة مليئة بالحلويات . وكان التاج الذهبي المرصع بالحجارة الكريمة هو فيما مضى اثمن الاشياء التي تقدم للاميرة العروس . الا ان هذه العادة المأخوذة عن البزنطيين ابطلت منذ قرن تقريبا .

وبعد ارسال الهدية بيومين يعرض جهاز السلطانة في غرفة من غرف السراى حيث يحضر الصدر الاعظم والمفتي وكبار رجال البلاط ويضعون هداياهم في صناديق تحوى على جواهر الاميرة . وبعد ذلك يرافقون الجهاز عندما يحمل الى القصر المخصص لها . ويرى الناظر دائما في هذا الموكب هرمين او ثلاثة من صفائح الذهب والفضة .

وفي اليوم التالي تنتقل السلطانة من السراى الى قصرها الجديد يصحبها امراء البيت المالك وموظف

وموظفو البلاط وكبار رجال الدولة . وهناك يستقبلها زوجها والقزلراغا ويقودانها حتى باب الحريم ويكون كل منهما ممسكا بها من تحت ذراعها . يتبع ذلك مادبة فخمة للرجال والنساء كل على حدة . ثم بعد ان يخرج المدعوون وقت صلاة العشاء يحصل كل منهم هدية من الباشا فيتقدم رئيس الخصيان السود ويضع فوق اكتاف الزوج فروة من جلد السمور باسم السلطانة ويقوده الى غرفتها . ويعلن مجيئه بقوله : "ايتها الاميرة الجليلة هاك الباشا خادمك" ومن ثم ينسحب . وتكون السلطانة جالسة يحجبها ستار من القماش الثمين وبجانبها احدى نساء قصرها المقدمات وهي تقوم بوظيفة مدخلة كما يحصل ذلك في حفلات زواج سائر الناس . وبعد ان يقوم الباشا بتادية صلاته في احدى اركان الغرفة يتقدم ويقبل كساء السلطانة ، وينتظر من يدها اشارة لكيما يجلس بقربها .

وبعد مضي ستة اشهر تفصل السلطانة عن زوجها الا اذا كانت قد تزوجت من الصدر الاعظم او امير البحر الاكبر وهما الوحيدان من الباشوات الذين يحق لهم الاقامة في الاستانة بعد الغاء وزراء القبة . (١) وان كان الزوج حاكم ولاية فانه يرجع الى ولايته بعد زواجه . وان كان موظفا كبيرا في القصر او وزيرا اعطي رتبة الباشوية قبل زواجه عليه ان يذهب لحكم ولايته الجديدة التي عين لها وبالجهد يسمح له بعد عدة سنين بالرجوع وتمضية بعض الوقت في الاستانة واذا فعل عليه ان يعيش عادة بدون اي ابهة . ولايسمح للسلطانة الالتحاق بزوجها خارج العاصمة . ويشير التاريخ الى حادثة شاذة نادرة وهي الحرية التي قد اعطيت سنة ١٧٠٤ للسلطانة خديجة ابنة احمد الثاني لمرافقة زوجها وهو صدر اعظم معزول . الى نيقوميديه مكان نفيه . اما بعد مضي ثلاث سنوات عين زوجها حاكما لمصر وفي الحال ارسلت سفينة لارجاع السلطانة الى الاستانة . ولايمكن لهؤلاء الاميرات ايضا الذهاب الى مكة للحج وهو اكبر الاعمال استحقاقا في ديانتهن .

وليس هذا الاحتراز هو الوحيد الذي تمليه سياسة القصر الكثيرة الريب . فان هناك قانونا بربريا يقضي بقتل اولاد الاميرات الذكور وذلك بعدم عقد سرتهم . وهذا التدبير المتخذ منذ حكم السلطان احمد الاول يمشي مع التدبير القاضي بانزواء ابناء السلاطين وذلك لحفظ الامبراطورية من القلاقل الداخلية التي كانت تخلقها دائما حركات الطمع والمنافسة بين الامراء ابناء السلطان . ويمكننا القول بان آل عثمان مدينون لهذه التدابير الصارمة القاسية في ثبات سلطانهم .

ويدفع زوج احدى السلطانات غاليا ثمن شرف اتصاله هذا وذلك بالتضحيات التي عليه

---

(١) نسبة الى غرفة الديوان

بدا . اذ عليه قبل زواجه ان يطلق نساءه . ولا يمكنه عقد زواج ثان . حتى انه ليست عنده الحرية في ان يبقي عنده جاريات فتيات الا باذن خاص من السلطانة . وان واجب الاحترام نحو بيت العثمان يمنعه من طلاقها .

غير ان هولاء السلطانات يتمتعن بحرية اكثر من نساء السراي . اذ يستقبلن في بيوتهن نساء عظماء رجال الدولة ويذهبن متى شئن الى الحرم الهمايوني ويزورهن السلطان ولكن دائما متخفيا . وكان السلطان عبد الحميد يذهب غالبا لمشاهدة كبرى شقيقاته السلطانة اسما . وقد اهدته جارية جميلة خصصت لخدمته عندما ياتي لزيارتها . وبعد امد وجيز حملت منه فرفع السلطان رتبتها وجعلها سابع نسائه . ونقلت بابهة من قصر شقيقته السلطانة الى السراي امام تعجب الجمهور الزائد .

وما من واحدة من هولاء الاميرات المتزوجات لاتستعمل نفوذها لدى الوزراء لمساعدة كثير من الاشخاص الذين يلتمسون عطفهن بواسطة من يقابلن من السيدات او بواسطة من يخدمهن من الخصيان السود او رجال الحرس او الذين يقدمون ما تحتاجه قصورهن . او على الاكثر بواسطة وكيل تصرفهن (كهخيتهن) المعين من قبل السلطان . وكلما كان السلطان ضعيفا كلما اضنكته بطلباتهن المزعجة . وتنهال بطاقاتهن ورسائلهن على موظفي الدولة ويجبرنهم على القيام باعمال غير عادلة ومظالم فاحشة . وهن لايقمن بذلك مدفوعات باسباب خيرية . وغالبا ما يكون الجشع هو الدافع الوحيد لتصرفهن الطائش هذا .

وفي الحقيقة فان ما يخصص لهن ضئيل جدا كي يكفي مصاريف بيوتهن . اذ لايتعدى ٢٥ او ٣٠ او ٤٠ الف غرش في السنة . ولا يتناولن سوى ٦٠٠ غرش في الشهر من بيت المال . الا ان السلطان يمنحهن هدايا ثمينة في مختلف اوقات السنة . عدا ذلك فان السلاطين عندما يوقفون الاموال على الجوامع السلطانية يخصصون عادة للاميرات بعض مواردها . ولذلك فالسلطان مصطفى الثالث لما اوقف الاموال على مسجد "لاليلي" الذي كان قد بناه فانه عين كمعاش شهري من موارد وقفه / ٢٠٠٠/ غرش لكل واحدة من بناته ~~كمعاش شهري~~ . و ١٥٠٠ لكل من ابنائه و ٥٠٠ لكل من نسائه امهات اولاده .

الفصل السابع

الاميرات بنات السلطانات ـ خانم سلطانه ـ

ان حال هؤلاء الاميرات اخف وطأة من حال امهاتهن . فهن احرار في انتقاء ازواجهن ويحتفظن باولادهن الذين يتخذون لقب بك . ويكنّ يدخلونه في السراي في فرقة القبوجي باشي او في جملة موظفي القصر الداخلي (خاص اوضه لي) . وتتخذ الفتيات لقب خانم وهو اعلى رتبة من لقب خاتون . ويعين لهن راتب شهري يبلغ ثلاث مئة قرش ولهن امتياز خاص في انه لايمكن ان يطلقن بدون موافقة السلطان .

الفصل الثامن

ابناء السلطان الحاكم ـ شاه زاده ـ

يتخذ هولاء الامراء منذ زمن السلطان محمد الاول لقب شاه زاده وهو اسم فارسي معناه ابن الملك . وفي زمن حكم الاربعة الاولين من سلاطين آل عثمان كان البكر من هولاء الامراء يدعى باشا وللبقية بك او چلبي او امير وهي نفس الالقاب التي كانت تطلق على كبار رجال الدولة .

ويعين لخدمة الامير منذ ولادته عشرون فتاة تقريبا من مرتبة اسطة .

كما تكون له مائدة خاصة اوعلى الاقل يترتب على وكيل شؤون المطابخ ان يقدم له عددا من الالوان او ما يعادلها من النقود وذلك بموافقة والدته التي تقوم على صرفها في لوازم القصر .

ويفطم الولد عادة في السنة الاولى من عمره ويكون له حاشية خاصة منذ ذلك الوقت وهي مؤلفة من ستين شخصا تقريبا . اهمهم ثلاثة من خدم القصر الداخلي (خاص اوضه لي) ويقوم اكبرهم سنا بوظيفة فيم متخذا لقب باش لالا ويكون تحت امرته ثلاثة من الخصيان السود يدعون "لالا" . اما بقية الحاشية فانها تؤخذ من بين صغار الخدم المنتمين للثلاثة الدوائر الاخيرة .

وعندما يصبح في الرابعة او الخامسة من عمره يعين له معلم (خوجة) يقيم بابهة في دائرة الامير . ويحضر الى السراي رؤساء جميع هيئات الدولة حيث يبارك المفتي بحضور السلطان الامير كما يبارك كتاب حروف الهجاء الذي يدرس فيه ويجعله يعيد كل حرف منها . ويقدم الصدر الاعظم للامير كل ادوات الدراسة المخصصة للاولاد ككتب والواح ومحافظ الخ ... وهي محلاة

بالذهب والحجارة الكريمة . وبعد هذه الحفلة يمنح لكل من الحضور فروة ثمينة . ويبدأ المعلم عمله فيعطي الدروس للامير في غرفة القزلرآغا . وعندما ينتهي الامير من قراءة القران يتقبل التهاني من جميع عظماء الدولة ويقدم كل منهم جوهرة هدية له . وفي هذه المناسبة تتطلب الاصول ان يقبل يد المفتي الا ان هذا يمتنع ويضع شفتيه على كتف الامير .

ويتمتع ابناء السلطان بحريتهم اثناء حكم ابيهم . فعندما يصبحون قادرين على ركوب الجياد يتبعونه الى المسجد محاطين بحاشيتهم الخاصة حيث يرفع واحد منهم مظلة فوق راس الامير الشاب التابع له . ولهم قوارب خاصة وهي لاتقل زينة عن قوارب السلطان انما تختلف عنها في ان المظلة مغطاة باستار زرقاء او صفراء . ويقفون في المجالس العامة وفي مجالس سفراء الدول الاجنبية على شمال العرش .

وتجرى لهم عملية الختان عندما يصبحون في السادسة او السابعة من عمرهم . ويحتفل بهذا العمل الديني باعياد فخمة تدوم في غالب الاحيان عدة اسابيع . ويعلن الخبر في كل انحاء السلطنة قبل ثلاثة او اربعة اشهر بواسطة فرمانات او مناشير يدعى بها حكام الولايات وكبار الموظفين لحضور هذا الاحتفال . ويقام في ساحة الميدان معسكر يمثل بلاطات السراى حيث يعامل كل رجال هيئات الدولة ومختلف اقسام الجيش بابهة مدة عدة ايام . ويزيد في رونق هذه الولائم الموسيقي العسكرية وجميع انواع الالعاب والمناظر . ويظهر السلطان جوده بهداياه الى كبار رجال الدولة وباعطياته للجيش وبصدقاته على الفقراء . وتوجد في التواريخ العثمانية وصف لاعياد فخمة اقيمت لمثل هذه المناسبات من قبل مختلف السلاطين . اشهرها تلك التي اجراها محمد الثاني والسلطان سليمان الاول والسلطان مراد الثالث احتفالا بختان ابنائهم . ودامت الاحتفالات الاولى والثانية ثلاثين يوما اما الثالثة فقد امتدت الى شهرين .

ولما يبلغ الامير الثالثة عشرة او الرابعة عشرة من عمره يقيم في جناح خاص ولا يحق له مشاهدة اى امراءة من نساء الحريم عدا امه وشقيقاته .

وكان الامراء فيما مضى يحكمون الولايات . وكان العثمانيون يتعمدون بذلك على غرار الخلفاء الاقدمين وغيرهم من الملوك المسلمين . الا ان تجربة مؤلمة جعلتهم يقلعون عن هذه العادة وكان ذلك على اثر عصيان كثير من الامراء مثل قرقود وجم ومصطفى واحمد وسليم . وكان لهم في بلاطهم رجال من كبار الموظفين يحملون الترتب والالقاب التي يحملها موظفو السراى في

الاستانة . ولم تكن مخصصات الامير سوى اثني وثلاثين yuks اى ما يعادل ٢٦٦٦٦ قرشا .
الا انهم كانوا يتصرفون حسب مشيئتهم في موارد الولاية وكانوا عدا ذلك يجدون في تعدياتهم
مصدرا للربح . حتى انه كان يخصص لهم منذ حداثتهم ادارة احدى الولايات فكانت تحكم
باسمهم وتخصص مواردها لاعاشتهم . غير انه منذ حكم السلطان احمد الاول تقرر انه ليس فقط
لايعطى للامراء ادارة الولايات انما يجب ان يحجز عليهم في السراى ومنذ ذلك الوقت اصبح
ابناء السلطان الحاكم فقط يتمتعون بحريتهم . ولكن على كل حال فانه يحكم عليهم بالانزواء
عند وفاة ابيهم السلطان ويظلون على هذه الحال حتى الوقت الذى يدعون به الى تسنم العرش

الفصل التاسع

امراء البيت المالك _ شاه زاده _ (١)

ان بيوت سكن هولاء الامراء ملاصقة للحريم في مكان يدعى شمشرلك لانه محاط بالشمشار . و
وهو موءلف من اثني عشر جناحا يتالف كل جناح من غرف كثيرة ومحاط بسور عال يضم في داخله
حديقة صغيرة . لهذا سميت هذه المساكن بالاقفاص . ويقوم على خدمة كل امير عشرا واثنتا
عشرة جارية من الفتيات وعدد من الغلمان يوءخذون من الاقسام الثلاثة الاخيرة . وهناك عدد
من الموظفين ملحقين اسميا به الا انه لايسمح له قط بمقابلتهم . ويحرم عليه اى اتصال كان مع
بقية سكان السراى . ويسترسل في التشدد لدرجة انه يحكم بالموت على كل من يحمل رسالة
كتبها الامير اوكتبت له . واذا مرض الامير لايمكن الا باذن من السلطان ادخال الطبيب اليه
ويرافقه رئيس الخصيان السود . ولا يسمح للسجين ارخاء لحيته وهو بذلك يتساوى مع
موظفي بيت السلطان .

ولا يسمح لهولاء الامراء حتى مقابلة بعضهم بعضا . ولايمكن لامهاتهم وهن يسكن في
السراى القديمة من زيارتهم الا باذن من السلطان . وهذا لايقبلهم في حضرته الا في
الاحتفالات الكبرى ويستقبلهم اذ ذاك في المابين . وهم لايظهرون قط امام الناس . وانه من

---

(١) نلاحظ ان دوسون يترجم في الفصل السابق كلمة شاه زاده بالامراء ابناء السلطان الحاكم وهذا هو
معناها بالفارسية . ثم نراه هنا يترجمها بامراء البيت المالك . ونلاحظ من فحوى هذا الفصل انه يريد

الغرابة ان يكون لهولاء الامراء المقدر لهم يوما ما حكم امبراطورية واسعة معلمون او مدرسون من الخصيان السود الذين لايستطيعون لعطائهم من المعارف الامبادىء اولية . حتى انه في بعض الاحيان يقوم على تدريسهم نساء جاريات اى كما هو الحال عند صغار السلطانات .

ويتعلمون عادة لقضاء اوقات فراغهم فنا يدويا ما . فيشتغلون في صناعة الحلى والصياغة والخراطة ويعملون الاقواس والسهام ويشتغلون الصدف والعاج وخشب الابنوس . ويوشون جلد السختيان ويصورون على الشاش الموصلي واخيرا ينسخون القران والكتب القانونية . وكثيرون منهم بعد ان يعتلوا العرش يتابعون ممارسة الفن الذى كانوا قد انقطعوا اليه ويبيعون باثمان غالية ما قد صنعوه بايديهم ويخصصون الدراهم للاعمال الخيرية .

ولا يمكن لهولاء الامراء الاحتفاظ باولادهم الذين ولدوا لهم من جارياتهم . وتؤخذ الاحتياطات في اعطاء هولاء النساء شرابا مجهضا واذا حملن بالرغم من ذلك فانه يحكم على المولود بالموت بالطريقة التي يموت بها اولاد السلطانات .

ان معظم هولاء الامراء يقضون ايامهم في هذا السجن الكئيب هذا اذا لم يذهبوا وهم في زهرة العمر ضحية السلطان الذى يقضي عليهم كي يؤمن الملك لابنائه من بعده . ولا يظهر الوصي على العرش الاعندما يصيب السلطان الحاكم مرضا خطرا او يشيخ فيتصل اذ ذاك باهل السراى او بكبار الموظفين الذين يسرعون في اظهار وفائهم له . الا ان هذا العمل السابق لاوانه يكلفهم احيانا كما يكلف الوصي على العرش غاليا .

ويمكننا ان نقدر تاثير هذا الانفراد المفروض على هولاء الامراء على كفاءتهم الخلقية والعقلية . اذ بعد ان يكونوا قد نشأوا على النعومة وفصلوا عن العالم جاهلين ما يحدث حتى في المكان الذى يعيشون فيه يتسنمون العرش وهم في غالب الاحيان في عمر تصعب فيه اكتساب المعارف وتغيير العادات . واذا اصبحوا سلاطين وكانت الطبيعة قد وهبتهم استعدادات طيبة فان هذه تعاكس بشدة من المصطلحات والعادات والعصبيات .

بكلمة شاه زاده امراء البيت المالك مع اننا نلاحظ في اواخر الفصل السابق انه يفرق بين ابناء السلطان وبين بقية الامراء من ال عثمان بقوله لكن الاولين فقط يتمتعون بحريتهم بينما يحجز على افراد القسم الثاني .

اما الذين يموتون وهم في عزلتهم فانهم يدفنون في مقابر العائلة السلطانية ويخرج في مأتم جنازتهم عظماء رجال الدولة ولا يكون معهم قط اى شخص من حاشية السلطان . وتجرى هذه المراسيم للسلطانة الوالدة وللاميرات اما نساء السلطان فانهن ينقلن ببساطة وبدون اى مراسيم الى السراى القديمة ويدفن بعد الصلاة عليهن في مقابر مخصصة لهن .

يرث السلطان الامراء والسلطانات ونساءه وكل النساء اللائي يقضين حياتهن في القصر اوفي السراى القديمة . ولكن عندما تترك سلطانة ما او ابنة سلطانة اولادا من بعدها فان السلطان يرجع لهم عادة قسما من متروكات امهاتهم .

الفصل العاشر

السلطان

كانوا فيما مضى يحرصون كثيرا على افشاء خبر وفاة السلطان الى وقت مجيء وصي العرش الى الاستانة وهو يكون دائما بعيدا على راس ولايته . وهذا الحذر المتخذ من قبل الثلاثة الموظفين الاولين في السراى ومن الصدر الاعظم كان ضروريا لتلافي عصيان الجيش او اطماع بقية الامراء ابناء السلطان .

الا انه منذ انزواء هولاء الامراء فان وفاة السلطان يعقبها في اليوم نفسه المناداة بخلفه . ولما يلفظ السلطان اخر انفاسه يُعلم القزلر اغا الصدر الاعظم بذلك ويدعو هذا الاخير للاجتماع في السراى كبار رجال الدولة وهم : المفتي واميرالبحر ونقيب الاشراف واغا الانكشارية وقاضي العسكر وقاضي الاستانة . وعندما يجتمعون في المكان المسمى "سنة اوضة" يذهب رئيس الخصيان السود والسلحدار اغا ويعلمان الوصي على العرش رسميا خبر تسنمه الملك . ويذهب السلطان الجديد الى "سنة اوضه" يساعده هذان الموظفان الكبيران ويجلس على الاريكة ليتقبل خضوع كبار الموظفين الذين يحيونه بوضع شفاههم على ردائه ولكن الصدر الاعظم يقبل قدميه اذ يعتبرانه يمثل آنئذ جميع الامة .

واول عمل ملكي يقوم به السلطان الجديد هو امره لرئيس الخصيان السود بان يقدم لوكيليه الصدر الاعظم والمفتي فروتين من جلد السمور اشارة لاثباتهما في منصبيهما . ثم يذهب بعدئذ الى مسجد السراى ليقدم حمده لله تعالى وليتقبل خضوع كبار موظفي حاشيته . فيتقدمون كل حسب

رتبته وينحنون باحترام زائد ويلمسون الارض بيدهم اليمنى ثم يرفعونها الى شفاههم ومن ثم الى جبينهم وبعدها يقبلون ذيل ثوب السلطان . ويدعى هذا السلام سلام الخضوع (يمين بوس) .

ويرتدي السلطان اثر ذاك ملابس الملك الفخمة وهي موءلفة على الاخص من عمامة محلاة بوسام من الماس (١) ومن ثوب عليه فراء ثعلب اسود مزين بشدائك تلمع ويتمنطق بحزام يشع بالذهب والحجارة الكريمة .

ان شارات الملك كانت تتغير عند المسلمين فالنبي محمد كان يحمل عصا تسمى"محجن" وكان الخلفاء الراشدون الثلاثة الاولون يضعون خاتم النبي كرمز لخلافتهم . وقد اضاعه الخليفة عثمان سنة ٦٥٢ . واول شئ فعله معاوية موءسس الدولة الاموية ومغتصب الخلافة هو انه غير هذا الخاتم البسيط بغيره اثمن منه واتخذه شعارا له . واضاف الى ذلك قضيبا وثوبا من ثياب النبي محمد ابتاعه بثمن فاحش من اولاد كعب ابناء زهير الشاعر الشهير الذى تغنى بانتصارات النبي الحربية . وكان معاوية يتحلى ايام الاحتفالات بشارات الملك هذه وقد تركها لخلفائه . ولكنه ما من ملك مسلم لبس تاجا الا السلطان محمود الغزنوى الذى وضع على راسه لما توصل الى العرش سنة ٩٩٨ تاجا ثمينا مقلدا بذلك ملوك الفرس القدماء .

ويجتمع كل الموظفين على اختلاف رتبهم في القصر بامر من الصدر الاعظم ليقدموا طاعتهم للسلطان الجديد . وتسمع طلقات المدافع من مختلف انحاء المدينة . ويطوف بالمدينة ثلاثة مناديين يعلنون الحادث الجديد (٢) وتعلو في الفضاء اصوات الموءذنين من على مآذن اكبر الجوامع ~~الاربعة في~~ المدينة الاربعة .

وتحصل حفلة الافتتاح في ساحة القصر الثانية . حيث يوضع امام باب السعادة عرش من الذهب

---

(١) ويلمع على هذا الوسام اجمل قطعة من الماس موجود في السراى . وقد وجدها شحاذ عام ١٦٧٩ بين اكوام الاقذار في محلة "اغرى قبو" . وكانت غير مصاقلة واخذ في ~~...~~ اليوم نفسه ثلاث ملاعق من الخشب بدلا منها وبعد ان تبودلت من يد الى يد حصل عليها السلطان محمد الرابع . وبعد ان صاقلها خرجت ماسة من اجمل واصفى الماس تزن ثلاثين واربعين قيراطا .

(٢) وهذه المناداة تكون بهذه الجمل: "بما ان البادشاه السلطان فلان خان انتقل بمشيئة الله الى السعادة الابدية نعلن قيام السلطان العظيم القوى الرهيب على العرش السلطان فلان خان سيدنا ومولانا الذى سيكون ملكه السعيد سبب سلم العالم اجمع. فان تمنياتنا الطيبة له وصلواتنا لاتنقطع حفظ الله ايامه الغالية .

يتقدم الاحجار الكريمة (١) وتصطف فرق الحرس عن اليمين وثلاث فرق عن الشمال . تتالف الاولى من رجال القبوجي باشي اى من رؤساء الحجاب وعلى راسهم الميرعلم اى حامل العلم ولغا الانكشاريه ورئيس التشريفات واثنان من حاملي السلاح مع الموظفين المختصين بالصيد . اما الثانية فتتالف من قواد الانكشاريه ورؤساء السلاح . اما الثالثة فمن رؤساء بقية فرق المشاة والفرسان والمدفعية ورئيس فرقة ال Péiks مع اربعة من كبار قواده . ويحتل الحجاب "والزلفوا بلطجي" الرواق ذي الاعمدة الرخامية القائم فوق طرفي باب السعادة . اما حرس مخازن القصر وموظفو المطابخ والدوائر فانهم يؤلفون ثلاث فرق تقيم تحت الرواق الجانبي ذى الاعمدة البيضاء . ويقف امام العرش مشيرا البلاط الجاوش باشي "والقبوجلر كهخيه سي" يحمل كل منهما كما يحمل الميرعلم وستة من اقدم رؤساء الحجاب عصا المشهرية محلاة بصفائح الذهب . ويقف في انتظار السلطان كل من الصدر الاعظم مع اعضاء مجلس الشورى في غرفة الديوان الجديدة والمفتي مع هيئة العلماء في غرفة الديوان القديمة .

وبعد ان يتم كل شيء يقبل السلطان متكئا على كتفي رئيسي الخصيان السود والبيض يتبعه كل موظفي دائرته الذين يقفون وراء العرش . وحينما يجلس السلطان يتقدم نقيب الاشراف اولا الجميع فيقدم له الطاعة فيرفع يديه الى السماء ويطلب من الله ان يحفظ السلطان الجديد ويديم سعادة حكمه .(٢)

وفي نفس الوقت يتقدم مشيرا البلاط تاركين مركزيهما لاثنين من رؤساء الحجاب نحو مكان الصدر كما يتقدم اثنان من قواد الحجاب نحو مكان العلماء . ويعرف قدومهم بصوت عصيهم الفضية الموزون التي يضربون بها الارض فيكون ذلك اشارة لاعضاء الديوان ولرجال الشرع ليتشرفوا بين يدي السلطان . فتخرج الهيئتان كل على حدة يتبع كل منهما الموظفين الذين جاؤا لاخبارهم . وعلى الصدر الاعظم ان يصل امام العرش في الوقت الذى ينتهي فيه نقيب الاشراف دعاءه وبعد ان يقدم خضوعه وطاعته يتقدم المفتي ويدعو كما دعا نقيب الاشراف . ثم ياتي امير البحر ومن بعده قاضيا العسكر . فيقفون كلهم عن يمين العرش . وعند ذلك يتقدم رجال الدين وهم الوحيدون الذين يتلو الصدر الاعظم اسماءهم على السلطان . ثم يتقدم وزراء الدولة ورؤساء الدوائر ورؤساء الحجاب

---

(١) هذا العرش المصنوع من الذهب الثقيل يزن ثمانية الاف مثقال كان قد صنع في القاهرة وقدمه ابراهيم باشا حاكم مصر للسلطان مراد الثالث سنة ١٥٨٥ .

(٢) كان معلم السلطان فيما مضى اول من يقدم الطاعة للسلطان . ثم ياتي بعده امراء من التتر يقيمون في الاستانة كرهينة من قبل خانات القرم فيتقدمون متكئا كل منهم على اثنين من رؤساء الحجاب ويقبلون طرف كم ثوب السلطان

ورؤساء وقواد فرسان السباه والسلحدار (١) ،واغا الانكشاريه مع اركان حربه واخيرا رؤساء بقية فرق الجيش . اما رئيس التشريفات فيتقدم اخر الجمع ويعلن بركوعه نهاية الحفلة . وعلى هذا الموظف ان يسهر بدقة على قوانين الحفلات المتبعة . ان تقصيرا بهذا الصدد كاد يؤدي بحياة عاكف باك الذى كان يقوم باعباء هذه الوظيفة زمن السلطان محمود الاول . ففي حفلة تقديم الطاعة في عيد الاضحى سنة ١٧٤٣ تقدم خطأ رؤساء وقواد فرقة "الجبه جية" قبل قواد الانكشاريه لتقبيل ثوب السلطان . وخوفا من غضب الانكشاريه وقبل ان يقوموا باى تظاهر امر السلطان محمود حالا بعد انتهاء الحفلة بقطع راس رئيس التشريفات امام مدخل السراى لكي تسير جياد قواد الجيش فوق جثته عند خروجهم . وكاد الامر يتم لولا تدخل الصدر الاعظم الذى خفف من غضب السلطان ومن غيظ الانكشاريه ، حتى انه دفعهم لطلب العفو عن محمد باك الذى ابدل عنه حكم الاعدام بالنفي المؤبد الى جزيرة تينيدوس .

ان طريقة تقديم الطاعة للسلطان تختلف حسب رتبة ومركز رجال الدولة . فالصدر الاعظم ينحني مرتين ويقبل قدمي السلطان الذى يبدى اشارة بيده كانه يمنعه من ذلك .

اما نقيب الاشراف والمفتي فانهما يقبلان ثوبه من ناحية الصدر فيضع السلطان يديه على اكتافهما مع احناء راسه قليلا بدلا من معانقتهما . ان كثيرين من السلاطين من يفعل اكثر من ذلك فيلمسون بشفاههم عمامة رئيس الشرع . ولا ينحني اميرالبحر والباشوات من ذوي الاطواغ الثلاثة سوى مرة واحدة ويقبلون طرف ثوب السلطان . ويفعل العلماء عينه الشيء ولكن بدون ان ينحنوا الا انهم عندما يقتربون يرفع كل منهم يده اليمنى الى صدره . اما الباقون اى رؤساء الجيش والوزراء والقواد فينحنون ويقبلون طرف كم السلطان الذى يقدمه لهم رئيس الخصيان البيض الواقف عن شمال العرش . وينهض السلطان قليلا لنقيب الاشراف وللصدر الاعظم والمفتي وللباشوات والعلماء الذين هم من الرتب الثلاثة الاولى .

وينحني عند مجيء السلطان ووقت ذهابه جميع الحاضرين امام العرش عدا العلماء وترتفع في الفضاء اصوات الحجاب هاتفة بحياته (٢) وعندما يترك السلطان المجلس يحيي الحضور بوضع يده على صدره وباحنا

---

(١) في هذه المناسبة فقط وفي العيدين يتقدمون على اغا الانكشاريه بسبب اقدمية فرقتهم .

(٢) ويتلو الدوجي جاوش هذا الدعاء بصوت مرتفع "اللهم احفظ ايام مولانا السلطان " فيعيد كل الحجاب

رأسه قليلا . ويتكئ حتى باب السعادة على رئيس الخصيان البيض وعلى الصدر الاعظم الذى يقبل مرة اخرى قدمي السلطان ويقف بعد ان يرجع اربع خطوات الى الوراء ليقدم مع كل المجلس اخر تحية للسلطان وذلك بالانحناء له .

وهذا الاحتفال ينص عليه الدين نفسه تحت اسم البيعة . وعندما تقبّل السلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانية في مثل هذه المناسبة طاعة كبار رجال دولته الذين كانوا واضعين احدى ركبهم على الارض قدم لكل منهم اناء من اللبن . الا ان خلفاء عثمان وهم اسياد امبراطورية واسعة تخلوا عن هذه العادة القديمة التي كانت لقبائل الترك والتتر الرحل .

ويتبع حفلة المبايعة هذه وفي اليوم نفسه جنازة خلفه وذلك طبقا للشرع الذى يامر بسرعة دفن الموتى وهكذا فان مختلف شخصيات الدولة لا يتركون السرايا وذلك كي يقدموا اخر احتراماتهم نحو السلطان الراحل . وزالت عادة الحزن على الفقيد التي كانت تدوم في القصر فيما مضى مدة ثلاثة ايام . وكان يرتدى رجال القصر ملابس قاتمة اللون او سوداء ويضعون على طرف العمامة الايمن قماشة سوداء . وهذه العملية وهي على كل حال غير متبعة لدى الشعوب الاسلامية تلاشت بعد نكبة السلطان عثمان الثاني وزالت رسميا بعد نكبة السلطان ابراهيم الاول .

وينقل الخصيان السود يتقدمهم رؤساؤهم جثة السلطان المتوفي حتى الباب المعروف بباب "حرم قبوسي" حيث يحطه الحرس الى خيمة نصبت تحت الرواق المجاور . ويتقدم الى هذا المكان ثلاثة من كبار قواد الانكشارية وهم : الاغا والسيمان باشي والقول كيخية كي يفحصوا الجثة ويتاكدوا خلوها من الحياة "١) وهي عادة عمل بها بعد التعدى على حياة السلطان ابراهيم الاول .
ثم يتقدم وراءهم الصدر الاعظم والمفتي على راس اعضاء الديوان . ويغسل اماما القصر الميت بالصابون ويعطرانه بالعنبر والعطور . ثم يوضع امام باب السعادة حيث يصلى عليه برئاسة المفتي ويحضر السلطان الصلاة حيث يكون امام باب غرفة العرش .

وبعد اتمام هذه الواجبات الدينية يحمل النعش وعليه عمامة محلاة بريشة سوداء

معاً دعاء . وهم يتلون هذا الدعاء نفسه كل مرة يركب فيها السلطان جواده اوعندما ينزل عنه . وهذه العادة كانت في بلاط قياصرة الروم وتسمى عندهم Polikhronissin

ومغطى بقماش مصنوع في مكة كتبت عليه ايات قرانية . ولكي يقدم الصدر الاعظم والمفتي وكبار الموظفين اخر احتراماتهم للسلطان الراحل يسيرون جانب النعش حيث يضع كل منهم يده عليه حتى يصلوا الى باب القصر الثاني حيث يركبون جيادهم . وكان السلطان الجديد فيما مضى يفعل مثلهم نحو الفقيد .

عدا رؤساء الخصيان السود لايخرج اى شخص من حاشية السلطان في المأتم الذى يكون فيه رؤساء الحجاب وكبار الموظفين المدنيين والعسكريين والعلماء وامير البحر ووزراء واسناء سر الدولة يتقدمون الصدر الاعظم والمفتي ثم ياتي بعدهما رئيس الخصيان السود على راس مؤذني السراى وشيوخ جميع المساجد المهيونية وهم يسبحون باصوات حزينة . ويحيط بالنعش كما يمشي وراءه جميع افراد رجال الحرس السلطاني الذين يتناوبون في حمله بايديهم وهي ممدودة الى الاعلى ويمشي امام النعش اليازجي افندى (هو كاتب فرقة الانكشارية) مع الشيخ المشرف على المسجد الذى عين ان تدفن فيه جثة السلطان وهما يحملان مبخرة من الذهب تفوح منها رائحة خشب العنبر . وفي مدة ذلك ينثر محاسب الخصيان السود نقودا فضية على الناس .

وحين وصولهم الى الجامع يترجل الموظفون المرافقون للجنازة ويقفون صفين ليحيوا الصدر الاعظم والمفتي اللذين يترجلان عن جواديهما امام باب الجامع ومن ثم يرجعان ماشيين حتى النعش يرافقهما امير البحر ورؤساء الخصيان السود .

ويسبق عملية الدفن صلاة قصيرة يتلوها المفتي ونقيب الاشراف كما يتلوان دعاء التلقين .

وعند انتهاء المأتم (١) يدخل الصدر الاعظم قصره ليرأس حفلة تنصيب موظفي الدولة الذين يثبتهم في مراكزهم وذلك بان يخلع عليهم الخلع السنية ولايقبل في المجلس غير كبار الشخصيات امثال المفتي واميرالبحر وقاضيي العسكر وقاضي الاستانة ونقيب الاشراف . ويوضع امام قاضي القضاة فروة من جلد السمور مغطاة بالحرير وتقدم لرحاله مع جواد مجهز . ويعطى لامير البحر وقت ذهابه فروة مثلها كما يعطى للقضاة الاربعة تبعا لمراتبهم . وبعد ذهابهم يدخل الصدر الاعظم الديوان يرافقه موظفو دائرته . ويجلس هناك على سدة عالية فيقدم له الوزراء والقواد وغيرهم من الموظفين بثيابهم الرسمية احتراماتهم كل بدوره حسب لائحة تكون اذ ذاك مع رئيس التشريفات .

وهذا ما يسمى بحفلة التنصيب العامة (عموم خلعت) .

---

(١) في مأتم مراد الرابع سنة ١٦٤٠ كان امام التابوت جياد ثلاثة يركبها السلطان المتوفي في غزواته الى بلاد العجم . وقد وضعت عكس اتجاهها كما كانوا يفعلون في جنائز ملوك الفرس اتباع ازردشت

وفي صباح اليوم التالي يتقبل السلطان الجديد تقدمة من الصدر الاعظم مؤلفة من خمسين طبقا عليها صحاف من البلور الصيني مملوءة فاكهة ومن زجاجات من الكرستال فيها ورود . وفي منتصف النهار يقدم السلطان للصدر الاعظم اول رسالة من يده وتسمى "خطي شريف" ويجتمع كل اعضاء المجلس الاعلى عدا العلماء في مجلس الصدر الاعظم ليكونوا حاضرين عند استلام هذه الرسالة . ولما يصل حامل الرسالة يدخله رئيس التشريفات فيدخل رافعا يده فوق راسه وبها الرسالة السلطانية ضمن منديل حريري شفاف مختوم . عندها يقف كل من بالمجلس ويتقدم الصدر الاعظم حتى منتصف القاعة يتناول الرسالة ويقبلها ويضعها على جبينه ثم يفضها ويعطيها للرئيس افندى الذى يقرؤها بصوت عال . وفيها تثبيت الصدر الاعظم في منصبه مع ذكر صلاحياته وطلب القيام بواجباته بمهارة واخلاص وتتضمن عطف السلطان الدائم عليه . ويخلع الصدر الاعظم فروة من جلد السمور على رسول السلطان الذى يقبل ثوبه وينتقل الى غرفة ثانية . عندئذ يخرج كل الحضور بعد ان يقدموا تهانيهم للصدر الاعظم . الذى يقدم بعد برهة وجيزة جوابه لرسول السلطان ويكون فحواه كما هي العادة في ذلك اظهار المقدرة والاخلاص والدعاء بطول بقاء السلطان . ويتناول رسول السراى قبل ذهابه ثوبا (قفطانا) ثمينا مع اربع او خمس مئة ذهب (دوقة) .

ان اول عمل يلتفت اليه السلطان الجديد هو امر وضع شعاره الذى يحوى ايضا اسم ابيه . فقرأ مثلا في شعار السلطان الحاكم الان : " السلطان سليم خان ابن السلطان مصطفى خان المنصورين على الدوام " فيصنع الصدر الاعظم اشكالا مختلفة ويرسلها للسلطان لينتقي منها ما اعجبه . وكل الاعمال او الرسائل الصادرة عن العرش تختم بالطره او الطغراء . وهي ترى ايضا مرسومة بالحبر على اختلاف الوانه وغالبا بماء الذهب داخل الابنية العامة وعلى المراكب الحربية وعلى بيوت موظفي الدولة كما هو الحال في اوروبا عندما يعرضون صورة الملك او صورة اسلحته .

وتطبع هذه الطغراء على النقود وعلى اربعة خواتم يحتفظ السلطان بواحد منها وتكون مربعة الشكل . ويعطى الخواتم الثلاثة الباقية وهي دائرية الشكل للصدر الاعظم ولقهرمانة الحريم و"للخاصراوضة باشى" وهو خصي ابيض اللون كان فيما مضى اول موظف لغرفة السلطان .

ويجرى بابهة تسليم الخاتم الامبراطورى للصدر الاعظم في اليوم التالي من تأييده في مركزه اى بعد ان يتسلم "الخطي شريف" فيذهب الى السراى يرافقه المفتي ووزراء وامناء سر الدولة فيدخل هو والمفتي غرفة العرش حيث يتسلم من يد السلطان الخاتم الامبراطورى فيقبله باحترام راجيا لمولا

العز والسعادة ، ويكون الخاتم بمثابة شهادة بثقة السلطان فيه واشارة منه بتخويل وزيره القيام باعباء وظيفته . وهي عادة قديمة في الشرق والتاريخ يرجع اصلها الى لاطس Lathis (فرعون الثامن) وهو اول من وضع شعاره بين يدى وزيره المدعو لاحوق Lahouc وقلده من بعده خلفاؤه ملوك مصر الذين قلدهم ايضا الخلفاء وغيرهم من ملوك المسلمين . ويحمل الصدر الاعظم هذا الخاتم معه معلق بسلسلة من الذهب ضمن كيس صغير وهولا يستعمله الافي ختم البيانات التي يرسلها للسلطان. وبعد انتهاء المجلس تقدم له فروة من جلد السمور مغطاة بالحرير الابيض حيث يقدم له عابها خلعة من الجوخ مذهب . ويُمنح للمفتي ثوب من جوخ ابيض محلى بجلد السمور . كما يُمنح لكل منهما جواد مجهز بافخر عدة ثم يرجع الصدر الاعظم الى قصره وهوعن يمين رئيس الشرع يرافقه الـ Peiks والسولاق رجال حرس السلطان . وتتبعه موسيقى السراى التي تنضم الى موسيقى قصره فيدوى منهما في الفضاء انغام عالية . بينما تظل تمنح الخلع على الوزراء وموظفي السراى . ويجرى مثل هذا الاحتفال عند تولية صدر اعظم جديد .

وكان سلاطين ال عثمان حتى زمن عبد الحميد عندما يستولون على الملك يقدمون الاعطيات لافراد الجيش وتسمى منحة عيد الجلوس . وكان بايزيد الثاني اول من فعل ذلك سنة ١٤٨١ وذلك كي يخفف من غضب الانكشاريه الذين ثاروا عند موت ابيه السلطان محمد الثاني . فاخذ كل جندى من الانكشاريه في بادىء الامر الفين ثم ثلاثة الاف بارة اى خمسة وعشرين غرشا واخذ القدماء منهم نصف هذا المبلغ . اما عسكر سائر الفرق من مشاة وفرسان فقد اخذ كل فرد منهم الف بارة . ان هذه الاعطيات التي كان يرتفع عددها الى مليوني قرش كانت توزع في السراى امام كل اعضاء الديوان بالاحتفالات والاصول المرعية في اجراء صرف الرواتب للعسكر . وكثيرون من السلاطين وبصورة خاصة سليم الثاني فقد اراد اعفاء السلطنة من هذه الفريضة المخزية بقدر ماهي باهظة . وكان يقول الجنود في سفاهتهم " ان على امراء ال عثمان عندما يتسنمون العرش ان يمشوا تحت سيوف العساكر " وكان السلطان عبد الحميد اول من قضى على مثل هذه العادة وذلك بفضل مناسبات حصلت له . وذلك انه لما تسلم الملك عام ١٧٧٤ كانت عساكره غير موفقة في حرب ضد الروس وكانت الخزينة ايضا فارغة وقد سار خلفاؤه من بعده على هذا المنوال . وكان على الامراء قبل هذه المدة لما يخلفون سلطانا مخلوعا ان يزيدوا في راتب الجندى بارة او بارتين . وكانت العادة ايضا تقضي في ان يقدم السلطان الجديد الهدايا لكبار الموظفين . وكان الصدر الاعظم يحصل عادة على ٢٥٠٠ قرش واغا الانكشارية

على ٨٣٣ والمفتي على ٢٥٠ وكذلك مروئسوبهم كل حسب رتبته .

ويتقلد السلطان السيف الامبراطوري في اليوم الخامس من تسلمه الملك وهو احتفال يسمى " تقليد السيف " . واول من فعل ذلك السلطان محمد الثاني بعد الاكتشاف المعتقد انه خارق للعادة لقبر ابي ايوب المعتبر انه ولي كبير . وقد قلده بذلك خلفاؤه واصبحت عادة يحتفل بها بابهة .

ومنذ مطلع الفجر تجتمع كل هيئات الدولة في ساحة القصر الاولى لتوءلف موكب السلطان . ويبدأ موظفو الدولة السير امام الصدر الاعظم والمفتي ثم تاتي وراء هذين الاخيرين حاشية السلطان التي يتقدمها اثنان وثلاثون من الجياد غير ممتطية عليها البراذع الجميلة وعلى اثني عشر منها التروس المحلاة بالذهب والحجارة الكريمة . ان جمال هذه الخيول وجمال ثياب الموظفين الثمينة وعلى الاخص ثياب رئيس الحجاب واناقة زي رجال الحرس وبهاء اجهزة كل المطايا التي يركبها كبار رجال الدولة ان هذه كلها توءلف منظرا خلابا يتفق والفكرة التي لدى الناس عن الابهة الشرقية . ويرى في هذا الموكب موظفان يحمل كل منهما بيده عمامة للسلطان مزينة باوسمة ثمينة يميل بها كل منها بتتابع نحو الجمهور الذي يرد على هذه التحية باحترام عظيم . وهناك خادم ثالث يحمل مقعدا مزركشا ومحلى بصفائح الفضة يطاه السلطان بقدميه لمّا يمتطي صهوة جواده وعندما يترجل عنه . وخادم رابع يحمل ابريقا معلقا في طرف عصا وهو محلى بالجواهر وفيه ماء لاستعمال السلطان .

ويسير هذا الموكب بصمت مهيب بين صفين عظيمين من جنود الانكشارية . والهتاف للسلطان غير مسموح . انما يسمع احيانا صوت النساء وهن يصحن "ماشاء الله" او يتلون بصوت خافت ادعية لعز الله السلطان . ولا يحيي السلطان غير الجنود الذين يوءلفون الصفين فيضع يده اليمنى على صدره ويميل قليلا براسه او الاحرى بعينيه الى اليمين والى اليسار . ان سلام الانكشارية يسترعي الانتباه فانهم يميلون راسهم على اكتافهم كانهم يعرضونها لسيف السلطان (١) وينثر وكيل مال السلطان ووكيل رئيس الخصيان السود نقودا فضية على الناس (٢) .

---

(١) ان كلمة سلام لك التي يسمى بها موكب السلطان مشتقة من هذا السلام

(٢) وكان كثير من السلاطين وعلى الاخص سليمان الاول ينثرون الدراهم على الناس في مناسبات شبيهة بهذه عندما يذهبون الى الحرب او عندما يمرون بمدينة ما .

ولما يمر السلطان امام ثكنات الانكشارية القديمة يقف برهة ليتناول كاس الشراب الذى يقدمه الرئيس الثاني (اوضه باشي) للفرقة الواحدة والستين للسلحدار اغا الذى بدوره يقدمه للسلطان فيشرب منه . وعندما يُرجع السلحدار اغا الكاس يضع فيه قبضتين او ثلاثة من النقود الذهبية . ثم يقدم قائد من الانكشارية اقل رتبة من الاول كاسا من الشراب لرئيس الخصيان السود . وبعد برهة يذبح الاوضه باشي ثلاث خراف وهو يدعو بان يحفظ الله السلطان .

ولما يصل السلطان امام المسجد الذى بناه محمد الثاني يترجل عن جواده ويزور ضريح هذا الاخير ويقدم بكل ورع احتراماته لذكرى فاتح القسطنطينية وباني عظمة احتفال هذا اليوم .

ويتالف قرب مسجد ايوب حاجز من رجال حاشيته يترجلون ليحيوا السلطان الذى يجتاز صحن المسجد مستندا على الصدر الاعظم واغا الانكشارية . ويكون قد تقدمه مشير البلاط وشيخ مسجد ايوب يحمل كل منهما مبخرة من الذهب تصعد منها رائحة عود الند . ويدخل الجميع المسجد حيث يتقدم المفتي ونقيب الاشراف بعد الصلاة ويقلدان الملك السيف السلطاني بحضور الصدر الاعظم ورئيس الانكشارية والسلحدار اغا . وفي الحال يُذبحُ خمسون راسا من الخرفان تحت حيطان المسجد الخارجية

وفي اليوم التاسع من جلوس السلطان على العرش ياتي رسول من السراى وهو " الركاب دار اغا " يحمل للصدر الاعظم رسالة ثانية من السلطان بمعنى الاولى مع فروة من جلد السمور وخنجر ومدية مرصعين بالحجارة الكريمة . فيتقدم الرسول ويلبسه الفروة ويضع في وسطه الخنجر والمدية امام هتاف جماعة من الجواليش " فيقف الصدر الاعظم ويفض الرسالة السلطانية فيقبلها ويضعها على جبينه ثم يقروءها الرئيس افندى ويامره الصدر الاعظم بالجواب عليها . في هذه المدة يمنح لكل واحد من العشرين شخصا الذين يرافقون الرسول خلعة وخمس مئة غرش . ثم يرجع الرئيس افندى حاملا الجواب داخل منديل حريرى فيتناوله الصدر الاعظم ويقف ويختمه بالخاتم السلطاني الذى يحمله ويقدم الرسالة لرسول السلطان مع الف ذهب (قوم دوقة) . ويقدم له ايضا جوادا مجهزا بافخر عدة يمتطيه وهو راجع الى السراى .

ومن العادة ايضا ان يذهب السلطان في الاسابيع الاولى من حكمه ليتناول الغداء عند الصدر الاعظم . ولا تسمح الاصول ان يتقبل السلطان ايا كان على مائدة طعامه وهو عند وزيره فيتناول الطعام وحده ويخدمه بعض رجاله حتى ان الصدر الاعظم نفسه لا يكون معه ولا يقابله الا برهة

وجيزة قبل وبعد الطعام . اذ ينسحب وتظل مدة هذه الزيارة في غرفة احد وزراء الدولة الذين يشتغلون بالباب العالي . وهذه الزيارة تكلفه مئة الف غرش تقريبا كهدايا يقدمها للسلطان ولرجال حاشيته .

هذه هي اهم الاحتفالات التي تحصل في عيد جلوس السلطان العثماني على العرش .
ولا يظهر السلطان بابهة فخمة الا في الاعياد الدينية كعيدى الفطر والاضحى وعيد المولد النبوى ؛ وسنذكر بايجاز ما يجرى من الطقوس في مثل هذه الاعياد .

في منتصف ليل اليوم الذى يسبق عيد الفطر يرتدى السلطان الثياب والزينة السلطانية بعد ان يصلي طويلا في مسجد السراى ثم يخرج ليتقبل مباركة اهم موظفي حاشيته . ثم ينتقل الى غرفة العرش . وقبل بزوغ الشمس بساعتين تجتمع كل هيئات الدولة في ساحات القصر حيث يتخذ كل منها المكان المخصص لها . وعند الصباح يصلون جميعا صلاة الفجر برئاسة امام جامع اياصوفيا .
وبعدها يجلس الصدر الاعظم في غرفة الديوان حيث يتقبل معايدة وتهاني كل الهيئات عدا هيئة العلماء
ثم يذهب مختلف الموظفين الملكيين والعسكريين ويصطفون حسب الترتيب المعين من قبل في ساحة القصر الثانية ويقدمون تهانيهم وطاعتهم للسلطان الذى يكون جالسا على عرشه امام باب السعادة اى كما يحصل يوم عيد الجلوس بخلاف واحد وهو ان الاحتفال بهذا العيد يجرى على انغام الموسيقى العسكرية . وهذا ما يسمى بالمعايدة او التهاني بالعيد .

ثم ينزل السلطان عن عرشه ليذهب بابهة فخمة الى احد الجوامع السلطانية وهو ينتخب عادة مسجد السلطان احمد لاتساع ساحة الميدان التي بقربه لتسع جياد موكبه العديدة . ثم يجرى كل شيء كما جرى وقت حفلة تقليد السيف للسلطان انما هنا لا يحضر اى شخص من هيئة العلماء .

وبعد سبعين يوما من هذا العيد يجرى الاحتفال بعيد الاضحى بالطقوس نفسها وبعد ان يرجع السلطان من المسجد يقوم بالعمل الديني المفروض على كل مسلم في مثل هذا اليوم وذلك ان السلطان بعد ان يجلس في خيمة نصبت له يتقدم الخصيان البيض يجرون عشر خراف مزينة روؤسها بريش محلى بالحجارة الكريمة وبينما يقبض السلحدار لغاعلى الضحية يقدم الجوخدار لغا للسلطان طبقا من الفضة عليه اربعة سواطير ملفوفة مقابضها بالحرير . فيذبح السلطان بيده اثنين من الخراف او ثلاثة . فيسلخ الاول ويوءخذ منه كليتاه فتشوى وياكلهما السلطان وهو يتلو الادعية . اما بقية

الخراف مع عشرين غيرها فتذبح في اليومين التاليين من قبل رجال احد حاشية السلطان وباسم السلطان لتكون له بركة هذا العمل الديني (وتوزع لحوم الضحايا على كثير من الفقراء) . ولا يسمح لاى كان من موظفي حاشية السلطان القيام باى تضحية داخل السراى .

ويكون الاحتفال بعيد المولد النبوى اقل ابهة (وعندما يذهب) موكب السلطان للمسجد يؤلف الا من رجال حاشيته اما كبار موظفي البلاط فيذهبون متفرقين .

وفي أيام الجمعة يذهب السلطان الى احد جوامع العاصمة ليؤدى فريضة صلاة الجمعة . وكان يرافقه فيما مضى كبار شخصيات الدولة كما هي الحال في عيدى الفطر والاضحى . وقد اهملت هذه العادة بعد حكم السلطان ابراهيم الاول . ولا يتالف موكبه الان الا من رجال حاشيته . ويصطف جنود الانكشارية على جانبي الطرق التي سيمر بها السلطان . وبوصوله الى الجامع يستقبله رئيس الانكشارية وشيخ الجامع وبيديهما مبخرتان من الذهب تفوح منهما رائحة عود الند . ثم يتقدم اغا الانكشارية من السلطان ويخلع نعليه امام مدخل الجامع ويمنحه السلطان في اول مرة يقوم بهذا العمل ختجرا مرصعا بالحجارة الكريمة ، فيطلع السلطان الى المرتبة المعدة له متكئا على اغا الانكشارية والسلحدار اغا . ويضع شيخ الجامع قرب المرتبة اثني عشر طبقا عليها الورود والفواكه يرسلها السلطان لنسائه وللسلطانات . ومن العادة ان يوجه السلطان حينئذ بعض العبارات لاغا الانكشارية . ولما يخرج السلطان من المسجد يتقدم هذا الاخير ويلبسه نعليه ويسير امام جواده بجانب شيخ الجامع وكل منهما يحمل مبخرة الى ان يؤمرا بالوقوف . ويقبل اغا الانكشارية ثوب رئيس الخصيان السود لما يمر بقربه متبعا السلطان . ثم يذهب الى الصدر الاعظم ويقدم له احترامه واذا اراد ان يحتفظ بثقة الوزير فيه عليه ان يطلعه على ما قاله له السلطان في الجامع

ويوجد ايضا احتفالان دينيان يحتفل بهما سنويا داخل السراى الاول بمناسبة ارسال السلطان المال لمكة والمدينة والثاني بمباركة المياه وذلك بوضع احد اطراف بردة النبي فيها .

ولا يظهر السلطان امام جميع رجال بلاطه وامام رجال الدولة الا في ايام الاحتفال بهذه الاعياد وكان فيما مضى يحضر مجلس الوزراء ويتكلم معهم ويقبلهم على مائدته ايضا في بعض المناسبات . الا انه منذ زمن سليم الثاني وهو اول سلطان عثماني انزوى داخل قصره فان جميع السلاطين عاشوا في عزلة هادئة لا يمكن الاتصال بهم زيادة في العظمة .

وهذه العزلة ادت لزيادة نفوذ الصدر الاعظم الذى اصبح وهو بطبيعة الحال كان يتمتع

يتمتع بسلطة واسعة ،الموظف الوحيد الذى يمكنه مقابلة السلطان .

ومع هذا فان الصدر الاعظم نفسه لايمكنه المثول بين يدى السلطان ان اراد ان يقدم له احتراماته او ان يباحثه بامور الدولة الا باذن رسمي منه . وقبوله له يسمى "ركاب" وهي تسمية تذكرنا بالزمن الذى كان فيه السلاطين يمضون قسما من حياتهم على صهوات الجياد . وهذه العبارة "الركاب السلطاني" تقابل عبارة "اعتاب العرش" حيث لايستعمل الوزراء غيرها في معاملاتهم واليها يشير الناس في عرائضهم لدى مخاطبتهم السلطان . ويقبل الصدر الاعظم للمثول في "ركاب" السلطان اى في حضرته في بعض الايام مثل اول راس السنة ويومي عيدى الفطر والاضحى وعند ذهاب السلطان الى مقره الصيفي وعند رجوعه الى السراى الخ ... وهذا ما يسمونه "بالركاب العادى" اى المقابلات العادية ، ومع ذلك فان الصدر الاعظم لايقابله الا بامر سلطاني حيث يرافقه المفتي الذى ياخذه الى دائرته ويتقدمهما الوزراء وموظفو الباب العالي ثم يذهبان الى السراى ويترجلان عن جواديهما امام ساحة القصر الثانية التي يجتازانها ماشيين . ويتقدمهما امام باب السعادة رئيس الخصيان السود وحامل السيف اللذان يتبعهما رؤساء القسم الداخلي وكبار الخصيان . فيدخلان غرفة المجلس متكئين على اثنين من هولاء الرجال . فينحني الصدر الاعظم ثلاث مرات امام السلطان ويركع ليقبل قدميه الا ان السلطان يمنعه بوضع ثوبه عليهما . وعندما يقترب المفتي منه ليقبل ثوبه ناحية الصدر يناوله السلطان راحة يده وهذا التمييز مخصص لرئيس الشرع فقط . ثم باشارة منه يتقدم نائباه ويجلسان على سجادتين صغيرتين . واذا لم يجر بحث في اعمال الدولة فالجلسة لاتدوم سوى بضع دقائق . ويمنح السلطان للمفتي لقب خوجة او "ملا" وللصدر الاعظم لقب "لالا" او باشا او لقب اب اذا كان الوزير متقدما في السن .

وان كان هناك اعمال هامة تدفع السلطان لمباحثة وزيره فانه يدعوه لجلسة استثنائية تتم بنفس الطقوس التي اوردناها . وبما ان مثل هذه الدعوة تجلب انتباه الجمهور وتترك الافكار مرتبكة فالسلطان يفضل دعوة وزيره خفية . ومهما كانت الثقة التي يتمتع بها الصدر الاعظم كبيرة فهو لا يذهب لحضور مثل هذه الجلسة بدون ان يخامره القلق لان الوزراء مثله يدعون الى السراى ايضا ليتسلموا خبر نفيهم او ليعدموا .

وفي ايام انعقاد الديوان فقط يتقبل السلطان في حضرته اربعة من رجال الدولة عدا الصدر

الاعظم وهم : اميرالبحر ، وقاضيا العسكر واغا الانكشارية . ولايقابل رئيس بيت المال الا في
الايام التي تصرف فيها الرواتب للعسكر اي ثلاث مرات في السنة و عدا هولاء لا يمكن لأي
موظف ان يصل الى السلطان .

اما تقارير الدوائر فكلها ترسل للصدر الاعظم الذي وحده يطلع السلطان على مجرى الحوادث
بمذكرات تسمى حسب نوعها "تقارير او تلخيصات" . فالاولى تبحث في الاعمال الجارية اذ يعرض
فيها الوزير الامور ويبين رايه فيها ويطلب الاوامر النهائية من السلطان . فاذا عُرض هذا الامر على
بساط البحث في المجلس فانه يطلع السلطان على النتيجة . اما التلخيصات فانها تبحث في امور
قد سويت قبلا بواسطة الشرع او القوانين او العادة . انما يتطلب في تحقيقها موافقة السلطان عليها
ولايكون في هذه التلخيصات غالبا سوى مجرد الرأي .

ويُطلق اسم تلخيص ايضا على رسائل التهاني او التعازي التي يقدمها الصدر الاعظم للسلطان في
بعض المناسبات التي تقضي بها عادات البلاط . ويكون انشاؤها فخماً جداً مليئاً بالاستعارات
والامثال والاقوال والحكم . وتبدأ الرسالة بهذه النعوت : للسلطان العظيم الجلال والكثير
الرحمة الرهيب الكبير القوي سيد نعمتي وولي امري وسيدي . وفي نص الرسالة ينعت الصدر
الاعظم السلطان بظل الله في ارضه وخليفة النبي وسيد العالم الخ ... وان كان هناك حادث
سعيد فانه ينسبه لحسن طالع السلطان ، وان كانت شكوى من مصيبة ما فانه يعزوها
لاحكام القدر وينظر اليها كعقاب من السماء استحقته الامة بخطاياها وكانذار لها لتنهض من
سباتها الاثيم ولتندفع بحمية اكبر لتحقيق التعاليم الاسلامية .

ويشار ايضا بكلمة تلخيص التقارير التي يبعثها المفتي ووزراء المالية للصدر الاعظم عن الاعمال
الجارية . وتكون تقارير المفتي داخل اكياس من الحرير الاخضر وهي وحدها التي يحق للصدر الاعظم
الاطلاع عليها وتكون مرفوقة بتقاريره الشفهية و السلطانية موضوعة في اكياس من الحرير الابيض ويصدر السلطان
اوامره طبق بيان الصدر الاعظم وذلك برسالات خاصة تسمى "خط شريف" ويطلق هذا الاسم
على كل رسالات السلطان . وكما ذكرنا بانه لايضع توقيعه قط عليها اذ يقوم خاتمه واول حرف من
اسمه مقام توقيعه . فالبراءات والاوامر تختلف عن بقية رسائل السلطان بان يكتب السلطان بيده
في اعلاها : Mudjibindjé amél olouna

اى فليعمل كما هو مامور. اما اذا كانت الرسالة امر تعيين فانه يكتب عوضا عن كلمة amel كلمة "توجيه" .

ويمكن الاعتقاد بان المقدرة في تقديم العرائض للسلطان كما يظهر للجمهور هي عملية سهلة يتمكن بها الناس من تقديم شكاويهم للسلطان ضد الصدر الاعظم وسائر موظفي الدولة . ولكن عدا انه لايحق لاى شخص تقديم مثل هذه العرائض فاذا ولابد قدمها اصحابها توخذ شكلا فقط . ويرسلها السلطان عادة للصدر الاعظم مع الامر بفحصها واجراء العدل .وانه من السهل على الاصحاب الشكاوى ضد الصدر الاعظم او ضد مروسيه ان يعرفوا مقدما عاقبة عملهم . وكان المتظلمون فيما مضى يحملون بيد عريضتهم وباليد الثانية حصير ينبعث منه الدخان ،فوق روءوسهم ليشيروا بانهم ضحية الجور . الا ان الحكومة تحتاط الان في ان لايقع نظر السلطان على مثل هذا المنظر .

وسنحاول الان القاء نظرة على حياة السلطان الخاصة وقد عرفناه وهو داخل حرمه ولكنه بعد ان يترك مكان لذاته هذا يدخل مكانا لايقترب منه الا عدد ضئيل من موظفيه . وهو جناح موءلف من عدة غرف تتصل بالحريم من ناحية وبمكان " الخاص مابينجي اوضه " من ناحية ثانية . والذين يقومون على خدمة هذا المكان المسمى "مابين" هم (روءساء الخصيان السود ورئيس الخصيان البيض ورئيس البكم واثنا عشر شخصا من موظفي الدائرة الاولى . وبعض الموظفين من الدوائر الثلاث الاخرى . وهم نسبة لاسم هذا المكان "مابين" فانهم يدعون "مابنجي" . اما بقية موظفي داخل القصر فانهم لايخدمون في هذا المكان الا في ايام الاحتفالات .

عندئذ " فالسلحدار اغا " هو الذى يقدم القهوة للسلطان. والجوخدار اغا يقدم له الشراب في آنية من الصيني يحملها على راحة يده ومغطاة بقطعة من الحرير ومزركشة بالذهب (١) وفي كل مرة يطلب السلطان فيها الشرب يهرع الخدم المصطفون في اخر الغرفة والواضعين ايديهم على وسطهم كلهم دفعة واحدة وبسرعة ليحضروا له الوعاء من الغرفة المجاورة ثم يرجعون الى مراكزهم . وعندما ينتهي السلطان من الشرب ينحنون ويدهم اليمنى على الارض . وهو يتناول طعام الغذاء في الساعة الحادية عشرة . فيوضع امامه على طرف الاريكة مقعد صغير

---

(١) فيما مضى في تلك المادب التي كان يقيمها السلطان لعظماء رجال دولته الذين كانوا اذا ذاك يقبلون في حضرته على مائدة طعامه كان احد وزراء الدولة هو الذى يقدم دائما هذا الوعاء للسلطان .

مغطى بالمخمل المطرز بالذهب يوضع عليه طبق من الفضة او الفضة المذهبة . و هي مائدة السلطان ويضع عليها " الجوخدار اغا " الالوان الواحد بعد الاخر في صحون من الصيني . ومن النادر استعمال الاواني الذهبية والفضية لانها ممنوعة شرعا (١) . ويقوم السلحدار اغا بقطع وتجزئ وتتبيل الطعام للسلطان فتكون احدى ركبه على الارض وكم ثوبه الايمن مرفوعا فوق ساعده . بينما يكون " الركاب دار اغا " واقفا قرب الاريكة يروح بمروحة من الريش ليدفع الذباب . ويتتابع بسرعة على المائدة خمسون او ستون صحنا وذلك خلال ثلاثة ارباع الساعة ويكون اخر صحن او لون من الارزثم بعد ذلك يقدم له شراب حلو يسمى " خشاب " معمول من عصير مختلف الفواكه . وتعزف الموسيقي طيلة وقت الطعام .

وكثيرا ما يصرف السلطان يومه في احد الاكشاك التي تجمل جنائن السراى او التي تقوم على ضفاف البوسفور وبحر مرمرة وعددها كلها ثمانون تقريبا . واحتفظت حفلات السرور هذه باسمها القديم "بنيش" ومعناها "الركوب" بالرغم من ان السلطان يرتاد هذه الامكنة غالبا عن طريق البحر .

عندها يرى الناظر مجموعة موءلفة من عشرين قاربا مختلفة الحجم ولطيفة الشكل تنساب على سطح المياه مدفوعة بحركة الجذافين الموزونة . ويسبق الموكب احد رجال الحرس ليبعد مراكب الناس ويكون وراءه قارب ثان بسبعة ازواج من المجاذيف فيه "الدولبند اغا" يحمل بيده عمة سلطانية يميل بها يمينا ويسارا كما يفعل على اليابسة لما يسير الموكب السلطاني . ثم يأتي السلاحدار الثاني ومشير البلاط كل منهما في قارب يسبقان اليختين السلطانيين (صندل) كل منهما بثلاثة عشر زوج مجذاف . تكون مقدمة اليخت الاول منحنية وتكون مقدمة الثاني على شكل منقار الشونو . وفي الحال تراى السلطان القصر يركب الاول تحت مظلة قرمزية اللون محلاة باهداب ذهبية تعلوها كرات من الفضة الذهبية .

ويكون امامه الثلاثة الاولون من موظفي الدائرة يقبض البستنجي باشي على الدفة ويحتل رئيسا " الجوخدار " وسط اليخت ويكون الخاصكي اغا في المقدمة . ويكون في اليخت الثاني امام السراى وكثير من الموظفين ويقوم واحد منهم في المقدمة يحمل ابريقا من الماء معلقا

---

(١) لما اراد بايزيد الثاني جلب اواني الطعام لمطبخه امر قبل ان يستعملها ان يطعم بها عدد كبير من الفقراء في ساحة القصر .

بطرف عصام . ويركب السلطان هذا اليخت في رجوعه من النزهة . ثم ياتي قارب باثني عشر زوج مجذاف يقل رئيس الخصيان السود والخزندار اغا . اما بقية القوارب فتكون من ذوات السبعة المجاذيف المزدوجة . ويجذف بالكل جماعة من البستنجيه عدا الستة الاخيرة التي يجذف فيها اشخاص من المحكومين باشغال اللومان . ويكون منظرهم مناقضاً تماما وفخامة الموكب .

فيذهب السلطان منذ الساعة العاشرة صباحا الى المتنزه الذى اختاره لتمضية يومه فيه حيث يظل فيه حتى غياب الشمس . وتجري في اثناء ذلك مناظر والعاب مختلفة لتسليته . فيتقابل احيانا الشبان من خدمه وغلمانه في معركة بين بعضهم حاملا كلا منهم بيده سوطا من الجلد ينتهي بكرة من الصوف " توماك" واحيانا اخرى يمتطون جيادا سريعة نشيطة فينقسمون الى فرقتين ويكرون على بعضهم مترامين برماح خشبية "الجريد" (١) ويقوم عدد من المصارعين " بهلوان " وهم عراة حتى وسطهم وجسمهم مدهون بالزيت بحركات فيها قوة ومهارة . وبعد هذه التمارين تجرى سباقات في الركض والفروسية والقفز العالي ثم يقوم مهرجون يونانيون شبان برقصات شهوانية . وتعاد هذه الحفلات السارة منذ عهد السلطان احمد الثالث كل اثنين وخميس من ايام فصل الربيع .

وتقام حفلات مثل هذه في عيدى الفطر والاضحى وفي مناسبة الجلسة الفخمة التي يقيمها السلطان لامير البحر عند ذهابه مع الاسطول الى الجزر . وعند عودته منها . وتقام هذه الحفلة في "يلي كشك" وهي دار واقعة قرب اول السراى . فياتي القبودان باشا في قاربه المخصص للحفلات فيستقبله مشيرا البلاط والبستنجي باشي على الرصيف ويقودانه الى دار رئيس الخصيان السود حيث يجد عنده الصدر الاعظم والمفتي . وبعد ان يلبس كل من هولاء الثلاثة جبة من جلد السمور يدخلون الى الكشك الذى يكون فيه السلطان فيكون جالسا على عرشه محاطا برجال اشهر الخصيان السود وبموظفي الدائرة الاولى . اما بقية رجال البلاط وقسم من عسكرها

---

(١) فالمتمرنون منهم على رمي الجريد وعددهم مئتان تقريبا يسمون " جندى " وهم يوءلفون فرقتين الـ Bamiadjis والـ Lakhanadjis يسيطر عليهما حماس شديد . ولدى الصدر الاعظم ثمانين جنديا ولكل حاكم ولاية ايضا عدد منهم . ورمي الجريد احب رياضة لدى الشبان . حتى ان كبار الشخصيات ايضا تتسلى باظهار مهارتها في هذه الالعاب التي تكون خطرة في غالب الاوقات . فان الصدر الاعظم عزت محمد باشا الذى سار سنة ١٧٩٩ لنجدة مصر لما داهمتها الجيوش الافرنسية كان فاقداً احدى عينيه بضربة رمح .

حاشيته فانهم يصطفون على طول الحائط عن يمين وشمال دار النزهة . ثم يقف الى مسافة قريبة نائبواميرالبحر الثلاثة وهم : " القبود انا والبدرونا والريالا " كما يقف ايضا قواد سفن الاسطول . وكل واحد من هولاء بعدان يضع عليه رئيس التشريفات " قفطانا " اى خلعة) يتقدم بين اثنين من رجال السراى الى نقطة معينة قرب عمود الرخام فيقف هناك ثم ينحني امام السلطان وينسحب . ويكون الصدر الاعظم واقفا امام العرش بين المفتي والقبودان باشا فيتلو على السلطان اسماء القواد عندما يمثلون بين يديه . وتطلق سفن الاسطول المزينة بالاعلام مدافعها تحية للسلطان .

وكثيرا ما يقوم السلطان متخفيا بنزهات في المدينة على صهوة جواده يرافقه بعض الخدم ويكونون متنكرين ايضا . فيسيراثنان امامه واثنان من على جانبي جواده ويسيرالباقي وراءه على مسافة قصيرة . وفي هذه التجولات التي يكون احيانا القصد منها تفتيش الشرطة والتحقق من عدم الغش في الكيل والاوزان عند البائعين ومعرفة اسعارالماكولات واخذ المعلومات مباشرة عن كل شيء قد يحصل فان يامر السلطان بتوقيفات واحكام بالموت تنفذ لوقتها . اذ يتبع احد الجلادين دائما السلطان عن بعد . حتى انه في المرات الاولى التي يقوم بها سلطان جديد بمثل هذه التجولات لايتاخر في اعطاء اوامره بقطع بعض الرؤوس ويكون ذلك غالبا عقابا لمخالفات بسيطة لكي يشتهر عنه انه قاس فيرهب جانبه . لهذا فان وجود السلطان حتى ولوكان من ارق السلاطين جانبا يلقي الرعب في قلوب الناس الذين يصادفهم في طريقه . ويقوم السلطان بواسطة هذه التجولات المتخفية بزيارات للسلطانات المتزوجات وللصدر الاعظم وللمفتي وللقبودان باشا ولبعض العظماء الذين يعطف عليهم . ويتناول الطعام عندهم منفرداً وحده ويقوم على خدمته ابناء او اقرباء من يكون عنده لانه كما كنا ذكرنا لايقبل على مائدته الا السلطانات .

ترتفع مدخولات السلطان المعينه والغيرالمعينة الى عشرة او اثني عشر مليون قرش . وهي تاتي ١) من املاكه التي قسم منها يديره هو والقسم الاخر موءجر اما سنويا او دائميا . ٢) من واردات البساتين والحدائق السلطانية الموءجرة تحت اشراف البستنجي باشي بمبلغ مئة الف غرش تقريبا ٣) من احارالغابات والاحراج المقسمة الى سبع وعشرين اقليما يشرف عليها رئيس الحجاب وهي تدرسنويا خمسين الف غرش . ٤) من الضريبة على سواس الخيل وهي تحت ادارة رئيس الحجاب وقد يرتفع واردها الى (٢٩٠٠٠٠) غرش ٥) من مبلغ (٣٠٠٠٠٠) غرش توءخذ من خراج

مصر .

وتتألف واردات السلطان الغير المعينة اي البراتية :

١) من واردات صك النقود . ٢) من واردات بيع المناصب العالية ٣) من الهدايا التي على كبار الدولة تقديمها للسلطان في اوقات كثيرة من السنة ٤) من حصته من واردات الناجم وغنائم الحرب والاشياء الملتقطة او التي عثر عليها . ٥) من الديات التي يدفعها الموظفون الذين يكونون مهددين بالموت او النفي فيفدون انفسهم بدفع قسم من اموالهم . ٤) من استصفاء الاموال وهي تصيب كل من هو في خدمة الدولة .

كانت الدولة في زمن اول سلاطين ال عثمان لاتضبط سوى اموال ومتروكات من قام على الدولة وهذا موافق للقانون . الا ان هذه العملية كانت تتسع وتتناول مخالفات كل موظفي الدولة الذين توفوا وهم في الخدمة . وقد ابيحت عام ١٧٢٩ بفتوى اصدرها المفتي بهجت عبدالله الذي اراد ان يجعل اعمال السلطان احمد الثالث الجائرة قانونية . وكان هذا السلطان بخيلا وزاد في بخله نضب بيت المال على اثر نكبات الدهر عليه . وقد استند المفتي في فتواه على المبدأ المعروف جدا عند جميع المسلمين وهو ان كل موظف في الدولة هو عبد للسلطان ويجب ان يُجمل مع العبد الرق الذى يكون شخصه وما دخره من الاموال لمولاه .

وبالنتيجة يعتبر السلطان الوريث الشرعي والعام لكل انسان يموت وهو في خدمة الدولة ولا يستثنى من هذا القانون غير العلماء اي رجال الدين وجنود الانكشاريه . حتى الامراء اي الاشراف الذين ينتسبون لآل البيت لايستثنون منه . وعلى هذا فبعد موت احد موظفي الدولة توضع الاختام على بيته بامر من الدفتردار . ثم يُعلم الصدر الاعظم السلطان الذى لايتاخر عن اخذ حقوقه الا اذا نظر بعين الاعتبار طيلة مدة الموظف في خدمة الدولة واذا كان سلوكه لاغبار عليه . عدا هذا الحال وهي لاتحصل كثيرا يجب على العائلة لكي تحصل على بعض ارثها ان تكون لها حماية قوية . فتوضع قائمة باسماء كل مخلفات المتوفي التي تباع بالمزاد العلني في غرفة بيت المال في السراى . ويفقد دائنوه حقهم منه ويعد اضعف كم من حق السلطان . او اذا توصلوا الى اخذ بعض ما يطلبونه بحق وهذا لايكون الا بعد استعطافات وترجيات فان ما يمنحوه لايأخذونه كحق لهم وانما كمرحمة من السلطان عليهم .

اما في الولايات فان الحكام هم الذين يقومون بضبط الاموال التي يخلفها موظفو الدولة

ان نفس حاكم الولاية/ عندما يموت او يغضب عليه فان خلفه هو المسوءول عن تقديم امواله للدولة. فيضع القاضي الاختام على متروكاته ثم يحضر مفتشون بسرعة من العاصمة لاستلام مخلفاته فيبيعونها بالمزاد العلني ويضعون الاموال في صناديق مال السلطان .

ومنذ عهد السلطان محمود الاول ذهبت الدولة حتى الى الاستيلاء على قسم من متروكات الاهالي سواء اكانوا مسلمين ام ذميين من الذين يتركون ثروة تفرض انها اعظم بكثير مما تدل عليها حالتهم

فالسلطان اذاً يباشر سلطته الادارية بصورة خاصة على ارواح واموال موظفي الدولة وذلك بمقتضى صفته الحاكم الاعلى يحق له انزال العقوبات او انه يحاكم بنفسه عمال دولته .

اما فيما عدا ذلك فان الشرع يحد من ارادته كما تحد منها العادات وتعصبات الامة . لان الشرع الذي لايمكن ان يجرى عليه تغيير نص القوانين العامة للادارة الحكومية . ولكن الشرع يترك لحكمة السلطان امر تعديل هذه القوانين نوعا ما وحسب المناسبات وهو بمقتضى عنه الخاصية يسن القوانين والانظمة . اما المسائل التي لم يرد ذكرها في القوانين والانظمة فانه يقرر بشأنها حسب العادة او العرف (ارادة السلطان الاختيارية) .

وبما ان السلطان يعتبر خليفة الخلفاء فانه يجمع الى سلطته السياسية السلطة الدينية . لهذا فله وكيلان الصدر الاعظم والمفتي .

الباب الثاني

الصدر الاعظم ودائرته

يبحث هذا الباب : ١) عن الصدر الاعظم ٢) عن وزراء الدولة ٣) عن امناء سر الدولة ٤) عن بقية موظفي هذه الدائرة ٥) عن حاشية الصدر الاعظم .

الفصل الاول

الصدر الاعظم

ان معنى كلمة وزير في اللغة العربية هو معاون او مساعد واول من اوجد هذا اللقب هو عبد الله السفاح مؤسس الدولة العباسية وقد منحه لوزيره الاول ابوسلمة الحلال عام ٧٥٠ م . وكان وزراء اول سلاطين عثمانيين يدعون فقط وكلاء . وقد اعطى مراد الاول سنة ١٣٧٠ لقب وزير للجندري قره خليل الذى منح ولده علي باشا وخليفته من بعده لقب الوزير الاعظم سنة ١٣٨٦ ثم توصل ابن علي باشا وحفيده الواحد منهما بعد الاخر الى اشغال هذا المركز نفسه . اى ان سلالة الجندري احتلت منصب الوزارة مدة قرن من الزمن تقريبا . وبعد وفاة اخرهم خليل باشا عام ١٤٥٣ راى السلطان محمد الثاني سوء عاقبة تمركز السلطة كلها بيد وزير واحد فامر بكا بازالة هذا المنصب العالي . ولكنه لم يتركه شاغرا سوى ثمانية اشهر ولم يبقه السلطان سليم الاول الذى كان على راى سلفه بدون وزير سوى تسعة اشهر . وفي زمن السلطان سليمان ظل (فرنك) ابراهيم ثاني هذا المنصب مدة ثلاثة عشر عاما . وبعده ظل رستم صهر السلطان سليمان خمسة عشر عاما في الوزارة وفي اواخر حكم هذا السلطان تربع على دست الوزارة " الطويل محمد " وبقي في مركزه طيلة حكم السلطان سليم الثاني وتوفي وهو صدر اعظم في زمن السلطان مراد الثالث . وتوصل " الكبريلي " الاب والابن الى هذا المنصب وحكما الدولة مدة عشرين عاما قسم منها في ايام قصور محمد الرابع المضطربة . ومنذ ذاك الوقت لم يبق الصدور العظام في مراكزهم اكثر من سنتين او ثلاثة . وكان عددهم منذ سنة ١٣٧٠ حتى ١٧٨٩ اى سنة جلوس السلطان سليم الثالث على العرش مئة وثمان وسبعين وزيرا .

وكان هذا المنصب الرفيع فيما مضى لايمنح الا لاشهر اعضاء الديوان . ويكون عادة "وزير القبة" الثاني هو الذى يخلف الصدر الاعظم . الا انه منذ انحلال "وزراء القبة" الذى حصل في عهد احمد الثالث اخذ السلطان يعين في هذا المركز اما حاكم احدى الايالات او احد كبار الموظفين الموجودين في الاستانة مثل امير البحر ورئيس بيت المال والكيخية باك ولغا الانكشارية والسلحدار لغا ومن النادر ان يقع الاختيار على شخص اقل مرتبة من هولاء . واذا كان لابد من حصول ذلك فانه يمنح لقب باشا قبل ان يستلم الخاتم السلطاني . والمقربون من السلطان هم الذين يوجهون مسالة اختياره وذلك لانزوائه في قصره فانه لايعرف عن اشهر رجال دولته مقدرة سوى اسمهم . ولهذا فالدسائس والصدف والاهواء تقبض على عنان امور الدولة . واذا تم امر هذا التعيين فان المكائد الجديدة التي تحاك وسياسة السراى المريبة لاتسمح لمن يحتل مثل هذا المنصب الرفيع ان يظل طويلا في مركزه . فانه يرجع ويصبح في العدم منذ الوقت الذى ياتي فيه احد موظفي السراى ويطلب منه الخاتم السلطاني . واذا لم يحكم عليه بالموت فانه ينفى من البلاد . وتضبط في اغلب الاحيان اموالة ويعد نفسه سعيدا اذا عين حاكما لاحدى الولايات .

وكان يعطى الخاتم السلطاني للصدر الاعظم الجديد وهو في قصره من قبل احد موظفي السراى ولكن منذ زمن احمد الاول فانه يتناوله كما قد ذكرنا من يد السلطان وبعدها يرجع من القصر حتى مدخل السراى تحرسه فرقة من رجال الحرس . وعندما يكون الديوان منعقدا فان معظم موظفي البلاط يصطفون لاستقباله . وياتي لزيارته لغا وقواد الانكشارية كل يوم اربعاء كما ياتون كل يوم جمعة بعد الصلاة . وفي هذا اليوم ايضا يمتثل بين يديه امير البحر ورئيسا فرقة السلاحدار . ورئيس الحجاب "قبوجيلركيخية" . وهو يعقد مجلسا عاما مرة في كل شهر ويقصد حضرته السلطانية في عيدي الفطر والاضحى وقبلهما بيوم رجال الدولة المدنيون والعسكريون لتقديم تهانيهم له . وعلى كبار رجال الدولة عدا المفتي ان يقبلوا ثوبه والاخرين لايسمح بذلك بل يقدم لهم يده .

ويكون قاربه باثني عشر زوج مجذاف ويكون في مؤخرته مظلة من جوخ اخضر (١) ـ وينفرد

---

(١) ولامير البحر ولاغا الانكشارية وثلاثة من موظفي السراى ايضا قوارب باثني عشر زوج مجذاف انما بدون مظلة . اما قوارب المفتي ووزراء الدولة وسفراء الحكومات الاجنبية فتكون بسبعة ازواج وبخمسة للقاضي عسكر ولقاضي الاستانة . وباربعة لباقي موظفي الدولة اما قوارب الاهالي فتكون باثنين او ثلاثة وتكون مطلاة بدهان اسود او قاتم اللون .

وحده بمزية وهي ان يكون له ثمان من حرس الشرف "شطار" واثناعشر جوادا تقاد باليد (١) وتتالف موسيقاه العسكرية من عدد من المزامير والنقارات والدفوف والصناجات ويضاف اليها في وقت الحرب طبل كبير (٢) .

وعندما يظهر امام الجمهور يحييه حجابه بدعاء يقولونه بصوت عال . فيرفع رئيسهم "الدوجي جاوش" صوته قائلا : "عليكم السلام ورحمة الله" فيجيب الجواش كلهم معاً "فلتواتيك السعادة وليعاضدك الله ، وليحفظ العلي الاعلى عمر سلطاننا وعمر الصدر الاعظم مولانا ، وليعيشوا طويلا سعداء" .

وعندما يذهب ليتسلم رئاسة الجيش يمنحه السلطان فروة من جلد السمور لها طوق عريض ومشابك من الذهب مع سيف وخنجر وقوس وكنانة ووسامين والكل موصع بالحجارة الكريمة . فيخرج من العاصمة راكبا احدى جياد السلطان تخفق امامه الراية النبوية ويصل عدد جياده حينئذ التي تساق باليد الى ثمانية عشر . ويظل بقربه طيلة مدة الحرب ستة عشر من رجال حرس السلطان .

ان كل الموظفين عدا المفتي يتسلمون من الصدر الاعظم امر تنصيبهم في مراكزهم . فيمنح لهم بحضرته وبحسب مراتبهم قفطانا او فروة من جلد السمور . فالصدر الاعظم والمفتي هما الوحيدان اللذان يعينهما السلطان ويعتبران كانهما معينان مدى الحياة .

ويقوم الصدر الاعظم غالبا بتفتيشات داخل البلدة يتبعه رجال من حاشيته وذلك كي يتفقد حالة الامن وعلى الاخص لكي يتاكد من سعر المواد الغذائية و اوزان البائعين . وكان يرافقه فيما مضى اغا الانكشارية وقاضي الاستانة . اما الان فهو يخرج في غالب الاحيان متخفيا في ايام الاثنين والخميس اى في عطلة ديوان الباب العالي . كما انه يذهب ايضا اثناء هذه العطلة لمقابلة المفتي ليتباحث معه في اهم الامور وهذا الاهتمام في الاعمال تقضي به السياسة الرشيدة . ويقوم امير البحر ايضا ورؤساء فرق المشاة الثلاث الاولى بدوريات تفتيشية كل ضمن دائرته ويكون ذلك غالبا في الليل .

وعندما يرفع السلطان الى منصب الصدارة احد الباشوات من حكام الولايات فانه يعين موقتا حتى مجيئه للعاصمة احد الموظفين ممن يحمل رتبة باشا من ذات الاطواغ الثلاثة ليقوم باعمال الصدر الاعظم ويعطى لقب قائم مقام . وهذا المنصب كما هو ظاهر قصير الامد وقليل الاهمية . وان الامر يكون عكس ذلك في زمن الحرب عندما يقود الصدر الاعظم الجيش . فيصبح القائمقام

---

(١) ويكون للباشاوات الاطواغ الثلاثة تسع جياد . وست جياد لباشاوات الطوغين وثلاثة لبقية الباشاوات واثنين فقط لوزراء الدولة ورؤساء الجيش الستة المنظمة

(٢) وللباشاوات ايضا حسب درجاتهم تسعة او ستة او ثلاثة من الموسيقيين

اذ ذاك وهو يمثل الصدر الاعظم لدى السلطان/ هو ذو شخصية فعالة في الدولة . وتخلق المنافسة حينئذ نسلك بين هذين الوزيرين وتقريبا دائما نزاعا شديدا .

وظل الصدور العظام يسكنون مدة طويلة في بيوتهم الخاصة الا انهم منذ سنة ١٦٥٤ اخذوا يقيمون في قصر واسع لايبعد كثيرا عن السراى ويسمى " باب الباشا " باشا قبوسي " ومنه اشتقت كلمة " الباب العثماني " او الباب العالي " .

وعندما يقال الصدر الاعظم من منصبه يذهب احد موظفي السراى متخفيا ويكون عادة " القبوجلوكتخده سي " الى الباب العالي ومعه امر خطي من السلطان . فيقدمه للصدر الاعظم الذى يقبل باحترام " الخطي شريف " ويرد له توا الخاتم السلطاني ثم يقوم عن اريكته ويخرج من القصر بدون ان يسمح له حتى رؤية عائلته ويذهب تحت امرة رسول السلطان الى المكان الذى نفي اليه . اذ انه لايحق للصدر الاعظم المعزول الاقامة في الاستانة . اما اذا جاء الامر بتوقيفه فان البستنجي باشي هو الذى يوقفه .

وسوف نعرض نظام هذه الوزارة العظيمة التي تقسم الى ثلاث دوائر يكون على راسها : الكهخيه او الكتخده باك والرئيس افندى والجاوش باشي .

الفصل الثاني

وزراء الدولة

١) _ الكهخية باك (١) . هو نائب الصدر الاعظم يقوم بصورة خاصة باعمال الشوءون الداخلية والعسكرية ويحمل رتبة باشا من ذات الثلاثة الطواغ .

٢) الرئيس افندى (٢) . هو نفسه بالوقت وزير الشوءون الخارجية وامين سر الدولة والمستشار او المهردار (اى حامل خاتم السلطان) . وكأمين سر للدولة فانه يدون التلخيصات

---

(١) كهخية محرفة عن الكلمة الفارسية كتخدا ومعناها عامل او وكيل .

(٢) لقبه الاصلي هو رئيس الكتاب

والتقارير التي يرسلها الصدر الاعظم للسلطان . وكمستشار او مهردار فهو رئيس الدائرة المسماة بالديوان السلطاني " ديوان هميون قلمي " .

ان هذه المستشارية منقسمة الى ثلاثة مكاتب وهي مكتب البيكليك (البكليك املاك يعين ريعها لقواد الانكشاريه الكبيرى السن وتكون لهم بمناسبة معاش تقاعدى) ومكتب التحويل ومكتب "الروءوس" .

فالمكتب الاول هو مستودع اوراق القوانين المدنية والعسكرية والمعاهدات المعقودة مع الحكومات الاجنبية . ومنه تصدر كل المراسيم والفرمانات غير التي تتعلق بدائرة المالية . ويحرر في المكتب الثاني براءات حكام الولايات وتقارير جماعة الملا او قضاة مدن الدرجة الاولى وتقارير (ضبط فرماني) من يقتنون الاقطاعات العسكرية . اما المكتب الثالث فانه يرسل تقارير روءوساء وكتاب كل الدوائر وروءساء القبوجي باشي واساتذة المدارس الحكومية ورجال الدين والمشرفون على الاوقاف الدينية كما يفعل ايضا في اجازات الرواتب على الخزينة وعلى الممتلكات الدينية . ويعمل في هذه الدوائر مئة وخمسون كاتبا تقريبا يقسمون الى ثلاث درجات : الكتاب ال Schaguirda وال Scharhlus ويتداولون كواتب لهم اقطاعات عسكرية (الذعامة والتيمار) . ويعطى لاصحاب الدرجتين الاولى والثانية لقب guedikli اى اصحاب الرواتب . ولايحق لهم ان يتبعوا الجيوش الا اذا كان يقودها السلطان او الصدر الاعظم . ولكل مكتب رئيس يدعى Kesedar ففي المكتب الاول ثلاثة كتاب رئيسيين يدعى الاول القانونجي وعليه ان يستخلص من كتاب القوانين العامة او قانون نامه الحكم الموافق لمسالة ما وان ينسخه بجانب السوال الذى وجهه له الرئيس افندى عن هذا الموضوع . والثاني هو Ilamdji يقوم بكتابة التقارير عن الاعمال المتعلقة بدائرته . اما الثالث فهو المميز يفحص ويصحح الاوراق التي دونها الكتاب .

ويجب ان يكون على نسخة كل امر اوقانون توقيع الصدر الاعظم الذى يخط بيده عليها الكلمة العربية "صح" وتكتب الاوامر دائما باحرف كبيرة وعلى قرطاس كبير مصقول طبعت عليه صور ورود بالذهب والفضة وتكون اكثر الاسطر مكتوبة بماء الذهب . ويضع الكاتب اسمه على ظهر النسخة التي يرسلها والتي يوقع عليها كل من المميز ونائبه المستشار والرئيس افندى . فاذا كانت مرسلة الى احدى الولايات فان " النيشنجي" يوشح اعلاها بالطغراء السلطانية ويسمى الامر اذ ذاك فرمان . اما الاوامر التي تصدر للموظفين الموجودين في العاصمة فانها تسمى "بيورلدو" ولا يكون

عليها سوى توقيع الصدر الاعظم . وهذه الكلمة " بيورلدو " تركية الاصل اما كلمة فرمان فهي فارسية ويراد بكلتيهما الامر . اما الاعلانات الرسمية فيعلن عنها بواسطة المنادين .

ويتخذ السلطان في اوراق الاوامر السلطانية القابا فخمة . مثل فاتح العالم ومكافح الدنيا وبطل عصره وخليفة الله وملك المسلمين والسلطان العام اقوى ملوك الارض والمتسلط على بلاد فارس والصين وتركستان وطبرستان وايران وطوران . فهو برهان الخواقين وملك القياصرة وسلطان البرين وخاقان البحرين . ملك الشرق والغرب وسلطان الاقاليم السبعة سيد العالم ومفرق العروش والتيجان وملجأ اكبر ملوك الارض والمقتني لخاتم سليمان العظيم . فهو اسكندر العصر والملك العظيم الذى يكون داريوس كحاجب له وهو العادل والمحاط بالعز والجلال وخادم الحرمين الشريفين مكة والمدينة والقاضي على الكفرة والملحدين امام المسلمين الاكبر وظل الله على ارضه الخ ... الا انه لم يحصل قط مجموعة لهذه النعوت . وفي كل مرة يراد تدوينها ترسل لموظفي المستشارية الذين يفتنون بترتيب الالفاظ والمقاطع والقافية لتكون منسجمة وذات وقع وقع حسن .

ويلقب السلطان وزيره الصدر الاعظم بمنظم الدولة وحاكم السلطنة العام . والوزير الكامل بهاء الامة وضرغام ساحات الوغى الذى لايقهر . وسيف النصر القاطع وعساف(١) عصره ويشبهه باشهر وزراء المشرق .

اما المفتي فيدعوه بعلامة العلماء بين اهل السنة ومفتاح كنوز الحقائق الدينية ومشعل اعمق الاسرار والمفسر الحكيم للقوانين الدينية والمنبع الزاخر لكل الفضائل . الذى علمه كالبحر والذى ببصيرته وحذاقته يحل اكبر المسائل العويصة .

اما امير البحر فانه يُنعت بهذه الاوصاف : " السباح الماهر بين الجزر والصخور وبطل البحار من الافق الى الافق الخ ...

ولكل موظف لقب يوافق رتبته . واقل الالقاب هو : الماهر جدا بين اقرانه .

وعلى كل فمن المعتاد في كل الاحيان التي يُدعى فيها شخص الى مكان رسمي ما ان يقرن اسمه بدعاء يوافق مركزه وحالته . مثلا : اسماعيل باشا : زاد الله تعالى في عظمته . علي افندي زاد الله في معرفته على الدوام . عمر اغا قوى الله مقدرته . وعندما ياتي ذكر احد السفراء

---

(١) كان وزيراً لسليمان الحكيم

او احد الملوك المسيحيين يقرن اسمه بهذا التمني : " اسعد الله اخرته " اى ليسعده الله بفتح عينيه لانوار القران . وتستعمل عند ذكر احد الملوك الخاضعين للسلطان هذه الجملة " ادام الله في خضوعه وطاعته " ويزاد عليها غالبا هذا الدعاء : " انار الله بصيرته بمعرفة احسن الاديان " ويقال عندما ياتي ذكر السلطان : " ادام الله تعالى عزه وعظمته ". اما اسم الدولة فهو مقرون دائما بهذه الكلمات : " ادام الله وجودها " .

ولا يمنح السلطان القاب شرف ولكنه في بعض الاحيان يعطي لاحد الموظفين لقب الوظيفة التي هي اعلى من التي هو فيها . وهكذا فان "البكلربك" وهم باشاوات من ذوى الطوغين يحصلون على رتبة وزير اى باشا من ذوى الاطواغ الثلاثة . الا ان الشخص يخسر لقبه عندما يقال من وظيفته . وليس هناك لقب يمكن وراثته غير لقب بك الذى يخص ابناء الباشاوات يتاورثونه ابناؤهم وسلالتهم من بعدهم.

ولدائرة الرئيس افندى ثلاثة رؤساء مساعدين وهم : ترجمان الباب العالي والامدجي والبيلقجي .

فترجمان الباب العالي او ترجمان الديوان يترجم الاوراق التي يرسلها سفراء الدول الاجنبية للدولة . وهو يحضر مجالس هولاء مع الرئيس افندى . ويترجم اقوالهم في الجلسات التي يعقدها لهم السلطان والصدر الاعظم وهو يلعب دورا كبيرا في ادارة شؤون السياسة الخارجية فيهدي بارائه الرئيس افندى الذى لا تكون عنده غالبا غير معلومات مبهمة عن كل ما يتعلق بالحكومات الاوروبية وعن مراكزها الجغرافية ان الذين يشغلون وظيفة ترجمان كانوا عادة فيما مضى من المرتدين . ولكن منذ قرن ونصف اصبحت منحصرة باليونانيين المتحدرين من اشهر عائلات الاستانة والذين يرتفعون من هذا المركز الى منصب هسبودار (حاكم) ولاية الافلاق والبغدان.

اما عمل الامدجي فيكون بصورة خاصة بتبييض تقارير ومذكرات الصدر الاعظم المرسلة للسلطان والتي تكون دائما مسجلة لدى الرئيس افندى . ويحضر مقابلات رئيسه مع سفراء الدول الاجنبية ويقوم باجراء المراسيم المعتادة في مثل هذه المناسبة . ولكونه مسؤولا عن جباية الضرائب التي يجب ان يدفعها للرئيس افندى اصحاب الاقطاعات العسكرية (الذعامة والتيمار) فانه يوقع على اوراق الجباية بوضعه الكلمة الفارسية Aмéd ومعناها : استلم ، دفع / ومنها جاء اسم منصبه : Ameddji

اما البيلقجي فانه يدير لعمال مكاتب المستشارية الثلاثة .

وللرئيس افندي نوع من التصرف او الاشراف على كل الكتاب او رجال القلم . وقد كان فيما مضى الوكيل الاول لخالات القرم .

٣) الجاوش باشــــي : وهو يقوم بعدة مناصب مختلفة . فهو نائب الرئيس في مجلس عدل الصدر الاعظم . ووزير الامن العام وهو الذي يُدخل سفراء الدول الاجنبية الى السراى وهو مشير البلاط ورئيس فرقة من الجنود الاقطاعيين .

وكنائب رئيس فانه يتقبل الشكايات المتعلقة بالمسائل المدنية والجنائية . وانه قبل اجتماع مجلس الباب العالي يعقد مجلسا عاما . وهو يجلس عن شمال الصدر الاعظم وبذلك فانه يتمكن من اخذ معلومات اولية عن كل الدعاوى التي ستعرض في ذلك اليوم للصدر الاعظم ويدونها باختصار لكيلا يطول الشرح وقت عرضها للصدر الاعظم وهو يفعل ذلك سواء انهاها الوزير او ارسلت الى المحاكم الخاصة بها . وله تحت امرته فرقة موءلفة من ست مئة وثلاثين حاجبا يخدمون في المحاكم .

وكوزير للامن العام فانه ينفذ احكام القضاة واوامر الصدر الاعظم . يساعده في دائرته هذه ثلاثة موظفين يقومون بأعمال الحكام وهم : المحضر اغا والعساس باشي والصوباشي .

وكمدخل للسفراء فانه يذهب لاستقبالهم من المكان الذى ينزلون فيه من قواربهم ويرافقهم ماشيا عن يمينهم حتى السراى او قصر الصدر الاعظم (١) .

وهو يقوم ايضا باعمال مشير للبلاط في السراى في ايام انعقاد الديوان والاحتفالات الكبرى معاً مع " القبوجلر كتخدا سى " اى رئيس حجاب القصر . وكلاهما يرتدى ملابس الحجاب ويقبض بيده على عصا الشمسية . وهما يستقبلان الصدر الاعظم عند باب السراى الثاني ويتبعانه حتى قاعة الديوان ويضربان الارض الواحد تلو الاخر بعصاهما المكسوتين بصفائح الفضة . ويقومان بهذا الاستقبال التشريفي لسفراء الدول الاجنبية عندما يكون عندهم اجتماع في السراى .

واخيرا فانه قائد فرقة موءلفة من متتبي : Guediklis Zaims يقومون بايصال الاوامر الى الولايات . وهو الناظر على الضرائب الاميرية الموءجرة اجارا دائميا . واذا اراد احدهم اخلاء التزامه الذى هو مستاجره لشخص اخر فانه على الجاوش باشي

---

(١) في زمن الامبراطورية البزنطية كان مدخل السفراء يحمل ايضا لقب Grand-Chiaouss

ان يرسل الطلب على عريضة المستاجر الاول نفسها لتعرض على موافقة الصدر الاعظم .

هذه هي اهم اعمال وزراء الدولة الثلاث الذين يشتغلون تحت اشراف الصدر الاعظم التابع لهم بصورة اكثر او اقل مباشرة امناء سر الدولة الستة ويتبعهم ايضا سائر موظفي الدائرة نفسها .

الفصل الثالث

امناء سر الدولة

١) البيوك تذكرجي " الرئيس الاول الناظر في العرائض المقدمة للدولة .

٢) " الكوجوك تزكرجي " = الثاني = = = = =

يقيمان ايام انعقاد الديوان بجانبي الصدر الاعظم فيقرآن الواحد تلو الاخر العرائض المقدمة للوزير ويدونان اوامره عليها .

ويقومان بنفس العمل عند " الجاوش باشي " حيث يظلان اكثر ساعات النهار . ويحرران الاوامر المرسلة من الصدر الاعظم الى مختلف الدوائر التي في العاصمة .

٣) " المكتوبجي " اى امين سر الصدر الاعظم الاول وهو المشرف على رسائله العامة تحت رئاسة الكهخيه باي . ويتالف مكتبه من ثلاثين كاتبا تقريبا . ومراكز هولاء مرغوب فيها بسبب الترقي الذى يلاقونه .

٤) " التشريفتجي باشي " اى الرئيس الاول للحفلات . يحتفظ بسجل حفلات البلاط وبالامتيا وبالامتيازات التي تتمتع بها مختلف هيئات موظفي الدولة ؛ وله كثير من المساعدين .

٥) " البكلقجي " اى نائب مستشار البلاط وهو على راس المكاتب الثلاثة التي تؤلف المستشارية السلطانية .

٦) " الكهخيه كاتبي " اى امين سر الكهخيه الاول وهو المشرف على رسائله وعليه تحصيل الضرائب العائدة لهذا الوزير وللصدر الاعظم . وهو يامر على عشرين اوخمس وعشرين كاتبا .

ان امناء سر الدولة هولاء (١) مع وزراء الدولة الثلاث هم موظفو هذه الدائرة الوحيدة الذين تكون مناصبهم سنوية ، ويعينون من قبل السلطان بعد ان يكون قد اخذ راى وزيره الصدر الاعظم . ويعرفون بلقب " قبورجالي " اى اسياد الباب العالي . وكانوا فيما مضى امناء سر الصدر الاعظم الخصوصيين اى انهم متساوون مع اولئك الذين لايزالون الى يومنا هذا يلتحقون بخدمة حكام الولايات ويحملون اللقب عينه الا انهم بعد زوال وزراء القبة اصبحوا يعتبرون نهائيا من عداد موظفي الدولة . وبالرغم من هذا الانقلاب الذى هو في مصلحتهم ومن اهمية المناصب التي يحتلونها فانهم لايتمتعون بكل الميزات التي للمناصب ذات النظام القديم : اى ليس واحد منهم عضواً في الديوان .

يمنح الكيخية باك والجاوش لقب اغا وهو مخصص لروءساء الجيش . وذلك لانهما نائبا الصدر الاعظم في دائرتي الامن العام والحربية ، ويعتبر الرئيس افندى وامناء سر الدولة الستة من هيئة " الخوجوات " ويلبسون مثلهم العمامة الخرسانية . ولكن لايحق لاحد من امناء السر هولاء عدا رئيس التشريفات لبس الزى المسمى ب : Ust - Kurki لانه لايمكنهم مثل بقية " الخوجوات " تقبيل ثوب السلطان في احتفالات عيدى الفطر والاضحى

الفصل الرابع

بقية موظفي هذه الدائرة

للصدر الاعظم مساعدون ينتقى كل واحد منهم من احدى فرق الجيش ويكونون الممثلين لقوادهم لدى الباب العالي . فممثل الانكشارية هو " المحضرآغاسي " ملازم الاورطة الثامنة والعشرين وهي فرقة تقوم دائما بحراسة قصر الصدر الاعظم ويمشي اثنان دائما من هولاء المساعدين هما : " التفنكجي باشي " و " المطره جي باشي " بجانب جواد الصدر الاعظم . اما ممثل البستنجيه وهو الاوضه باشي فانه يقبض على دفة القارب . ويتخذ ممثلا رئيسي فرقة

---

(١) ان الثلاثة الاولين مع امين سر الكيخية باك يقومون بالوقت نفسه بوظيفة روءساء قلم دائرة المالية التي تدر عليهم مالا كثيرا .

الفرسان (السباى والسلحدار) لقب كتخده يرى " اما لقب ممثلي فرق المشاة الثلاثة (الجبه جية والطوبجية والطوب عربجية) فهو " قبو شاوشي " وهناك عدا هولاء العسكريين مثل لامير الامراء يحمل لقب " قبوشاوشي " ايضا وعلى جميع هولاء المساعدين ان يحضروا مجلس الصدر الاعظم اما لياخذ والاوامر المتعلقة برؤوسائهم . او لسماع الاحكام الصادرة على المتهمين المنتمين لفرقهم وحيث لايمكن تنفيذ الاحكام عليهم الا باذن من رؤوسائهم .

عدا هولاء ينتسب ايضا لدائرة الصدر الاعظم :

١) " المتفرقة باشي " رئيس فرقة مؤلفة من مئتي جندي من ذوي الاقطاعات .

٢) " التلخيصجي " ليس له من عمل سوى اعطاء التلخيصات المرسلة من الصدر الاعظم للسلطان لرئيس الخصيان السود .

٣) " الوزيرقره قوله غي " هو مساعد للتلخيصجي .

٤) " التتر اغا " رئيس مائتي تترى هم سعاة بريد الحكومة .

٥) " الجونولولر اغا " رئيس خمسين عسكري (جونلو) لايخدمون الا في ايام الاحتفالات .

٦) " الدليلر اغا " رئيس خمسين " دليا "

٧) " القفطانجي باشي " يقوم بتقديم الفراء والقفاطين التي يمنحها الصدر الاعظم لكل من يعين في منصب جديد .

٨) رجال " البلاك باشي " وهم قواد خمس عشرة فرقة من الشاوشيه او الحجاب مؤلفة من ست مئة وثلاثين رجلا قسم منهم يحرس قصر الصدر الاعظم والقسم الاخر يحرس السراى . وهم تحت امرة قائدين : الاول " الشاوشلر ايني " يرسل الشاوش باشي بواسطته كل اوامره . والثاني هو " الشاوشلر كاتبي " يحمل لائحة باسماء الدعاوى المردودة الى المحاكم بامر من الصدر الاعظم مع لائحة باسماء الحجاب الذين يلاحقونها . ويسجن هذان الموظفان عندهما المديونين ممن لهم مكانة وخصوصا العلماء منهم .

ان مكتب او مسكن هولاء الموظفين يكون في قصر الصدر الاعظم حيث يحتلون الطابق السفلي والطابق الاول منه . اما الطابق الثاني فمخصص للصدر الاعظم ولنسائه ولحاشيته . فيسكن هذا القصر اذا عدد كبير من الاشخاص وبما ان مركز الحكومة فيه فان جمهورا غفيرا من الموظفين من

جميع الدرجات يأمه لقضاء الاعمال او لتقديم الواجبات للوزراء . ومن عداد هولاء الموظفين وكلاء شئون الدوائر ووكلاء كبار موظفي السراى وحكام الولايات وتراجمة البعثات الاجنبية .

مهما كان نوع القضية يجب ان تمر على احد وزراء الدولة الثلاثة وهم الموظفون الأوحدون الذين يشتغلون مع الصدر الاعظم . فانهم يقابلونه صباح كل يوم لتقديم تقاريرهم ولاخذ الاوامر منه . ولا يقابلونه بقية النهار الا اذا جد امر هام . ولكن لكل واحد منهم سكرتير يرسله الى الصدر الاعظم ليطلعه على مجرى الامور ولاخذ اوامره في الاعمال الاقل اهمية (١) .

وعلى كل المشتغلين في الباب العالي ان يكونوا فيه كل يوم من بزوغ الشمس الى قُبيل غيابها بساعة ولا يمكنهم مغادرة اعمالهم قبل الاستئذان من الصدر الاعظم فيتقدم احد موظفيه امام مكتب كل واحد من وزراء الدولة ويقول بصوت عال وهو ينحني احتراما "إذن" اى فرصة . عندها يطلبون خيولهم للانصراف . وليس هناك تعطيل سوى في ايام عيدى الفطر والاضحى وعلى الوزراء وامناء السر ان يقيموا ايضا في مكاتبهم صباح ايام العيد هذه . ولا يمكن للكيخيه بك ترك قصر الوزراء اذ في مدة تغيب الصدر الاعظم عليه ان يبقى ليقوم مقامه عند الحاجة وليسهر على الامن في العاصمة .

ويتناول " الرئيس افندى " والشاوش باشي " ورئيسا الاستدعاءات " طعام الغذاء على مائدة الصدر الاعظم ولكن في ايام الاربعاء اى ايام انعقاد الديوان يتناول الطعام مكانهم قضاة العاصمة الاربعة وفي ايام الجمعة ياخذ القاضيا عسكر مكاني "رئيسي الاستدعاءات" على مائدة الصدر الاعظم لانهما يحضران الديوان في ذلك اليوم . ويقدم دائما للكيخية بك وهو في دائرته الطعام من مطبخ الصدر الاعظم ويقبل على مائدته امين سره " المكتوبجي " ورئيس التشريفات وهو يدعو ذوى المكانة من الموظفين الذين يوجدون عنده وقت الغذاء . اما بقية موظفي الدائرة فيجلب لهم طعامهم من بيوتهم .

انه من السهل دائما مقابلة الوزراء وامناء سر الدولة وبقية الموظفين الذين يستقبلون كل الناس بدون تمييز . ويمكن لاى شخص من عامة الناس مقابلتهم بكل حرية والتكلم معهم عن اعماله . وتكون احيانا قاعة احد الوزراء غاصة بكبار الشخصيات عندها يكون الوزير مشغولا

---

(١) يسمى مساعد " الكيخيةبك" قره قولاك " ويحمل الاثنان الاخران لقب Kissédar ويترتب عليهما تحصيل الضرائب العائدة للرئيس افندى وللشاوش باشي .

غالبا في قضاء الشؤون التي تكون على غاية الاهمية . فينتظر الناس اغتنام الفرصة للاقتراب منه والتكلم معه . ويظل الاشخاص الذين هم من مقام بسيط واقفين . وانه غير مغروض على اى كان الانتظار في غرفة ثانية الا اذا كان عند الوزير مقابلة سرية .

اما الوصول الى الصدر الاعظم فليس سهلا بهذا المقدار اذ لايراه الناس الا في مجلسه ولا يمكن لكبار الدولة مقابلته الا في الايام المخصصة لزياراتهم الا اذا طلبوا منه مقابلة خاصة . غير انه يعقد في كل شهر مجلسا عاما يمكن ان يحضره اي شخص ~~هو موظف~~ سواء كان موظفا في خدمة الدولة . قديما وحديثا

الفصل الخامس

حاشية الصدر الاعظم

ان حاشية الصدر الاعظم منظمة حسب حاشية السلطان ويتخذ اكثر موظفيه القاب التي خدم السلطان . وهم ايضا مثلهم ينقسمون الى قسمين : قسم للداخل وقسم للخارج . فرجال الفرع الثاني يطلقون لحاهم اما رجال الفرع الاول فلا يتركون سوى شواربهم .

ربما يدفعنا الفضول لمعرفة اعمال هولاء الموظفين . فاشهر موظفي القسم الاول هم :
١) وكيل الخزينة او الوكيل العام . ٢) "رئيس الحجاب" يقوم بوظيفة ادخال الذين يريدون مقابلة الوزير -٣) رئيس السلحدارية -٤) رئيس اربعين من السلحدارية الفرسان .
٥) امام القصر -٦) ثلاثة من المؤذنين يعلنون اوقات الصلوات الخمس في ثلاثة محلات مختلفة من القصر (١) ٧) وكيل الحريم . ٨) رئيس الطباخين وبقية القائمين على تهيئة طعام الصدر الاعظم الخ ..... ويلحق بهذا القسم الاول اربعون موظفا تقريبا يدعون "لغوات الوزير" يقومون بايصال رسائله واوامره الى الولايات . ويقوم اثنا عشر "الاى شاوش" بتنظيم السير لما يخرج الصدر الاعظم وهم يلبسون ثيابا من القطيفة الحمراء ويحملون بايديهم عصيا محلات بصفائح الفضة .

---

١) ان الاذان خارج الجوامع لايكون الا في السراى وفي قصر الصدر الاعظم وفي قصور الباشوات من ذوى الثلاثة الاطواغ . ويجتهد الصدر الاعظم اذا كان متدينا او حاول ان يظهر نفسه كذلك ان يصلي اماما مرتين او ثلاثة في اليوم . فقط بسنة

وثمان من حراس الشرف "الشطار" يمشون قرب جواد الوزير . ومئتا خادم من المشاة "جوخدار" يضعون في وسطهم سياطا محلاة بسلاسل من الفضة ، يقوم اقدمهم في الخدمة بوظيفة جواسيس يقدمون تقاريرهم للكيخية باي . واخيرا اربعون بوابا .

اما اشهر موظفي القسم الثاني وعددهم اربع وعشرون هم : ١) السلحدار اغا . ٢) الجوخدار اغا او المشرف على ملابس الصدر الاعظم - ٣) المهردار اغا يختم رسائل الوزير الخاصة - ٤) امين السر او "الدودار اغا" يقوم بتهيئ كل لوازم الكتابة ٥) الجوخدار الثاني وهو "القفطان اغا" ٦) "المفتاح اغا" او الناظر على اثاث القصر . ٧) الناظر على اجهزة خيل الوزير "الرختوان اغا" ٨) وكيل غرفة الاسلحة "الجبخنجي باشي" ٩) الناظر الثاني على اثاث القصر . ١٠) رئيس ثمانين غلاما تقريبا "جندى" ممرنون على رمي الجريد . ١١) رئيس الخدم الغلمان "باش شاوش" ١٢) "البشكير اغا" او رئيس خدم مائدة طعام الوزير . ١٣) التوتنجي باشي" ١٤) "القهوهجي باشي" ١٥) "القلرجي باشي" اى رئيس الشراب ١٦) رئيس خزانة الثياب ١٧) "السفرجي باشي" او المشرف على اواني الطعام و الشراب ١٨) المشرف على مناشف وضوء الوزير "محرمجي باشي" ١٩) المشرف على طنافس صلاة الوزير "احرامجي باشي" ٢٠) المشرف على البخور وماء الورد "بخوردنجي باشي" ٢١) الحلواني او صانع الحلوى "معجونجي باشي" ٢٢) الموظف الذى يقوم بلف وترتيب عمائم الوزير ٢٣) الحلاق ٢٤) حامل الابريق "ابريقدار اغا" .

ويرأس هولاء الموظفين على ثلاث مئة خادم (يماك وارقداش) ويقوم على خدمة الحريم ثلاثة او اربعة من الخصيان وهناك عدد مماثل من الخرسان في حاشية الصدر الاعظم يقفون على باب غرفته عندما يكون في جلسة سرية ليظلوا قريبين منه لاخذ اوامره .

في كل مرة يخرج الصدر الاعظم من قصره يصطف خدمه على جانبي طريقه . وعندما يزور المفتي يذهب رجال هذا الاخير لاستقباله حتى الباب الخارجي ويتقدمه اثنان منهم يحملان مبخرتين تصعد منهما رائحة البخور . ثم يخرج المفتي ويلاقيه من اسفل الدرج ويجرى مثل هذا التعظيم عندما يستقبل الصدر الاعظم المفتي بدوره . وهناك اصول موضوعة في كيفية معاملة الموظفين بعضهم بعضا . فاذا زار موظف كبير موظفا اخر اقل رتبة منه يذهب

هذا الاخير لاستقباله فيقبل ثوبه ويمشي امامه ليدخله الى بيته .

في اول ايام الدولة كان راتب الصدر الاعظم لايتعدى العشرة الاف غرش . وقد رفعه السلطان سليمان الاول الى خمس وعشرين الفا لوزيره الفرنك ابراهيم باشا على اثر انتصارات هذا الاخير في بلاد المجر . ولكن الصدر الاعظم يستفيد كثيرا في تعيين الموظفين . وله ايضا حكم ولاية يديرها باسمه وكيل من قبله يدعي " متسلم " . وبعد فتح جزيرة قبرص في زمن السلطان سليم الثاني خصصت موارد هذه الجزيرة للصدور العظام الذين يوجرونها لنائب عنهم بمبلغ سنوى قدره (٣٢٥٠٠٠) غرش يدفعون للدولة من اصلها (١٧٠٠٠٠) غرش .

وكلما كثرت تغييرات الموظفين كلما زادت منافع الصدر الاعظم . فان المبلغ "جايزه" الذى يدفع ثمنا لكل وظيفة ،عدا وظائف وزراء الباب العالي وامناء سر الدولة الستة واخر الثلاثة عشر الخوجه من موظفي الدفتردارية ، يتراوح بين الفين وثمانية الاف غرش بحسب اهمية المنصب . فرئيس الخزينة واغا الانكشارية يدفعان عشرين الفا ويدفع رئيس الجمارك ثلاثين الفا . واكبر مبلغ يطلب من حاكم ولاية وقت تعيينه هو عشرة الاف غرش . وهناك ضريبة على رتبة الباشاوية تسمى ضريبة الطوغ وهي عشرون الفا للباشاوات من ذوى الثلاثة الطواغ وخمسة الاف لذوى الطوغين . وكل هذه المبالغ التي تدفع للصدر الاعظم تؤمن له موردا سنويا يزيد عن اربع مئة الف غرش . وله علاوة على ذلك ضريبة قدرها عشرة بالمئة على الاموال التي يدفعها الذين يلتزمون من الدولة التزاما دائميا حق جباية الضرائب . ويصل مورد هذه الضريبة الى المليون ياخذ ثلثيه الصدر الاعظم وياخذ رئيس الخزينة الثلث الاخر (.

كان يقبض الصدر الاعظم فيما مضى (٦٢٥٠٠٠)غرش من الذين يلتزمون قبض اموال الجزية . فياخذ لنفسه الثلث ويعطي الباقي للوزراء وامناء سر الدولة ولرؤساء كتاب دائرته ولقدماء الموظفين الفقراء . ولكن مصطفى الثالث ضم هذا المبلغ لخزينته عام ١٧٧١ عندما اعوزه المال . انما بعد بضعة اشهر على اثر ضجة قام بها من كان ينتفع بهذه الاموال قرر السلطان اعطاءهم من اصل المبلغ (٣٢٠٠٠٠) غرش فرقها هو بنفسه عليهم تحت اسم "منحة سلطانية" . عين منها سنويا للصدر الاعظم (٤٥٠٠٠) غرش و(٣٠٠٠٠) للكخية بك (٢٠٠٠٠) للرئيس افندى و(١٥٠٠٠) للشاوش باشي و(٥٥٠٠٠) لامناء سر الدولة الستة . و(٣٥٠٠٠) لكبار كتاب المستشارية و(١٢٠٠٠٠) للمستخد

للمستخدمين من الموظفين المسنين .

ان موارد الصدر الاعظم اذا اضفنا على رواتبه كل الهدايا التي تاتيه من كبار موظفي الدولة ولاسيما من حكام الولايات تصل الى اربعة او خمسة ملايين قرش .

انما يجب الاعتراف بان حاشيته تكلفه مبالغ عظيمة وان عليه تبعا للعادات الشرقية ان يقدم في بعض المناسبات هدايا ثمينة للسلطان ولموظفي بلاطه ولكبار موظفي الدولة . وكان على الصدر الاعظم زمن حكم اول السلاطين ان لايقدم هدايا للسلطان الا في ايام عيدى الفطر والاضحى ثم فيما بعد صار عليه ان يجدد تقدماته في عيدي ابتداء الربيع والخريف واوقات انقلاب الشمس (ميلها الاعظم) . والخيرا في عيد المولد النبوى . الى بصورة ان عدد هداياه يصل الى سبع مرات في السنة . وكانت هدايا الصدر الاعظم كوبريلي زاده مصطفى ثمينة لدرجة انها دفعت السلطان سليمان الثاني عام ١٦٩٠ الى الغاء هذه العادة الباهظة التكاليف . الا ان خليفته السلطان احمد رجع وعمل بها , الا ان السلطانين محمد الاول ومصطفى الثالث قللا عدد الهدايا . وفعلا فانه كان على الصدر الاعظم منذ حكم السلطان (مصطفى) الثاني الا يقدم هداياه لمليكه سوى اربع مرات في السنة وذلك في عيدى الفطر والاضحى وفي عيد الربيع (النيروز) وفي عيد المولد النبوى . الا ان تقدماته هذه لاتقتصر فقط على السلطان اذ عليه ان يقدم ايضا الهدايا لكل الامراء ابناء السلطان وللسلطانة الوالدة ولنساء السلطان ولكبار موظفي السراي وتكون مؤلفة على الاكثر من جواهر وصناديق وساعات وشال واقمشة هندية وماء الورد وخشب الكيك الند والبخور الخ .....
وتكون في بعض الاحيان من اكياس الحرير مليئة بالقطع الذهبية .

وعلى كل حال يجب على الصدر الاعظم ان يغتنم كل الفرص المناسبة للتحبب من السلطان بتقديم هدية ما له . فتارة يقدم له جوادا مجهزا باثمن عدة وتارة اخرى ساعة مرصعة بالماس او جارية شابة مزينة بافخر الثياب والحلى . وقد قضت العادة طيلة قرن ونصف اى منذ حكم السلطان مراد الثالث حتى حكم السلطان احمد الثالث بان يقدم الصدر الاعظم هدية للسلطان في كل مرة يقابله فيها . فيقدم له عادة جوهرة ثمينة واحيانا يضع على اعتاب العرش كيسا يحوى الوفا كثيرة من الذهب . وفي هذه المناسبة كان يقدم ايضا الهدايا لكبار موظفي القصر ويامر بتفريق خمسة او ستة الاف ذهب على بقية الموظفين . وقد ارجع السلطان احمد الثالث هذه العادة بطلب من الصدر الاعظم الداماد علي باشا . ومنذ ذلك الحين اخذ الصدر الاعظم لايفرق على رجال السراى في

مناسبة مقابلته للسلطان سوى الفين او ثلاثة الاف ذهب .

عدا هذا فاذا انعم السلطان عليه نعمة او هدية فانها تكلفه دائما مبلغا جسيما يقدمه مكافاة للموظفين الذين قدموها له . ان خلعة السلطان او منحته لوزيره تقبل بمنتهى الاحترام فاذا كانت جوادا مجهزا باثمن عدة فان وزراء الدولة الثلاثة يستقبلونه من على باب القصر، بعدها ياتي الصدر الاعظم فيقبل عنانه ويضعه على جبينه ثم يركبه ويدور به عدة مرات ساحة القصر وعندما ينزل عن صهوته يقبل باحترام العنان مرة ثانية قبل ان يعطيه لسائسه . ويكافيء الصدر الاعظم الموظف رسول السلطان الذى قدم له الهدية بفروة وجواد وثلاثين كيسا من المال . فيرجع الى السراى يتقدمه خدمه حاملين على اكتافهم هذه الاكياس .

ومن المعتاد ان يقدم الوزير في عيدى الفطر والاضحى الهدايا لكبار الموظفين . فيتناول كل واحد منهم رزمة فيها فراء واقمشة ومنسوجات حريرية وغيرها ويحصل كل رجال الدولة الذين يدعوهم الى تناول طعام الافطار عنده في ايام شهر رمضان على هدية منه ايضا .

وبعد وفاة الصدر الاعظم تضبط امواله وتضبط عادة ايضا بعد عزله وهكذا فان الاموال التي يجمعها مدة وزارته لا تنتقل لعائلته ويمكننا اخذ فكرة عن الثروات التي يمكن للصدر جمعها اذا اعرفنا تلك التي تركها رستم باشا صهر السلطان سليمان الاول عندما توفي عام ١٥٦١ بعد ان ظل على راس ادارة الدولة مدة خمس عشرة سنة . يقول المؤرخ حسن بك زادة عنه انه كان يملك في مختلف الولايات (٨١٥) مزرعة فيها (٤٧٦) طاحونا و(٢٩٠٠) حصان و(١١٦٠) جملا و١٧٥٠ عبدا وجارية . وقد وجد في خزينته (٧٨٠٠٠٠) ذهب وكثير من سبائك الذهب والفضة و(٣٢) جوهرة ثمينة . وفي خزائن ثيابه (٤٨٨٠) كساء تاما وفي قاعة سلاحه (٢٠٠٠) درع تقريبا و(١١٥٠) خوذة من الفضة و(١٠٦٠) من الفضة المذهبة او من الذهب الخالص و(٧٦٠) سيفا محلاة بالحجارة الكريمة و(١٠١٥) مرصعة بالذهب والفضة . وكان عنده (١١٣٠) سرجا وجلالا مزركشة بالفضة والذهب والجواهر . وكانت مكتبته مؤلفة من (٥٠٠٠) مخطوطة في التاريخ والفلسفة والاخلاق ومن (٦٥٠٠) نسخة من القران محلى جلد (١٣٠) منها بالذهب والجواهر .

ويقول المؤرخ حسن بك زاده ان هذه الموجودات التي ادهشت الناس في كل انحاء الدولة دلت على الاختلاسات الهائلة التي قام بها هذا الوزير مستفيدا من الثقة التامة التي اولاه اياها عمه السلطان .

ان واردات وزراء الدولة العادية و" البرانية " هي شبيهة بواردات الصدر الاعظم . فالكيخية باي يتناول من كل الموظفين الجدد عند تعيينهم مبلغا يتراوح بين ربع وثلث او نصف ماكانوا قد دفعوه للصدر الاعظم . فباشاوات الطوغين يقدمون له ٢٥٠٠ غرش ، ويدفع له باشاوات الثلاثة اطواغ ٧٥٠٠ غرش . ويأخذ من الصدر الاعظم عشرة بالمئة من وارد جزيرة قبرص الصافي .

ولا يتناول الرئيس افندى مالا الامن حكام الولايات الجدد فيدفع له الباشاوات ثلاثة الاف غرش والميرميرانيون خمس مئة . الا ان حقوق المستشارية وغيرها تجلب له منافع كثيرة .

ان واردات الشاوش باشي ليست اقل من واردات زميليه . ياتي قسم من هذه الواردات من الضرائب النسبية التي له على الاموال التي تفرضها المحاكم على اصحاب الدعاوى مع العلم بان امر تحصيلها راجع لدائرته . وهو يتناول الف غرش من الباشاوات المحدثين ومئتين وخمسين من "الميرمير- انيين" .

ان هذه الرسوم المفروضة على الوظائف جارية ايضا لدى رؤساء الدوائر الذين يتناولونها من اصحاب الوظائف المتعلقين بدوائرهم . من كل هذا يمكننا تصور هذه الرشوة التي تسيطر على كل دوائر الحكومة .

الباب الثالث

الوظائف السنوية

هناك ثلاثة اقسام من الموظفين : رجال الشرع او العلماء واهل السيف واهل العلم .

القسم الاول منوط امره بالمفتي والقسمان الاخران رئيسهما الصدر الاعظم ومؤلفان من خمسة وثمانين موظفا ينقسمون الى ثلاثة فروع .

الفرع الاول : مؤلف من ثلاثة وزراء وستة امناء سر يدعون (قبورجالي) اى كبار موظفي الباب العالي وقد تكلمنا عنهم في الباب السابق .

اما الفرع الثاني فانه مؤلف من اثنين وخمسين موظفا يشار اليهم باسم (خوجوات) (١) ويقسمون الى اربع طبقات :

الطبقة الاولى و وهي مؤلفة من خمسة من كبار الموظفين :

١) _ الدفتردار " الاول وهو وزير المالية وسنعرض لاعمال وظيفته في الفصل الذى يبحث عن دائرة المالية .

٢) _ الدفتردار الثاني ليس له من عمل سوى الاشراف على ادارة جباية الرسوم الجديدة التي وضعها السلطان سليم الثالث والمسماة " النظام الجديد "

٣) _ الدفتردار الثالث مناظر شؤون اعاشة العاصمة ولهذا فانه يسمى " حبوبة ناظرى "

٤) _ " النيشنجي " وهو مخصص لوضع شارة السلطان على الرسائل واوراق الاعمال والاوامر الصادرة عن العرش . وهذه الشارة تسمى نيشان او توقيع او طغرة ومنها يشتق اسمه ويلقب بالاسماء الثلاثة . كان يحق له فيما مضى فحص ومراقبة كل الاوراق التي تمر عليه ليضع عليها رمز السلطان . وهذا العمل يعطيه نوعا ما حقاً في تفتيش الدوائر التي تصدر عنها هذه الرسائل والاوراق . الا انه فقد هذا الامتياز في زمن السلطان احمد الثالث . ورتبته متساوية ورتبة الدفتردار الاول بالرغم من ان هذا الاخير كان فيما مضى ارفع شأنا منه وقد حصل هذا التعادل في زمن السلطان سليمان الاول بمناسبة الحادثة التالية (وهي انه كان يخدم عند النيشنجي مصطفى افندى رجل يدعى نوبهار زاده بك بوظيفة امين سر او مساعد ثم بواسطته تعين هذا

---

(١) جمع خوجة اي معلم واستاذ

الاخير في دائرة المالية وترقى من درجة الى اعلى حتى وصل الى رتبة دفتردار اول . الا انه رفض ان يتمشى والاصول المرعية في ان يتقدم على النيشنجي وقال له بانه يفضل ترك منصبه من ان يفعل ذلك نحو محسنه وسيده القديم . فطرب السلطان سليمان لهذه البادرة وامر ان الاقدم من هذين الوزيرين خدمة يتقدم على زميله .

٥) _ الدفترامينى" رئيس الدائرة المسماة بالدفترخانة وهو مستودع عام للسجلات القديمة ولقائمات اسماء املاك الدولة . وينقسم الى ثلاثة مكاتب تسمى اجمال ومفصل وروزنامجي ففي الاول سجل الولاية وتقسيماتها وحدودها مع سجل الاراضي المستملكة اما تملك سلطاني او تملك اقطاعي من قبل الباشوات او تملك اقطاع عسكرى . وفي الثاني السجلات المتعلقة باراضي الاهالي وتقسم الى قسمين الاولى تدفع العشر والثانية تدفع الضريبة . وتحفظ في الثالث سجل التغييرات التي تحصل بين ملاكي الاقطاعات العسكرية . ويشتغل في هذه المكاتب مئة كاتب تقريبا .

ان رؤساء هذه الدوائر الخمس هم مستشارو الدولة ويرتدون في الايام الرسمية كما يرتدى الرئيس افندى (الذى لايتقدم عليه سوى الدفتردار الاول) ثيابا حمراء من الحرير الاطلس . اما بقية موظفي هذه الدائرة فتكون ثيابهم بنفسجية اللون . ويتمتع هولاء الرؤساء بامتياز تقديم احتراماتهم للسلطان في اول يوم لانعقاد الديوان بعد تعيينهم . ويكون ذلك بالانحناء امام باب قاعة العرش .

اما موظفو الطبقة الثانية فعددهم ثلاثة وهم :

١) البيوك روزنامجي " رئيس مكتب الدفتردارية الاول .

٢) " الباش محاسبجي رئيس مكتب الدفتردارية الثاني . وهي الرتبة التي يعطيها السلطان عادة لوزرائه المفوضين في بلاطات الحكومات الاجنبية .

٣) " الاناضولي محاسبجي " رئيس المكتب الثالث .

ان هولاء الموظفين الثلاثة هم ايضا مستشارو الدولة ويسمح للاول منهم بتقديم احتراماته للسلطان بعد انعقاد الديوان لاول مرة والذى جلا جرى فيه امر تعيينه .

اما الطبقة الثالثة فمؤلفة من ستة موظفين : الاول هو " الترسانة اميني " وكيل امارة البحر يقوم بوظيفة وزير للبحرية . اما الخمسة الاخرون فهم موظفي السراى وهم " الجعر اميني "

" والزرا ب خاده اميني " والمطبخ اميني " والعربه اميني " والمصرف شهرسري " .

واخيرا فالطبقة الرابعة مؤلفة من ثمانية وثلاثين موظفا . منهم اثنان وعشرون رئيس مكتب في دائرة المالية . وثمانية روؤساء مكاتب الذين يقومون على مراقبة فرق المشاة الاربع وكتائب الخيالة الاربع المضموة الى السباهية والسلاحدارية . واربعة موظفين في امارة البحر وهم : " قليون لركاتبي " وعنبر لر اميني " وعنبرلر ناظرى " وترسانة رئيسي " . واربعة وكلاء وهم : " الطوبخانة ناظرى " المفتش على المركز الرئيسي لصب المدافع . وال السرجي ناظرى " مراقب ما يدفع وما يقبض من الاموال في الخزينة . " والكيلغيد اندرون اميني " يقوم بتأمين كل ما يلزم من اوراق واقلام وغيرها لمكاتب الموظفين . " والكاغيد بيرون اميني " جابي الضرائب الضرائب التي يجب ان يدفعها الملاكون الجدد للاقطاعات العسكرية .

اما الفرع الثالث فانه مؤلف من عشرة عسكريين واربعة عشر موظفا مدنيا يدعون الاغاوات فمن القسم الاول الروؤساء الاربعة لجيش المشاة ورئيسا الفرسان وقواد الاربع فرق المضمومة الى السباهية والسلحدارية . ثم ياتي بعد هولاء اغاوات البلاط الخمسة الاولين ثم الميرعلم اى رئيس الحجاب والبستنجي باشي وهو بآن واحد موظف عسكرى ومدني . ثم مشير البلاط واثنان من حاملي السلاح وبعدهم اثنان من الموظفين يجمعون اموال واردات الدولة ثم وكيل الخزينة العام والروؤساء الثلاثة لمعامل البارود في الاستانة وسالونيك وغليبولي . ولقبهم " بارودخانة اميني " واخيرا يدخل في هذه الطبقة معهم ايضا وكيل التعميرات العام " معمار اغا " ووكيل جمرك الاستانة . " جمرك اميني " ووكيل المسلخ " قصاب باشي " وهو يقوم بتامين اللحم لمطابخ القصر ومطابخ الانكشارية الخ .....

ان هذه المناصب الخمسة والثمانين هي الوحيدة في العاصمة التي تقلد بفرمان سلطاني وهي تُغير كل سنة وبارادة الصدر الاعظم الذى يثبت الموظفين اويرقيهم اويعزلهم . فتوضع لائحة " توجيهات دفترى " باسماء كل الوظائف مع اسماء الذين ثبتوا في مراكزهم او الذين عينوا من جديد . وعندما يريد الصدر الاعظم خلع احد كبار الموظفين يضع لائحة فيها ثلاثة اسماء يدل الاخير منهم على اسم الشخص الذى يفضله . ويوافق السلطان عادة على هذا الانتقاء بان يشطب على الاسمين الاولين ويخط في اعلى الورقة ما يلي : " مجبنجي توجيه "

اولونا " اى فليولى اذاً .

ان وضع هذه اللائحة يسبب دائما مناورات شديدة في الدس والكيد والطمع وعندما يخط السلطان كلمته عليها يعين يوم التنصيب ويكون عادة اليوم الثالث او الرابع من عيد الفطر . وبما انه على كل شخص يعين في منصب ما ان يتبلغ التعيين من الصدر الاعظم ذلك بان يخلع عليه هذا الاخير خلعة سنية فان الكيخية باك يدعو الاشخاص الذين وقع الاختيار عليهم للذهاب الى قاعة الصدر الاعظم الذى يكون جالسا في ركن الاريكة محاطا بامناء سر المستشارية وبكبار موظفي حاشيته وعن يمينه الرئيس افندى ورئيس التشريفات ويكون الكل وقوفا . وتوضع على يساره على الاريكة رزمة الفرمانات ثم على بعد قريب منها الخلع متراصة يقف قريبا منها " القفطانجي باشي " فيدخل الموظفون الجدد كل بدوره حسبما هو مرتب على اللائحة فيعلن الرئيس افندى لكل واحد منهم المنصب الذى راق للسلطان تعيينه فيه . فيتقبل التعيين مع الخلعة ثم يذهب ليقبل ثوب الصدر الاعظم الذى يناوله امر التعيين وبعدها ينسحب من المكان . ان اول شخص يتقدم هو الكيخية باك وهو الوحيد الذى تمنح له فروة من جلد السمور اما البقية ومن بينهم الرئيس افندى فلا يمنحون غير الخلعة اى "القفطان" . ويكون موظفو السراى موجودين ايضا ليتبلغوا تثبيتهم عدا البستنجي باشي الذى بسبب طبيعة اعماله كما كنا ذكرنا لا يظهر امام الناس ، الا ان " القفطان " الذى يمنح له يعطى لوكيله . وهناك ثلاثة عشر موظفا رواتبهم ضئيلة لذلك فانه يحق لهم اذا ارادوا عدم الحضور لاخذ الخلعة هذه مما يعفيهم من دفع المال لرؤوسائهم بسبب تعيينهم . وبما انه على كل موظف ان يضع عندما يتبلغ امر تعيينه العمامة الخاصة بمنصبه فانه يوجد في قصر الصدر الاعظم اناس معينون خصيصا لتقديم مثل هذه العمائم .

ان ثياب الشرف هذه المسماة باللغة العربية خلعة كانت مستعملة لدى الخلفاء سابقا وفي بلاطات البزنطيين حيث كان هذا الاسم يلفظ galat ومن هذه الكلمة مشتقة بدون شك كلمة gala اى احتفال او عيد . وعند العثمانيين اربعة انواع من الخلع وهي : " خاص الخاص " و " قوجكلاك " " والاعلى " والسادة " اما الفراء التي استعملت منذ حكم السلطان محمد الثاني فلا تمنح لغير كبار الموظفين . وتكون من جلد السمور اومن جلد الثعلب الابيض او جلد الفهد او

او السنجاب الخ ... تبعا لرتبة الذين تمنح لهم . وتخصص الفراء من جلد السمور لكبار
الموظفين امثال الصدر الاعظم والمفتي والباشاوات والعلماء من الرتب الثلاث الاولى . ان قماش
فراء الصدر الاعظم والباشاوات ~~والحكم~~ تكون من الحرير الابيض . ومن القماش الازرق للمفتي
ومن الاخضر للعلماء . وهناك نوع من الفراء من درجة ممتازة لايمنحها السلطان الا لثلاثة
اشخاص : للصدر الاعظم وللقائم مقام ولاغا الانكشارية الذين يرتدونها في مناسبات خاصة .
وتسمى Capanitza وتختلف عن بقية الفراء بان يكون لها طوق عريض من الفرو يتدلى
على الظهر ومحلاة بشرائط من الذهب . فالتي للصدر الاعظم تكون من الجوخ الاحمر والتي
لنائبه من الجوخ الاخضر اما فروة اغا الانكشارية فتكون من الجوخ القرمزي وعليها جلد فهد ؟
وتعطى الفراء والخلع ايضا لمن يمتاز بتفوق . وتشبها بالخلفاء العرب منح كثير من سلاطين
آل عثمان الموظفين الذين يريدون مكافاتهم بمهاء خمس او ست خلع الواحدة فوق الاخرى .
وكان من عادة السلطان عثمان الاول منح عمامة او ثوب ما كان قد لبسها هو كاشارة لعطفه .
وبعد حفلة التعيين او التنصيب يمنح الصدر الاعظم وبحضوره وحسب لائحة اخرى اكياسا
تحوى خمس مئة او الفا او الفي ذهب على الاكثر لقدماء الموظفين الفقراء من الذين ابيض
شعرهم وهم في الخدمة . ويرتفع مجموع هذه المنح كما لاحظنا سابقا الى مئة وعشرين الف
غرش .

ان حكام الولايات لايعينون ايضا الا لمدة سنة ويجرى تعيينهم ~~بنفس~~ بالمراسيم نفسها ولكن بعد
عيد الاضحى ويقوم وكلاؤهم بتمثيلهم لدى الباب العالي . واذا كان احد هولاء الوكلا يمثل
~~بنفس~~ بالوقت عينه عددا من الباشاوات فانه ياخذ خلعة لكل واحد يمثله .

ولا يفقد الموظفون عادة مراكزهم اى ان يعزلوا في الوقت المخصص لتعيين الموظفين
الجدد اذ ان الذين يتناولون من الموظفين مالا وقت تعيينهم يحاولون ان يثبتوا القدماء
في مراكزهم وقت التعيين فياخذوا منهم المترتب عليهم دفعه . وقد يصدف ويعزل هذا
الموظف القديم في خلال السنة ويعين اخر بدلا منه ~~الذي~~ وعليه ان يدفع كما ذكرنا مالا
لرؤسائه . ~~وبذلك~~ وهكذا فان هولاء يتمكنون من اخذ ضريبة المال مرتين بدلا من مرة واحدة .
ان معظم الموظفين الذين يدفعون ثمن تعيينهم لايتناولون راتبا محددا عند تنصيبهم

او اذا ثبتوا في مراكزهم . بينما ان امير البحر ورؤساء الجيش ورؤساء الدوائر وحكام الولايات يؤكدون بطلب مال التعيين من مرؤوسيهم . ان هذه الطريقة في بيع المناصب ادخلها على الدولة الصدر الاعظم الجندرى زادة علي باشا زمن حكم السلطان بايزيد الاول واثبتها رسميا رستم باشا وزير السلطان سليمان الاول . وعلاوة على هذا الدخل الذى ياخذه الرؤساء وقت تعيين الموظفين فانهم يتناولون ايضا مالا اضافيا اذا ارادوا منح المناصب الكثيرة الربح . واذا صدف وخُلع الرؤساء من مناصبهم فانه على الموظفين ايضا ارضاء الرؤساء الجدد بدفع مبلغ من المال . ان الرشوة في سبيل المناصب وعدم ثبات من يكون فيها تسبب دائما كثيرا من الدسائس والمؤامرات التي تقلق دوما السراى والباب العالي . وبما ان الاستحقاق الشخصي ليس له اعتبار واهمية امام الطماعين من الرؤساء فان المناصب المهمة تمنح لاشخاص غير اهل لها . وتستفز بهم الاستفادة مدة توليهم فيجمعون المال بسرعة مغتنمين كل الفرص والمناسبات التي تهيء لهم من جراء الظلم والفوضى .

ان تواريخ الدولة تشير الى حصول ارتشاء كبير يستحق الذكر زمن مراد الثالث الذى كان والحق يقال سلطانا طماعا وفاسقا . وذلك ان الدولة ارادت عام ١٥٩٢ عزل حاكم طرابلس الشاب بسبب اختلاساته فاخذت جموع المتقدمين لهذا المركز تسعى للحصول عليه وتدفع الاموال الطائلة . فوجد واحد منهم ويسمى حسن باشا الوسيلة الناجعة بان وضع في قائمة الديوان عشرة الاف فندقلي (سيكان) كاعانة اولى يقدمها لمساعدة الدولة . فامر مراد الثالث بدون تردد اعطاء هذه النقود لموظفي مائدته من اصل المبلغ الذى لهم عنده وان يذهب حسن باشا لاستلام مهام وظيفته في طرابلس .

ان الموظفين المدنيين والعسكريين يعتبرون معا حسب العادات الشرقية عبيدا للسلطان ويلقبون بهذا الاسم "قول" اي عبد في جميع اوراق الدولة . واذا اراد الصدر الاعظم في تقاريره للسلطان التكلم عن شخص ما فانه لا يستعمل ابدا غير هذه الكلمات : (فلان عبدكم) والسلطان نفسه عندما يتكلم عن كبار موظفيه يدعوهم عبيده وكان سفراء ملوك اوروبا يُنعتون بهذا الاسم ايضا ولم يبطل استعماله نحوهم الا زمن السلطان محمد الرابع . وقبل هذا الزمن كان وزراء الباب العالي يكتبون في تقاريرهم للسلطان : "سفير الدولة الفلانية عبدكم" وهذا الاصطلاح مستعمل بصورة عامة بين العثمانيين . اذ ليس من قواعد الادب عندما يتكلم احد الناس شخصا ارفع منه

مقاما ان يخاطبه بصيغة المفرد انما يقول : "عبدكم وخادمكم" .

عدا هذا فان كل رعايا السلطان متساوون عنده وكلهم مقبول لتسلم مناصب الدولة .
وقد حصل في احيان كثيرة ان يترقى احد الاشخاص بمدة قصيرة الى ارفع المراكز ويكون من اصل وضيع.
كما يحصل ايضا ان يتاخر كبار الموظفين الى مراكز وضيعة ويجدون انفسهم مجبورين على تقبيل قيادة
ثوب من كانوا في اليوم السابق من عداد مرؤوسيهم . وان امير بحر معزول لايتردد بقبول احدى
السفن كما يذهب اغا الانكشارية المغضوب عليه الى قيادة حامية احدى مراكز الحدود . ويعتبر
الصدر الاعظم المقال من منصبه نفسه سعيدا اذا حصل على حكم احدى الولايات . ان عدم
استقرار الموظفين في مناصبهم يقتل مواهبهم فتراهم يُنقلون من مراكز الى اخرى كانه بمقدورهم
العمل في كل المناصب . الا ان العلماء وحدهم يشذون عن ذلك ولا تتبدل مناصبهم .

ان المعاملات الشائنة التي يعامل بها الموظفون حتى الذين هم من اعلى المراتب منهم
عندما يغضب عليهم السلطان او رؤوسائهم تدل على خشونة عادات اهل البلاد . فكثير من السلاطين
وبصفة خاصة محمد الثاني وسليم الاول تعودوا اذا كانوا في حرب وغضبوا على الصدر الاعظم ان يهدموا
على حين غرة خيمته وهو موجود فيها . واذا غضبوا على احد الباشاوات او احد القواد فانهم يامرون
بقطع اثفار بردعة جواده . وقد حدث في احدى غزوات محمد الثاني على بلاد قرمانيا ان اظهر جنود
الانكشارية حركة يريدون بها طلب مكافاة على اعمالهم فامر رئيس الانكشارية بوضع كل قائد "اورطة"
في الفلقة وجلده على رجليه . وفي عام ١٦٢٣ امر الصدر الاعظم حسين باشا بجلد احد الامراء
(بيكلربك) على رجليه وقضى هذا نحبه وهو يجلد . وامر بعد بضعة ايام بجلد احد كبار القضاة
وكان من الاشراف من سلالة النبي . وفي سنة ١٦٤٨ زمن السلطان ابراهيم الاول امر الصدر الاعظم
احمد باشا بجلد احد اخوته وكان كخيته مئتي جلدة وامام كل رجال حاشيته . وفي سنة
١٦٤٨ اساء كثير من قواد السفن التصرف امام اسطول البندقية فغضب امير البحر ونزل في جزيرة
"شيو" وجمع كل قواد اسطوله وهجم عليهم وبيده عصا وارهقهم ضربا . ثم امر بوضع كثير منهم
في الفلقة وجلدهم مئة وخمسين جلدة . وكان من عادة الصدر الاعظم محمد باشا انزال مثل هذه
العقوبة في قاعة ديوانه بجميع الموظفين بدون استثناء . وتذكر التواريخ ان احد وكلاء
الخزينة البحرية مات سنة ١٧٠١ وهو يعاقب بهذه الطريقة وان احد مفتشي الانكشارية ظل مريضا

بعدها عدة اشهر .

واذا اراد احد السلاطين ارشاد عماله للقيام بوظائفهم خير قيام يكون ذلك بتهديدهم شر تهديد . وان رسائل النصح التي يبعثها السلطان لكبارموظفي الدولة تنتهي عادة بمثل هذه الكلمات : " سيعاقب كل منكم بشدة حسب مركزه وحسب حالته اقسم على ذلك بروح اجدادي ".

وعندما رفع السلطان محمد الثالث سنة ١٥٩٨ جراح محمد باشا الى رتبة الصدارة نصحه برسالته ان يخدم مصالح الدين والدولة خير خدمة ثم قال : " اعلم بانني اقسمت بارواح اجدادي بان لااعفو عنه عن صدر اعظم بل اعاقبه شر عقاب لاى مخالفة يرتكبها وسوف يعدم ويقطع جسده ويلعن اسمه." وكتب السلطان احمد الاول سنة ١٦٠٣ للقائم مقام الذى عين مكان الصدر الاعظم وكان اتيا من مصر مايلي : " اعلم ياقاسم باشا بان والدى السلطان قضى نحبه بمشيئته تعالى وقد اقمت مكانه على العرش السلطاني . اجتهد بان تكون العاصمة هادئة ولا تهمل شيئا بهذا الخصوص . واذا حصل اى خلل فيكون الموت عقابك " وعندما كان محمد الرابع قاصرا وآلت اليه السلطنة وعمره سبع سنوات كان يقول في كل مناسبة لوزرائه وكبار موظفيه بانه سوف يقطع رؤوسهم ويصحب انذاره هذا بحركة من يده تشير الى ذلك .

ان حياة ومال الموظفين هما تحت رحمة السلطة . فان اموالهم باستثناء العلماء تستصفى عند موتهم ان لم تستصف وهم احياء . لذلك فهم يستعملون جميع الطرق لانقاذ بعضها . فينتحلون على انفسهم الديون لكيما يقسموا عند الحاجة بانهم مديونون . ويطمرون جواهرهم والذهب الذى عندهم ويحتاطون دائما بحمل بعض الاشياء الثمينة وذلك خوفا من ان ينفوا على حين غرة . وهم يوقفون الاموال على الجوامع ليؤمنوا دخلا للاشخاص الذين يريدونهم ويعينونهم بنفس الوقت وكلاء على هذه الاموال الموقوفة . وهم يوقفون عقاراتهم على هذه الاماكن الدينية لكي يؤمنوا ايرادها لاولادهم وهذه العملية تنتهي بتحويل كل املاكهم الى وقف . وهم يضعون الاموال او يكتبون العقارات باسماء اقرب اهلهم اليهم او باسم اصدقائهم المخلصين . وفي حال عدم وجود براهين قانونية تظل اموالهم هذه بعيدة عن اى ضبط او حجر . ولكن عندما يصدر الامر بضبط املاك موظف كبير توفي اوغضب عليه فان الدولة تستعمل احيانا طرقا قاسية جدا وذلك ان رجاله مثل نائبه ووكيل ماله وامين خزينته يعذبون بشدة الا اذا اقروا بما يعرفون عن ثروة رئيسهم . وهكذا فان استصفاء الاموال

يمنع العائلات من ان تصبح قوية بفضل ثرواتها . وهذا العمل يدر المال على الخزينة ويساعد في تطبيق سياسة حذرة تمنع في ان يحصل الافراد على مكانة سامية . ولهذا السبب فان السلاطين لم يعطوا قط ارضا ما لشخص بصورة دائمة بل تكون لوقت معين . والقانون المدني يرمي الى نفس الغاية وذلك انه لايعترف بحقوق البكر من الابناء ويامر بتقسيم الارث بين الورثة من الجنسين .

ويتبلغ كبار الموظفين اقالتهم من منصبهم بامر يوجهه لهم مساء الصدر الاعظم يطلب منهم عدم الذهاب في اليوم التالي الى دوائرهم . والذين يعينون في احدى المناصب يتبلغون امر المثول امام الباب العالي . وتكون رتبة الرسول الذى يحمل امر العزل والتعيين مناسبة دائما ورتبة الشخص الذى يذهب لتبليغه . فالرئيس افندى هو الذى يذهب ويبلغ احد العلماء خبر تعيينه مفتيا ويبلغ المفتي المعزول خبر عزله بواسطة الشاوش باشي . ويوكل للبستنجي باشي كما لاحظنا سابقا امر توقيف الصدر الاعظم المعزول . ويذهب احد كبار موظفي السراى ليقدم لخلفه الخاتم الهمايوني

وتمتاز كل طبقة من الموظفين عن غيرها بنوع خاص من اللباس يختلف عن غيره بالتفصيل ونوع القماش ولونه ونوع الفراء . فيلبس الموظف حسب مركزه اما القطيفة او الديباج او الجوخ او الوبر واما فراء السمور او الثعلب الابيض او السنجاب او الفهد . وهناك اسماء خاصة لمختلف انواع الثياب كما هناك اسماء خاصة ايضا لانواع العمائم .

الباب الرابع

الديوان

ان كلمة ديوان معناها باللغة العربية مجلس وجمعية ومجمع ومنذ ان اطلقها الخليفة معاوية على مجلس شورى دولته وكان بنفس الوقت محكمة للعدل اصبحت تشير الى اجتماع الحكام الاداريين والقضائيين للشورى . وقد انشأ فاتح القسطنطينية ديوانين احدهما في السراى والاخر في قصر الصدر الاعظم . وكان الاول بنفس الوقت مجلس شورى الدولة ومحكمة عليا ومركز الادارة الحكومية حيث ترسل اليه اهم شؤون الدولة . ولهذا السبب فان "الخوجوات الاوليين" اى رؤساء دوائر المستشارية والدفتردارية ودائرة المستندات القديمة كانوا يشتغلون في غرف مجاورة لقاعة الديوان . وكان السلطان يجلس على مرتبة عالية ويرأس المجلس .

كانت قاعة الديوان في بادىء الامر في باحة السراى الاولى . ثم شيد سليمان الاول في الباحة الثانية قاعة ذات قبة مزخرفة باثمن الزخارف جعلها مركزا للديوان . ووضعت المستندات القديمة في بنائين مجاورين لايزالان حتى الان يختمهما الصدر الاعظم بخاتمه . وقد خصص هذا السلطان للديوان امر النظر في كل الشؤون السياسية . وكان يحضر المجلس ويقعد وراء نافذة محجوبة كائنة فوق مقعد الصدر الاعظم فيكون بذلك مشاهدا غير منظور لاحكام ومناقشات اعضاء المجلس .

ظل الديوان مدة طويلة يتألف بصورة خاصة من وزراء يطلق عليهم لقب وزراء القبة نسبة الى شكل قاعة المجلس . ولم يكن هناك حتى زمن سليمان الاول سوى ثلاثة وزراء ثم زاد عددهم ووصل الى تسعة ومن ضمنهم الصدر الاعظم (١). ويُدعون الوزير الاول والثاني والثالث الخ ... ويعملون في اوقات الحرب كقواد للجيش تحت امرة السلطان او الصدر الاعظم ويرأسون احيانا قيادة الجيش مباشرة اى لايعملون تحت امرة السلطان او الصدر الاعظم فيحملون اذ ذاك لقب "سرعسكر" .

ان الاضرار التي نتجت عن تنافس هذا العدد الكبير من الوزراء ادى في بادىء الامر الى تقليل عددهم ثم بعد ذلك الى ازالتهم جميعا وحصل ذلك في ايام حكم السلطان احمد الثالث تحت

---

(١) وقد عين هذا السلطان وزيرا رابعا عام ٩٣٥ وخامسا عام ٩٤٤ ثم جاء بعده السلطان سليم الثاني وعين وزيرا سادسا ثم سابعا سنة ٩٧٥ ثم عين مراد الرابع الاثنين الاخيرين عام ١٠٢٦ و١٠٢٩ اما لباسهم فهو كلباس باشاوات الاطواغ الثلاثة اى كساء من الحرير الاخضر عليه فراء من جلد السمور .

ضغط الصدر الاعظم " الشهيد علي باشا " . ومنذ ذلك الوقت اصبح لايحضر الديوان سوى باشا واحد يحمل لقب وزير وهو امير البحر .

كان يجتمع الديوان حتى ذلك الوقت عدة مرات في الاسبوع الا ان السلطان احمد الثالث امر الا يجتمع الا كل يوم ثلاثاء . ثم اخذ خلفاؤه من بعده يقللون من اوقات اجتماعه الى ان اصبح في وقتنا هذا لايلتئم الا مرة واحدة كل ستة اسابيع . وبالرغم مما كان يصحب هذه الاجتماعات من الابهة والاحتفالات مع مراعاة شديدة للتقاليد المرعية فانها ليست سوى صورة لاغير لتلك الاجتماعات القديمة .

وهناك نوعان من الدواوين . الديوان العادى وهو بمثابة محكمة للعدل في ايامنا هذه . وعلى رؤوساء الادارة ان يقيموا في غرف متصلة بقاعة الديوان لكي يكونوا قريبين لاعطاء المعلومات ولتلقي الاوامر اى كما كان ذلك يحصل سابقا . ويوجد في قاعة الديوان من جهاتها الثلاث اريكة مغطاة بالجوخ المذهب . يحتل الصدر الاعظم اوسطها ويجلس عن يمينه امير البحر وعن يساره القاضيا عسكر . اما النيشنجي فانه يجلس على الاريكة التي الى جهة اليمين . والتي الى جهة اليسار يجلس عليها الدفترداريون الثلاثة . ولا يتالف المجلس الا من هولاء الموظفين الثمانية الا اذا كان هناك في المدينة باشاوات من ذوى الاطواغ الثلاثة اذ يمكنهم حضوره لانهم حسب رتبتهم يعتبرون من اعضائه مذ ولدوا . ويكون جلوسهم قرب امير البحر . ويكون الجميع بالملابس الرسمية ويجلسون على الطريقة الاوروبية . ويلبسون في ارجلهم الجزمات طبقا للعادة العسكرية القديمة التي تقضي بلبسها عند المثول في حضرة السلطان . وعندما يحضر السلطان المجلس فانه يقف وراء نافذة محجوبة بشعرية مذهبة كائنة فوق مقعد الصدر الاعظم كتبت فوقها باحرف كبيرة ايات قرانية تنصح باتباع الفضائل التي تؤدى الى الحكم العادل . ويكتب على جانبي النافذة شعار السلطان باحرف ذهبية .

ويقف رؤساء الجيش واشهر قواد الانكشارية جهة اليمين تحت الرواقات الداخلية التي تحيط بالباحة الثانية . ويكون على مسافة قصيرة منهم الف ومئتان من عساكر الانكشارية . ويقف الى جهة اليسار رؤوساء وقواد فرق الخيالة كما يقف عدد من الـ Peiks والشواش والقبوجية وحاملي السلاح . ويصطف امام باب السعادة ثلاثون من رؤوساء الحجاب ويركب اثنا عشر من السلاحدارية الخيل المجهزة باثمن عدة ويصطفون على شكل دائرة . ويخيم اثناء ذلك على القصر سكون عميق .

وهناك طقوس منصوصة تتعلق في الاحوال المتعلقة باجتماع اعضاء المجلس الذين عليهم ان يحضروا بتتابع مبتدئين باقلهم رتبة . فاذا جاء احدهم متاخرا عليه ان يقف امام باب القصر الثاني الى ان يسمح له رئيس التشريفات بالدخول . ويقف مشيرا القصر امام باب القصر الثاني لاستقبال الدفتردار الاول والرئيس افندي والقاضي عسكر واميرالبحر . ثم يتقدمانهم وهما يضربان بعصويهما على الارض الواحد بعد الاخر . وعند وصولهم يقف كل منهم حسب رتبته على ابعاد مختلفة من باب الديوان الذي يميز عن غيره بوجود ثلاثة عواميد صغيرة من الرخام . ويجب ان يقف الاعضاء امام العمود الثالث وان يلتفتوا نحو باب السعادة وينحنوا ويحيوا باحترام زائد مكان سكن السلطان .

وعندما يحضر امير البحر يذهب رسول بسرعة حاثا جواده نحو قصر الصدر الاعظم ليخبره بحضور جميع اعضاء الديوان . وعندما يصل يصيح عاليا " استعدوا " عندها يتحرك موكب الصدر الاعظم المؤلف تقريبا من جميع موظفيه . ويرافقه الكخية بك حتى باب السراي الثاني ثم يرجع بسرعة الى الباب العالي ليقوم مقام رئيسه اثناء غيابه . فيجتاز الصدر الاعظم باحة القصر الثانية ماشيا لانه لا يسمح لاي كان عدا السلطان من اجتيازها راكبا (١) . فيتقدمه مشيرا القصر ويمشي هو بخطى وئيدة يحيه القواد والجنود ثم ينحني بكل اجلال نحو باب السعادة ويدخل قاعة الديوان فيستقبله الاعضاء وسائر الموظفين وهم مصطفون على جانبي المدخل . تبدأ بعدها الجلسة ويكون واقفا في اخر القاعة اربعة من الموظفين وهم رئيس التشريفات ووكيل الخيم ونائباهما .

تبتدىء الجلسة عند بزوغ الشمس بفحص الاختام الموضوعة على المستودعين اللذين تحفظ فيهما المستندات القديمة ، فيفض "الشاوش باشي" الاختام باعتنا ويقدمها للصدر الاعظم ليراها . وفي اخر الجلسة يقدم له هذا خاتمه ليعيد الاختام . بعد ذلك يدخل اصحاب الشكاوى الذين اخذوا الاذن من الشاوش باشي للمثول امام مجلس العدل هذا . فيقوم رئيسا الاستدعاات ويقرآن بصورة متتابعة دعاويهم ويكتبان اوامر الصدر الاعظم عليها ثم يوقع عليها هذا الاخير بيده فالمسائل المدنية يقضي بها القاضيا عسكر ولكن شكلا فقط اذ عليهما بعد انفضاض المجلس ان يفحصاها في دوائرهما الخاصة . ويكون عمل النيشنجي في وضع شعار السلطان على اوراق الاوامر الجديدة . ويحضر امير البحر والدفتردارين الثلاثة مستمعين فقط الا اذا وجه لهم

---

(١) ولم يشذ عن هذه الاصول المرعية سوى الصدر الاعظم الحاج محمد باشا لما كان راجعا سنة ١٧٢٩ من الحدود بعد صلح بلغراد اذ ان له السلطان محمود الاول كدليل على عطفه عليه بالتقدم راكبا حتى باب الديوان –

الصدر الاعظم بعض الاسئلة المتعلقة بدوائرهم . ولا تدوم هذه الجلسة عادة غير ساعة واحدة . اما اصحاب الشكايات الذين لم ينظر في امورهم فانهم يحولون الى ديوان الباب العالي .

ثم يجهز الطعام وتنصب ثلاث موائد صغيرة واحدة امام الصدر الاعظم الذى يكون معه النيشنجي والدفتردار الاول . والثانية امام امير البحر والدفتردارين الثاني والثالث . والثالثة امام قاضيي العسكر . اما الخوجوات فانهم يتناولون الطعام في غرفهم التي يشتغلون فيها . وياكل اغاوات الانكشارية والسباهية والسلاحدارية مع قوادهم تحت الرواق . ويقدم الطعام ايضا لجنود الانكشارية ولكن بصورة غريبة اذ يضع خدام المطابخ في وسط الباحة ست مئة وعاء من النحاس مملوءة بالشورباء وامام كل وعاء ثلاث قطع كبيرة من الخبز . وعندما تعطى لهم الاشارة يهجمون على الطعام فيحملونه ويرجعون به الى مراكزهم لتناوله ويكون ذلك بمعالق خشبية يضعونها داخل الانبوب النحاسي الموجود في قلانسهم المخصصة للحفلات وهم يرفضون وعندما يكونون مستائين من السلطان تناول الطعام المقدم لهم . وهذه الاشارة السابقة للعصيان تنشر الذعر في القلوب .

وبعد ان ينتهي الصدر الاعظم من تناول الطعام يطلب خطيا الاذن للمثول بين يدى السلطان وهو يستعمل دائما من اجل ذلك هذه العبارة : " على اعضاء الديوان ان يبتغوا سعادة وضع جباههم فوق غبار قدمي السلطان المعظم سيدهم ورئيسهم " ثم يتقدم بكل رصانة الرئيس افندى الذى خط هذه العبارة فيناولها للصدر الاعظم الذى يلقي نظرة عليها ويضعها داخل منديل حريرى ثم يقف هو واعضاء المجلس ويتناول الخاتم الهمايوني من صدره فيقبله ويضعه على راسه ثم يختم الرسالة التي يحملها الرئيس افندى ويعطيها لمشير السراى الذى يكون مع الشاوش باشي امام مدخل القاعة . فيذهبان معاً ويقدمانها للسلحدار اغا او لرئيس الخصيان السود وهما الوحيدان اللذان يمكنهما اعطاءها للسلطان الذى يكتب في اعلاها موافقته لطلب الصدر الاعظم . ثم يرجع الرسولان ويعلنان قدومهما بضربهما الارض بعصيهما . فيخرج الصدر الاعظم لملاقاتهما حتى باب القاعة ويتناول الرسالة التي تسمى وقت ذاك " خطي شريف " بالاحترام المعهود .

فيخبر الصدر الاعظم اغا الانكشارية بانه مسموح له تقديم خضوعه للسلطان . فيدخل اول واحد الا انه لا يمكث عادة سوى برهة وجيزة . ثم يدخل بعده القاضيا عسكر ولا يمكثان اكثر منه الا اذا ارادا اعلام السلطان باسماء القضاة الذين عيناهما في اخر اجتماع للديوان . في هذه

الحالة يقرأ كل منهما لائحة باسماء الذين عينوا في دائرته . وعندما يخرجا فيترك الصدر الاعظم قاعة الديوان ومعه امير البحر ويدخلان على السلطان فينحنيان ثلاث مرات ثم يقتربان من العرش . ولا يتناول الحديث سوى اشياء غير مهمة بسبب وجود اربعة من موظفي السراي اذ تقضي الاصول المتبعة بذلك وهم : الميرعلم ويقوم بوظيفة حاجب . وثلاثة من رؤوساء الخصيان البيض (القبواغا والخزنكا باشي والقلرجي باشي) يقفون على يسار السلطان ووجوهم نحو الحائط .

ان الارض من باحة القصر حتى قاعة العرش هي على مستوى واحد ويجتاز الانسان قبل وصوله العرش بغرفة يقف فيها موظفو الدائرة الاولى . اما العرش فهو اريكة مغطاة بالديباج يرتفع درجتين عن الارض تعلوه مظلة محمولة على اربعة عواميد معلق فيها قطع كبيرة من اللؤلؤ الصافي . ان قاعة العرش متوسطة الحجم يدخلها النور من نافذة واحدة . فيها مدفأة شرقية الشكل وكوتان يوضع فيهما عمامتان مزينتان باوسمة براقة . وللقاعة اربعة مداخل واحد مخصص للسلطان والثاني هو المدخل العادي اما الثالث فلا يفتح الا لادخال الهدايا المقدمة من سفراء الدول الاجنبية من قبل حكوماتهم وتعرض امام هذا الباب عندما يمتثلون بين يدي السلطان . ويبقى الباب الرابع مغلق وهو مقابل للثاني ويسمى باب القصاص وسبب ذلك انه قبض سابقا داخل السراي فجأة على احد الصدور العظام وحكم عليه بالاعدام . فجيء به الى ما وراء هذا الباب حيث وجد بحرة ومكانا للصلاة ليتوضأ ويصلي اخر صلواته قبل ان يسلم لجلاديه .

ويجتمع الديوان عدا ذلك في حالتين استثنائيتين : اما لدفع مرتبات الجنود ويكون ثلاث مرات في السنة واما لمقابلة احد سفراء الدول الاجنبية . ويطلق عليهما اسم " غلبة ديوان (١) لانه يجتمع فيهما عدد كبير من الموظفين والجنود . فيسمح بالدخول لثلاث مئة انكشاري يقدم لهم ست مئة صحن من الرز ومثلها من " الزرده " وهي شوربة باردة مصنوعة من الرز والعسل والزعفران ثم يدخل الفرسان ولكن بدون جيادهم كما يدخل ايضا رجال فرق المشاة الثلاثة الجبه جية والطوبجية والطوب عربجية) الذين يصطفون في باحة القصر جهة اليسار مقابل الانكشارية .

وبعد ان ينتهي هولاء من تناول طعامهم تفرق المرتبات على الجنود . ويكون قد قدم رؤوساؤهم قبل بضعة ايام لوزير المالية قيمة المال اللازم ويكون ذلك حسب عدد الجنود . وبالرغم من ان الرؤوساء يضاعفون عدد الجنود الذين هم في الخدمة فان الدولة تغض النظر عن ذلك

---

(١) غلبة معناها في التركية جمهرة من الناس .

وهذه الزيادة التي ياخذها القواد هي اهم ما يربحونه . ويقدم وزير المالية بدوره للصدر الاعظم لائحة بقيمة المال اللازم فيرسلها هذا ليوافق عليها السلطان الذى يامره بدفع المرتبات حسب المراسيم المتبعة . وقبل الابتداء بتوزيع المال يرسل الصدر الاعظم مذكرة ثانية للسلطان يطلب منه اوامره الاخيرة وعندما يصله " الخطي شريف " الجديد يامر بصرف الرواتب .

فتوضع خارج قاعة العرش وامام الباب، مقابل مقعد الصدر الاعظم اكياس من الجلد السختيان الاحمر يحوى كل منها خمس مئة قرش (هو مبلغ الكيس) . واول ما يفرق المال على فرق الانكشارية فتتناول كل "اورطة " ما يخصها وبدورها مبتدئين بتلك التي يكون قوادها اقدم من غيرهم . فياتي موظف وينادى اسماء هولاء فيتقدم القائد نحو باب الديوان قابضا بيده اليمنى طرف كم ثوبه الفارغ . فيحي الصدر الاعظم لامسا الارض بيده ثم يرفعها الى فمه ثم الى راسه وبعدها ينسحب وهو ينحني مرتين ووجهه ناحية الصدر الاعظم . عندها ياخذ العساكر الاكياس المخصصة لهم فياتي بعد الانكشارية السباهية ثم السلاحدارية ثم الجبجيه الخ .... وتنسحب كل فرقة لوحدها يحمل رجالها الاكياس على اكتافهم . ويذهب قواد الجيش بعد ذلك الى مراكزهم ويشرفون على توزيع المرتبات التي وتدوم اربعة او خمسة ايام . الان صرف رواتب فرق الخيالة يحصل امام الصدر الاعظم وبحضور رؤساء الفرق . وبعد الانتهاء من ذلك يعلم الصدر الاعظم السلطان الذى يعرب له عن رضاه نحوه ويمنحه بواسطة احد كبار موظفي البلاط فروة من جلد السمور وخنجرا مرصعا بالحجارة الكريمة . ويبلغ المال الذى يدفع لمرتبات اربعة اشهر عادة مليونا ونصف المليون او مليونين قرش من ضمنها مرتبات موظفي السراى وحرس السلطان والعساكر البحرية والانكشارية وفرقة حرس ادرنه .

يجتمع المجلس بعد دفع مرتبات الجنود وينتهي بحفلة طعام . وبهذه المناسبة فان اعضاء الديوان الذين يُقبلون لحضور مجلس السلطان يدخلون سويا معا مع اغا الانكشارية والدفتردار الاول ليخبروه بانتهاء امر الدفع الذى يثبته وزير المالية بعقد يقراءه على الحضور ثم يوقع عليه القاضيا عسكر ويصدقه اغا الانكشارية باسمه واسم رؤساء الجيش . ويعرب السلطان عن رضاه نحو الدفتردار الاول بمنحه خلعة ثمينة .

ان هولاء الموظفين هم الوحيدون الذين يُقبلون في مجلس السلطان الا انه يسمح لخمسة عشر شخصا يحتلون مناصب عالية بتقديم احتراماتهم له يوم انعقاد المجلس لاول مرة وبعد ان يعينوا في مناصبهم . (١) في الدولة

(١) وهم: الرئيس افندى والخوجوات الستة الاولى وقائدا فرق الخيالة " الجبجي باشي ووكيل اغا الانكشارية وحاجبا السلطان ... [illegible]

فان الواحد منهم بعد ان يلبس الخلعة (القفطان) ويكون واقفا بين اثنين من روءساء الحجاب يتقدم نحو مدخل قاعة العرش وينحني على عتبة الباب ثم ينسحب في الحال .

ان الديوان الذي ينعقد في السراى ليس ماهو الا صورة باطلة لمحكمة عدل . الا ان ذلك الذي يعقده الصدر الاعظم في قصره ظل محافظا على وضعه . فهو محكمة عليا تنعقد خمس مرات في الاسبوع . ويكون الصدر الاعظم جالسا على مقعد مرتفع ثلاث درجات عن الارض و ومكتوب فوقه بماء الذهب شعار السلطان مع هذه العبارة : " ان ساعة عدل لافضل من صلاة سبعين سنة ." كما كتب ايضا فوق باب القاعة الكبرى التي توءدى الى مكان الصدر الاعظم ما يلي : "ان الانسان الذي يحميه الله لايحيد عن العدل في ادارة الاعمال ." وكتب على باب مقابل للاول ويوءدى الى غرفة الرئيس افندى (" ان العز الذي يعطيه القلم للذين يستعملونه يدوم ابد الدهر . حقا ان الله حلف بالقلم " ويتخذ قاضي عسكر الروملي مكانه عن يمين الصدر الاعظم وقاضي عسكر الاناضول عن يساره ويقف قربه " رئيسا الاستدعاات " كما يقف امامه الشاوش باشي واشهر رجاله الذين يوءلفون صفين مائلين يمتدان من مقعد الصدر الاعظم حتى اخر القاعة حيث يقف صف من الانكشارية وامامهم روءساءهم . اما وكلاء بقية فرق الجيش فيقومون قرب الباب وراء الحرس . ويصطف عن يسار الصدر الاعظم رجال حاشيته . ويوءلف اصحاب الدعاوى عدة جماعات : يقف الرجال بعيدين عن النساء واهل الذمة وراء المسلمين .

وعندما يُنظر بامر قضية ما يقرأ رئيسا الاستدعاءات عرائض المشتكين الذين يعرضون بعد ذلك بانفسهم قضاياهم وذلك لانه ليس هناك محامون . وتاخذهم غالبا رهبة مجلس العدل هذا واحكامه الجازمة . فلذلك فما يسمع الانسان اصواتهم الا الضئيلة ولا يجرأون على رفعها . واذا حصلت احيانا بعض التشكيات استياء من حكم ظهر انه غير عادل فان ذلك لايكون قط الا من النساء المسلمات اللائي يظهرن في كل مناسبة جرءاة تستحق الاعجاب اذا اعتبرنا حالة الاستعباد التي تحولن اليها . ان احكام الصدر الاعظم تكتب في الحال على العرائض ذاتها من قبل رئيسي الاستدعاات ويوقع عليها الوزير . وهو يرسل الى الدوائر والمحاكم الخاصة القضايا العادية وتلك التي تتطلب فحصا دقيقا . ويحضر هذا الديوان في ايام الجمعة القاضيا عسكر وفي ايام الاربعاء قاضي الاستانة مع قضاة : غلطة وايوب واسكدار . فيجزم كل منهم بالقضايا المتعلقة به ثم يتابع بحثه فيها في محكمته . فاذا كان الحكم على المجرم ضرب الفلقة فان العقاب ينزل حالا عليه في ساحة القصر . واحيانا في قاعة

الديوان نفسها . ان رجال الحرس هم الذين يعلنون في كل مرة انعقاد او انفضاض الديوان الذى يدوم ساعتين او ثلاثة وذلك بان يرفعوا اصواتهم داعين بان يديم الله عز السلطان وعز نائبه الصدر الاعظم .

منذ ان اصبح الديوان الذى ينعقد في السراي صورة لذلك الذى كان ينعقد في الماضي فان شؤون الدولة اصبح ينظر فيها في مجالس شورى يعقدها الصدر الاعظم عندما يريد . وهو يدعو اليها عادة الوزراء ورؤساء الادارة واحيانا المفتي . ويرسل الصدر الاعظم مذكرة للسلطان يذكر فيها نتيجة الشورى ليعطي حكما فيها . هذه هي المجالس العادية . وهناك مجالس فوق العادة يعين دستور الدولة اعضائها . وهم رؤساء هيئات الدولة الثلاث اى القضائية والمدنية والعسكرية يضم اليهم الصدر الاعظم الوزراء السابقين والخوجوات المشهورين باختباراتهم . ان مجالس الشورى هذه المؤلفة من اربعين شخصا تقريبا تنعقد في قاعة جلسات الصدر الاعظم . ويسهر رئيس التشريفات في ان يجلس كل من الاعضاء على الارائك التي تحيط بالقاعة حسب درجته . اما هو فانه ينسحب وقت ابتداء المجلس تاركا حراسة مدخل القاعة المحجوب بستائر من الجوخ لاحد الرجال الخرس .

ان الكخية بك والرئيس افندى ليسا من اعضاء هذا المجلس. اذ بما انهما لم يكونا سابقا من اعضائه نظرا لكونهما فقط امناء سر الصدر الاعظم الخصوصيين فانه روعي عدم الاخلال بالمراسيم المنصوصة بالرغم من انهما اصبحا الان وزراء الدولة . ومع هذا فانهما يحضران هذه الجلسات ولكن ككتاب او شراح يجلسان على السجادة الا ان معلوماتهم عن الاعمال الجارية تجعلهما يؤثران في مجرى الاحكام . ويقوم الرئيس افندى بقراءة اوراق الدعاوى .

يعرض الصدر الاعظم القضية المطروحة على بساط البحث فياخذ بادىء الامر راى شيخ الاسلام الا ان هذا يعبر عن افكاره عادة بصورة مبهمة لكي لا يضايق حرية الاراء . اما اعضاء المجلس فانهم لا يبدون رايهم خوفا من معاكسة اراء الصدر الاعظم الذى يطلب نصيحتهم ويستحثهم على الكلام ويستمد حميتهم لمنفعة الدين والدولة ولكن بدون فائدة اذ يجيبونه بانه كله معارف وانه محتفظ بثقة وصلاحيات السلطان فعليه هو ان يتكلم ويامر وعليهم هم الطاعة . واذا الح عليهم يهزون مرة اخرى رؤوسهم ويرفعون ايديهم الى فمهم ثم الى راسهم . ويكون هذا الصمت اكثر عمقا اذا كان البحث يتناول مسالة اعلان الحرب او السلم . الا ان النقطة التي تبدو اكثر اهمية من غيرها هي تلك التي تتعلق فيما اذا كان العمل او المشروع اللذان يبحثون فيهما صحيحين شرعاً . ان هذه النقطة وحدها

هي التي تقلق في بعض الاحيان اعضاء المجلس وتقسمهم على بعضهم البعض . وكثيرا ما حارب العلماء بهذا الخصوص راى الصدر الاعظم او المفتي . الا ان ذلك لاينتهي بدون قصاص اذ يرسلون في اليوم الثاني الى المنفى .

ان هذه المجالس التي لاتكون الاصوات فيها سوى استشارية يكون هدفها بصورة خاصة جعل المقررات شرعية امام اعين الناس وذلك بادخال المفتي وكبار اعضاء الحكومة فيها . والغاية من ذلك هي جعل السلطان او بالاحرى نائبه الصدر الاعظم بعيدين عن كل ملامة في حال حصول عاقبة سيئة . وفي احيان كثيرة ايضا عندما تقضي الحاجة بوضع قرار يحط من عظمة الدولة او يضر بمصالحها فان الصدر الاعظم اذا كان حكيما يوجه امر التشاور بصورة يجعلها لاتتخذ نتيجة ايجابية . فيترك للسلطان نفسه امر البت في النقطة العويصة التي يمكن ان تعرض رؤساء الديوان للخطر . في هذا الحال يظهر التمليق في تعابير تشيد بمعرفة السلطان وخصاله الخارقة . فيقال له بما انه رئيس المسلمين الاعلى فهو هدف التوفيق الرباني والالهامات السماوية هو الوحيد الذى يمكنه التعمق في القضايا والحكم على المناسبات فيجمع كل هذه ويستخلص منها الراى السديد الذى يكون موافقا اكثر من غيره لمصالح الدين والدولة . عندما تحصل مشادة بين السلطان والصدر الاعظم في الطريقة التي يجب العمل فيها واخيرا ينتهي الصدر الاعظم باخذ الامر اللازم ويعلنه كانه حكم صادر فقط عن الارادة السلطانية . وبالرغم من كل ذلك فان عمله لايقيه ضجة الشعب ضده او سخط السلطان عليه اذا جاءت النتيجة سيئة .

ان مجالس الشورى هذه كانت تنعقد سابقا في السراى يراسها السلطان ويجلس حواليه اعضاء الديوان على طنافس صغيرة ويشكلون نصف دائرة . الا انها منذ حكم السلطان احمد الثالث لم تنعقد في السراى الا نادرا .

وفي الحالات الشديدة الخطر تنعقد مجالس فوق العادة تسمى " مجالس واقفة " لان جميع اهل المجلس يظلون واقفين .

الباب الخامس

مالية الدولة

سوف نعرض في بادئ الامر نظام المالية ثم بعد ذلك نتكلم عن ترتيب هذه الدائرة .

الفصل الاول

نظام المالية

ان الرسوم المفروضة في الدولة العثمانية بمقتضى الشرع والمساة لهذا السبب بالرسوم الشرعية هي :

١) الضريبة المفروضة على اراضي الخراج اي تلك التي تركت وقت الفتح لاصحابها المسيحيين على ان يدفعوا الخراج . فمن هذه الاراضي ما يدفع ضريبة محددة ومنها ما يدفع بحسب المحصول السنوي . فالقسم الثاني يدفع على الاقل عشر المحصول ، وعلى الاكثر النصف . وهذا الاختلاف يكون بحسب خصب الارض وموقعها ونوع المحصول وتبعا للاحوال الخاصة التي طرأت وقت استلام او فتح البلاد . فالرسوم التي وضعها السلطان على الاراضي التي فتحها هو وضمها الى الدولة العلية يتمشى بموجبها ولا تتغير . انما اذا اهملوا زرع اراضيهم ولم يدفعوا الضرائب مدة ثلاث سنوات فانهم يخسرون هذه الحقوق . ويمكنهم التصرف كما يشاؤون في اراضيهم لان خزينة الدولة لا تخسر شيئا بهذا الخصوص فمثلا لو تحولت هذه الاراضي الى وقف فانها تظل خاضعة للضرائب اذ انحالتها تظل هي هي لا تتغير .

٢) العشر المفروض على اراضي المسلمين وتسمى بالاراضي العشرية . ان هذه الاراضي منحت للعثمانيين مكافاة لهم على اثر افتتاح البلاد . ويمكن لغير المسلمين ان يتملكوا هذه الاراضي ولكنها تتغير وتصبح ارض خراج . فاذا رجعت ثانيا الى ايدي المسلمين تعود وتصبح ارضا عشرية .

٣) الرسوم الجمركية وهي على المسلمين اربعة بالمئة من ثمن البضائع وخمسة بالمئة على اهل الذمة الا ان الاوروبيين لا يدفعون سوى ثلاثة بالمئة وذلك بموجب معاهدات عقدت مع دولهم .

٤) الخراج والجزية ، المفروضة على الرعايا الغير المسلمين الذين يقسمون الى ثلاث طبقات حسب حالتهم المادية . فالاولى تدفع احدى عشر قرشا والثانية خمسة ونصف والثالثة ثلاثة وثلاثة ارباع ويجب ان تدفع هذه الضريبة في اول السنة . ويكتب على الوصل الذي يأخذه الشخص بعد ان يدفع ماعليه : " جزية الكفار " ويكون على الوصل خمس اشارات تدل على الطبقة التي ينتمي اليها الشخص والسنة الهجرية واسم رئيس الخزينة واسم رئيس مكتب المالية الثامن حيث يخرج منه الوصل واسم الملتزم العام لقبض الجزية . ويكتب الجابي اسم واوصاف الشخص الذي دفع الجزية . ويطبع مكتب المالية الثامن في كل سنة مليونا وست مئة الف وصل تجعل في مئة وثمانين اضبارة يتساوى توزيعها بين الجباة ولايمكن فتحها الا امام القضاة في اول السنة الهجرية في شهر محرم . وقد جرى هذا التدبير لمنع قبض الجزية قبل المدة المعينة لها كما كان يحصل في الولايات . والطريقة التي تجبى بها هذه الضريبة تظهر بوضوح واكثر من غيرها الحالة الشائنة التي هم عليها اهل الذمة . اذ يوقف الجباة في الاشهر الاولى للسنة المسيحيين واليهود في كل الاماكن التي يحتلونها فيها ويسالونهم اذا كانوا قد دفعوا الجزية او لقبضها منهم اذا لم يفعلوا ذلك . وهم غالباً لايحترمون القانون الذي يسامح القصر والطاعنين في السن ورجال الدين . فيستعملون كل الوسائل لجمع قيمة الوصولات التي معهم والتي تختلف قيمتها حسب المناطق بدون اي مراعاة وذلك اذا حصل نقص بين السكان ويذهبون حتى الى منع المستحقين من ترك مساكنهم قبل خمسة او ستة اسابيع قبل وقت الدفع اي قبل ابتداء السنة . ويضايقون حتى رؤساء رجال الدين من اهل الذمة لتامين قيمة الوصولات الباقية ولكن الرؤساء لايدفعون شيئا انما يدفع عنهم اهل ملتهم . ويخصص للعاصمة مئة وستون الف وصل ، ان مورد الجزية الان هو اثنا عشر مليون قرش وقد كان حوالي السبعة عشر مليونا زمن السلطان سليمان الاول .

ان الجزية الخاصة المفروضة على الجماعات المتنقلة من بوهميين ومصريين (النور والاقباط) التي تتنقل بصورة خاصة في بلاد الشام والعراق واسيا الصغرى هي مؤجرة بمبلغ ٢٦٠٠٠٠/٢٢ غرش يتصرف الملتزم بها تصرف المولى على هذه الشعوب التي تعد تقريبا خمسا واربعين الف مكلف . ويدفع المسلمون منهم الجزية ايضا لاشتهارهم بالالحاد . وهم في الحقيقة يحيدون عن قوانين الشرع في عدة نقاط تتعلق بالطقوس الدينية وبالعادات . ولكن بحسب قانون عام ١٦٩٤ اصبح لايدفع الفرد منهم سوى خمسة قروش بينما غيرهم يدفع ستة .

بما ان مورد هذه الضرائب الثلاث التي ينص عليها الشرع غير كافية لتأمين مصاريف الدولة فقد وضعت ضرائب غيرها في اوقات عديدة وهي :

٥) رسوم مختلفة وضعت على اصناف تجارية عديدة تدفع عند دخولها البلاد وخروجها منها وتسمى " مسطرية " "الميزان " وبدعة القهوة " وبدعة ازمير" و النظام الجديد " وغيرها .

١ - "المسطرية " لاتجبى الا من الاستانة وهي نصف ضريبة الجمرك العادية وتفرض على كل البضائع التي تباع بالوزن . اما بقية الاصناف فيؤخذ عنها علاوة على ضريبة الجمرك ثلث هذه الضريبة .

٢) " الميزان " وهي ضريبة قيمتها ست وثلاثون بارة على دستة الحرير واربعين على اقة صباغ دودة القرمز .

٣) " بدعة القهوة " وهي ضريبة قيمتها خمس عشرة بارة على اقة قهوة " مخا " وتسعة على قهوة Ponante

٤) " بدعة ازمير " وهي ضريبة على الشمع وعلى القطن الخام والمغزول ولا تجبى الا من هذه المدينة . فعلى اقة الشمع عشر بارات . وبارة واحدة على اقة القطن الخام وتسعون على قنطار الغزل .

٥) Amed هي ضريبة على البضائع التي من صنع البلاد تدفع وقت وصولها الى المرفاء الذي ستصدر منه . وتكون قيمتها نصف الضريبة الجمركية التي فرضت عليها وقت خروجها من البلاد .

٦) " البج " وهي ضريبة المرور "ترانزيت" تجبى عن كل البضائع التي تنقل من محل الى اخر . وقيمتها تختلف بحسب الولايات . فتكون اما ستين اومئة ا وعشرين او مئة وثمانين بارة على الحمل بكف النظر عن جنس وقيمة البضاعة .

٧) النظام الجديد " اى الضرائب التي وضعت زمن السلطان سليم الثالث على بضائع مختلفة مثلا على العنب والخمور والسوائل والصوف والقطن الخ ... ومن هذه الضرائب الغير المباشرة لايعفى العثمانيون الا من ضريبة العنب . كما عفي منها كثير من الشعوب الاوروبية فالافرنسيون اعفوا منها منذ معاهدة بلغراد والروس والنمساويون منذ سنة ١٧٧٦ . والاوروبيون لايدفعون في الحقيقة بقية الضرائب الا بتعرفة خاصة تضع هذه الحاجيات اقل بكثير من قيمتها الحقيقية .

٦) ضريبة الاغنام . يعفى منها العلماء والانكشارية والاشراف اذا كان عندهم اقل من مئة وخمسين راسا . ويسمى ملتزمو هذه الضريبة : Djeleb - Késchan

٧) Avariz عوارض وهي ضريبة قيمتها اربعة غروش وخمس الغرش تدفعها كل مدينة من مدن الدولة .

٨) بدل النزول " ضريبة قيمتها من ثلاث مئة الى ست مئة بارة تفرض على كل حي من احياء المدن . وكان يخصص سابقا قسم من واردها لحكام الولايات والقسم الاخر لمفتشي الدولة كمصروف سفر . ولكن المبلغ ضم الى خزينة الدولة في زمن السلطان احمد الثالث .

٩) وراثة الاشخاص من المسلمين واهل الذمة الذين ماتوا بدون ان يكون لهم وريث شرعي . وعلى ملتزمي هذه الضريبة ان يتخلوا للدولة عن كل ارث يتعدى العشرة الاف قرش .

١٠) الخراج المفروض على البلاد الاقطاعية مثل : الافلاق والبغدان وجمهورية راغوزا .

كانت الافلاق والبغدان تدفعان في بادىء الامر مبلغا زهيدا انما بعد ذلك اخذ يزداد فوصل خراج الاولى الى (٣١٠٠٠٠) غرش وخراج الثانية الى (١٧٠٠٠٠) في السنة عدا الضريبة التي على الحبوب والملح والشمع والعسل والماشية الخ ... وعدا الهدايا الثمينة التي على امراء هاتين الولايتين تقديمها لكبار موظفي الدولة . ولكن تقرر اخيرا عام ١٧٩١ بين الباب العالي وبين بلاط بطرسبرج بان تدفع الافلاق سنويا (٧٥٠٠٠٠) غرش والبغدان نصف هذا المبلغ على ان تكونا معفيتين من دفع اي شيء اخر . اما راغوزا فتدفع كل ثلاث سنوات (٢٨١٢٥) مع اربعة اطباق من الفضة المذهبة .

١١) خراج مختلف الولايات . كان وارد مصر (٧٤٤٠٠٠) غرش (١) يذهب منها /٣٠٠٠٠٠/ الى خزينة السلطان الخاصة ووارد بغداد /٢٧٥٠٠٠/ غرش وجزيرة كانديا /١٦٠٠٠٠/ والبوسنة /٥٢٥٠٠/ وديار بكر /٤٦٥٠٠/ ومقاطعة بلغراد /٢٧٠٠٠/ الخ .... وتتحمل هذه الولايات قسما كبيرا من نفقاتها المحلية . فعلى مصر ان تقدم الرز والقهوة لمدينتي مكة والمدينة . وان تقدم للسراي الرز وخمسة الاف اقة من السكر . وكمية من الشمع لامارة البحر في الاستانة الخ ...

هذه هي موارد الدولة العادية . وسوف نعرض الان الطريقة المتبعة في ادارة الشؤون المالية .

---

(١) اي ما يعادل ١٢٠٠ كيس مصري . وحسب كثير من المؤرخين وصل مورد هذه الدولة زمن احمد بن طولون المتوفى ٨٨٤ الى اربعة ملايين ونصف فندقلي (سيكان)

في اول ايام الدولة كانت السلطة نفسها تقوم بجمع مواردها . الا انها استعملت غير هذه الطريقة عندما رات خيانة وسرقات الجباة . ففي زمن محمد الثاني لعطيت موارد الدولة لاشخاص يلتزمونها . الامر الذى امن سلامتها انما اصبح الناس بنفس الوقت معرضين لطمع الكثيرين من العمال الذين كانت جرأتهم في تعدياتهم اكثر من جرأة الملتزمين الذين كانوا من كبار رجال البلاط ووزراء الدولة وحكام الولايات . وكان هؤلاء الذين يشترون التزامات الدولة يبيعونها بدورهم ايضا فكانت بذلك تتجزأ وتنتقل من شخص الى اخر وبما ان هذا التنقل في البيع يؤمن دائما ربحا جديدا للشخص الذى باعها فان اخر واحد يدفع ثمنها غاليا ولكي يربح بدوره ويعوض ماقد دفعه كان ينهك الناس بوسائل على غاية فظيعة من الطمع .

وظل هذا الحال حتى اول حكم مصطفى الثاني عندما رات الدولة ، امام صخب الناس وحاجات السلطة ، ضرورة ايجاد طريقة جديدة لجباية الضرائب فصدر مرسوم بتاريخ ثلاثين كانون الثاني سنة ١٦٩٥ ينص بجعل الالتزامات السنوية (المقطعة) التزامات دائمية (مالكانة) . وهذا الاسلوب الجديد كان قد ارتآه وزير المالية خليل افندى الذى اخذه عن الاسلوب المتبع في مصر زمن المماليك . وكان من المعتقد بان الاشخاص الملتزمين التزامات دائمية يكونون ارحم من غيرهم نحو السكان . وقد وجدت الدولة افضلية هذا الاسلوب اذ أمّن لها مواردها . ونقدا وعلاوة عن قيمة التأجير (مال ميرى) التي كانت محددة كان الملتزم يدفع عندما يكتب عقد التكفل مبلغا من المال (حلوان) تختلف كميته حسب قيمة المزاد . وعليه ان يدفع ايضا ضريبة تسمى " رسم القلم " وقيمتها اعشر قيمة الالتزام ياخذ ثلثيها الصدر الاعظم وياخذ الدفتردار الباقي .

وتعني الدولة بان يحتفظ الملتزمون بمراكزهم طيلة حياتهم ولزيادة اطمئنانهم فان السلطان يامر بصورة رسمية رؤساء هيئة العلماء الاربعة اى المفتي والقاضي عسكر ونقيب الاشراف بالسهر على حفظ حقوق الملتزمين القانونية وان يخبروه راسا فيما اذا حاولت الوزارة مخالفتهم . وقد اعطى السلطان وعده بانه بعد وفاة الملتزم يكون ابنه احق من اى شخص اخر لمتابعة اعمال ابيه على شرط ان يكون طيب السمعة وان يدفع المبلغ الذى يكون قد عرضه اخر المتزايدين . ونلاحظ من مقدمة المرسوم الذى اصدره السلطان احمد الثاني الدوافع التي ادت لترك الاسلوب القديم في جباية الضرائب . فهو يعرض بجمل نارية كيف ان اكثر الولايات اقفرت من السكان وتهدمت والسبب في ذلك جور اولئك الذين يلتزمون الضرائب لمدة سنة ويبين المنفعة في جعل الالتزام

دائميا "طريقة ناجعة لازالة آلام الناس وحصر طمع العمال الزائد ولازدهار البلاد الاسلامية التي تستحق ان تتمتع تحت ظل العناية الالهية بكل منافع حكم هادىء عادل. واخيرا لتامين نفع الخزينة بالاموال التي على كل ملتزم جديد دفعها". وقد اعلن بان هذا الاسلوب الجديد قد طبق بعد ان اجمعت عليه اراء اعضاء مجلس الدولة بكونه نافعا بنفس الوقت للامة وللدولة وللعمال.

ان فحوى هذا المرسوم يكون كمقدمة للبراءة المعطاة للملتزم وذلك كي تبقى هذه التنظيمات الاولية محفوظة من قبل كل سلطان. الا انها نقضت زمن السلطان احمد الثالث عندما كانت الدولة في حروب غير موفقة مع النمسا وروسيا والعجم. فان هذا السلطان اكد على كل ملتزم دفع زيادة من المال قدرها عشر المال الذى قد دفعه. وظلت هذه الضريبة تجبى طيلة مدة الحرب.

ولكي لايكون هناك مجال للمحسوبية في اخذ هذه الالتزامات فانه تقرر منذ الاساس بان تباع بالمزاد العلني وان يتم البيع في كل ولاية من ولايات الدولة الا انه حصل تلاعب في تطبيق ذلك عندها تقرر اصلاحها زمن السلطان احمد الثالث اذ صدر امر بان لايحصل البيع الا في العاصمة.

ويكون ذلك بان يعلن موظف من المالية بصوت عال في قصر الدفتردارية اسم ونوع الالتزام الشاغر كما يعلن قيمة الاجار ومبلغ المال الذى دفعه الملتزم السابق. ويقيد يوميا المبالغ المعطاة من قبل المتزايدين. وفي نهاية المدة يُعطى الالتزام لاخر المتزايدين. فيوقع وزير المالية كلمة "تقرر ذلك" جانب قيمة الالتزام ثم يعرض للصدر الاعظم نتيجة المزايدة ثم هذا بدوره يقدم تقريره للسلطان ويعرفه بالامر. عندها يصدر السلطان "الخط الشريف" امرا باعطاء الصلاحيات اللازمة للملتزم. الا ان كل هذه الترتيبات لاتمنع دائما حصول بعض الخيانات فمثلا اذا كان احد الدفتردارية على اتفاق مع الصدر الاعظم فانه يجد دائما الوسيلة ليتصرف كما يشاء بالالتزامات الشاغرة. ومنذ زمن السلطان مصطفى الثالث لايتم بيع الالتزامات الا مرتين في السنة. التزامات الاملاك في شهر اذار والبقية في شهر محرم.

ولكيما تسهل السلطة بيع هذه الالتزامات فانها تقسمها الى اسهم تباع متفرقة الا انها تحتم الا يكون غير مدير واحد لكل التزام. فيترتب على صاحبي الاسهم اذ ذاك اما ادارة

الالتزام كل بدوره واما تعيين عامل يديرها باسمهم . ويمكن لصاحبي الاسهم التخلي عن اسهمهم لغيرهم. لهذا فان الطاعنين في السن منهم يتركون اذا شاؤوا الحقوق التي يتمتعون بها لاولادهم او اهلهم واصدقائهم. ويحصل هذا التخلي بموجب حجة يوقع عليها القاضيا عسكر مصحوبة بمذكرة من الشاوش باشي للصدر الاعظم . ويدفع المتخلي للدولة لقاء ذلك عشرة بالمئة من قيمة المال الذي دفعه اخر مشترٍ كما يدفع ايضا علاوة على ذلك اثنين بالمئة للشاوش باشي واثنين ونصف لقاضي عسكر الروملي وثلاثة ارباع لقاضي عسكر الاناضول . ولايسمح لاي امراءة ان يكون لها اي شيء من هذه الاسهم عدا السلطانات والنساء المتبنيات اللاتي تكون املاكهن ضمينة كافية عند الحاجة . اذ لاتريد الدولة ان تتعرض وتكره على ملاحقتهن اذا لم يقمن بواجباتهن نحو الخزينة .

ان اكثر هذه الالتزامات لم تتعرض للقسمة ويمكن القول بان اهمها هي من حصة كبار الشخصيات الذين يشترونها ويهتمون بان تبقى في حوزتهم لكي لايكون عدد منافسيهم كبيرا . وهم يضعون كل اموالهم في هذه الالتزامات حيث تكون اكثر سلامة واعظم ربحا مما لو وضعوها في غير ذلك . وبعد مضي ثلاث او اربع سنين يستردون اموالهم من ايراد التزاماتهم وبعدها يتمتعون بقية ايامهم بما قدره عليهم هذه الاموال الكثيرة. فجمرك سالونيك مثلا الذي يدر كل سنة اكثر من (١٦٠٠٠٠) غرش لايوجر الا (٤٨٥٠٠) غرش وترتفع قيمة الاموال المعجلة احيانا الى (٣٠٠٠٠٠) غرش . الان المشترى يوجرها بمئة واربعين الفا . وهكذا فانه بمدة اقل من ثلاث سنين ونصف يسترد ما قد دفعه ويحتفظ بمورد سنوى قدره (٩٢٥٠٠) غرش . ان التزام جمرك سالونيك يعد من اربح الالتزامات الا ان هناك كثيرا غيرها مربحة على نفس النسبة . فان الضرائب والاملاك الدينية الموقوفة توجر كلها وتلزم . وبهذه الوسيلة يشغل الراسماليون من جميع الطبقات اموالهم في بلاد لاتكفي الصناعة والتجارة فيها لاشغال الاموال . وهذه الوسيلة ليس فيها من خطر سوى التعرض لخسارة بعض المال اذا صدف ومات احد الملتزمين في اول السنتين او الثلاث من تاريخ شرائه الالتزام . وليس من الممكن ان يفقدوا التزاماتهم مدة حياتهم الا اذا صدر امر سلطاني يقضي باستصفاء كل اموالهم . وعند حصول مثل هذه الحالة فان السلطان وحده يتصرف كما يشاء بالالتزام المحجوز . فيمكنه ان يوجره سنويا او ان يديره على حسابه الخاص او تحويله الى وقف . وبما ان اهل الذمة لايمكنهم اخذ الالتزامات فانهم لايدخلون في هذه الاعمال

الا كمستاجرين للاملاك الملتزمة ويربحون بسهولة فائدة شهريةتبلغ واحدا ونصفاً واحيانا اثنين بالمئة .

فاذا كانت اموال الدولة يضحى بها من جهة لارضاء كبار الاسياد الذين لايزالون ياخذون الالتزامات الكبيرة بالشروط القديمة فان الدولة من جهة اخرى تحاول ان تعوض هذه الخسارة برفعها قدر الامكان اجاريقية الالتزامات . الا ان هذه العملية تجبر الملتزمين للجور وتخريب الولايات لكي يستردوا الايجارات الباهظة التي دفعوها . فالالتزامات التي كانت لاتدر زمن احمد الثالث سوى ثلاثين او خمس وثلاثين الف غرش توءجر الان باكثر من مئة وخمسين الفا . فمثلا كان يدفع حاكم غلطة سنويا وفي ذلك الوقت (٤٠٠٠٠) غرش كقيمة التزام هذا الحي من الاستانة اما الان فالقيمة هي (٢٠٠٠٠٠) غرش . وبما ان هناك عددا كبيرا من المقاطعات لاتمكنها حالتها المالية من تحمل عبء الضرائب المفروضة عليها فان الدولة لكي لاتخسر شيئا من مواردها العادية اخذت منذ عدة اعوام تضم هذه الالتزامات الباهظة الى غيرها التي تكون مربحة وتوءجرها مع بعض .

ان هذه الطريقة في ايجار الالتزامات تتناول ولايات بكاملها . وفعلا يوجد اثنان وعشرون لواء وسنجقا توءجر مدى الحياة لحكام يوءجرونها بدورهم او يديرها باسمهم موظفون يتخذون لقب Voyvode اى ناظر او محصل اواغا الخ ... يقومون بجباية ضرائب الدولة والضرائب الخاصة للحاكم . ويطلق على هذه السناجق الاثنين والعشرين اسم " مالكانه ميرى " كما ان ثلاث ايالات توءجر ايضا لباشاوات يحكمونها ويتخذون اسم " ميرى منصبي " .

اما الايرادات البرانية ا و " الظهورات " فهي :

١) " الاموال المعجلة " التي يدفعها المشترون الجدد للالتزامات الدائمة . ومواردها ثلاثة ملايين في السنة .

٢) ضريبة عشر الاموال المعجلة التي يدفعها من يشترى احد اسهم الالتزامات والتي تدفع في كل مرة ينتقل السهم فيها الى شخص اخر . ومورد هذه الضريبة مليون ونصف في السنة .

٣) المال الذى يدفعه كل باشا من باشاوات الاطواغ الثلاثة يوم اعطائه هذا اللقب وتسمى ضريبة الطوغ وتصل قيمتها الى (٢٢٥٠٠) غرش .

زيادة على ذلك فان السلطان يهب في غالب الاحيان لخزينة الدولة ضرائبه الخاصة

التي ياخذها من ارباح بيت ضرب النقود ومن الاموال المحجوزة ومن الجزاءات النقدية المفروضة على المحكومين لتخفيف عقابهم .

وبما ان حق ضرب النقود هو احد الحقين السلطانيين اللذين هما من صفات الملك عند المسلمين فان اورخان ابن وخليفة موسس السلطنة العثمانية امر سنة ١٣٢٨ بضرب النقود الذهبية والفضية . اما قبل ذلك فان النقود التي كانت تتداول في الدولة كانت نقود سلاطين السلاجقة ونقود خانات تبريز المنغوليين . وكان على النقود الجديدة شعار السلطان اورخان مع آية من القران . وزاد عليها السلطان محمد الثاني بعد فتح القسطنطينية اللقبين العظيمين : سلطان البرين وخاقان البحرين . اى الروم ايللي والاناضول والبحر الابيض والاسود . وقد سار خلفاؤه من بعده على منواله وتسموا بهما .

وكانت الدولة سابقا تضرب النقود في عدة مدن مثل ادرنه والقاهرة وازمير وارضروم وغيرها . وان وجود هذه الامكنة لضرب النقود لتامين الدراهم اللازمة للمداولة في انحاء البلاد تعفي الدولة من مصاريف نقليات السبائك وقطع النقود . حتى انه كان يسمح للقواد ورؤساء الجيوش وخصوصا في الحروب ضد بلاد العجم بضرب النقود في المدن التي يجعلونها مركز القيادة العامة وذلك لتامين دفع رواتب الجند وتامين مصاريف الحملة . الا ان هذا سبب غشا كثيرا اذ زيفت النقود في كل الجهات مما ادى الى حصول اضطرابات سيئة في اوقات كثيرة .

ولهذا فانه منذ زمن السلطان محمود الاول لم يبق في كل الدولة سوى مركز واحد لضرب النقود كائن في السراي السلطانية . ويقوم المكلفون باستخراج المعادن بتقديم الذهب والفضة اللازمين لذلك اذ عليهم ان يقدموا للدولة كل المعادن الثمينة التي يستخرجونها مقابل اسعار اقل بكثير مما تساوي الامر الذى يؤمن للسلطان ربح اكثر من ثلاثين بالمئة . الا انهم يجدون الوسيلة لتعويض ماخسروه بسبب هذه الشروط المجحفة . وذلك بان يخفوا قسما من المعادن الثمينة التي يستخرجونها ، وبعلمهم مراقبي المناجم الذين تعينهم الدولة لاستلام الذهب والفضة اذ يغضون النظر لقاء اجر معلوم . واغنى المناجم هي مناجم "ارغاني وكيبان" في ولاية ديار بكر ومناجم "غوموش خانة" قرب طربزون . ويولف المكان الذى يوجد فيه المنجمان الاولان لواء خاصا يراسه مدير المعادن "المعدن ايني" الا ان الباب العالي وضعهما

حديثا تحت ادارة باشا سيولس . اما مناجم الفضة في "غوموش خانة" ومناجم النحاس في Kuré في ولاية طربزون فانهما تحت اشراف مدير خاص . ويشتغل ملتزمو مناجم النحاس ضمن شروط افضل من غيرهم . اذ يمكنهم بعد تقديم النحاس اللازم للدولة (ويكون ذلك بسعر محدود وبقيمة ضئيلة جدا) بيع ما يزيد عندهم . ولهذا فان مناجم النحاس تعدن اكثر من مناجم الذهب والفضة . وان هذه الطريقة في وضع الضرائب تعوق استخراج الثروات من بطن الارض وتجعل سكان الولايات التي توجد فيها هذه المعادن يحجمون عن استخراج شيء منها بسبب الضرائب التي تفرض عليهم من جراء ذلك .

ويشرف على ضرب النقود وكيل عام يسمى "ضرب خانة اميني" يشتغل تحت امرته اثنا عشر رئيسا وخمس مئة عامل تقريبا . ويراقب هذه الاعمال كاتب من دائرة المالية الثانية "باش محاسبة" يحفظ معه دفتر حسابات يقيد فيها ما ضرب من النقود . ويربح السلطان سنويا من دار ضرب النقود ما يقارب المليون يهب منه العشر للوكيل . الا ان النقود التي ضربت منذ حكم مصطفى الثالث هي ضئيلة القيمة . والكمية قليلة في الدولة بسبب المبالغ العظيمة التي تصرف كل سنة على الحج وعلى البضاعات الهندية وعلى تجارة الفراء الروسية . ويدعي الاقتصاديون العثمانيون ان هذه المصاريف الثلاثة تسحب من البلاد سنويا عشرين مليون غرش تقريبا معظمها من العملة الذهبية . والفندقلي هو النوع الذي يفضل على غيره ويسمى "زرمحبوب" بنز٣ Benks وكان يساوي في الاصل قرشين وثلاثة ارباع اما الان فيساوي خمسة قروش .

ان واردات الدولة العادية والبرانية تصل سنويا الى خمس وثلاثين مليون قرش يذهب نصفها تقريبا الى الخزينة اما النصف الاخر المخصص لتغطية المصاريف المحلية والجارية فانه يقسم الى حوالات ويوضع على مختلف فروع الواردات . فوكيل السراي يتناول مبلغا محدودا قيمته (٨٥٠٠٠٠) غرش في السنة لمصاريف قسم من حاشية السلطان . ومبلغا اخر قدره -(٩٠٠٠٠٠) غرش لتامين مصاريف السراي القديمة ومبلغا ثالثا قدره (٢٥٠٠٠٠) غرش لمصاريف قصر الخدم والغلمان في غلطة . ويعين لوكيل مطابخ السراي مبلغ (٩٠٠٠٠٠) غرش . ولوكيل الاسطبلات (٣٠٠٠٠٠) ومثلها لوكيل لحوم المسالخ . ويعين مثل هذا المبلغ لوكيل امارة البحر ويعين لمدير البريد الذي يسير على الجياد (٦٢٨٠٠٠) غرش وتخصص دائرة جمرك

....

الاستانة الكبرى سنويا لرئيس الخصيان السود مبلغ (٦٦٠٠٠٠) غرش لمصاريف الحرم السلطاني ومبلغا ثانيا قدره (١٥٤٥٠٠) غرش تخصص لدفع المساعدات الممنوحة للموظفين الطاعنين في السن وللارامل والايتام الخ .... وتعين له ادارة حصر الدخان للسبب عينه (٣٧٥٠٠٠) غرش . مع العلم بان كل ولاية تدفع منها مباشرة مصاريفها الخاصة .

ان مصاريف الدولة العادية لاتتعدى قط في اوقات السلم الثلاثين مليون قرش التي تصرف كرواتب للعساكر البرية والبحرية ولمصاريف البلاط السلطاني . اما بقية مصاريف الدولة فانها تغطى بوسائل مختلفة . فيخصص ريع الاملاك للسلطانة الوالدة وللامراء والاميرات اولاد السلطان . ويسحب الصدر الاعظم وامير البحر وحكام الولايات واردات الاراضي المخصصة لهم . اما الاقطاعات العسكرية (الزعامة والتيمار) فانها تخصص لمصاريف الخيالة . وتعطى هذه الاقطاعات لعدد كبير من الموظفين بدلا من الرواتب . ولا تصرف الدولة شيئا على رجال الدين وعلى القضاة . اذ ان اموال الاوقاف تخصص لمصاريف المساجد والشيوخ القائمين عليها . وبما ان القضاة محرومون من اي راتب محدد فان لهم حقوقا شرعية على الاعمال القضائية يسمح لهم بتداولها . ولا يتناول الموظفون المدنيون من رتبة وزير حتى ابسط كاتب دائرة راتبا معينا . انما يعيشون مما ينتفعون به من مدخول منصبهم ولا يشذ عن ذلك سوى اعضاء الديوان الثلاثة لان وظيفتهم قليلة الربح ومع ذلك فان رواتبهم ضئيلة جدا . فالنيشنجي يتناول /٦٦٢٠/ قرشا والدفتردار الثاني /٣٣٣٣/ والدفتردار الثالث /١٦٦٦/ . اما المساعدات المالية فانها لاتكلف الدولة كثيرا اذ لايعطى منها شيء الا لقسم قليل من الموظفين القدماء الفقيري الحال . فالوزير المعزول لايتناول في السنة غير خمسة او ستة الاف غرش . والمفتي المعزول (٣٠٤٢) والقاضي عسكر خمس مئة .

ان الواردات والمصاريف تنظم حسب السنة القمرية الا في حالتين وهما ١) الاعشار المفروضة على ثمار الارض ٢) ودفع رواتب العساكر البحرية والحاميات التي ترابط في الولايات . وبما ان الاعشار تؤجر من شهر اذار الى شهر اذار ويخصص موردها لرواتب الجند فان الدولة بدأت في سنة ١٧٤١ اعطاء رواتب قسم من العساكر حسب السنة الشمسية . وتابعت هذه العملية بصورة غير محسوسة الى ان اصبحت اليوم تدفع رواتب الجنود البحرية والحاميات كلها تقريبا الموجودة خارج العاصمة حسب السنة الشمسية . الامر الذي يوفر عليها راتب احد عشر

يوما في السنة لكل شخص مع العلم بانها تستوفي الضرائب حسب السنة القمرية .

كانت واردات الدولة في زمن السلطان محمد الثاني تكاد تصل الى عشرة ملايين غرش. وبلغت في زمن سليمان الاول ستاوعشرين مليونا ولم تكن زمن محمد الرابع سوى عشرين مليونا .

وهذه الواردات ضئيلة في ايام الحرب لتغطية المصاريف الباهظة . اما الامدادات التي ترجع لها في مثل هذه الحال هي : ١) التعويض او البدل المالي الذى يدفعه اصحاب الاقطاعات العسكرية الذين يستثنون من دفع بدل الطريق ٢) ضريبة عشر الاموال المعجلة التي يدفعها اصحاب الالتزامات ٣) الاموال التي تستدينها من الولايات . وجعلت الدولة لها الحق في شراء المواد اللازمة للجيش باسعار ضئيلة جدا وقد دعيت هذه الاسعار سابقا باسم : " اسعار اميرية " . العجز الذي في مالية

وبما ان الامة ترفض دفع اية ضريبة مباشرة غير التي يسمح بها الشرع فان الحكومة لا يمكنها الاستدانة او اخراج اوراق مالية لذلك فانها تستعمل الشدة عندما تفتقر الى المال لتحصيل ما يعوزها منه . وتسمح الدولة وقت ذاك بفرض ضرائب على المدن والاراضي تسمى ضريبة الحرب تجبى بقوة السلاح . وتفرض على اصحاب البيوتات المالية وعلى الملاكين والموظفين على اختلاف طبقاتهم دفع مبالغ مختلفة حسب حالتهم المالية او بالاحرى حسب اهواء رجال السلطة وتفرض عقوبات صارمة على اى مخالفة بسيطة . واذا احتاجت الدولة للمال بصورة مستعجلة فانها تمنح ملتزمي الضرائب فوائد جمة ليقدموا لها المال قبل الاوقات المعينة .

ان حروبا عديدة منعت السلاطين تقريبا دائما من ادخار الاموال في الخزينة . ولقد قيل بان كل حرب تكلف من عشرة ملايين الى اثني عشر مليون قرش . وعلى اثر سلم دام عدة سنين استطاع السلطان محمود الاول قبل وفاته ان يترك في الخزينة خمسة عشر مليونا . وضاعف مصطفى الثالث وهو سلطان مقتصد هذا المبلغ الا انه صرفه على اثر حرب خاسرة مع الروس . ولما اعوزته الحاجة استعمل طرقا معيبة منها تزوير النقود مما ادى عام ١٧٧١ الى ان تتدنى اثنين وعشرين بالمئة تقريبا قيمتها الاصلية . وقد اعيدت هذه العملية الشائنة مرتين او ثلاث من قبل خلفائه الى ان اصبحت النقود الان تساوى نصف ما كانت عليه تقريبا

ان خزينة الدولة تسمى ايضا اموال المسلمين حسب القول القديم المذكور في الشرع وهي

منفصلة عن خزينة السلطان الخاصة الا ان حساب هاتين الخزينتين مفتوح عند الحاجة منذ اكثر من قرنين . ففي ايام الضيق يقدم السلطان المال للدولة من خزينته حسب سند يراه القاضيا عسكر ويمضيه الصدر الاعظم والدفتردار الاول . وقد ارتفعت هذه الديون الان الى اكثر من اثنين واربعين مليونا ويحتفظ السلاطين دائما بحق تكرار الدين عندما يشاؤون . واذا تغطت في اخر السنة كل المصاريف وبقي شيء في خزينة الدولة فان السلطان ياخذه لخزينته . وعلى الدولة ايضا دين مليون ونصف لخزينة الاوقاف التي يشرف على ادارتها رئيس الخصيان السود وهذه الخزينة التي تسمى عندهم " دولاب " تحفظ في السراى كما تحفظ خزينة الدولة وخزينة السلطان .

وبما ان الدولة لاتستدين قط من اي كان فان ليس عليها غير هذه الديون التي ذكرناها ولها بالعكس ديون تقدر بعدة ملايين وهي بقايا ما يجب ان يدفعه الملتزمون الذين تمهلهم الدولة ان ارادوا مدة سنة لدفع ما يترتب عليهم .منهم كبار رجال البلاط والوزراء والعلماء حيث يراعيهم الدفتردار مستعملا معهم اسبابا خاصة .

الفصل الثاني

دائرة المالية

ان ادارة مالية الدولة لم يكن لها في اول عهد السلطنة سوى رئيس واحد وهو الدفتردار . الا ان بايزيد الثاني عين لها رئيسا ثانيا . فكان الاول يدير مالية ولايات الدولة التي في القارة الاوروبية والثاني التي في اسيا الصغرى واصبح يعرف الاول بدفتردار الروملي والثاني بدفتردار الاناضول . وقد عين السلطان سليم الاول رئيسا ثالثا لادارة مالية الشام ومصر وديار بكر التي ضمها تحت لوائه . وعين السلطان سليمان الاول رئيسا رابعا لبلاد المجر والولايات التي على نهر الدانوب . وكان لكل حكومة دفتردارها الخاص زمن السلطان سليم الثاني ومراد الثالث الا ان السرقات التي قام بها عمال المالية هولاء ادت الى ابطال مناصبهم كما ابطل بعد ضياع بلاد المجر منصب الدفتردار الرابع الذى كان مركزه في الاستانة . فلم يبق سوى ثلاثة يترأس اعلاهما رتبة ادارة مالية الدولة . وظل الاثنان

الباقيان اسمياً فقط حتى زمن سليم الثالث الذى عين لهما بعض الاعمال .

ان الدفتر دار الاول وزير المالية اورئيس الخزينة عضو من اعضاء الديوان . فتجيئه مساء كل يوم الاخبار عن اعمال الخزينة ويعرض بدوره الحالة للصدر الاعظم مرتين او ثلاث في الاسبوع . ويترتب عليه ان ياخذ اوامر الصدر الاعظم في كل الشوءون المتعلقة بالدفع . ويجب ان تكون على الاوامر او " البطاقات الاميرية " المرسلة الى صناديق الدفع توقيعا الدفتردار الاول والصدر الاعظم . ولكن بالرغم من تحقيق ومراعاة هذه الاصول فانه يتعلق ايضا بوزير المال دفع كل او بعض المبلغ الذى سيخرج من الخزينة .

ومن اهم الامور التي يُعتني بها الدفتردار الاول هو السهر على دفع مرتبات الجنود المرابطين في العاصمة ثلاث مرات في السنة وفي الاوقات المحددة لها واى تاخير او دفع غير كامل يمكن ان يسبب هيجان الجنود ويتبعه قلاقل في العاصمة كما يطلعنا التاريخ على امثلة كثيرة من هذا القبيل . ويكون الدفتردار اول ضحية لغضبهم لهذا فانه يهمه اكثر من اى شخص اخر ان يمنع حصول مثل هذا الحادث . وهو يبدي مثل هذا الاهتمام في حث كبار الشخصيات كي تدفع ما عليها للخزينة في مثل تلك الاوقات .

وهو يدير ايضا قسما من واردات السلطان الخاصة وعلى الاخص تلك التي تاتيه عن طريق استصفاء اموال الرعية . وهو لايتناول اي راتب معين وتتالف ماهيته من الضرائب التي له على كل الاوراق الصادرة عن دائرته . ويشتغل تحت امرته خمسة من كبار الموظفين :

١) " الباش باقي قولي " يقوم بتحصيل ديون الدولة يساعده ستون حاجبا لانذار وحبس الاشخاص المديونين للدولة .

٢) " الجزية باش باقي قولي " يقوم بوظيفة الاول ولكن فقط نحو ملتزمي الجزية .

٣) " الوزندار باشي يشرف على الاموال الداخلة الى الخزينة والخارجة منها . يامر على اربعين وازنا يفحصون ويزنون الذهب الخ ....

٤) " السرغي ناظرى "

٥) " السرغي كلفه سي "

يقوم هذان الموظفان بتسجيل اعمال الخزينة الحسابية . وتتالف دائرة المالية من خمس وعشرين مكتبا او قلما يدير كل واحد منها رئيس خاص يحمل لقب " خوجقيان " ويكون مركزه

كل هذه المكاتب في قصر وزير المال وهي :

١) البيوك روزنامة " اي دفتر الحسابات الكبيـــــر وهو مستودع عام لسجلات المقبوضات والمدفوعات. تاتيه كل يوم مذكرة عن اعمال الخزينة . وتقدم بقية المكاتب لهذا المكتب ملخصا عن اعمالها . لهذا السبب فانه يدعى " المكتب الكبير او " الميزان " وتوضع كل سنة او كل ستة اشهر خلاصة مجملة عن حالة الخزينة الداخلية تحسب بعدد الاكياس التي فيها . وهـ
وهناك ثلاثة انواع من الاكياس . الاول وهو اكثرها استعمالا يحوى على خمسمئة قرش ويسمى بالكيس الرومي . والثاني هو كيس الديوان يحوى على (٤١٦) قرشا وثلثي القرش اما الثالث وهو الكيس المصرى ويسمى كذلك لانه لايستعمل الا في بلاد مصر فقيمته (٦٢٠) قرشا .
وتقدم بقية دوائر المالية كما تقدم الخزينة ايضا حساباتها بالبارات والقروش وال yuks ويساوى القرش ماية وعشرين بارة . ومائة الف بارة تساوى yuk او (٨٣٢) قرشا وثلث القرش .

٢) الباش محاسبة " اي مكتب المحاسبات العامة . تحفظ فيه سجلات ١) المعدات الحربية ٢) الالتزامات السنوية والدائمية ٣) خراج الولايات ٤) مرتبات جنود الحاميات المرابطة على الحدود ٥) المصاريف المتعلقة بوكيل القصر ووكيل البحرية ووكيل معمل صنع المدافع ووكيل معامل صنع البارود . وهو ايضا مستودع عقود المؤون التي على حساب الدولة . ويقوم هذا المكتب ايضا بفحص حسابات الاموال التي بذمة الخزينة كما يقوم باصدار الاوامر لدفعها .

٣) ـ مكتب محاسبات الانضول . تحفظ فيه السجلات المتعلقة بمختلف الالتزامات ومرتبات الجنود المرابطة في الجزر وسجلات اموال التقاعد المعطاة للأقدميين في خدمة الدولة الخ ....

ان رؤساء هذه المكاتب الثلاث هم كما ذكرنا سابقا من اعضاء مجلس شورى الدولة كما هم ايضا " الخوجوات " الخمسة الذين هم من القسم الاول .

٤) ـ " الصوارى مقابلة " او مكتب تفتيش الخيالة . يقوم بترتيب اعمال الفرسان ووضع مرتبات موظفي حاشية السلطان المعروفين باسم اغاوات القصر الداخلي ومرتبات الرجال الذين

يخدمون في اسطبلي السلطان ومرتبات حجاب القصر .

٥) مكتب عساكر السباهية

٦) = = السلاحدارية

صرف

ان هذين المكتبين يقدمان بطاقات/النقود لعساكر هاتين الفرقتين . وعلى هذه البطاقات ان تكون مصححة من قبل رئيس المكتب الرابع الذى يوقع من اجل ذلك على كل ورقة بالحبر الاحمر حرف الميم مشيرا الى كلمة " مسطور" اى موافق . لكل واحدة من البلكات الاربعة المضمومة الى فرقتي السباهية والسلاحدارية مكتب خاص يؤمن لها ارسال بطاقات الصرف وهوفي قصر اغاواتها نفسه .

٧) مكتب محاسبات الحرمين اى مكة والمدينة . تحفظ فيه السجلات المتعلقة باوقاف الجوامع السلطانية وبمرتبات المشايخ الذين يخدمون فيها وبالاملاك الراجع واردها لمدينتي مكة والمدينة سواء اكانت في العاصمة او في الولايات الاوروبية من ضمنها ايضا تلك الاملاك التي تؤجر بالالتزام . وتصدر عن هذا المكتب ايضا مذكرات تعيين رجال الدين في المناصب الدينية سواء كان ذلك في الاستانة ام في الروم ايلي وعليهم ان يقدموا هذه المذكرات للمكتب العاشر لكي يحصلوا على قرار تعيينهم .

٨) مكتب محاسبات الجزية هو مستودع لائحات هذه الضريبة الخاصة . وتظهر في كل سنة البطاقات التي تسمح بجباية هذه الضريبة .

٩) مكتب المكوس او مكتب الموقوفات تتعلق به كل الضرائب المسماة " عوارض " وبدل نزول " وكل المخازن القريبة من الحدود . والضرائب التي تدفعها الولايات في وقت الحرب ولوازم الاعاشة المقدمة للعساكر المحاربة وما تمنحه الدولة من مؤونة وعلف ونقود للباشاوات والقواد والموظفين المدنيين الذين يلتحقون بالجيوش الذاهبة للحرب .

١٠) مكتب المالية وهو بمثابة قلم استشارية هذه الدائرة . ترسل اليه قرارات/ رؤوساء الدين والموظفين الذين يديرون الاوقاف والاشخاص الذين حصلوا على اعانات من موارد هذه الامكنة الدينية . وتدون في هذا المكتب ايضا المراسيم المتعلقة بالشؤون المالية والتي تحمل شعار السلطان وتوقيع الدفتردار الاول .

١١) مكتب " الروزنامة " الصغير مخصص للاعمال المتعلقة بمرتبات روءساء الحجاب وطاعيات العساكر البحرية .

١٢) مكتب مراقبة العساكر المشاة وهي الانكشارية والجبةجيه والطوبجيه والطوب عربجية . ويراقب في هذا المكتب اوراق صرف مرتبات الجنود التي يعطيها روءساء هذه الفرق الاربعة اى كما هو جار في المكتب الرابع نحو اوراق صرف مرتبات الخيالة .

١٣) مكتب محاسبات الاوقاف الصغير . تحفظ فيه اوراق المرتبات التقاعدية المخصصة للاشخاص الذين يخدمون في الموءسسات الخيرية .

١٤) مكتب الحصون الكبير وهو مستودع عام لقائمة الحاميات وللعساكر المرابطة في الولايات التي تعمل احيانا في الحصون وعلى الاخص تلك التي هي واقعة على نهر الدانوب .

١٥) مكتب الحصون الصغير هو مستودع قائمة جنود الولايات الذين يعدون لتقوية الحاميات المرابطة في البانيا والمورة .

١٦) مكتب التزامات المناجم . يقوم بالاعمال التي تتعلق :

١) بخراج الافلاق والبغدان ٢) بخراج قبائل البوهيميين ٣) بمناجم الذهب والفضة .

٤) بالرسوم المفروضة على زراعة الدخان ٥) بمكوس الترانزيت التي على الدخان ٦) برسوم جمارك اشهر مدن الروم ايلي ومنها الاستانة .

١٧) مكتب المرتبات اى تلك المعطاة لموظفي الدولة .

١٨) مكتب التزامات الاملاك . تحفظ فيه التفاصيل المتعلقة بالتزامات الاملاك المقطوعة للسلطانات او المعينة للصدر الاعظم وللباشاوات الخ ... لمصاريفهم .

١٩) المكتب الرئيسي للالتزامات . تتعلق به : ١) الالتزامات التي في الاقضية المسماة " نظارة " مثل سيلستريا وروسجوك وغيرها ٢) التزام الضرائب التي على الارز في فيليبوبوليس وطوسيا وتتر بازارى وغيرها . ٣) التزام ملاحات سالونيك وغيرها ٤) التزام الصيد في البحر الاسود والابيض ٥) التزام الاحراج والغابات .

٢٠) مكتب التزامات مدينتي مكة والمدينة يبحث فيما يتعلق بالاوقاف وبرجال الدين في بلاد الاناضول كما هو الحال في المكتب السابع فيما يتعلق ببلاد الروم ايلي .

٢١) مكتب التزامات الاستانة . تتعلق فيه تموين العاصمة وادرنه والتزامات سالونيك ولاريسا

وطرخاله . كما ينظر في امر الضرائب المفروضة على الحرير الذى تنتجه الدولة والرسوم المفروضة على المصنوعات الذهبية والفضيه.

٢٢) مكتب التزامات بروسه . ينظر في التزامات ولاية خودفنديكار التي عاصمتها بروسه.

٢٣) مكتب التزامات Avloniya الذى يضم اليه ايضا التزامات Négrepont

٢٤) مكتب التزامات "قافا" . الذى لاينظر الان الا في التزامات عدد من مقاطعات الانضول.

٢٥) مكتب التواريخ . تؤرخ فيه كل اوراق الدولة الصادرة عن بقية المكاتب كما تدون الحوالات التي تعطيها الدولة لدائنيها على مختلف فروع وارداتها.

هذا هو وصف هذه الدائرة الواسعة التي يشتغل فيها اكثر من سبعمائة كاتب . ويعمل في كل مكتب من المكاتب الثلاثة الاولى مئة وخمسون كاتبا تقريبا . وفي كل مكتب عدد من كبار الكتاب يسمون Khalfas ورئيس يسمى Kissedar يدبر العمل ويقدم الاوراق لرئيس الدائرة "الخوجقيان" ليوقع عليها هو والوزير . ويحرر الاخبار الرسمية المتعلقة بشؤون مكتبه.

يرجع تنظيم هذه الدائرة الى زمن حكم السلطان محمد الثاني . الا ان حصول فروع جديدة للادارة ادت بصورة متتابعة لانشاء سبعة مكاتب في ايام سليم الاول وسليمان الاول واحمد الثاني ولكي لايفسدون شيئا من التقسيم القديم فانهم الحقوا هذه المكاتب الجديدة بتلك التي كانت موجودة واطلقوا على رؤسائها لقب "Khalfa"

وهذه المكاتب هي : ١) "المالكانة خلفه سى" لمراقبة الالتزامات الدائمية ٢) "الزمة" لديون الدولة ٣) "المخلفات" للاموال المستصفاة ولتلك التي ليس لها وريث والراجعة الى السلطان وقد الحقت هذه المكاتب الثلاث بالمكتب الثاني "باش محاسبة" ٤) "القلميه" لجباية ضريبة القلمية ومقدارها عشرة بالمئة على الالتزامات الدائمية . ٥) "المنزل" للبريد الذى يسير على الجياد . ٦) "عدد اغنام" لالتزامات ضريبة البهائم . وقد الحقت هذه المكاتب الثلاثة بالمكتب التاسع ٧) "البيسكوبوس خلفه سى" يبحث فيما يتعلق بكنائس واديرة المسيحيين . وهو ملحق بالمكتب العاشر.

ويوجد ايضا غير هذه المكاتب مكتب خاص تحت اسم "اوضة" اى غرفة وهو امانة سر الوزارة يديره "خوجقيان" يحمل لقب "مكتوبجي" اى امين السر . ويقوم هذا المكتب بثلاثة اعمال وهي : ١) مراسلات الوزير العامة ٢) مذكراته وتقاريره للدولة ٣) اصدار عقود التزامات الاملاك الدائمية او التزامات بقية فروع موارد الدولة.

ولدائرة المالية محكمة اميرية يحمل قاضيها لقب "ميرى كاتبي" ويعين من قبل قاضي عسكر الروم ايلي . وهو يفصل في كل المخاصمات القائمة بين الدولة وبين الناس ..

وتتاتى هذه المخاصمات بصورة خاصة عن مطاليب الاشخاص الذين يهتمون بالشوؤن المالية المتعلقة بالملتزمين المتوفين . اوعن الاشخاص الذين استصفيت اموالهم . ويقوم جابي الضرائب العام باعمال نائب المالية امام هذه المحكمة . ان الضرائب القضائية التي تاخذها هذه المحكمة كبيرة جدا يتناول القاضي خمسها ويذهب الباقي للقاضي عسكر الذى عينه .

وتدعى مكاتب دائرة المالية والباب العالي ومكتب السجلات القديمة (دفترخانة) تمييزا عن غيرها بالمكاتب الهمايونية (اقلام باديشاهي) .

الباب السادس

الولايات

فرض السلاطين العثمانيون في الاراضي المحتلة الخراج على املاك السكان المسحيين واليهود وقد ثبتوا الملكية هولاء فيها . ويتالف هذا الخراج كما قد ذكرنا قبلا اما من ضريبة محدودة او من قسم من منتوجات الارض يتراوح بين وعشره نصف المحصول . اما اراضي المسلمين فانها لاتدفع غير الاعشار . وكل هذه الضرائب التي ذكرناها مطابقة لما جاء به الشرع الاسلامي . وهناك نوع من الاراضي ملحقة بالاراضي المستملكة يخسر اصحابها حقوقهم فيها اذا حاولوا التصرف بها دون ان يورثوها لاولادهم . من هنا تاتي الاقسام الثلاثة للاراضي وهي : اراضي الخراج . والاراضي العشرية . واراضي الدولة . وتدعى هذه الاخيرة " ارض مملكتي " .

وقد وزعت اراضي الدولة على رجال عسكريين وعلى موظفين مدنيين ايضا وتكون فائدتهم منها في اخذ الضرائب التي يدفعها العمال الذين يشتغلون في هذه الاراضي . ويكون خضوع هولاء الاخيرين لهم خضوع العبد للسيد . اما فائدة الدولة فتكون في انه يترتب على من وزعت عليهم اراضي الدولة ان يودوا الخدمة العسكرية ولكن كفرسان وان يكون معهم عدد ما من الفرسان المسلحين يتناسب وقيمة الاقطاع المعطى لهم . ويطلق اسم " زعامة " على الاراضي التي يربو مدخولها على العشرين الف بارة اما بقية الاراضي فتدعى " تيمار " . ويخضع اصحابها الذين يسمون سباه " اى فرسان " للصوباشي " وهو رئيس الناحية التي توجد فيها الاراضي الاقطاعية . ويخضع كثيرون من هولاء الروساء لموظف اعلى رتبة يسمى " الاى باك " وهولاء يخضعون بدورهم لرئيس الولاية " السنجق باك " او امير اللواء " . ولكل هولاء الموظفين اراض اقطاعية ايضا وهم مقابل ذلك يسيرون الى الحرب مع فرسان مسلحين . اما في اوقات السلم فانهم يقومون بحفظ الامن في الولاية تحت رياسة الحاكم .

وقد قسمت الاراضي العثمانية زمن اول السلاطين الستة الى مقاطعات صغيرة تسمى : "لواء " اوسنجق " اى علم . ويسمى روساوها "امير اللواء " اوسنجق باك " وتمنحهم الدولة " طوغا " اى ذنب جواد كاشارة خاصة للقيادة . وهم يخضعون لحاكمين عامين يعين الاول

للروم ايلي والثاني للاناضول وهما اسمان يطلقان على كل اراضي الدولة العثمانية الكائنة في اوروبا وفي اسيا . ويكون مركز الحاكم الاول في موسنتير او صوفيا في بلاد الصرب . اما الحاكم الثاني فقد كان يقيم بادىء الامرفي انقره ثم اقام بعد ذلك في كوتاهية) وكانت تمنح الدولة لقب " بكلربك " اوميرميران " ومعناها امير الامراء او حاكم الحكام . ويكونان من اصحاب الطوغين او الثلاثة الأطواغ (١) وكان اللالا شاهين اول جنرال عثماني حصل على هذا اللقب مع رتبة الباشاوية عام ١٣٦٢ . وقد عُين تيمورتاش اول " بكلربك" لارض الروم ايلي عام ١٣٧٦ .

ولقد زاد محمد الثاني بعد فتح القسطنطينية عدد الباشاوات اي الحكام اصحاب الطوغين او الثلاثة . واخذ خلفاؤه من بعده يزيدون عددهم تدريجيا كلما توسعت اراضي الدولة بسبب فتوحاتهم الا انه حصل ترتيب جديد بهذا الخصوص زمن حكم مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥) وذلك ان هذا السلطان قسم الدولة الى مقاطعات كبيرة اى الى "ايالات " تتالف كل واحدة منها من عدد من "الالوية " واعطي لحكام الايالات العاليين لقب وزير ولقب باشا من اصحاب الثلاثة الأطواغ كما رقي حكام الالوية الى رتبة ميرميران او باشا من اصحاب الطوغين . وبنفس الوقت اصبحت هذه المناصب العالية لاتمنح الا لمدة محدودة . فكانت في بادىء الامر لثلاث سنين ثم انقصت الى سنتين الى ان اصبحت اخيرا لسنة واحدة . فكانت الدولة من ناحية تزيد من نفوذ وسيطرة هولاء الحكام وكانت من ناحية ثانية بفضل هذا الترتيب الاخير تتلافى ازدياد قوتهم اكثر من اللازم بسبب حكمهم الولاية نفسها مدة طويلة . الا ان المؤرخين العثمانيين كانوا يرجعون اسباب هذه الترتيبات الى عدم جدارة الوزراء والحكام اوبالاحرى الى اطماعهم الزائدة اذ كانت تسبب لهم هذه التغييرات العديدة موردا كبيرا .

ونحن لانرى هنا فائدة في ذكر التغييرات التي حصلت في هذه الناحية من الادارة الحكومية زمن بعض السلاطين انما نكتفي بذكر تقسيمات البلاد العثمانية كما هي عليه الان مشيرين فقط الى انها كانت مؤلفة من اربع واربعين ايالة ومئتين وعشرين لواء عندما كانت بلاد اليمن والمجر وترانسلفانيا وجورجيا وسرقاسيا وداغستان وشرقان واذربيجان الخ ... من ضمن ممتلكاتها .

اما في الوقت الحاضر فان الدولة مقسمة الى ست وعشرين ايالة مؤلفة من مئة وثلاثة وستين لواء . وتتالف هذه ايضا من الف وثمان مئة قضاء . وتختلف هذه الايالات كثيرا

---

(١) كان عثمان الاول بكلربك في خدمة علاء الدين كيقباد الثاني احد سلاطين السلاجقة في قونية ورقاه الى هذه الرتبة .

بين بعضها في نسبة مساحتها وعدد الويتها . ويحكم حاكم الايالة بنفسه اللواء الذي جعله مركزه اما بقية الوية الايالة فانه يحكمها من قبله حكام من مختلف الدرجات يحطون اما لقب وزير اي باشا من ذوي الثلاثة الأطواغ او لقب مير ميران اي باشا من ذوي الطوغين اويدعون فقط باسم متسلم او محصل الخ ... ويطلق اسم " باشلك" على الالويه التي يحكمها باشاوات وعددها اثنان وسبعون . ويمتاز حاكما الروم ايلي والانضول عن غيرهما بلقب " بكلربك" كما انهما يحتفظان بتقدمهما على بقية الباشاوات ويرجع هذا التقدم الى عهد بعيد . فيحكمان في اوقات الحرب جيوش الولايات فواحد يحكم جيوش اسيا والثاني جيوش اوروبا .

ويحصل حكام الايالات على مصاريفهم من موارد الاقطاعات المتروكة تحت تصرفهم والكائنة في اللواء الذي يجعلونه مركز حكمهم . وفضلاً عن ذلك فان الباب العالي يعين كل سنة لمعظمهم موارد لوائين او ثلاثة من الوية الايالات التي يحكمونها . فاما يوءجرونها اويديرها باسمهم موظفون يطلق عليهم لقب متسلم . وهكذا فانه يخصص لهم جميعا اربعاوستين لواء . وعدا ذلك فان الباشاوات يتناولون ضريبة من كل الالوية الخاضعة لهم فتصل في اوقات السلم الى الف او الف ومئتي قرش للواء الواحد والى ضعف هذا المبلغ في اوقات الحرب. ويدفع كل لواء عدا ذلك نصف هذا المبلغ لحاكمه الخاص. ولكن يترتب على الباشاوات الذين لايذهبون الى الحرب دفع نصف ضريبة الحرب هذه الى الدوله .

وهناك اثنان وعشرون لواء تعطى التزاماتها مدى الحياة ولهذا السبب فانها تسمى : "مالكانة ميري " ويمكن لهولاء الملتزمين ان يحكموها بانفسهم كما يشاوءون او ان يديرها غيرهم باسمهم اوتاجيرها ثانية . ولا يتخذ من ينوبعنهم سوى لقب Voyvode الا ان نائب لواء Métélin يسمى "ناظرا" . وان كثيرا من هذه الالوية يلتزمها باشاوات . وتستفيد الدولة من هذه العملية في انها تتناول مبلغا من المال في كل مرة يباع فيها الالتزام بالمزاد العلني . الا انها امتنعت من اخذ العساكر التي كانت تقدمها فيمامضى هذه الالوية زمن الحرب كما تفعل بقية الوية الدولة .

وتعطى في كل سنة التزامات ثلاثة الوية كبرى وهي الوية "البوسنه والمورى وعايدين ايلي للحكام العاميين الذين تدخل هذه الالوية ضمن سيطرتهم . اما المبالغ التي يدفعونها في كل مرة يتجدد الايجار فهي : (٥٢٠٠٠) قرش للواء الاول و(١٠٠٠٠) للثاني و(٧٥٠٠٠)

للثالث . وتترك الدولة لهم مورد كثير من الضرائب التي لها على هذه الالوية . ويمكننا القول بان مواردهم هي اكثر من موارد بقية الحكام.

ان لوائي غليبولي وجزيرة رودس تعطيان لبكوات من قواد السفن الحربية . اما حكم لواء " ارغاني " في ديار بكر فهو لايزال حتى ايامنا هذه من حقوق مدير مناجم هذه المقاطعة وتعطى جزيرة قبرص للصدر الاعظم ويتخذ الموظف الذى يلتزمها منه لقب " محصل " ويعين لامير البحر الثلاث والثلاثين جزيرة التي في بحرايجه والتي توءلف لواء واحدا موءجرة (الانجر) لعدد من المتسلمين . وتسمى ايالته ايالة الجزائر وهي تتالف من كل الجزر عدا جزيرة كانديا ومن اغلب ممتلكات الدولة البحرية مثل الموري ونيغربون وليبانت وشواطيء ا سيا الصغرى والدردنيل الخ ...

ولايتعين الحكام او الولاة الا لمدة سنة . يشذ عن ذلك حكام الالوية الاثنتين والعشرين التي يعطى التزامها مدى الحياة وحاكما رودس وغليبولي وولاة ايدرس ويانوفا وجرمين Tchermen

ويقسم كل لواء الى اقضية يتالف بعضها من مدينة وملحقاتها والبعض الاخر من ناحيات تتالف من بلدان وقرى .

وتقسم الاراضي كما ذكرنا سابقا الى (؟)

اراض غنمها السلاطين في حروبهم وتدفع اما الخراج او الاعشار حسبما تقرر زمن الفتح

اراض وقفية مخصصة لمصاريف الجوامع او لغيرها من الامكنة الدينية .

اراضي الدولة التي لايمكن بيعها وهي تقسم الى تسع طبقات .

١) الاملاك التي تذهب وارداتها لخزينة الدولة .

٢) الاراضي العادية

٣) الاملاك الخاصة للسلطان

٤) الاملاك السلطانية وهي التي ضبطتها الدولة او التي آلت للسلطان من الاشخاص الذين ماتوا ولا وريث شرعي لهم .

٥) الاملاك الخاصة للسلطانة الوالدة وللامراء والاميرات العثمانيين .

٦) الاقطاعات الممنوحة للمناصب التي يراسها موظفون من الدرجة الاولى الذين يحملون رتبة وزير وهم : الصدر الاعظم وامير البحر وباشاوات الثلاثة الأطواغ .

٧) الاقطاعات الممنوحة لباشاوات الطوغين .

٨) الاقطاعات المعينة لحكام الالوية وللوزراء ولموظفي السراي .

٩) الاقطاعات العسكرية "الزعامة والتيمار" الممنوحة لجنود السباه او لموظفين مدنيين او لاناس عاديين .

يحكم اغلب المقاطعات . حسب نوع الاراضي التي تتالف منها . اما اصحاب الاقطاعات او اصحاب الالتزامات الدائمية او نواب هولاء الاخيرين او مدير الاملاك الدينية . اما المقاطعات التي ليست من املاك الدولة وليست وقفية فانه يحكمها نواب حكام او نواب "المسلمين" ان ترتيب كل الادارات الحكومية هي واحدة في كل الدولة العثمانية عدا بلاد مصر . فيعين مع الحاكم الذى يجمع في شخصه السلطة المدنية والعسكرية قاض يقوم باجراء العدل . ويعين في المدن الكبرى موظف يحمل لقب "سردار" "يرأس كل العساكر الانكشارية الموجودة في الوية تلك المدن . ولجنود فرقتي الخيالة "السباه والسلاحدار" رؤوساء في الالوية يسمون "كهخيه يرس" . اما الاشراف من سلالة النبي فانهم يخضعون لرؤساء يطلق على الواحد منهم لقب "نقيب" ويخضع اهل الذمة لموظفين من الامن يسمون "صوباشي" ولهم ايضا رؤوساء من ملتهم يسمون "قوجه باشي" تنحصر مهمتهم في تعيين حصة السكان من الضرائب والرسوم المفروضة على الناحية التي هم فيها .

وعندما يترقى احد الموظفين الى رتبة الباشاوية من ذات الثلاثة الاطواغ يمنح حلة من الفراء مصنوعة من جلد السمور كما تعطى له شارات الحكم باحتفال كبير وكانت تتالف هذه فيما مضى من طبل وعلم . ثم تغير الطبل باذناب خيل تعلق في راس رمح ينتهي بكرة مذهبة . فيتقدم الميرعلم وهو من اول موظفي السراى من الباشا ويناوله العلم والاطواغ الثلاثة . ثم يتقدم الرئيس افندى ويناوله البراءة السلطانية كما يناوله النيشنجي "صورة لشعار السلطان مع محبرة فضية ومئزر من الحرير المزركش (١) ويقدم الباشا كهدية منه لكل من هولاء الموظفين الثلاثة حلة من الفراء مصنوعة من جلد السمور وجوادا مجهزا باثمن عدة وخمس مئة او الف ذهب . واذا كان الباشا متغيبا فان نائبه يقوم مقامه في تسلم كل هذه الاشياء

---

(١) يضع كبار رجال الدولة هذا المئزر على ركبهم عندما يكتبون فيجلسون على طرف الاريكة قابضين على الورقة بيدهم اليسرى او يجعلونها فوق ركبتهم .

وفي تقديم الهدايا . وكان الحكام فيمامضى يستعملون شعار السلطان وكان لهم الحق باصدار الاوامر باسم السلطان الا ان سوء استعمال هذه الصلاحية ادت الى ازالتها زمن السلطان احمد الثالث. ولم تبق الا مع القواد رؤساء الجيوش .

ان لرتبة الباشاوية ميزات شرفية كثيرة. فتقاد امام الباشا من ذوى الثلاثة الاطواغ تسعة جياد . وستة امام باشا الطوغين وثلاثة جياد امام باشا الطوغ الواحد . ولهم ايضا موسيقي عسكرية موءلفة حسب درجاتهم من تسعة او ستة او ثلاثة مزامير وطبول ودفوف وصناجات تعزف كل يوم مرتين امام قصورهم بعد صلاتي العصر والعشاء . وحين ما يظهروا امام الناس يتقدم بعض الموظفين الذين في خدمتهم ويدعون ان تحل بركة الله ونعمته عليهم . ويمشي امام الباشاوات حينئذ ان السلاحدار رئيس حاشيتهم حاملا بيده سيفا داخل قرابه اشارة لسلطتهم . ويكون لهم حسب درجتهم ستة او اربعة او واحد حراس الشرف يرتدون ملابس خاصة . وينقسم الباشاوات عدا ذلك الى قسمين : باشاوات اوروبا وباشاوات اسيا . اما درجة كل قسم منهم فتكون حسب الاقدمية . الا انهم يعترفون وقت الحرب برياسة بكلربك الروم ايلي وبكلربك الانضول.

ويساعد الحاكم في الشوءون الادارية شخصان او ثلاثة ينتخبون من كبار رجال اللواء ويثبتون من قبل الباب العالي . يعرفون باسم " اعيان " ويمكن مقارنتهم بموظفي البلديات . يتشاور الحاكم معهم وينفذ اوامره بواسطتهم وبنفوذهم. واصبحت وظيفة الاعيان هذه في بعض الاماكن يتوارثها الابناء عن الاباء لما يترتب دائما على الاعيان الجدد ان ينتخبوا من قبل كبار السكان . واذا كان لهولاء الاعيان اعتبار في بلادهم يمكنهم كبح جماح الباشا الحاكم ومعارضة اعماله الجائرة . ويجتهدون حينئذ في تقوية مراكزهم بتقديم الهدايا للبلاط او بايجاد كنف قوى لهم من اصحاب النفوذ في العاصمة . ولكن معظمهم بدلا من استعمال نفوذهم في درء الجور عن اهل بلدهم يجدون اربح لهم ان يكونوا عونا للحاكم في طغيانه عليهم.

وبما ان الباشا حاكم اللواء يكون قد دفع ثمن منصبه غاليا فانه يستعمل السرعة والجراة في ارهاق السكان بالضرائب لانه غير متاكد من دوامه في منصبه ولكنه مطمئن تقريبا من انه لايقاصص على عمله . ولا تصل شكايات المظلومين الى الدولة الا بصعوبة . واذا صدف ووصلت فان اعوانه وحماته يخففون من قوة تاثيرها . وان اكثر الوسائل التي يستعملها حاكم طماع

للاستيلاء على ثروة شخص غني تكون في اتهامه بارتكاب جناية ما ثم اجباره على دفع قسم من ثروته يفتدى بها حياته وهذا المال الذى يدفعه يفرض عليه شرعا ويسمى غرامة نقدية . يرتكب الحكام مثل هذه الاعمال ليحتفظوا بابهتهم التي تكلفهم اموالا كثيرة . اذ تتالف حاشية الباشا من ذوى الثلاثة الاطواغ من خمس مئة شخص على الاقل . وهنالك حكام/ في خدمتهم عدا رجال حرسهم اكثر من الفي شخص . ويتالف حرمهم من عدد غفير من النساء . ويقتنون من مئتين الى ثلاث مئة جواد في اسطبلاتهم . وهم عدا ذلك يدفعون اموالا طائلة عند تعيينهم او في نهاية السنة اذا ظلوا في مناصبهم . من هذا ترى بانه عليهم ان يدفعوا ثمن مناصبهم وثمن بقائهم فيها وثمن ابعاد التشكيات المسببة عن جورهم .

وفيما عدا ذلك فان الحاكم وهو اكثر الموظفين فسادا ينافق ويقوم بمنتهى الدقة بكل الاعمال الدينية الظاهرية . اذ بذلك يكتسب محبة الناس . وانه من النادر اذا اراد الناس مدح شخص من اصحاب المراكز ان يذكروا فضائله ومقدرته انما يكتفون بالقول : انه مسلم صالح لايتوانى ابدا عن القيام بواجباته الدينية . ثم يتطلب من موظف الدولة ان يكون متقدما في السن وذا لحية بيضاء . وكان من العار عند الناس ان يكون في احد المناصب العالية موظف يتراوح سنه بين الاربعين والخامسة والاربعين اذ يعتبر صبي بعد . ومن الاقوال الدارجة عندهم ان سنا كبيرا واختبارا طويلا في الاعمال لافضل من علم افلاطون وارسطو .

فاذا سخطت الدولة على احد الحكام واستصفت امواله فان اللواء الذى كان يحكمه لايستفيد شيئا ويبقى على ما هو عليه . اذ ان الدولة لاتعوض شيئا على اولئك الذين اختلس الحاكم اموالهم . ويسير عادة الحاكم الجديد الذى يعين على منوال سلفه .

واذا زادت هذه المظالم الى درجة انها سببت قلاقل في اللواء فان الدولة ترسل حينئذ موظفا كبيرا يحمل لقب مفتش وتمنحه صلاحيات واسعة . الا انه في معظم الاحيان عوضا من ان يهدىء الحالة يزيد في خراب الناس بما ياتيه من اعمال الرشوة والظلم .

ان السلطة المطلقة التي يتمتع بها حكام الولايات تضعهم في حالة يمكنهم بها من العصيان ولكن هذا لايكون للاستقلال والانفصال عن الدولة العثمانية انما يفعلون ذلك عادة لانقاذ ارواحهم وخوفا من بطش السلطان اذ ا كان سريع التاثر يغضب لاقل وشاية ولا يقف عند حد في انزال عقوباته . عندها يجدون العصيان اسلم لهم . ولكن من النادر ان يستعمل الباب العالي القوة لاخضاعهم . انما يداهنهم كعادته ويخفف من حدتهم باعطائهم تامينات

كاذبة ومواعيد العفو والغفران فيرسل لهم رسائل الامان و يمنحهم امتيازات جديدة وهو مع كل هذا يترقبهم ويتسنح الفرص للتخلص منهم. ويجب ان لانعتقد بان حاكما ما يسلم حياته للدولة على اثر امر سلطاني لان المسلمين لم يبلغوا هذه الدرجة في القبول بالمصير والخضوع لاوامر السلطان يشهد على ذلك المجهودات التي يبديها الناس على اختلاف طبقاتهم الذين يحكم عليهم بالموت للتخلص من ايدي جلاديهم اذ يصرخون وهم يحاولون الفرار ان الله امرالانسان ان يدافع عن حياته . لهذا فان الموظف الذي تنتدبه الدولة للتخلص من احد الحكام المستعصين ويكون عادة احد رؤساء الحجاب يتظاهر بانه آت لبعض الاعمال العادية . ويستعمل كل ما بوسعه لكي لايثير شكوك ضحيته ولتخفيف يقظتها . وعليه ان يبدي منتهى الحذر لان اقل بادرة تصدر منه قد تجعل الحاكم يفطن للامر ويفقد حياته على يدي هذا الاخير . وتلزمه في غالب الاحيان عدة اشهر لتهيء الوسائل اللازمة لنجاح مهمته فاحيانا يرشي سرا قواد العساكر واحيانا اخرى يستعمل الحيلة .

ولقد ارسل زمن السلطان محمد الرابع احد رؤساء الحجاب الى ارضروم بمهمة اعدام البكلربك اسماعيل باشا . فلما وصل تظاهر بالمرض الشديد والتمس من الحاكم ان يرسل له طبيبه . وكان قد شد ذراعيه شدا قويا ليمنع جريان الدم . فلما حضر الطبيب وجس نبضه وجده ضعيفا جدا فحكم بانه على اخر رمق من الحياة واعطى بذلك تقريره للحاكم وبنفس الوقت بعث رئيس الحجاب رسالة له يحثه فيها للحضور اليه اذ لديه اوامر على غاية من الاهمية يريد اعلامه بها قبل موته . فحضر اسماعيل باشا لديه يصحبه اربعة من الخدم . وفي اثناء المحادثة دخل رجال رسول السلطان الى الغرفة وقتلوه . وفي الحال اظهر هذا امر السلطان " الخطي شريف " القاضي باعدام الحاكم. ثم عين رئيس الحجاب حاكما موقتا ورجع الى الاستانة حاملا راس اسماعيل باشا .

واستعملت نفس الحيلة زمن السلطان عبدالحميد لقتل "الهسبودار" غريغوار Ghica الذي عين حاكما على امارة البغدان وذلك على اثر معاهدة صلح قينرجة .واذ شك الباب العالي بانه على اتصال مع دولة روسيا . ولا يتناول الباشاوات الحكام معاشاتهم التقاعدية بسهولة فلا تمنح لهم الا كمرحمة يدفعون ثمنها غاليا . اذ لايحق لهم بعد الانتهاء من خدمة الدولة ان يختاروا مكان اقامتهم او ان يسكنوا في العاصمة لان سياسة السراي الحذرة المترتبة

تخاف ان يتمتعوا بنفوذ واعتبار ساميين بفضل ثرواتهم او بفضل المنصب الذى كانوا فيه .
الا ان الدولة تكون اكثر تساهلا مع باشاوات الطوغين اذ تسمح للذين اشتهروا منهم بالسكينة
والتعقل بالاقامة في العاصمة الاانه يفرض عليهم ان يعيشوا في خلوة تامة . وان مناصب
حكام الالوية غير مرغوب فيها من قبل كبار رجال البلاط بالرغم من الابهة التي تكون للباشاوات
الحكام . اذ يخافون من التغييرات الدائمة التي تحصل في هذه المناصب ويعتقدون بانهم
يكونون خارج العاصمة اكثر تعرضا لنكبات الدهر المسببة عن التنافس والحسد .

يتحمل كل لواء مصاريفه المحلية مثل نفقات الحكومة وتكاليف الحصون ونقليات الارزاق
والاعتدة الحربية ونفقات العساكر المارة منه . اما الضرائب المفروضة على السكان فانها تتابع عليهم
تحت اسم : " عوارض " واشتراء " ونفير عام " وقطان بهاء " وذخيرة بهاء " وعشردية " وغيرها
وكلها داخلة تحت هذه الاسامي المقوتة مثل " الجبايات " او تكاليف الشقاء " التي تعطى
لها لانه غير مسموح بها في الشرع . وهكذا فان الدولة تتلافى ما يعوزها من المال المسبب
عن هذه الضرائب المباشرة الضئيلة التي يسمح بها الشرع والتي وضعت لسد النفقات البسيطة
التي كانت للدولة الاسلامية في اول نشأتها والتي لاتكفي الان لمصاريف امبراطورية عصرية كبيرة .
الا ان اى تغيير يجرى في هذه الناحية يعد غير شرعي ويصادف مقاومة شديدة من الشعب
المتمسك باعتقاداته الدينية . الا ان السلطان الذى يمنحه الشرع عند الحاجة حق طلب
المساعدات من كبار رجال الدولة يطبق حقه هذا على كل طبقات الامة وبصور مختلفة في اوقات
السلم كما في اوقات الحرب . ولخوف الشعب من ان تفرض الدولة ضريبة ثابتة يقبل ويتحمل
هذه الضرائب الغير المباشرة التي يعتبرها وقتية بالرغم من انها تتابع على الدوام .

ان توزيع هذه الضرائب على السكان يكون متناسبا وحالتهم المالية . ولكن في الامكنة
التي يكون فيها عدد المسلمين اكثر من عدد اهل الذمة يتحمل هولاء القسط الاكبر منها .
ويعتقد بان سكان اغلب الالوية يخسرون من جراء هذه الضرائب نصف مواردهم او نصف ثمرة
اعمالهم . ويدفع اهل الذمة عدا ذلك رسوما حين تزوجهم وعند مواراتهم التراب ووقت تشييد
مساكنهم او ترميمها . ويترتب عليهم قبل القيام باى عمل من هذا النوع ان يطلبوا الاذن به
اما من صاحب الاقطاع او من رئيس الامن اللذين يعينان لهم مبلغ الرسم المفروض عليهم دفعه .
والذى يتفق وحالتهم المالية .

الا ان اكبر التكاليف الباهظة التي تصيب السكان هي تلك التي تنتج عن سفر حكام الالوية ومندوبي الدولة. فان التنقلات العديدة بين الحكام تجبر هولاء ان يمروا دون انقطاع بين المقاطعات وعلى السكان ان يهيئوا لهم كل ما يحتاجونه وان يقدموا الهدايا لهم ولكبار رجال حاشيتهم . وبما انه ليس في الدولة بريد فان الحكومة تضطر لارسال رسول خاص في كل عمل يكون على شيء من الاهمية . فان كل دائرة من دوائر الصدر الاعظم والمالية وامير البحر وقواد الجيش تنتقي رسول بريدها من بين موظفيها وتكون رتبته مناسبة ونوع الرسالة التي يحملها وان سيل هولاء الرسل لاينقطع فتراهم يجتازون الطرق يتبعهم رجال مسلحون ويفرضون الرسوم على البلاد التي يمرون بها والتي يجب ان تؤمن لهم الطعام والمسكن. وهم عدا ذلك يؤكدون في طلب نفقات السفر من الباشا الذين هم مرسلون اليه او من المدينة التي يبعثون اليها . ولا تنقطع عنهم الهدايا ابدا . ولهذا فان عددا كبيرا من الموظفين المدنيين والعسكريين يسعى في طلب هذه الوظيفة.

وتعين الدولة " سرعسكر" اذا كان الامر يقضي بتطهير لواء ما من الاشقياء او لاخضاع بلاد متمردة والقضاء على عصيان احد الباشاوات الحكام. فتعطيه خمسة عشر او عشرين الف قرش واذا لم يكفه هذا المبلغ تعطيه الدولة صلاحيات واسعة تخوله تجنيد الرجال وجمع النقود. فيمر رئيس الجيش بالالوية ويفرض الضرائب ويعين قوادا من " البنباشية " اي روساء الالف الذين يجندون الرجال براتب ثلاثين قرشا للعسكري من المشاة وخمسة واربعين للفارس . فاذا انتهت مهمة هذه العساكر فانها هي نفسها تستعمل في جباية الاموال من البلاد التي اخضعوها ومن الالوية المجاورة لها وذلك لدفع نفقات السرعسكر . الا ان هذه الاموال تزيد احيانا عن المطلوب فياخذها السرعسكر وتكون من اسباب ثرائه .

ولكن هناك امر اكثر خطرا من هذه الرسوم الباهظة ومن تعديات رجال السلطة والذي يمنع ازدهار الصناعة ويسبب الجدب في اراضي حبتها الطبيعة بخيراتها الا وهو عدم امكان امان السكان على اموالهم واملاكهم . فان الدولة تضبط ارزاق عمالها بعد موتهم ان لم تفعل ذلك وهم احياء . وما من احد يجرأ على اظهار حقيقة ما عنده خوفا من ان تنتبه السلطة اليه . ولا يعرف الناس كيف يشغلون اموالهم. فهل يستعملونها في اعمال نافعة ؟ ولكن كل

مصلحة خارج العاصمة معرضة لاخطار عديدة تنشأ عن سوء حال الامن واعمال الفوضى . وهذه المصالح معرضة حتما في اوقات السلم لهجمات الاشقياء . اما في اوقات الحرب فان الجندى لايحفظ حرمة املاك وارزاق مواطنيه فيهل فيسلبها كما يسلب املاك اعدائه . ويبقى الناس في كل الاوقات تحت رحمة رجال السلطة . ح

ان تاثير هذا الاستبداد يظهر جليا وبصورة بارزة عندما يكون البوءس مخيما على الالوية . فتمتلىء المدن بجيوش من الشحاذين . وتبقى جيوش من الجوالين مستعدة دائما للانضمام تحت لوء اول عاص يثور على الدولة . ويهجر السكان المسالمون البلاد التي راءوا النور فيها . ويهرب المسيحيون خارج حدود الدولة كما يلتجيء المسلمون الى العاصمة حيث يكون الطغيان اقل عنفا ولكنهم يضطرون في بعض الاحيان من اللجوء اليها . وتصدر من وقت الى اخر الاوامر بعدم توسيع العاصمة بتشييد ابنية جديدة كما تصدر الاوامر الى جميع العوائل التي توطنت في العاصمة من ثمان اوعشر سنين بالرجوع الى بلادها الاصلية . ولايكون هدف هذه التدابير منع الناس من هجر الالوية بقدر ما يكون في تسهيل اعاشة مدينة كبيرة ونأسنة وتعد من السكان حتى الان ست مئة الف . ولاحاجة بنا للقول بان هذه الشعوب التي تنوء تحت نير مثل هذا الجور لايمكن ان ينبعث منها اى شعور وطني . ان العصبية الدينية هي الرابطة الوحيدة التي تجمعها .

هناك عدد كبير من البلاد تخضع للدولة العثمانية ولكنها لاتدخل في نظام الالوية التي يحكمها باشاوات من قبل الباب العالي . وهذه البلاد هي :

١) مدينة مكة التي يحكمها منذ عام ١٢٠١ رجال من الاشراف من بني قتادة المنتسبون الى علي ومحمد . الاانهم خضعوا للدولة العثمانية سنة ١٥٢٧ على اثر افتتاح مصر والشام من قبل السلطان سليم الاول . ولا يزال الامراء من بني قتادة يحكمون مكة يعينهم السلطان ويكون هذا التعيين نوعا ما انتخابيا فيخلع عليهم حلة من الفراء مصنوعة من جلد السمور وسيفا مرصعا بالذهب واللآليء ولا واحد منهم قط الى العاصمة عدا الشريف يحيى الذى حضر سنة ١٧٢١ لتقديم خضوعه للسلطان احمد الثالث على اثر عزله عن حكم مكة من قبل احد ابناء عمه .

٢) المدينة المنورة وكان يحكمها من قبل السلطان احد روءساء خصيان السراى السود يحمل لقب " شيخ الحرم "

٣) الافلاق التي زالت امتيازاتها عنها بصورة متتابعة ولقد اخذ يحكمها منذ قرنين تقريبا حكام من كبار رجال اليونان الذين يقطنون الاستانة . وقد كانوا يعينون سابقا لمدة ثلاث سنوات واخذوا من مدة قريبة يعينون لسبع سنوات . ولا يحملون غير لقب Voyvode او لقب ميرميران اى باشا من اصحاب الطوغين .

٤) البغدان التي تعامل نفس معاملة الافلاق .

٥) تسع عشرة ناحية كردية في لواء Tchildir جلدير يتوارث ادارتها حكام من الاكراد يقدمون عددا من الجنود للدولة عندما تطلب منهم ذلك .

٦) ثمان نواح كردية في ديار بكر لها نفس ترتيب النواحي السابقة .

٧) خمس نواح كردية اخرى في ديار بكر ايضا . يديرها حكام يعينون بالانتخاب . الا ان الدولة هي التي تدفع مرتبات العساكر التي يقدمونها لها .

٨) ناحيتان كرديتان في لواء الموصل لها ترتيب النواحي الخمس السابقة نفسه .

٩) ست نواح تركمانية في لواء سيواس يحكمها موظف خاص يحمل لقب آغا .

١٠) البوهيميون " قبطان " الموجودون في الولايات الاسيوية يخضعون لسلطة Voyvode يجبي الضرائب المفروضة على كل شخص من هذه القبائل المتنقلة .

١١) الولايات الافريقية الثلاث وهي الجزائر وتونس وطرابلس . فقد خضعت للدولة زمن السلطانين سليم الاول وسليمان الاول وهي تعترف دائما بسلطة السلطان الروحية ولكنها لا تعترف الا قليلا بسلطته الزمنية . ويصادق السلطان على تعيين حكامها الذين يعينون بالانتخاب ويمنحهم لقب ميرميران مع طوغين ويمنحهم في بعض الاحيان رتبة بكلربك الروم ايلي . وعوضا من ان تدفع هذه الولايات الجزية للدولة فانها بالعكس هي التي تستلم من وقت لآخر الهدايا منها . وتكون بصورة اعتدة حربية . ويحق لحكامها ان يجندوا الرجال من البلاد المجاورة للبحر مثل شواطئ الشام وشواطئ اسيا الصغرى والمورى . ويؤلف هؤلاء الجنود القوة العسكرية لكل ولاية . ويحق لرؤوساء هؤلاء الجنود ان يتوصلوا الى اعلى المناصب في الدولة .

ان عدد سكان الدولة العثمانية غير معروف . فان المعتقدات الدينية تمنع من حفظ سجلات في احصاء عدد المواليد والوفيات وعدد السكان . اذ يعتقد اتباع النبي محمد بان عملا مثل هذا يكون نوعا ما مراقبة لاعمال الله وخطيئة ضد واجب الخضوع التام لاحكامه ،

اما الولايات التي تتالف منها الدولة العثمانية فهي :

الروم ايلي ـ البوسنه ـ سلستريا ـ الجزاير ـ كريت ـ الانضول ـ مصر ـ بغداد ـ الرقة ـ الشام ـ ارضروم ـ سيواس ـ صيدا ـ جلدير ـ جده ـ حلب ـ قرمانيا ـ دياربكر ـ ادنه ـ طربزون ـ الموصل ـ طرابلس ـ البستان ـ قارص ـ شهرزول ـ فان .

الباب السابع

حالة الدولة العثمانية العسكرية

قبل ان نتكلم عن حالة الدولة العثمانية العسكرية الحاضرة سنشير الى مختلف فرق الجيش التي كانت موجودة في اول عهد الدولة . كانت هذه الفرق تدعى : يايا مسلم العزاب صاريجة يوروك جنبظان ، غريبان .

١) "اليايا" ويدعون ايضا بيادة جندهم السلطان اورخان . ولكنه انشأ بعد بضعة اشهر فرقة الانكشارية لذلك فانه جعل جنود اليايا من الجنود الاقطاعيين لانه كان يستاء منهم بسبب تمردهم ففرق عليهم الاراضي وامران يشتغلوا في حال عدم سيرهم الى الحرب في ترميم الطرقات ونقل الارزاق والامتعة الخ ... وكانوا يعدون (٢٠٠٠٠) رجل . وقد تحسنت سيرتهم شيئا فشيئا وتحولت في بادىء الامر الاراضي التي يملكونها الى اقطاعات تسمى " زعامةوتيمار " ثم تحولت الى اربع عشر مقاطعة تسمى " بكلك " تصرف مواردها حتى يومنا هذا كمرتبات تقاعد لقدماء قواد الانكشارية .

٢) المسلم " او المعفون من الضرائب يؤلفون فرقة من ثلاثة الاف فارس .

٣) العزاب ووظيفتهم الاعتناء بالمعدات الحربية . وقد الحقو بفرقة الجبجية .

٤) " الصاريجة " يسمون كذلك نسبة للون اعلامهم الصفراء وكانوا من الفرق التي جندت في بعض ولايات اسيا الصغرى . الا ان الدولة حلت فرقهم زمن مصطفى الثالث بسبب تعدياتهم . وقد اختلطوا مع عساكر الايالات .

٥) " يوروك " او العساكر السيارة وكانوا من فرق مشاة الروم ايلي . وقد سرحوا من الخدمة زمن سليمان الاول .

٦) " الجنبظان " او الاولاد الضائعون و" الغريبان " اى الغرباء . وقد وضعوا كحاميات في شواطىء الانضول الا ان سليم الثاني ازال فرقهم .

وتتالف جيش الدولة العثمانية البرية في الوقت الحاضر من : ١م) العساكر المنظمة . تعين

لها مرتبات وتكون دائمية الخدمة ٢) الفرسان وهم يعيشون من الاقطاعات العسكرية لها
٣) العساكر التي تجندها الايالات في زمن الحرب ٤ فرق حرس الباشاوات وجنود المقاطعات الخ
الخاضعة لهم ٥) الفرق الحرة .

الفصل الاول

الجيوش المنظمة التي تتناول مرتبات وتكون دائمية الخدمة

تتالف من اربعة جيوش للمشاة وهي : ١) الانكشارية . ٢) الجبه جيه اوصانعوا الاسلحة ٣) الطوبجية او فرق المدفعية . ٤) الطوب عربجية . ومن جيشين للفرسان وهما السباه والسلحدار . ويطلق على كل هذه الجيوش اسم " اوجاق" لتمييزها عن غيرها من الجنود .

الجيش الاول : الانكشارية

انشأ اورخان عام ١٣٣٠ هذا الجيش الذى يحتل بحق الدرجة الاولى بين العساكر العثمانية ليحل محل فرقة "اليايا " ولقد كانت مملكته صغيرة الا انه كان يطمع بتوسيعها بفتوحاته . لهذا شعر بالفائدة التي سيجنيها اذا الف جيشا من المشاة دائم الخدمة وكثير الطاعة وبما ان رجال التركمان كانوا لايصلحون كجنود مشاة وبعيدين عن الطاعة فلقد جند ما كان عنده من المسجونين المسيحيين . وقد بارك تاسيس هذا الجيش من المحاربين رجل متدين محترم يدعى الحاج بقطش موئسس فرقة الدراويش البقطاشية وذلك بان وضع كم ثوبه الابيض على روؤس كبار قوادها ووعدهم باسمه تعالى بالفلاح والتوفيق . واطلق عليهم اسم " ينني جرى" اى الجيش الجديد . ولهذا السبب فان جنود الانكشارية اعترفوا بقدسية هذا الشيخ واحتفظوا بلقب " البقطاشيين " . وانضم الدراويش اتباع الفرقة البقطاشية بدورهم الى جيش الانكشارية ودخلوا في " الاورطة " التاسعة والتسعين . وظلت الدولة طويلا لاتقبل في هذا الجيش سوى

الشبان المسيحيين الذين تنتقيهم السلطة من البلاد المسيحية الخاضعة لها ولم يحصل لهذا الجيش نظام ثابت الا في زمن محمد الثاني ثم بعد ذلك اجرى السلطان سليمان تعديلات في قوانينه .

وتتالف العساكر الانكشارية من اربع فرق تدعى : الجملات وبولك وسغبان وعجمي اوغلان (١) . وتتالف كل واحدة منها من عدد الاورطات وتشكل جميعها مئة وتسعا وعشرين "اورطة" يبقى منها سبع وسبعون في العاصمة ويوزع الباقي على الولايات .

كانت فرقة " الجملات " تعد مئة ارطة وارطة وذلك قبل ان يزيل مراد الرابع الارطة الخامسة والستين عام ١٦٢٣ بسبب الاعتداء الذى قام به احد افرادها على السلطان عثمان الثاني عندما تمردت العساكرعليه . اعلن السلطان مراد على اثر ذلك حرمان هذه الارطة وحول ثكنتها الى اسطبل وكانت اللعنات تتجدد عليها كل خمسة عشر يوما عندما توزع الشموع على بقية الارطات .التي يبقى منها في العاصمة احدى عشرة يلتحق اربع منها بحرس السلطان . ويتميز رجالها عن غيرهم بزيهم الخاص وباسمهم اذ يطلق عليهم لقب " سولاك " اما بقية الارطات فانها ترابط على الحدود .

تتالف فرقة " البولك "من احدى وستين ارطة يوزع ثلاثون منها على الولايات ويظل الباقي في العاصمة .

وتعد فرقة السيمان اربعا وثلاثين ارطة لايقيم في العاصمة منها سوى الارطة الثالثةوالثلاثين وتتالف فرقة العجمي اوغلان "ايضا من اربع وثلاثين ارطة تبقى دائما في العاصمة حتى في ايام الحرب . وفي هذه الارطات التي تعد من اقدم ارطات الجيش يقوم المجندون المبتدئون بتمارينهم العسكرية الاولى قبل ان يلتحقوا ببقية الفرق .

ان كبار قواد الانكشارية هم :

١)اغا الانكشارية وهو رئيس كل الجيش . وكان يعطى هذاالمنصب في الاصل وتقريبا دائما للسيمان باشي الرئيس الثاني للانكشارية ولكن سليم الاول امر بانه يجب الا ينتخب رئيس الفرقة من بين القواد الانكشارية وسبب ذلك ان كثيرين من الاغاوات اساؤا استعمال نفوذهم الذى يكتسبونه بفضل ترقيهم المتتابع ومرورهم بجميع مراكز الفرقة . عندها اصبح هذاالمنصب العام يمنح اما لرئيس فرقة السباه والسلحدار او لاحد كبار موظفي البلاط او لاحد وزراء الدولة . انما شعرت الدولة بعد

---

(١) فالاسمان الاولان يدلان على نفس المعنى الاول باللغة العربية والثاني بالتركية اما سغبان وتلفظ خطأ سيمان فمعناها خادم الكلاب وعجمي اوغلان المبتدئون .

زمن قليل صار تعيين رئيس جنود الانكشارية على من بين الموظفين المدنيين لايقدر على ردعهم . ولقد زادت الفوضى الى درجة اجبرت السلطان مراد الثالث ان يعيد النظام القديم وذلك عام ١٥٨٢ . ومنذ ذلك الحين اصبح السيمان باشي "او القول كهخية " يخلف الاغا في الرياسة واصبح يمكن بمقتضى ذلك اعتبار الاغا الاغا قائدا لانكشارية وهو بنفس الوقت حاكم الاستانة والنائب الاول للصدر الاعظم .

٢) السيمان باشي رئيس فرقة السيمان . هو نائب الاغا ويخلفه ايام الحرب في حكم الاستانة .

٣) القول كهخية " او وكيل الفرقة . مسؤول عن كل ما يتعلق بشؤونها المالية وحفظ الامن وحفظ انظمتها . ولكونه رئيسا للارطة الاولى من فرقة البلك التي يسجل السلاطين اسماءهم فيها فانه يعين ولكن شكلا فقط لحراسة الامراء العثمانيين المسجونين في السراى .

٤) الزغرجي باشي " رئيس الارطة الرابعة والستين من فرقة الجماعات " .

٥) الصمصنجي باشي " رئيس الارطة الواحدة والسبعين من فرقة الجماعات

٦) الطورنه جي باشي " رئيس الارطة الثالثة والسبعين من فرقة الجماعات. (١)

ان هولاء القواد الذين يسمون اغاوات الوجاقات يؤلفون اعضاء الديوان او مجلس الشورى العسكرى الذى ينعقد في قصر رئيس الفرقة . ولمن يريد ان يؤهل لرتبة " قول كيخية " عليه ان يكون قدمر بالرتب الاخيرة الثلاث . ولا يحق للمعزولين من هولاء القواد ان يقيموا في الاستانة فهم اما ان ينفوا الى احدى الجزر او يعينوا حكاما بلقب " سرحادلغا " لاحدى الاماكن المحصنة الواقعة على الحدود .

٧) القواد الذين يدعون ؟ سرحاد لغا " يراسون الحاميات الانكشارية المرابطة في اهم الحصون وهم لايتوصلون الى هذا المركز الابعد ان يحصلوا على رتبة " طورنه جي باشي " وعددهم الان اثنان وثلاثون متساوون في الرتبة عدا "سرحاد اغا" مدينة " فيدين " الذي يتقدم عليهم . وسبب ذلك انه بعد افتتاح هذه المدينة في زمن بايزيد الاول وضع "الطورنجي باشي " مع اورطته لحراسة هذه المدينة وهي الارطة الثامنة والستون من فرقة "الجمعات " واتخذ طير الكركي شعارا له . ومنذ ذلك الوقت لم تنقل هذه الارطة من مركزها وظل رئيسها يتمتع بلقب " طورنجي باشي " وهو متقدم على " طورنه جي باشي " العاصمة اذ يعتبر اقدم منه . واذا دعي " سرحادلغا "الى الاستانة فانه يرجع ويدخل فرقة الانكشارية ويحمل نفس الرتبة التي كانت له قبل ان يغضب عليه .

---

(١) - يراد بالزغرجي باشي رئيس الكلاب السلوقية . ويراد بالصمصنجي باشي رئيس الكلاب الدرواسية (dogues) . اما الطورنه جي باشي فمعناها رئيس طيور الكراكي . وهولاء الرؤساء العسكريون هم بنفس الوقت من موظفي دائرة صيد السلطان كما تشير اسماؤهم الى ذلك .

٨) استنبول اغا " قائد فرقة " العجمي اوغلان " والرئيس الخاص للارطة الرابعة والثلاثين لهذه الفرقة . وله نائبان اغا الروم ايلي واغا الانضول رئيسا فرقتي الروم ايلي والانضول المؤلفة كل منهما من سبع عشرة ارطة . وكان لايقبل سابقا في الفرقة الاولى سوى المجندين من الولايات الاوروبية . وفي الثانية المجندين من الولايات الاسيوية . ان حامل رتبة " استنبول اغا " يظل عليها مدى الحياة ومن النادر ان يتوصل منها الى المناصب الاولية . الان رتبته متساوية ورتبة " القول كهخية " .

٩) ـ السلاك باشيه الاربعة ورؤساء اربع ارطات " السلاك التي تؤلف قسما من الحرس الهمايوني ولهم رتبة الزغرجي باشي . وعندما يظهر السلطان امام الناس يرتدون لباسا مصنوعا من القطيفة الخضراء مبطن بفراء من جلد الفهد . ومنصبهم دائمي مدى الحياة وخلفهم اقدم نوابهم الذين يدعون " ركاب سولغي " وعددهم ثمانية . اثنان لكل ارطة وهي تتالف من مئة انكشاري ينتقون من كل الجيش من بين الذين يمتازون بحسن الهيئة والبسالة .

١٠) "امام الاوجاك " او القائم بشؤون الجيش الدينية وهو رئيس الارطة الرابعة والتسعين من فرقة "الجماعات . وعندما ترقى رتبته يخلع العمامة ويترك لخلفه القيام بالاعمال الدينية .

١١) " بيت الملجي " رئيس الارطة الواحدة بعد المئة من فرقة "الجماعات " . هو وكيل مال الجيش(١) هو الذي يجمع متروكات من مات من الانكشارية الذين ليس لهم وريث شرعي ويترتب عليه ان يمر برتبة " اوجاك امام " لكي يتوصل الى رتبة " طورنه جي باشي " .

١٢) "الباش شاويش " رئيس الارطة الخامسة من فرقة "البلاك " هو حاكم الجيش الاكبر . وله تحت امرته ليتمكن بالقيام باعباء هذا المنصب ثلاث مئة شاويش تقريبا .

١٣) "المحظر اغا " رئيس الارطة الثامنة والعشرين من فرقة "البلاك " يقوم بحراسة قصر الصدر الاعظم ولهذا السبب فانه يسكن نفس القصر معه . ويراقب السجن الكائن في داخل هذا القصر . و هو عدا ذلك يمثل فرقته امام الدولة .

ان رئيسي الارطتين الاخيرتين اي الباش شاوش والمحظر اغا متساويين في الرتبة .

١٤ "الكهخية يري " رئيس الارطة الثانية والثلاثين من فرقة "البلاك يقوم بحراسة الاغا اثناء الحرب .

---

(١) يساعده مدير مالية الجيش يحمل لقب " اوجاك بازرغياني " ويكون دائما من اهل الذمة . وظلت عائلة " ظنانا " الاسرائيلية تحتل هذا المنصب الكثير الربح منذ امد طويل .

واذا موض هذا الاخير ولم يتمكن من المجيء الى السراى يوم انعقاد الديوان فان الكهخية هو الذى ينوب عنه فيه .

١٥) "التعليم خانه جي " رئيس الارطة الرابعة والخمسين من فرقة "البلك " ومدير الانكشارية في التمارين العسكرية .

١٦) " الجرداق شوربه جى " رئيس الارطة السادسة والخمسين من فرقة "البلك " . ومركزه كائن في حي الجرداق حيث تقيم اهم فرقة من فرق حرس الاستانة . ومن اعماله ان يرافق قاضي العاصمة في تجولاته العادية داخل المدينة لفحص اسعار المأكولات والتثبت من صحة المكاييل والاوزان .

١٧) "العسس باشي " يراس احكام الاعدام وهو ومدير السجن الكائن في وسط المدينة تقريبا . وهو يؤخذ من بين رؤوساء ارطات البلكات المرابطة في العاصمة .

١٨) " الاوجي باشي " رئيس الارطة الثالثة والثلاثين لفرقة السيمان . وتقيم هذه الارطة في العاصمة في فصل الشتاء اما في فصل الصيف فان مركزها يكون في سطرنجة على شاطئ البحر الاسود ويحمل رؤوساء بقية الارطات لقب " شوربه جي " فقط ومعنى هذه الكلمة هو (صانع الشوربة) ويكون ارفعهم منزلة اقدمهم خدمة .

ويحكم كل ارطة الضباط ونائبو الضباط وهم :

١) "الاوضة باشي " اوالرئيس الثاني للارطة .

٢) "وكيل الخرج " يقوم بشؤون الغرقة المالية .

٣) "البيرقدار " اى حامل العلم

٤) "الباش اسكي " رئيس القديمين في الفرقة

٥) " الاسطه "او العشي

٦) "الباش قره قلقجي " اى ريس خدم المطابخ

٧) "السقى " ٨ - القره قلقجي

ولا يزاد عدد هولاء الضباط ونائبي الضباط ابدا حتى ولا في ايام الحرب عندما تكتمل الارطة ويصل عدد افرادها الى الخمس مئة . وهذه احدى العلل الموجودة في تنظيم هذا الجيش وتنظيم غيره من عساكر الجيش المنظمة . والارطتان الاولى والخامسة من ارطات فرقة " البلك "

هما الوحيدتان اللتان يضاف اليهما نائب ضابط يدعى " زمبلجي " وتاتي رتبته راسا فوق رتبة السقى .

ويمكن لاى جندى الوصول لرتبة نائب ضابط اذا خدم طويلا او اتى باعمال مشرفة . ويكون الترقي من رتبة "اومباشي " حتى رتبة " اوضه باشي " حسب الاقدمية . اما لاقاعدة هنالك تسير عليها الدولة في ترقية " الاوضه باشي " الى رتبة " شوربه جي " . ولايمكن للجندى الانكشارى ان يترقى الا في ارطته التي لايخرج منها الا ليتسلم رئاسة ارطة غيرها .

تبقى الارطات بصورة مستمرة في الاماكن المحصنة التي عينت لها . ولا تنتقل من مراكزها في اوقات السلم الا اذا حصلت بغضاء بين فرقتين منها يخاف من عاقبتها . وترابط اثنتا عشرة منها في بلغراد واربع عشرة في خطين وست عشرة في قيدين وعشرون في بغداد الخ ...

يتغير روساء الارطات كثيرا . فالشوربجي المعين حديثا تعطى له في بادىء الامر قيادة احدى الارطات المرابطة على الحدود ثم ينقل الى غيرها ثم يتكرر ذلك بصورة تجعله يقيم بتتابع في ولايات مختلفة . ويراس الشوربجية بلا تمييز ارطات الفرق الثلاث البلك والسيمان والجماعات الا انه يحق للشوربجية القائمين في الاستانة والذين بداوءا خدمتهم العسكرية في احدى ارطات فرقة الجمعات الايسموا بفرقتي السيمان والبلك .

ويتالف جيش الانكشارية عدا الارطات التابعة للاربع فرق من عشر ارطات ملحقة به ولكل منها مهمة خاصة .

١) اليازجيون " اى الكتاب والعمال . ويربوعددهم على المئة يقومون بمختلف اعمال جيش الانكشارية . يسمى رئيسهم نائب الانكشارية " يني جرى كاتبي " كان يوءخذ فيما مضى من بين روءساء الارطات . ولكونه يتمتع بنفوذ عظيم على العساكر خصوصا اذا كان اغا الانكشارية طماعا واتفق هو معه . فان محمد الثاني ابعد عن هذا المنصب كل رجل عسكرى ومن ذلك الوقت اصبح يحتل هذا المركز اشخاص من جماعة " الخوجة " ويعين هذا النائب لمدة سنة ويمكن ان يجدد تعيينه . وتحتل مكاتبه قصرا خاصا تحرسه أرطة من الانكشارية .

٢) كتاب الارطات وعددهم ستون . يحتفظون بسجلات لعمال ودفاتر واوراق الدعاوى الخاصة بالانكشارية . ويتمتع رئيسهم الباش يازجي برتبة شوربجي .

٣) " الكيارخادات " يطلق هذا الاسم على اربع وثلاثين جمعية صغيرة لمختلف المهن تتالف الواحدة منها من خمسة وعشرين او ثلاثين انكشاريا من العمل يشتغلون لجنود فرقتهم فقط في ايام السلم وفي ايام الحرب . ويكون رئيس كل منها نائب ضابط يدعى رئيس العمال او " اوسطه "

٤) الطلمبجية " وهي ارطة مؤلفة من ثلاث مئة من الاطفائيين يؤخذون من مختلف الارطات ولايكون عملهم ضروريا جدا الافي المدن التي تكثر فيها الحرائق . ويلبسون على رؤوسهم عندما يشتغلون في اطفائها خوذا نحاسية . وتكون خوذة رئيسهم "الطلمبجي باشي " من الفضة .

اما رتبته فهي رتبة رئيس ارطة . ولقد انشاها سنة ١٧٢٠ في زمن احمد الثالث احد الافرنسيين المرتدين وكان في خدمة الباب العالي . ولبقية الجيوش وللبحرية جنود من الاطفائيين ايضا .

٥) الشواش وعددهم ثلاث مئة وثلاثون تقريبا وهم من نائبي الضباط ينتقون من بين اقدم الانكشارية يقومون في اوقات الحرب بتسليم اوامر قائد الجيش لرؤوساء الفرق . وفي اوقات السلم يحمل اوامر الدولة للعساكر المرابطة في الولايات . اما في العاصمة فانهم يقومون بانزال العقوبات الجسمانية الصادرة على ضباط الانكشارية . ويدعون قول شاوش " اى شواش الجيش ليميزوا عن شواش السراى وامارة البحر وحكام الولايات الخ .... ورئيسهم الباش شاويش هو ايضا رئيس الارطة الخامسة لفرقة "البلك "

٦) " المومجية "هم ثمانون نائب ضابط البعض منهم ملحق بقصر الاغا والبعض الاخر بارطات المحظر اغا والكهخية يرى والعسس باشي . فهم يراسون ويشتركون احيانا بانفسهم في انزال العقوبات التي يصدرها موظفو الامن هولاء . ويحمل رئيسهم لقب Mehter Baschi

٧) القبوكهخية " هو بلك مؤلف من ستين انكشاريا يحمل رئيسهم لقب " باش قبوكهخية "وهم ملتحقون بارطة المحظر اغا التي تؤلف فرقة حرس الصدر الاعظم يقومون باجراء احكام السجن التي تصدر عن المحكمة التي يعقدها الوزير . وبما ان العقاب العادى هو ضرب الفلقة فان خمسة منهم يدعون الفلقجية يخصصون لانزال هذا العقاب . وهم يتبعون الصدر الاعظم عندما يخرج في موكبه وبايديهم الة العقاب هذه .

٨) " الحريجية " عددهم ستون يقومون بعمل سابقيهم نفسه اى في انزال العقوبات . اما في

ايام الحرب فان اربعين منهم يظلون قرب خيمة الصدر الاعظم والعشرون الاخرون قرب خيمة اغا الانكشارية وهم يرتدون جلد النمر ويحملون الحراب الطويلة بايديهم . ولهذا اطلق عليه اسم حربجية .

٩) " الشاديون " هم رجال بلك موءلف من ستين انكشاريا يعملون بصورة خاصة في نقل الحطب اللازم لمطابخ السراى والقصور التي تسكنها السلطانات المتزوجات .

١٠) " الهوكشدان " وهم من الدراويش البقطاشية . ان رجال هذه الفرقة تجندوا منذ سنة ١٥٩١ في الارطة التاسعة والتسعين من فرقة الجماعات . كثيرون منهم يسكنون ويعيشون في الثكنات الجديدة وينحصر عملهم في الصلاة صباحا ومساء داعين ان يعز الله السلطان ويوفق جيوشها . ويسير في الاحتفالات الرسمية ثمانية من هولاء الدراويش امام جواد اغا الانكشارية ويكونون مرتدين لباسا من الجوخ الاخضر وواضعين قبضات ايديهم على صدورهم . ويردد اقدمهم بصوت عال وبدون انقطاع : " كريم الله " فيجيبه الباقون " هو " ولهذا اطلق عليهم اسم " هوكشدان " .

ويتالف جيش الانكشارية عدا ذلك من " البستجيه " اى رجال الحرس يقيم قسم منهم في الاستانة والقسم الاخر في ادرنه يحرسون القصور ودور متنزهات السلطان وكانوا فيما مضى يتبعونه لما يخرج الى الحرب وبلغ عددهم سبعة او ثمانية الاف .

وكان لايقبل بادىء الامر في جيش الانكشارية سوى الشبان الذين ولدوا من ابوين مسيحيين ويوءخذون من مختلف الولايات بدون تمييز بينها . ثم اصبح يفضل الذين هم من البانيا والبوسنه وبلغاريا . وكانت لاتحتاج الدولة الانادرا لاستعمال الشدة . اذ كان الاباء والامهات يتوسلون كما لو انهم يطلبون جميلا ان تقبل الدولة اولادهم في جيش الانكشارية . ويحصل هذا التجنيد مرة كل ثلاث او اربع سنين .

ويقوم المجندون الجدد بتمارينهم العسكرية في ارطات فرقة " العجمي اوغلان " . وكانوا يلقنون ايضا تعاليم الديانة الاسلامية على ايدى خوجوات يعينون خصيصا من اجل ذلك . ثم عينت بعد ذلك الدولة خوجوات لبقية فرق الانكشارية بحيث اصبح لكل ارطة معلمها يعلم مبادىء القراءة والكتابة للجنود الذين يطلبون ذلك . ولاتجبر الدولة هولاء الجنود الشبان المسيحيين ان يغيروا دينهم

اذ ان ذلك ينافي مبادئها كما ينافي احكام القران . واذا دفع التعصب الديني بعض الضباط للتضييق عليهم فان الدولة تتساهل معهم . غير ان هذا العمل لايسمح به رؤساء الجيش قط .

ومن هذه المدرسة العسكرية ينتقل جنود " العجمي اوغلان " الى بقية الفرق الثلاث بلا تمييز بينها . الا ان هذا لايحصل الامرة واحدة كل سبع سنين . ثم بعد ذلك اهمل رويدا رويدا تجنيد الشبان المسيحيين واعطي الفضل لاولاد العساكر الانكشارية ثم اصبح يقبل الشبان من اقربائهم حتى البعيدين عنهم . ولكن مامن واحد من هولاء يقبل في الفرقة الا اذا شهد على طلبه الذي ذكر فيه انتسابه العائلي خمسة او ستة من رجال الارطة التي خدم فيها الجندي الانكشاري المتوفي والذي يقول صاحب الطلب بانه من اقربائه . يتخذ المجندون من ابناء او اقرباء العساكر الانكشارية لقب " قول اوغلو " ابناء العبيد اي ابناء الجنود اذ ان لقب "قول " عبد يطلق بصورة عامة كما ذكرنا على كل خدم السلطان ويطلق بصورة خاصة على الرجال العسكريين منهم .

ان هذه الانظمة ظل يعمل بها مدة ثلاثة قرون تقريبا . الا ان مناسبات خطيرة ادت الى مخالفتها في زمن مراد الثالث . فان قلاقل في داخل الدولة وفي خارجها وحروبا غيرموفقة اجبرت الجنرال عثمان باشا كما اجبرت من بعده الصدر الاعظم سنان باشا على قبول رجال ينتمون الى جميع طبقات الشعب ومن كل سكان الدولة على اختلاف جنسياتهم . وقد وصل الحال الى تجنيد المتمردين والاشقياء . وفي وقتنا هذا لايزال يقبل في الفرقة رجال من جميع الاجناس والطبقات بالرغم من الممانعات الشديدة التي ابداها كثير من السلاطين وخصوصا السلطان احمد الثالث عام ١٧٢٧ . ولا يستثنى من ذلك غير العبيد السود لان اعتقادات خرافية قديمة تمنع رؤساء الجيش من تجنيد هولاء لهذا فانه من النادر ان ترى احدا منهم من بين الجنود ولا تجد احدا منهم قط من بين الضباط .

ان طريقة قبول الجنود الان هي كما يلي : يدخلون بعد صلاة العشاء الى ثكنة الارطة التي سينتمون اليها . وبعد ان يجتمع كل رجال الارطة يتقدم نائبو الضباط منهم ويضعون على رؤوسهم عمامة الانكشارية وعلى اكتافهم رداء من الجوخ الخشن . ثم يذهبون وهم بهذا اللباس ليقبلوا يد " الاوضه باشي " الذي يحييهم باسم "يولدش " اي رفيق . وبنفس الوقت ينفذ عقاب المذنبين من رجال الارطة ويكون ذلك اشولة للجنود الجدد .

اما في اوقات الحرب فان القبول يجري في المعسكر وبطريقة مختلفة . وهي انهم بعد ان

يلبسوا على رؤوسهم طرابيش صغيرة حمراء يسيرون الواحد بعد الاخر امام اغا الانكشارية الذى يكون جالسا في خيمته يحيط به كبار ضباطه . ولما يتقدم الواحد منهم يسجل " الباش شاوش " اسمه في اللائحة ثم يقبض بيده اليسرى على طرف اذنه ثم يضربه ضربة شديدة بيده اليمنى على قفا رقبته ويامره ان يلتحق بالاربعة اغوانيه ناصحا اياه ان يقوم بواجبات مركزه الجديد . وتعتبر طريقة القبول هذه اشرف من الاولى اذ يلاحظ فيها نوع من التالف .

كان عدد عساكر الانكشارية يتغير وذلك منذ حكم اورخان حتى حكم محمد الثاني الذى حدده باثني عشر الف مقاتل يسمون " قلج " اى سيف . وقد اوصل السلطان سليمان الاول العدد الى اربعين الفا والسلطان مراد الثالث الى ستين الفا . اما في ايام حكم ابنه محمد الثالث البائسة فان لوائح سنة ١٥٩٨ تشير على وجود (١٠١٦٠٠) انكشارى في الخدمة يتناولون المرتبات . وقد زاد عددهم ايضا في زمن احمد الاول وعثمان الثاني وابراهيم الاول . وقد ارتفع الى اكثر من مئتي الف في اول سني حكم محمد الرابع . ولكن عددهم قل شيئا فشيئا في بقية ايام هذا السلطان اذ حدد الصدر الاعظم احمد باشا عددهم بخمسة وخمسين الفا ولكن بعد ثلاث سنين اى سنة ١٦٥٥ قام الجنود المرفوضون بضجة تهديدية اجبرت القره مراد باشا رفع العدد الى ثمانين الفا . واتبع السلاطين وخصوصا مصطفى الثالث خطة ترك هذه الفرقة المخيفة تضعف شيئا فشيئا مع الزمن وان يعتاض عن رجالها بعدد اكبر من عساكر الولايات ومن الجيوش الغير النظمة التي لا تعطى مرتبات الا وقت الحرب . الا ان هذه العملية التي كان يراد منها تهدئة الحالة الداخلية والتوفير على خزينة الدولة كانت نتيجتها سيئة على السلطنة يشهد على ذلك حوادث الحربين الاخيرين ضد روسيا .

ويختلف على الدوام عدد رجال كل ارطة ويجب على الارطات التي رؤوساؤها من رتبة شوربجي فقط والتي ترابط في الاستانة ان تكون كل واحدة مؤلفة من مئة رجل وذلك تبعا للقوانين . اما الارطات المرابطة في الولايات فيجب ان يكون عدد جنودها بين مئتين وثلاث مئة تبعا لاهمية الموقع الذى يرابطون فيه . ويزاد عددهم وقت الحرب الى خمس مئة .

وانه لمن المحال وضع تعيين مضبوط بعدد الجنود الانكشارية الذين هم في الخدمة . فالاغا نفسه يجهل عددهم وذلك راجع لعدم صحة اللوائح المقدمة من قبل رؤوساء الارطات عند تناولهم مرتبات جنودهم . الا ان حالة الموقف العام تدل على ان عددهم هو (١٢٠٠٠٠)

تقريبا منهم (٢٠٠٠٠) في الاستانة انما في الحقيقة يكون عددهم اقل من ثلاثة الاف . ولكن يجب ان نلاحظ بانه كان هناك ثلاث طبقات من الانكشارية وهي : ١) ـ الجنود الملقبون " بالاكنجي " وهم الذين في الخدمة ٢) ـ الاشخاص المسجلة اسماؤهم في لائحات هذه الفرقة ويكونوا زائدين لامحل لهم فيها . وهم لايقومون بالخدمة ولا يتناولون مرتبات انما يشتغلون باحدى المهن منتظرين الالتحاق بالفرقة عندما تشغر المراكز في الارطات . ويظن بان عددهم يتجاوز المئة وخمسين الفا . ٣) ـ عدد كبير من العثمانيين من مختلف المراتب يحملون شرف الانتساب لهذه الفرقة الاولى من فرق الجيش لذلك فانهم يتخذون اسم الانكشارية ويلبسون عمامة الفرقة . ويدعون " التسلقجية " اى المريدين .

ويجب على الشخص ان يخدم ثلاث سنين ليحق له اخذ راتب . كان الانكشارى في بادئ الامر يتناول بارة الفرد كل يوم ولكنه اذا امتاز ببسالته يضاف الى ماهيته كل حملة بارتان او ثلاث بارات . وظل هذا القانون معمولا به حتى زمن سليمان الاول الذى وضع ثلاثة انواع من المرتبات . النوع الاول من ثلاث الى سبع بارات في اليوم للجنود العاملين في الخدمة . والثاني من ثمان الى تسع وعشرين بارة للجنود القدماء الذين برهنوا على شجاعتهم في المعارك التي تشهد بها اثار جروحهم المشرفة . ويطلق اسم " كوردجي " على الذين يقيمون منهم في الثكنات التي في العاصمة . والنوع الثالث من ثلاثين الى مئة وعشرين بارة يعطى للضباط والجنود الذين اصبحوا عجزا بسبب جروحاتهم او تقدمهم في السن .

ان هذا النظام لايشمل فرقة " العجمي اوغلان " اذ بما انها تقيم دائما في العاصمة فان مرتبات الضباط والجنود لاتتغير الا بين بارتين وتسع وثلاثين بارة ونصف في اليوم ويكون ذلك حسب رتبة الشخص ومدة خدمته .

اما مرتبات الرؤساء الستة وكاتب الانكشارية (وهو رئيس مكتب السجلات الذى تحوى لائحات باسماء العساكر) فتكون كما يلي : "٢٤٠٠٠" قرشا للاغا . و(٨٠٠٠) قرش لكل من السيمان باشي والقول كهخية والكاتب و(٤٠٠٠) للزغرجي باشي . و(٢٠٠٠) للصمصجي باشي . ومثلهما للطورنه جي باشي وهما يتناولان مرتباتهما في الاوقات التي تصرف فيها مرتبات الجنود . وعلاوة على ذلك فانه يمنح لكل واحد من الثلاثة ضباط الاخيرين منذ عام ١٧٧٣ (٦٠٠٠) قرش في السنة . وتسمى هذه الهبة " مصاريف المائدة " . اما المرتبات العادية لرؤساء

الارطات فتكون مئة وعشرين بارة في اليوم اى ما يعادل اكبر راتب يتناوله الجندى العادى .

ان اغا الانكشارية هو الذى يوزع بموافقة الصدر الاعظم الرتب على رجال فرقته . وهو يتناول من اجل ذلك جائزة اوضريبة في كل مرة ترقى رتبة احد الضباط اوعندما يثبت في مركزه الذى يعين فيه لمدة سنة . ويكون مورده سنويا من هذه الضريبة (٢٠٠٠٠٠) قرش تقريبا . يتخلى عن ثلثها للقول كخية نائبه الاول . ويستفيد الاغا ايضا كما يستفيد رؤساء الارطات من راتب الجندى وذلك انه اذا كان هذا يتناول بارة في اليوم يصبح المبلغ في نهاية كل اربعة اشهر اى وقت الدفع ثمان وثمانين بارة ونصف فيؤخذ من اصل هذا المبلغ ثلاث بارات ونصف للاغا واثنتان لرئيس الارطة واثنتان ونصف لمختلف الموظفين . فيذهب اثنا عشر بالمئة من اصل المبلغ وعلاوة على ذلك فاذا غاب احد رجال الفرقة يوم الدفع مهما كان عذره فان " الاوضةباشي " ياخذ عشرين بارة يعطي قسما منها للاغا الذى يتنازل عن بعض هذا القسم لمكتب الانكشارية .

ويرث اغا الانكشارية ورؤساء الارطات الضباط والجنود المتوفين . اذ يجمع مخلفاتهم " بيت الملجي " وهو رئيس الارطة الواحدة بعد المئة من فرق الجماعات والذى يساعده في عمله هذا وكيل ومفتش وموظف من موظفي العدل يعينه قاضي عسكر الروملي . فيضعون الاختام على متروكات الانكشارى المتوفي . فاذا كان له ورثاء شرعيون يؤخذ عشر قيمة متروكاته الذى يفرق على الاغا و " بيت الملجي " ورئيس الارطة . اما اذا لم يكن له ورثاء فان كل مخلفاته تذهب للاغا الذى يعطي عشرها للرئيسين الاخرين هذا اذا لم يكن المبلغ يزيد عن العشرة الاف عرش اذ يكون في هذه الحالة من حق الدولة . ويدفع الاغا لخزينة الدولة من اجل هذا الحق الذى له على متروكات رجاله عشرين الف قرش في السنة . وهناك اربع ارطات و وهي تلك التي يرأسها القول كخية والزغرجي باشي والصمصنجي باشي والباش شاوش . يتمتع رجالها بميزة الاشتراك مع رؤسائهم في اقتسام متروكات من يموت من رفاقهم . ويتمتع بمثل هذا الحق الذى للاغا في متروكات الانكشارية الموجودين في الاستانة ، الشوربجية وحكام السناجق " السردارية " في متروكات الانكشارية المرابطين في الولايات . انما هناك فرق وهو انهم يتركون للاغا كل ارث تبلغ قيمته اكثر من ثلاثة اكياس اى الف وخمسمئة قرش . ومن السهل الاعتقاد بان مثل هذه التدابير تسبب سرقات عديدة .

ان رئيس رجال البستنجي ورؤساء بقية فرق المشاة الثلاث يرثون ايضا من جنودهم . ولكن فقط عندما يكون الارث اقل من الف قرش . ويكون من حصة خزينة الدولة اذا تعدى هذا

المبلغ . اما في فرقتي الفرسان فان للدولة وحدها حق الوراثة .

الا ان اهم ربح يتناوله الضباط هو في قبض مرتبات الجنود الوهميين الذين يدعون انهم في ارطاتهم . ومن المفروض دائما ان الارطات المرابطة في العاصمة هي كاملة العدد . فيجب والحالة هذه ان تكون ارطة القول كخية مؤلفة من خمسماية رجل . وارطة ابزغرجي باشي من ثلاث مئة . وارطة الصمصنجي باشي من مئتين . وارطة الطورنه جي باشي من مئة وخمسين . ويجب ايضا ان تكون ارطات بقية الضباط من اصحاب الرتب العالية مؤلفة منها من مئة وخمسين رجلا . وان تكون ارطات "الشوربجية" العاديين مؤلفة من مئة . ولكن في الغالب يوجد اقل من نصف هذا العدد . ان هذه الحالة الرديئة موجودة ايضا في المواقع التي على الحدود حيث يجب على الارطات ان تكون مؤلفة من مائتين او ثلاث مئة رجل .

فيكون اذا عدد بطاقات الدفع (الاوراق "الممهورة" التي تدفع بموجبها مرتبات الجنود" اكثر بكثير من عدد الجنود الذين في الخدمة . وتباع هذه البطاقات التي تختلف قيمة المبالغ المدونة عليها على الاساس الاتي ، مابين الاثني عشر قرشا والعشرين للبارة الواحدة . ويضايق كبار رجال الدولة الضباط كثيرا ليحصلوا على مثل هذه البطاقات لخدامهم وتابعيهم فيؤمنوا لهم بذلك مرتبات معينة . فيتناول بهذه الواسطة عدد كبير من الاشخاص من مختلف الطبقات والمراكز اموالا من مرتبات عساكر الانكشارية والمدفعية الخ ... بينما هناك بالعكس عدد كبير من الجنود يخدمون بلا اجر . وتزداد في كل حرب عدد هذه البطاقات التي تمنح للجيش وهي لاتنقص في حال وفاة الجنود اذ يكتم بحذر وفاة احد العساكر سواء كان في الخدمة او قديما متقاعدا اوعاجزا كما تكتم وفاة الناس الذين يقتنون مثل هذه البطاقات . ففي الحالة الاولى يستفيد الضباط من راتب الجندي المتوفي . ويستفيد في الحالة الثانية اهل الشخص اذ يتابعون قبض راتبه . وقد ظنت الدولة انها ستتدارك حصول هذه الفوضى بوضعها جائزة لكل من يخبر بحادثة وفاة من هذا النوع . فقد منحت عشر قيمة البطاقة لاول من يخبر بوفاة صاحبها ثم عشر ثان لمكتب الفرقة وثالث للاغا ليفرقه حسبما يشاء على الارطات . ولم ينجح هذا التدبير كثيرا اذ كان الضباط يجدون طبعا فائدة اكثر ان احتفظوا بالبطاقات . ان مثلا واحدا يثبت الى اى درجة يمكن ان يستفيد الرؤساء من جراء هذه الفوضى . وذلك ان اغا الانكشارية جلبي محمد باشا بعد ان رقي سنة ١٧٧٨ الى منصب الصدارة وعزل منها بعد بضعة اشهر ضبطت الدولة امواله فوجدت عنده رزمات من البطاقات

تقدر قيمة واردها اليومي باثني عشر الف وسبع مئة بارة اى ما يعادل (٨٣٠٦٣٠) قرشا في السنة كما ووجد لدى وكيل خزينته بطاقات يبلغ واردها اليومي تسعة الاف بارة.

وقد حاول عبثا السلطانان احمد الثالث ومحمود الاول وضع حد لهذه الفوضى . وكان مصطفى الثالث اكثر حرصا على المال منهما الا انه ايضا لم يستفد شيئا . ولكنه صمم سنة ١٧٦٨ بعد ان وجد ممانعة شديدة من ناحية وزرائه ضد مشاريع اصلاحاته في هذه الناحية، صمم ان يفاتح اغا الانكشارية بهذا الموضوع اذ كان يعتقد بان ضباط فرقته هم وحدهم يهتمون بوجود هذه الفوضى . واظهر له سخطه وقال له بانه يعتمد على مساعدته في اصلاح الحال . فاجابه الاغا بصراحة بانه يتالم اكثر من اى شخص اخر من جراء هذه الحالة السيئة والقديمة العهد وانه ياخذ على عاتقه وضع حد لها في الفرقة التي يراسها وانه يكتفي بنصف ما تعطيه له الدولة لدفع مرتبات جنوده . وقال بانه يتكلم فقط عن الانكشارية وليس عن غيرهم . فساله السلطان بدهشة ما الذي يعنيه بقوله هذا . فتابع الاغا حديثه وقال : " انك اذاً تجهل يامولاى بان عساكر الانكشارية الموجودة في العاصمة لاتتداول فعلا سوى نصف المبلغ المعين لها وان الباقي يتناوله رجال هيئة العلماء ووزراء الدولة وموظفو البلاط . ان امرا تصدره او كلمة من جلالتك تكفي لقطع دابر هذا السلب . الا ان هذه الكلمة يجب ان تلفظ بحزم وتحقق بشجاعة ." الا ان مصطفى الثالث الذى كان صاحب اراء اكثر من ان يكون صاحب حزم حول بصره عنه وغير مجرى الحديث .

ان اكبر راتب يعطى لجندى هو مئة وعشرون بارة في اليوم وهو ايضا اكبر راتب تقاعد يعطى لرجل عسكرى حتى رتبة رئيس ارطة . اما راتب تقاعد اغا الانكشارية فانه لايتعدى ابدا الثلاث مئة بارة ويحدد بمئة وخمسين لكبار الضباط الا انهم علاوة عن ذلك يتناولون اقطاعيات عسكرية تسمى "بكلك" وهناك اربعة عشرة تعطى كل واحدة منها بين الاربعة الاف والستة الاف قرش في السنة ياخذها الاغا ويفرقها عادة على الضباط المتقدمين في السن والمشهورين بخدماتهم . عندئذ يطلق على هولاء الضباط لقب "باباك" لان هذه الاقطاعات كانت معينة في الاصل لاعاشة الجنود من فرقة البابا . ان السيمان باشي هو الوحيد بين الضباط العاملين في الخدمة الذى يتمتع بمثل هذه الاقطاعات وذلك نظرا لضالة موارده .

ان للعساكر الانكشارية الموجودة في الاستانة اربع ثكنات وهي ١) اسكي اوضلر " او الارطات القديمة . ٢) "يني اوضلر" او الارطات الحديثة . تستعمل لسكنى ارطات فرقتي

"الجماعات والبلك" وللارطة الثالثة والثلاثين من فرقة "السيمان" ايضا . ٣) "عجمي اوغلان قشلة سي" اوالثكنات الشتوية لجنود "العجمي اوغلان" . ٤) "الاغا قبوسي" او قصر الاغا وهو بذات الوقت المركز العام للفرقة ومكان سكنى ارطات العمال من الانكشارية .

تقدم الدولة للانكشارية الذين هم في الخدمة بعض المواد الغذائية ، فتاخذ كل ارطة يوميا اربع اقات من لحم الغنم وعشرين رغيفا يزن الواحد خمسا وسبعين دراخما (١) ويعطى للارطة في عيد الاضحى راسا من الغنم . وتاخذ الارطة ايضا في كل شهر اقتين من الشمع . هذا كل ما يتناوله الجنود من الدولة . الا ان روءساء الارطات يجتهدون في تامين ما يلزم لرجالهم من الرز والسمن والخضرة . اما في اوقات الحرب فان الارطات التي تشترك في الحملة تتناول الواحدة منها اقتين من اللحم ونصف اقة من الخبز لكل خمسة جنود كما ياخذون العلف للجياد التي يمتطونها والتي يستعملونها للجر . اما بقية المؤن فان على روءساء الارطات تامينها . ويجرى نفس الشيء لبقية فرق المشاة الا ان فرق الفرسان لا تتناول شيئا .

ولا تقدم الدولة الملابس الا لاثني عشر الف انكشاري من المقيمين في الاستانة متبعة في ذلك ما كان قرره السلطان محمد الثاني . وبالرغم من ازدياد عدد رجال هذه الفرقة زيادة عظيمة منذ زمن هذا السلطان وبالرغم من الطلبات الشديدة التي قدمها الانكشاريون في مختلف الاوقات للحصول على عدد اكثر من الملابس فان الدولة لم تقبل ابدا ان تحيد عن القاعدة القديمة . فانها تقدم كل سنة كمية من الجوخ الخشن صنع سالونيك وبالوان مختلفة وذلك لتفصيل اثني عشر الف رداء يتالف كل رداء من سبعة اذرع . يضاف الى ذلك سبعة اذرع من النسيج الخشن ابيض اللون بياضا غير نقي لصنع العمامة وسبعة اذرع اخرى منها لصنع قميص . ولكن بما ان هذا النسيج الاخير ضيق لا يكفي لصنع ما هو مخصص له فان معظم رجال الانكشارية يعملونه منطقة بدلا من القميص . وتعطى هذه الاصناف الثلاثة لروءساء الارطات الذين يوزعونها حسب مشيئتهم على رجال الارطة . يقدمونها عادة لاقدم نائبي الضباط والجنود .

ان المال المعطى للعساكر لاعاشتهم هو طبعا غير كاف لولم يسمح للجنود الذين ليسوا في الخدمة من العمل باحدى المهن . ان رجال كل ارطة يمتهنون عادة مهنة واحدة وهكذا

---

(١) الدراخما هو وزن يوناني قديم يساوى ثلاثة غرامات وربع تقريبا (المترجم)

فان كل جنود الارطة الرابعة عشرة من فرقة "البلك" هم خبازون . وجنود الارطتين الثانية والثمانين والواحدة والتسعين من فرقة "الجماعات" هم قصابون . وتتالف بقية الفرق من عمال زجاج وعمال اسلحة ونوتية وصناع صناديق خشبية الخ ... وتعطى للارطات القابا مشتقة من هذه الاسماء . اذ يطلق على الاربع الارطات الاولى من فرقة الجماعات اسم "دوجي" اى جمالين . وسبب ذلك ان رجال هذه الارطات كانوا فيما مضى يخفرون وقت الحرب امتعة السلطان ويطلق اسم خاصكي على الارطة الرابعة عشرة من نفس الفرقة وذلك لان رجال خاصكي السراى يتجندون في هذه الارطة . واسم اوقجي " على الارطة الثامنة والعشرين المؤلفة من راميي السهام . واسم "بكجي" على الارطة التاسعة والعشرين من فرقة "البلك" لانه يخرج منها رجال الطلائع . ويطلق اسم الزغرجية والصمصنجيه الخ ... على جنود الارطات التي يراسها كبار الضباط الذين يحملون لقب زغرجي باشي وصمصنجي باشي الخ ...

في ذلك

لم تكن الملابس العسكرية زمن عثمان الاول لتختلف عن ملابس بقية الناس والسبب هو انه لم يكن هناك في ذلك الوقت سوى عساكر الولايات . وعندما انشاء اورخان فرقة الانكشارية لم يعط لرجالها اشارة يمتازون بها سوى لبس قلانس لونها ابيض وكان الناس ائنذ يلبسون قلانس من اللباد مختلفة الالوان . ولم يعم لبس العمائم الا في زمن خلفائه السلاطين وبصورة خاصة في عهد السلطان محمد الثاني . وابتدأ ضباط الانكشارية زمن مراد الاول في استعمال القلانس الحمراء المزركشة بالذهب تشبها بالامير سليمان باشا بن اورخان وهو اول من اجتاز الدردنيل لمحاربة الامبراطورية البيزنطية في اوروبا . ثم بعد ذلك اصبح للانكشارية لباسا خاصا . ولم يكن لباس نائبي الضباط والجنود يقوم على اللون انما كان يقوم على شكل الرداء الخارجي وشكل العمة والقلنسوة المخصصة للحفلات . اما لباس رؤساء الارطات فكان يختلف فقط في لون الاحذية التي كانت حمراء لرؤساء ارطات فرقة "البلك" وصفراء لغيرهم وسوداء لنواب الضباط . وكان يمتاز القواد بخوذهم المحلاة بريش طويل . اما لباس الاغا فكان مماثلا للباس رؤساء الحجاب . وكان شكل اللحية داخل ايضا في هذه الشارات التمييزية فعلى البعض ان يتركوها طويلة ولايتمكن البعض الاخر من ذلك . اما لحى الجنود فلا يحق ارخاؤها الا للمتقدمين في السن . ويجبر القواد والضباط الاربعة الاولون من كل ارطة على تركها طويلة ، ويسمح ذلك للمرؤوسين الثلاثة . اما السقى فان الامر يترك لمشيئته .

لاتقدم الدولة في اوقات السلم المعدات الحربية لرجال الجيش . ويكون النبوت السلاح الوحيد

الذى يحمله من كان يقيم منهم في العاصمة . ويمنعون بشدة كما يمنع الناس من حمل السلاح .
ويسمح لهم فقط وضع الخناجر في منطقتهم . ولايتسلح غير الجنود المرابطين على الحدود والعساكر
البحارة لما يكونوا في الموانئ . ومع ذلك فكثيرا ما يسبب هذا الاستثناء وقوع حوادث دامية كما
دلت التجارب في الاستانة في كل مرة يجهز الاسطول للابحار وانه ليس من السهل دائما على رجال
الحرس وهم بنبابيتهم ردع رجال مسلحين بالسيوف والمسدسات .

انما الامر الذى يدهش اكثر من ذلك هو في انه يجب على الجندى نفسه تامين مايلزمه
من السلاح وتترك له الحرية في اختيار النوع الذى يريده . فالبندقية والسيف والمسدسات والنبوت
والفاس هي الاسلحة العادية لجنود المشاة . ويستعمل الفرسان السيف والرمح والسهام وحرابا مختلفة
الطول ويستعملون احيانا الاسلحة النارية . ويعنى الرجال العسكريون كثيرا باسلحتهم ليس فقط من جهة
طيبه النوع بل من جهة اناقتها ايضا . فالفضة تلمع على سيوفهم وعلى مسدساتهم اما الفقراء منهم فانهم
يبذلون كل ماعندهم لارضاء هذا الميل او اقل ما يكون في الا يحمروا خجلا امام رفاقهم .
الا ان الدولة تقيم لها مستودعات في العاصمة وفي كثير من المواقع التي على الحدود تحفظ فيها
معدات حربية ويكون عمل رجال الجبهجيه قائم فقط على حراستها فينقلونها الى المعسكر حيث يفرقها
القواد (بعد ان يستعرضوا الجنود) على الذين ليس معهم اسلحة . انما يحق لعتبار كل مايخرج
من هذه المستودعات ضائعا من الدولة .

ولفرقة الانكشارية علم كبير (بيرق) دعي "الامام الاعظم" على شرف الحنفي اشهر ائمة
المسلمين . وهو مصنوع من قماش حريرى ابيض اللون كتب عليه باحرف ذهبية كبيرة ايات من القران
تتعلق بالواجب الديني في محاربة الكفار . وكتب في الوسط باحرف كبيرة . : "

" وينصرك الله نصراً مبيناً
فتح من الله ونصر مبين وبشر المؤمنين يا محمد "

وتنصب هذه الراية في المعسكر امام خيمة الاغا مع اربع رايات غيرها مطوية في قرب حمراء اللون كما تنصب ايضا اطواغ الاغا الثلاثة . ولكل ارطة علمها الخاص نصفه الاول احمر اللون والنصف الثاني اصفر ينصب امام خيمة رئيس الارطة .

وللارطات ايضا شاراتها الخاصة وتكون سلاحا ما اوحيوانا اونباتا او اى شيء اخر . يراه يراها الناظر مرسومة على الخيم والمصابيح وعلى ابواب المساكن .

ولكل ارطة قدران او ثلاثة قدور كبيرة تستعمل لطبخ الشوربة والارز . ويسهر على حراستها نائبو الضباط . وتتشدد الارطات كثيرا في الاحتفاظ بشاراتها وعلامها وقدرها وبصورة خاصة بهذه الاخيرة التي تعطيها اهمية كبيرة . ومع ذلك من الانتخاب هناك اعتقادا خرافيا يجعلها تنظر الى ضياعها كاكبر بلية تحل بها ولهذا فان ضباط الارطة التي اخذت منها قدورها وقت الحرب يعزلون من مناصبهم . وفي حال ارجاعهم الى مراكزهم السابقة فانهم لا يدخلون الارطة التي كانوا فيها . كما انه يلحق الارطة في مثل هذه الحال عارا دائميا . اذ لا يحق لها بعد ذلك ان تحمل قدورها عندما تستعرض الجيوش في الاحتفالات العامة . ان الاعتقاد الموجود عند كل افراد الجيش نحو هذه القدور عظيم لدرجة انه في الفتن التي حصلت في الاستانة بين العساكر كان الهدف الرئيسي للجنود الذين عصوا هو نزع قدور بقية الارطات منها لاستدراج رجالها الى معسكرهم حيث يتحاسبون معهم . وترسل في هذه القدور كل يوم الشوربة من الثكنات الى مختلف رجال الحرس الموجودين في الاستانة . فيعلق القدر من طرفيه بركيزة من الخشب يحملها جنديان على اكتافهم ويمشي وراءهما جندي ثالث يحمل مغرفة كبيرة . فيمشون بخطوات متزنة وبصمت عميق . ويبتعد الناس عن طريقهم وهم ينظرون باحترام الى هذه الاشياء التي يشوبها ذلك الاعتقاد الخرافي الذى يؤمن به رجال فرقة الانكشارية المخيفون .

ان الخدمة العسكرية في المدن وفي المواقع المحصنة تقوم بها وقت السلم فرق المشاة الاربع وعلى الاخص فرقة الانكشارية التي لها في الاستانة مراكز للحراسة في كل محلة وكل ضاحية . ان كثيرا من هذه المواقع العسكرية يرجع عهدها الى زمن فتح القسطنطينية فان محمد الثاني بعد ان دخل المدينة عين لحراستها رجال فرقة "العجمي اوغلان" . اما ارطات فرقتي الجملات والبلك التي يرءاسها قواد من رتبة "شوربجي" فانها تشترك مع جماعة الجبجية . في حراسة بقية الاماكن الواقعة في منتصف المدينة . اما رجال المدفعية فانهم يقومون بحراسة ضاحية غلطة .

والعساكر البحرية بحراسة مركز امارة البحر . وفرقة الحرس "البستنجية" بحراسة شواطيء البوسفور . وفي اوقات الحرب يقوم رجال فرقة "العجمي اوغلان" مقام رجال الارطات الذين يلتحقون بالجيش في حراسة الاماكن التي كانت معينة لها .

ويقوم بحراسة كل منها ولمدة سنة بكاملها العدد الاكبر من رجال الارطة المعينة لحراسة ذلك المكان حيث يجعل فيه رئيس الارطة مكان سكنه ومعه جميع ضباطه . ولايقوم الجنود في اي مكان بالحراسة . لان هذا النوع من الخدمة غير مالوف . الا ان الفرق المرابطة ترسل تجريدات من ثمانية الى عشرة رجال يجتازون المقاطعة التي هم فيها عدة مرات في اليوم .

ان الهدف الرئيسي للدوريات الليلية التي يقوم بها قواد مختلف الفرق وبصورة خاصة قواد فرقة الانكشارية هو مراقبة رجال الامن العسكريين "البوليس العسكري" . فانهم يطوفون على المراكز العسكرية ويقفون فيها لاخذ تقارير رؤساء الارطة فيتناولون فنجانا من القهوة ويدخنون ويعطون وقت انصرافهم بعض المال لرجال الحرس . ولما يخرج الصدر الاعظم ويطوف متخفيا فانه يفتش ايضا هذه المراكز العسكرية فيتحادث مع الضباط . ويتكرم على الجنود . وهو كلما كرر هذه الدوريات كلما زادت محبة الجيش له ، والسلطان نفسه عندما يخرج للنزهة متخفيا من النادر ان يمر بواحد هذه المراكز ، دون ان يمنح رجال الارطة بعض القطع الذهبية .

الا ان الجندي لايرضى بهذه الاعطية فقط بل يستعمل كل الوسائط لسلب النقود من الناس ونذكر مثلا واحدا من هذا القبيل وهو انه على الجنود ان ينظفوا طرقات المقاطعة التي هم فيها الا انهم عادة يمسكون بيدهم مكنسة يقدمونها لعامة الناس من المارين وخصوصا لاهل الذمة . ويمكن للانسان ان يتحاشى ذلك بدفع بعض قطع من النقود الصغيرة او القيام بعملية التنظيف . واذا خطر لاحدهم اظهار الغضب فان الجنود يجبرونه على حمل المكنسة واذا تشدد في الممانعة لايتاخرون من ضربه بها . ويتساهل الضباط مع جنودهم في مثل هذه التعديات لانهم لايجدون دائما غضاضة في اقتسام الاموال معهم .

ويبدي هولاء الجنود منتهى الفظاظة في حفظ الامن فاذا قبضوا على احد الجناة فانهم يعاملونه بسوء . وفي حالة لحاقهم به فانهم يرسلون على رجليه النبابيت التي يحملونها مما يعرضه ويعرض المارة لخطر الجرح . واذا اقبلوا لفك خصام فانهم ينزلون ضربا بالعصي على كلا الطرفين . وانه لمن الطبيعي ان ترمي مثل هذه الاعمال الرعب في القلوب .

ولهذا فانه عند مرور احدى الدوريات ينزوى الناس ولا ياتون باى حركة .

وهناك خمسة انواع من العقابات العسكرية ، السجن لمدة بضعة ايام والجلد البسيط والجلد الشديد والسجن المؤبد والاعدام . ويحق للضباط البسيطين اصدار الحكم بالقصاص الاول . ويقوم "الاوضه باشي" بتنفيذ الثاني فينزل بقضيبه على ظهر اوعجز المذنب الملقى على الارض بتسع وثلاثين جلدة . ويصدر رئيس الارطة العقاب الثالث ويكون تسعا وتسعين جلدة ينفذها عادة باحتفال شواش الفرقة . اما اصدار الحكم في العقابين الاخيرين فيتطلب ان يكونا من قبل الاغا ومن الصدر الاعظم ايضا . ويحبس رجال الانكشارية المحكومين بالسجن المؤبد في القلاع التي على الدردنيل والتي على البوسفور . وهم يعدمون في هذه القلاع ايضا اذا كان الحكم قاضيا بالموت فيشد حبل على اعناقهم ليلا ويقتلون خنقا ثم تلقى جثثهم في البحر . ويكون العزل المصحوب بالنفي هو العقاب الاعتيادى اكثر من غيره الذى يصدر على القواد .

انه من النادر تنفيذ العقاب الصادر على الرجال العسكريين امام الناس . اما اذا كان الامر يتطلب ذلك مثلا عندما يثبت عليه انه اقترف جرما نحو بعض الناس فان العزل يسبق تنفيذ الحكم . فانه يحاكم امام الصدر الاعظم المقيم في ديوانه ويكون وكلاء فرق الجيش الست المنظمة حاضرون هذه الجلسات التي يعقدها الوزير . فيسال الصدر الاعظم وكيل الفرقة التي ينتمي اليها المجرم اذا كانت الفرقة ترضى بعمل هذا الاخير . فيكون جوابه بالنفي عندها تنزع عن الجندى عمامته وتمزق ياقته اشارة الى اقالته . وبعد ان ينزل هكذا الى مستوى عامة الناس ينفذ فيه الحكم الصادر عليه . ان للضباط الموجودين في الولايات على مرؤوسيهم نفس الصلاحيات التي للقواد في الاستانة . ولكنهم عندما يصدرون حكما قاضيا بالموت يجب ان ياخذوا موافقة الباشا الحاكم قبل تنفيذ الاعدام .

ان عقاب الهرب من الجندية في اوقات السلم يكون بالسجن او بالجلد . اما الذى يهرب اثناء الحرب فيجب حسب الاوامر ان يوصم بالعار كجبان غير جدير ان يخدم الدين والدولة . انما هناك حالات يكون فيها الرؤساء اكثر صرامة فانهم يقطعون انف واذني المجرم حتى انهم يحكمون عليه ايضا بالموت خنقا . وينفذ فيه هذا العقاب في خيمة واقعة في وسط المعسكر ومخصصة للجلادين تسمى (ليلك شادرى) .

عندما انشأ اورخان فرقة الانكشارية امر بالا يتزوج رجالها البتة . ولكن لم يعمل بهذا المنع به بعد وفاته .

ويتمتع جنود الانكشارية بامتيازات عديدة . فانهم ياتون بالدرجة الاولى بين فرق الجيش .
ولا يعاقبون الامن قبل ضباطهم ولايدفعون ضرائب ومن النادر ان تضبط املاكهم . ويتقدم اغا
الفرقة على روءساء بقية الفرق كما انه متقدم على وزراء الدولة . ويتقدم عليه قائدا فرقتي السباه
والسلاحدار في احتفالات عيدي الفطر والاضحى فقط لان هاتين الفرقتين اقدم من فرقته . وله
رتبة باشا من ذات الطوغين . ويمنح غالبا في اوقات الحرب رتبة باشا من ذات الثلاثة اطواغ
وكان يتمتع فيما مضى بميزة عدم الالتحاق بالجيش , الا اذا كان يقوده السلطان بنفسه . اما في
غير هذه الحالة فان احد نوابه يسير على راس الفرقة . ولكن منذ ان اجبر الصدر الاعظم سنان
باشا اغا الانكشارية سنة ١٥٩٤ ان يتبعه الى بلاد المجر خسر اغاوات الانكشارية هذه الميزة .
وعندما يعزل من منصبه يحصل الاغا دائما على ادارة احدى ولايات الدولة الا اذا كان مغضوبا
عليه . ويقوم الاغا واثنان من نوابه وهما القول كتخيه والسيمان باشي في السهر على سلامة
امراء العائلة المالكة . الا ان هذا العمل اصبح شكليا ومنحصرا في فحص جثة الامير المتوفي .
ويجب ان تعرض ايضا جثة السلطان بعد ان يلفظ انفاسه الاخيرة على انظار الاغا لكي يتحقق
اذا كان الموت طبيعيا ليزيل شكوك الناس والجيش .

وتتمتع فرقة الانكشارية ايضا بميزة كبيرة وهي في ان السلاطين يسجلون اسماءهم في الارطة
الاولى من فرقة البلاء وترجع هذه العادة الى زمن حكم السلطان سليمان الاول . اذ قبل هذا
بينما كان يتفقد الثكنات التي بناها حديثا ان ياخذ من يدي القول كتخية راتب اربعة اشهر
من الراتب الذي يعطى للانكشاري القديم الخدمة اي باعتبار اربعين بارة في ~~الـ~~ اليوم .
واخذ السلاطين من ذلك الحين يمرون متخفين من امام الثكنات في ثاني يوم تفرق فيه
المرتبات على الجنود . وياخذ " الباش جوخدار " من يد اوضة باشي " الارطة الاولى الراتب
المعين للسلطان الا ان هذا لايتناوله بل يامر الباش جوخدار ان يفرقه على الجنود الحرس
بعد ان يضيف عليه قبضة او قبضتين من الفندقلي " السيكان " وقد خصصت على شرف هذا
العمل الاخوي الجليل في ثكنة هذه الارطة غرفة مزينة بعرش تبقى دائما مقفلة .
ويفتخر الانكشارية ايضا بوجود اسم احد امراء القرم " قبلان كراي " في سجلات الفرقة القديمة
وسبب ذلك ان هذا الامير التجأ على اثر قلاقل قامت في القرم الى حصن قاقا وسجل اسمه في
الارطة الواحد والتسعين من فرقة الجماعات ليتاكد جيدا من الحماية التي كان يطلبها من

الانكشارية المرابطين في ذلك الحصن .

ويحتفظ السلاطين   بعادة ثانية اول من قام بها السلطان سليمان الاول وذلك قبل بناء الثكنات الجديدة ببضعة اعوام . فقد اوجب ان يقدم له احد ضباط الانكشارية كاسا من الشراب في كل مرة يمر بها من امام الثكنات القديمة التي كان فيها مركز القيادة العامة(١) . وخصص شرف تقديم الكاس " لاوضة باشي " الارطة الواحدة والستين من فرقة الجملات . وادى هذا الامر الى تعيين غرفة اخرى للعرش في ثكنة هذه الارطة . ويضع السلطان كاس الشراب على فمه ثم يضع فيه نقودا ذهبية . ومن العادة ايضا ان يقدم ضابط اخر كاسا من نفس الشراب لرئيس الخصيان السود الذى يتبع السلطان . ويجرى نفس هذا التكريم للصدر الاعظم عندما يمر في موكبه امام هذه الثكنات .

وقد منح السلطان محمود الاول نفسها الميزة للثكنات الجديدة ورفع قيمة هذا العمل بان جعل اغا الانكشارية يقدم له كاس الشراب . وقد اعلن السلطان في قراره "الخط الشريف" الذى اصدره سنة ١٧٥٠ في تثبيت هذه العادة بمنحه هذه الميزة لفرقة الانكشارية تمثلا بجده سليمان العظيم اراد اظهار شعورحسن التفاته نحو فرقة شهيرة بماثرها القديمة ومعروفة باماناتها وسامية بخصالها الحربية والدينية والتي لم تضم بين صفوفها سوى الابطال والشهداء والتي لاتزال تفيض عليها البركات الالهية وتساعدها الملائكة ولاتزال تستحق ثناء وحسن التفات السلاطين العثمانيين اسيادها وحماتها " . وقد وجه هذا الامر حسب العادة للصدر الاعظم الذى ارسله الاغا الانكشارية مع الرئيس افندى مصحوبا بعدد من موظفي البلاط . وقد وصل هذا الوزير الى قصر الاغا بين صفين عظيمين من الانكشارية وعندما اصبح على مسافة قصيرة منه ترجل عن جواده وتقدم رافعا يده ماسكا بها الخطي شريف " واعطاه للاغا الذى تقدم لاستقباله وعلى اثر ذلك دخلا قاعة مجلس الشورى العسكرى الكبرى حيث استرجع من الاغا الامر السلطاني وقرأه على الحضور الذين استقبلوه بهتافات عالية ثم تبع ذلك دعاء طويل من شيخ الفرقة طالبا من الله ان يحفظ السلطان ويحفظ سلامة الدولة وفلاح جيش الانكشارية . وتقرر في الجلسة التي عقدها بعد ذلك الاغا مع قواده ان يقدم الشراب لرئيس الخصيان السود لما يرافق السلطان ويجرى ذلك بان يحمل الصمصنجي باشي الكاس ثم يناوله للزغرجي باشي الذى يقدمه بدوره لرئيس الخصيان   وقد تقرر ايضا ان يجرى مثل هذا التعظيم للصدر الاعظم عند مروره وان يتقدم الاغا حتى خارج القصر لاستقباله وان يحمل "الكتخدا يرى " كاس الشراب ويناوله للقول كخية

(١) ان تقديم الكأس [illegible]

الذى يقدمه للصدر الاعظم . واخذ السلاطين منذ ذلك الوقت يجتهدون للمرور مرة على الاقل على الثكنات الجديدة ويكون ذلك عادة في اليوم الثالث من عيد الاضحى . انما يصنع الشراب في السراى ثم يحمله القلراغا الى الثكنة في كاس مختوم حيث يعطيه قبل ابتداء الاحتفال ببرهة وجيزة للضابط المكلف بتقديمه للسلطان .

ان انشاء الجيش الانكشارى ساعد كثيرا في اعلاء شان السلطنة العثمانية لان وجود جيش دائمي وكبير من المشاة ومنظم احسن تنظيم يعطي السلاطين تفوقا ظاهرا على جيرانهم من ملوك اسيا وعلى الجيوش الاوروبية التي لم تكن تتالف في عصور ازدهار السلطنة العثمانية الا من جيوش غير منظمة . ولكن اذا كان هذا الجيش قد الف دائما قوة الدولة فانه كان ايضا في جميع الاوقات يلقي الرعب في قلوب السلاطين . ولقد تزعزعت الدولة اكثر من مرة من اركانها من جراء ثوراته . ويظهر الجنود في بادىء الامر عدم رضاهم بانشادهم الاشعار الهجائية . ثم تلصق اعلانات ثورية على ابواب الجوامع والقصور والثكنات . واذا لم تكف هذه الاعمال لاعطائهم مطاليبهم فانهم يشعلون النار في مختلف احياء المدينة برميهم مواد مشتعلة اثناء الليل . وبما ان السلطان لايتاخر ابدا في الحضور الى مكان الحريق فانه يمكنهم انئذ ان يسمعوه تشكياتهم . فتقف جموع النساء في طريقه ذاكرة مظالم الجموع واسماء الاشخاص المكروهين منها . وهكذا فان

[illegible] .

ان كان انشاء الجيش الانكشاري قد ساعد كثيرا

عدم ارضى هو السبب في حصول حرائق كثيرة في العاصمة . وتذكر التواريخ حدوث مئة واربعين حريقا في مدة الثمان وعشرين سنة التي دام بها حكم السلطان احمد الثالث ولعبد في هذه المدة بناء المدينة خمس مرات . ان شراسة الجنود والناس تجعل هذه الاضطرابات مخيفة . وبالرغم من تصريح الرؤوساء بانهم لايريدون سوى فائدة الدين وفائدة الدولة فان تعديات الجموع تتناول كل شيء حتى ابنية الدولة وبيوت الناس ومساكن النساء وشخصيات رجال الشرع . والسلطان نفسه الذى لم يكن يذكر اسمه الا باحترام عظيم لايراعى من قبل الجموع الهائجة اكثر من موظفيه . ويشير التاريخ الى الاهانات الشائنة التي رموا السلطان عثمان الثاني بها والقدح المقذع الذى وصموا به بعض السلاطين من الذين اشتهروا بحروبهم امثال سليم الاول ومراد الرابع والشتائم التي تلفظوا بها ضد بايزيد الثاني ومراد الثالث ومحمد الثالث وابراهيم الاول

ومحمد الرابع ومصطفى الاول . ومع ذلك فان هذه الثورات لم يكن الهدف منها ابدا اصلاح الاعمال الجائرة او الانظمة المقوتة . انما كانت فقط موجعة نحو اشخاص من اصحاب الشوكة اما لكونهم سببوا باعمالهم غضب الناس عليهم او ان اعدائهم الخصوصيين لم يجدوا غير هذه الوسيلة لاسقاطهم . ولا يبتغي الجنود والناس من مثل هذه الثورات سوى النهب مع طلب عزل الاشخاص الذين عينوا لهم من قبل مسببي الفتنة . ومع هذا يدعي الجميع بانهم يعملون بمقتضى كتاب الله قائلين بان مطاليبهم مبنية على الشرع . ويذهبون حتى الى اكراه المفتي في اصدار فتوى ضد اعدائهم واجباره على الحكم بخلع السلطان ايضا .

في مثل هذه الاوقات البائسة حيث تكون السلطة معدومة القوة يستعمل الذهب لتهدئة العصاة الا ان هذه الطريقة تدفعهم للقيام بفتن جديدة . وعندما يستتب الهدوء يطلب من الجندي ان يؤدي يمين الاخلاص والطاعة . وهي الحالة الوحيدة التي يطلب فيها مثل ذلك لان اداء اليمين غير مفروض ابدا على موظفي الدولة وبما ان هذه العادة لم تكن معروفة ايضا زمن الخلفاء فان الدولة اذا حاولت ادخالها يرفضها الناس معتبرينها بدعة من البدع . يؤدي الجندي اليمين واضعا يده على طبق من الفضة وضع فيه كتاب القران وسيف وخبز وملح .

ونجد في التواريخ العثمانية مثالا غريبا عن اليمين العسكرية . ففي سنة ١٦٢٣ كان احد الباشاوات العاصين اسمه "اباظه" على راس قوة عظيمة مؤلفة من فرقتي السيمان والسباه وبينما كان رجال الجيش يتمرنون على رمي الرمح "الجريد" في سهل "طوقه" جرح كثيرون من رجال السيمان واراد رفاقهم الثار لهم من رجال السباه ناسبين حصول هذه الحوادث الى خطة مدبرة من قبل . الا ان الباشا تمكن من تهدئتهم واجرى الصلح بين رجال الفرقتين على هذه الصورة . وضع بين الفرقتين نصف دائرة من الخشب على شكل قوس علق عليها سيف بين قطعة من الخبز وكمية من الملح . ثم تقدم رؤساء الطرفين واقسموا بان يتحدوا اتحادا ثابتا ولعنوا كل من يخالف هذا العهد . وردد جميعهم هذا القول " فليصبح من يحنث بيمينه فريسة لهذا السيف القاطع وليتحول خبزه وملحه الى سم "ثم بعد ذلك لكي يعوضوا نوعا ما على رجال فرقة السيمان مشى جنود السباه تحت القوس وهم يصادقون على قسم رؤسائهم

الجيش الثاني : الجبه جيه

ان هذا الجيش المعد لحراسة ونقل الاسلحة والمعدات الحربية لم يحصل له نظام مستقر الا في زمن محمد الثاني عندما كان يعد فقط سبعمائة رجل . وقد وصل عدد رجاله زمن مراد الثالث الى سبعة الاف وخمس مئة . وهو موءلف من فرقتين البلك والجماعات تضم كل واحدة منها عددا من الارطات يقيم البعض منها في الاستانة في ثكنة جميلة كائنة قرب جامع ايا صوفيا والبعض الاخر موزع على المواقع التي على الحدود حيث يدعوهم الناس وخصوصا في بلاد مصر بالعزاب . ويطلق على قائدهم لقب " جبه جي باشي " .

الجيش الثالث : الطوبجية

كان حدد السلطان محمد الثاني عدد رجال هذا الجيش اذ جعله سبع مئة رجل اي كعدد رجال الجيش السابق . الا ان هذا العدد زاد واصبح خمسة الاف وذلك في زمن مراد الثالث ويرابط قسم من رجاله في الولايات وقسم في الاستانة حيث له ثكنة كبيرة في غلطة على ضفة البوسفور . ويدعى قائده " طوبجي باشي " .

الجيش الرابع : الطوب عربه جية

ان هذا الجيش الموءلف من ثلاثة الاف رجل تقريبا معد بصورة خاصة للاعتناء بقنادق المدافع والقيام بنقل المدافع وله رئيسه الخاص وهو الطوب عربه جي باشي وله ثكنة في حي " اخور قابو " .

والسلطان مراد هو الذي انشأ هاتين الفرقتين الاخيرتين . ويذكر التاريخ بان العثمانيين استعملوا المدافع لاول مرة سنة ١٤٤٠ وذلك في حصار سيمندريا اوسان اندره .

ولرئيس الجبه جية راتب معين قدره عشرون الف قرش في السنة ويتناول رئيس الطوبجية خمسا وثلاثين الفا ورئيس الطوب عربجيه خمسة عشر الفا . ان مرتبات رجال هذه الفرق الثلاث

هي تقريبا مماثلة لما يتناوله الانكشارية وهم ياخذون ايضا الموئن في ايام السلم كما ياخذونها في اوقات الحرب.

الجيش الخامس : السباه

ان جيش الفرسان هذا وهو اقدم من جيش الانكشارية كان يعد عشرة الاف رجل في زمن السلطان محمد الثاني . ولقد رفع احمد الثالث عددهم الى خمسة عشر الفا وهو منقسم الى بلكات ويسمى رئيس الواحدة منها " بلك باشي " ولهذا الجيش اربعة قواد وهم : الباش كيخية والكهخية يرى والباش شاويش والباش بلك باشي ويطلق على رئيس الفرقة لقب سباه اغا .

الجيش السادس : رجال السلحدار

ان هذا الجيش الثاني للفرسان هو قديم ويرجع عهده الى عهد سابقه ولم يكن موءلف زمن محمد الثاني الا من ثمانية الاف رجل . الاان احمد الثالث زادهم الى اثنتي عشر الفا وترتيبه مماثل لترتيب جيش السباه ويدعى رئيسه السلحدار اغا وهو لقب يحمله ايضا كما مر معنا احد كبار موظفي السراى . ولكن بمعنى اخر اذ يراد به حامل السيف . .

والحق بجيشي السباه والسلحدار اربعة بلوكات دعيت بالبلكات الاربعة (١)

ان هذا الجيش هو اقدم رجال الفرسان في الدولة . انشأه اورخان تمثلا بفرقة الفرسان التي الفها الخليفة عمر تحت هذا الاسم واعدها لحراسة راية النبي محمد . وقد اعطيت له مهمة حراسة العلم السلطاني الذى بدل فيما بعد براية النبي وجدها السلطان سليم الاول في مصر . ولقد كان موءلفا في الاصل من الفين واربع مئة فارس الا ان عددهم وصل

---

(١) وهي : علوفجيان يمين ويسار وغرباى يمين ويسار ويراد بكلمة علوفجيان الجنود الذين يتداولون الرواتب . وبكلمة غرباى الجنود الغرباء .

تدريجيا الى ستة عشر الفا . وبما انه كان معتبراً جدا وكان رؤوساء الدولة ينتقون عادة من بين رجاله رسلهم الذين يبعثون بهم الى الولايات في مهمات ينتفع الرسل منها فان بقية الجنود كانوا يسعون للدخول فيه . وكان ينال الذين يبرزون اكثر من غيرهم حتى وان كانوا من المشاة ما يصبون اليه ويكون ذلك كمكافاة لهم . وكان يقبل فيه ايضا رجال حاشية السلطان بعد ان يخدموا بضعة اعوام في السراي . ولكن بما ان البلكات الاربعة كانت تسيء استعمال نفوذها لدرجة اصبحت مصيبة على الديوان وعلى الناس . وبما انها كانت تسبب في مختلف الاوقات خصوصا في زمن السلطانين مراد الرابع وابراهيم الاول فتنا اشد من تلك التي يسببها الانكشارية فان الدولة شعرت بلزوم اصلاحها ولهذا فانها لم تعمد فقط الى ارجاع عدد رجالها زمن محمد الرابع الى الفين واربعمئة اى الى ماكانت عليه في الاصل بل الحقتها بجيشي السباه والسلحدار فضم الى الاول بلكا اليمين والى الثاني بلكا اليسار . واصبح بذلك رؤوساؤها الاربعة تابعين لقائدى السباه والسلحدار، الا انهم ظلوا محتفظين بمهمة حراسة راية النبي . فانهم يحملونها ويكونوا خفراء لها وقت الحرب ويضربون خيامهم حول الخيمة التي وضعت فيها .

ان عدد الفرسان كان دائماً مناسبا وعدد الانكشارية . ولقد انقص عددهم الى (٢٥٥٩٠) وذلك زمن محمد الرابع عندما اجريت اصلاحات كبيرة في فرقة المشاة انما بعد بضعة اعوام زيد العدد الى اكثر من (٥٥٠٠٠) عندما اضطرت الدولة الى زيادة عدد الانكشارية على اثر الضجة التي قام بها المسرحون من الخدمة . الا ان عددهم انقص عدة مرات في زمن حكم السلاطين الذين اتوا بعد محمد الرابع . فبمقتضى ماقد قرر زمن احمد الثالث فان عدد الفرسان الذين يطلق عليهم جميعا اسم سباه او الفرق الست يجب ان يكون مؤلفا زمن الحرب من ستة وعشرين الف فارس . اما في اوقات السلم فلا يوجد نصف هذا العدد .

كانت ثكنات هؤلاء الفرسان كائنة سابقا في الاستانة وادرنه وبروسه كما كانت في جوار هذه المدن الثلاث . اما الان فانها موزعة في الولايات . ويكاد يكون منهم الف وخمسمئة في العاصمة لان ليس لهم ثكنة ما . ويسكن الغير المتزوجين في فنادق اوخانات كبيرة تسمى " قورشنلوخان "

يتراوح راتب الفارس تبعا لعدد سني خدمته بين الست والتسع والتسعين بارة

ويتناول كل قائد من القائدين ثمانية واربعين الف قرش في السنة انما يترتب عليهما ان يدفعا من اصل هذا المبلغ رواتب روءساء ضباطها . ولفرقة السباه اعلام حمراء. وتكون صفراء لفرقة السلحدار وخضراء ، وخضراء مخططة بابيض للبلكات الاربعة .

ان هذه الجيوش الستة التي ذكرنا ترتيبها توءلف قوة الدولة الحربية المنظمة . وروءساؤها الستة هم القواد الوحيدون الذين يظلون في الخدمة في اوقات السلم . وهم لايذهبون مع الجيش الا اذا كان يقوده على الاقل احد الباشوات من ذوى الاطواغ الثلاثة والذى يحمل لقب سر عسكر . ويوءخذ قائدا الفرسان والجبهجي باشي عادة من بين روءساء الحجاب الذين هم من الموظفين المدنيين . اما قيادة الطوبجية والطوبعربجية فانها تعطى دائما لاقدم رجال هاتين الفرقتين خدمة . ويكون لباسهما من الحرير الاطلس ومن اللون الازرق الفستقي .

الجيش السابع : بقية فرق الجيش المنظمة

ضاربو القنابل " الهومبرجية " وواضعو الالغام " لغمجية " وهم يوءلفون فرقتين خاصتين . ولم تكن تعد الاولى حتى سنة ١٧٣٢ الا ثلاث مئة رجل اعطيت لهم اقطاعات عسكرية ولقد توصل الكونت بونفال Bonneval عندما اصبح قائدا عليها بلقب هومبرجي باشي وذلك في زمن السلطان مصطفى الثالث الى زيادة ثلاث مئة اخرين تعطى لهم المرتبات . واوصل سليم الثالث عددهم الى الالف . ويقود هذه الفرقة في الايام الاخيرة رجل انكليزى مسلم من المرتدين يدعي انكليز مصطفى " .

وهناك فرقة " شاطر مترى " يقومون بالاعتناء بخيم وسرداقات السلطان وفرقة اخرى موءلفة من "مترببين " اى موسيقيين فقط ورد ذكرهم في الفصل الذى يبحث عن السراى . ان هاتين الفرقتين والفرقتين السابقتين لاعلاقة لهما بالجيوش الستة المنظمة .

لايتمرن الجنود ابدا وهم في الجيش على استعمال الاسلحة او على الحركات العسكرية انما يتعلمون فقط ضرب النبال بمهارة واطلاق البنادق والمدافع . وكان ضرب النبال احب التمارين لمحمد الثاني ولقد كان بارعا جدا في استعمال الاسلحة . ونذكر بهذه المناسبة

ان النبي محمدا كان يعتبر السهم سلاحا الهيا وتقول رواية عربية قديمة ان ادم لما تشاك لله من ان الطيور تلتهم ثمار الارض ظهر له الملاك جبرائيل وناوله قوسا وسهما وقال له : " استعمل هذا السلاح فانه قوة الله " . وكان محمد الثاني ينصح عساكره دائما وخصوصا الانكشارية بالتمرن على ضرب السهام . ولقد خصص من اجل ذلك منذ اول ايام افتتاح القسطنطينية سهلا واقعا قرب غلطة وهو لايزال يحمل حتى الان اسم "اوق ميداني " ا او ساحة السهم . اما بعد اختراع البارود فاخذ استعمال هذا السلاح يزول تدريجيا .

ان النكبات التي حلت بالباب العالي من جراء الحروب الاخيرة جعلته يشعر بضرورة ايجاد جنود يكونون احسن تدريبا وطاعة . وقد اهتم السلطان عبد الحميد بعد معاهدة صلح قينرجه المنعقدة سنة ١٧٧٤ بانشاء فرقة مدفعية جديدة موءلفة من الفي رجل وضعها تحت اشراف الصدر الاعظم ومربوطة به راسا . وجعلت ثكنتها في " لوندشفتلك" على بعد ميلين من الاستانة وكان يقوم على تدريبها ضباط افرنسيون . وكان يسمى رجال المدفعية هولاء "السرعه جية " اى السريعون . وقد ضم اليهم سليم الثالث عام ١٧٩١ ارطات من التفنكجية " اى حملة البنادق ووضع على راسهم ضابط اسمه عمراغا وكان قد سجن مدة طويلة في روسيا. وفي مدة بضعة اعوام اصبحت هذه الفرقة التي كان فيها جنود من الفرسان ايضا موءلفة من خمسة عشر الف رجل . ولقد بنيت لهم ثكنة جميلة في اسكدار كما انشيء لهم لهم ايضا ثكنات عديدة في الولايات الاسيوية القريبة من العاصمة وفي ادرنه . وكانوا يدربون على الطريقة الاوروبية ويرتدون الملابس العسكرية وكان غطاء راسهم قلنسوة البستنجية اى رجال حرس السراى لانهم كانوا الحقوا بهولاء الذين هم بدورهم كانوا فرعا من فرقة الانكشارية . ولقد الحقتهم الدولة برجال الحرس املة ان يخففوا من ريبة الانكشارية نحوهم الا ان هولاء كانوا ينظرون الى هذه الفرقة الجديدة بعين الغيرة وكانت الدولة تخاف ان تظهر هذه المنافسة الى حيز الوجود في اول حرب تدخلها . وفعلا فقد ظهرت بصورة مخيفة سنة ١٨٠٧ بعد بضعة اعوام من الانشقاق الذى حصل بين الباب العالي وروسيا . فلقد خلع الانكشارية سليم الثالث عن العرش . واخذوا من خليفته مصطفى الرابع عهدا بازالة هذه الفرقة الجديدة وعلى اعدام رجال الدولة الذين كانوا يدافعون عن هذه الناحية من النظام الجديد "

الفصل الثاني

العساكر التي تعتاش من الاقطاعات العسكرية : الزعامة والتيمار

اوجدت الدولة الاقطاعات في جميع الولايات تقريبا . وذلك عند افتتاحها هذه الولايات وكان لهذا العمل هدفان وهما تامين الدفاع عنها ومكافاة خدمات العساكر . وكان الفارس (السباه) صاحب الاقطاع يجبي لفائدته الخاصة سورد ضرائب الدولة المفروضة على اراضي اقطاعه . هذه الاراضي التي يعمل فيها الفلاحون المسلمون او المسيحيون "الرعايا" وكان له عليهم حقوق السيد المطلق للعبد . ويعتبر الفلاحون كملاكين للارض ولكنهم عندما يورثونها لاشخاص من عائلتهم غير اولادهم فانه لايحق للورثة امتلاك الارض الابعد ان ياخذوا موافقة السباه وبعد ان يدفعوا له مالا معينا . واذا لم يكن للمتوفي ورثاء يجب ان يعطي السباه متروكاته من الاراضي لاحد جيران المتوفي/ أو لا يحق للسباه ان يتصرف بها لفائدة اهله .

ويترتب على السباه ان يقيم في اقطاعه وان يسير الى الحرب عندما يطلب منه وان يكون مصحوبا بعدد من الفرسان مسلحين بالدروع يكون عددهم مناسب وقيمة اقطاعه . وذلك بمعدل فارس واحد لكل ثلاثة الاف بارة من موارده وهو تعيين يسمى " سيفا " . وان كل اقطاع يكون مورده اقل من عشرين الف بارة يسمى " تيمارا " والذى يكون مورده ما فوق ذلك يسمى زعامة .(١)

وهذا النظام معمول به الان . ويخضع رجال السباه القاطنون في احد الاقضية لرئيس يسمى " الاى باك " الذى ياخذهم وقت الحرب لعند السنجق باك حاكم اللواء. وحكام الالوية يقدمون بدورهم ماتجمع عندهم من الرجال للباشا حاكم الايالة .

---

(١) للمترجم _ يقول دوسون بانه يجب على السباه ان يقدم فارسا لكل ثلاثة الاف بارة من موارده الا ان المؤرخ التركي جودت في مجلده الاول الذى ترجمه الى اللغة العربية عبد القادر افندى الدنا رئيس محكمة تجارة بيروت في الصفحة ٩٩ يقول ثلاثة الاف اقجاية وليس ثلاثة الاف بارة يقول : " ... وكان عددهم في ذلك الوقت في الايالة المذكورة اثني عشر الف سيف (اى رئيسا) بموجب القيود كان من القانون ان كل صاحب سيف يجب عليه ان يتوجه الى الحرب ويصحب

ولقد امر السلطان مراد الاول سنة ١٢٧٦ بان تكون هذه الاقطاعات وراثية يرثها الابن عن الاب فقط وهي ترجع للدولة اذا لم يكن لصاحب الاقطاع ورثاء ذكور ويمكن للباشا انئذ ان يمنحها لسباه اخر من نفس اللواء او لاحد الجنود القدماء . وان اى جريمة يرتكبها صاحب الاقطاع لاتسبب لاولاده خسارة حقهم في ارث الاقطاع منه . وان كان لشخص واحد عدد من اراضي التيمار فانه يمكنه تحويلها الى " زعامة " ولا يمكن ان يحصل العكس ابدا اى ان تقسم" الزعامة الى تيمارات " . وفي حال اقتسام الاقطاع بين الورثاء يجب ان تكون قيمة الحصة الواحدة (٢٠٠٠٠) بارة على الاقل .

ظلت الاقطاعات العسكرية طيلة قرنين يعطيها الباشاوات لابناء صاحب الاقطاع المتوفي الا انه صدر قرار سنة ١٥٣٠ لايحق بموجبه للحكام ان يتصرفوا الا بالاقطاعات الضئيلة القيمة اما الباقية فانها كانت تمنح بموجب اوامر سلطانية " توجيه فرمان " والتي يجب على حاملها ان يبرزها للحاكم اللواء الذى عليه ان يتحقق من صحة نسبه اى من كونه ابن سباه وان يعرف ماكان مقدار دخل ابيه وفي اى سنة توفي . فاذا كانت التحقيقات التي قام بها تؤيد ادعاء الابن فانه يعطيه " تذكرة " بذلك يحصل بموجبها من الباب العالي على "براءة" يقوم الحاكم بتدوينها عنده . واصبح يعطى بحسب هذا القانون لهذه الاقطاعات[1] " تذكرة لو " تمييزاً عن الاقطاعات التي يمكن للباشا ان يمنحها حسب مشيئته والتي تسمى " تذكرة سيس " اى بدون تذكرة . وكانت القوانين تصر بانه لايمكن اعطاء الاقطاعات الا لابناء السباه وكان من المستحيل تقريبا فيما مضى على غيرهم ان يحصلوا عليها ولكن هذا القانون اهمل فيما بعد .

كان يصل عدد الجنود زمن السلطان سليمان الاول من ارباب الزعامة والتيمار الى المئتي الف رجل . الا ان عادات رديئة جدا تسربت الى انظمتهم كما تسربت الى بقية جيوش الدولة وذلك في زمن خلفائه السلاطين وبصفة خاصة في ايام حكم مراد الثالث المضطربة .

معه جبه جية) يكون عددهم على حسب ما يبلغ تيماره بنسبة كل ثلاثة الاف اقجاية (الاقجاية ثلث بارة) جبه جي واحد (اى عسكرى واحد) ... " ثم يقول بعد ذلك وفي نفس الصفحة " ومن كانت مرتبة ثلاثة الاف درهم الى ٢٠ الف درهم يسمى صاحب تيمار والذى يكون مرتبه مافوق ذلك فهو صاحب زعامة " نلاحظ مما تقدم بان المؤرخ جودت يفرق بين الاقجاية والدرهم بينما دوسون يذكر كلمة بارة في الجملتين .

فقد كان معظم اصحاب الاقطاعات لايذهبون الى الحرب ويظل عصيانهم هذا بدون عقاب بالرغم من ان القوانين كانت تعاقب المخالفين كل حسب نوع اقطاعه فاما ان تؤخذ منه او يدفع مورد سنة . وكان الباشاوات يطرحون بالمزاد العلني اراضي الزعامة والتيمار ثم يحكمون بها لمصلحتهم الخاصة . وكان الاقطاع الواحد يباع لعدة اشخاص يحضرون جميعا لاخذه ويكون كل منهم حاملا براءة بموجب ذلك . وكانوا يقلقون الالوية بصخبهم ومنازعاتهم التي كانت دامية في اغلب الاوقات . ولم تكن هناك اي مراقبة وكان يموت السباه ولااحد يشعر بذلك ولقد كان يحصل ان ياخذ بعض الناس براءات من توفي من جنود السباه ويحولونها الى اسمائهم ليحصلوا بموجبها على اقطاعات . وظن السلطان مصطفى الثاني بانه سيصلح هذه الفوضى اذ اعاد القانون الذي يقضي بسحب صلاحيات الباشاوات من حق التصرف بهذه الاقطاعات . انما العلة بقيت ولم تتغير سوى مسببها اذ اصبحت الوزارة هي التي تمنح الاقطاعات التي اصبحت فريسة لاصحاب الحظوة وللرشوة والمكائد . وانتقلت ملكية هذه الاقطاعات بعد زمن قليل الى موظفي السراي والموظفين المدنيين . وقد تدهورت هذه المؤسسة العسكرية الى درجة جعلت السلطان مصطفى الثالث يعجب في ابتداء الحرب التي اعلنتها الدولة على روسيا سنة ١٧٦٨ من ان يجد في الجيش فقط عشرين الف فارس تقريبا . واراد السلطان عبدالحميد بعد صلح قينرجه ان يعيد الى هذا الجيش نظامه القديم واصدر من اجل ذلك سنة ١٧٧٦ مرسوما شديد اللهجة الا انه لم يؤثر شيئا لان الضجة التي قام بها كل الذين كانوا يتمتعون بتلك الاقطاعات اخافت الوزارة الى درجة جعلتها تطلب من السلطان ان يتخلى عن مشروعه . فالدولة اذا محرومة من قسم كبير من جيشها الذي من الممكن ان يؤمنه لها احداث هذه الاقطاعات . فالاشخاص الذين استملكوها وتخصهم الان يؤجرونها ويعفون انفسهم من الخدمة العسكرية . ويعفون انفسهم ايضا من واجب تهيئ ما يتعين عليهم تقديمه من الفرسان الى الدولة عندما يقتضي الامر ويكون ذلك بدفع بدل لخزينة الدولة قدره خمسون غرشا عن الفارس الواحد . وكان السلطان يحول تدريجيا الى اوقاف الاقطاعات التي تصبح خالية .

ولا يوجد من هذا الجيش في اوقات السلم سوى قسم ضئيل وهذا القسم يؤلف فرقة من اربع مئة رجل يدعون Guédikli-Zaïms انشئت سنة ١٥٩٧ وهي تقسم الى ارطتين : الغديقلي متفرقة والغديقلي شاوى . يراس الاولى المتفرقة باشي ويراس الثانية الشاوش باشي . وهولاء ال

الجنود لايذهبون الى الحرب الا مع السلطان او الصدر الاعظم ليشتركوا مع السباه في حراسة الراية النبوية . اما في غير ذلك فانهم يظلون في العاصمة حيث يقوم منهم دائما خمس وعشرون او ثلاثون في حراسة قصر الصدر الاعظم وهم يرسلون غالبا في حمل رسائل الدولة الى الولايات .

الفصل الثالث

العساكر التي تقدمها الايالات : " ايالة عسكرى "

ان كل ايالة تقدم وقت الحرب حصتها من العسكر.ويكون عددهم من الف وخمس مئة الى ثلاثة الاف رجل ويكون فيهم من المشاة بمقدار الفرسان تسلحهم الايالة نفسها ويعيشون على نفقتها . وتجند الشعوب الكردية القاطنة في ايالات ديار بكر وشهر زول وقان وغيرها خمسا وعشرين الف رجل تقريبا . وتقدم القبائل التركمانية عشرة الاف رجل . ويضاف الى الجيش ايضا فرقة مؤلفة من ستة الاف بلغارى من المسلمين واليونان يعملون كسواس وخدم يطلق عليهم اسم Voinouks وقد انشئت هذه الفرقة سنة ١٣٧٦ بامر من السلطان مراد الاول وقد اعفى من دفع الضرائب كل من يدخل فيها . ويذهب معهم في اوقات السلم كل سنة ثمان مئة الى الاستانة حيث ياخذون الى الحقول خيول السلطان وموظفي القصر وخيول الصدر الاعظم وكبار الشخصيات . ويسمى رئيسهم " فوينوك سرعسكر" وهو تابع لرئيس اسطبلات السلطان . واخيرا فان الافلاق والبغدان تقدما كثيرا من الارطات يقودها حاكما هاتين الولايتين اويقودها ال Boyards . ويعمل هولاء الجنود بصورة خاصة في تمهيد الطرقات للجيش . وكانت كل هذه العساكر التي تقدمها الايالات تؤلف فيما مضى مئة وعشرين الف رجل .

الفصل الرابع

فرقة حرس الباشاوات وجنود المقاطعات الخاضعة لهم .

تتالف عساكر الباشاوات الخاصة من حاشيتهم العسكرية " لوند " ومن "الجبلو " اى لابسي الدروع . وعليهم ان يجهزوا هذه العساكر مقابل المقاطعات العسكرية الممنوحة لهم. هذه الاقطاعات هي املاك معينة في كل لواء ومخصصة للحاكم وتكون بمثابة راتب عادى له . وتكون مواردها مثل موارد الزعامة والتيمار . انما تختلف عنها في انها تخص الحاكم كحاكم صاحب منصب ولا تخصه شخصيا ولقد كان مورد السنجق باك سابقا من اقطاعه بين مئتين وخمس مئة الف بارة . وكان يصل مورد حاكم الايالة الباشا او البكلربك الى ضعف هذا المبلغ . وكانت هذه الاقطاعات في كثير من الايالات مثل ايالة الروم ايلي وارضروم وديار بكر وفان وشهرزول تدر مبالغ تصل الى الاثنتي عشرة الف بارة . وتختلف هذه الاقطاعات من ناحية ثانية عن الزعامة والتيمار في انه يجب على اصحابها ان يجهزوا عساكر من الفرسان بنسبة فارس لكل خمسة الاف بارة . ويتناول الحكام ايام الحرب في اخر كل حملة منحة تصل قيمتها الى عشر مبلغ موردهم من اقطاعاتهم . عدا ذلك فان الحكام من درجة سنجق باك لايمكن عزلهم ولا يدفعون مالاعند تنصيبهم وهم يعيشون ببساطة مما يمكنهم متابعة الاعمال التي تدفعهم اليها حميتهم ودخول الحرب بجيوش مضاعفة عن التي يترتب عليهم تجهيزها . ولذا فان مجموع جيوشهم يتعدى المئة وخمسين الف رجل . الا ان هذه المؤسسة العسكرية اخذت تتضعضع في زمن مراد الثالث عندما اصبح يولى على الالوية بدلا من الحكام من درجة سنجق باك باشاوات من اصحاب الطوغين والثلاثة اطواغ حيث تكون مراكزهم غير ثابتة اذ يمكن عزلهم عدا ذلك فانهم يدفعون مبالغ طائلة عند تعيينهم ويظنون بانهم مضطرون للتظاهر بالابهة.الامر الذى يدفعهم الى الافلاس .

ان عساكر الباشاوات الخاصة والفرسان المجهزين من قبل ارباب الزعامة والتيمار كانوا يؤلفون اذا فيما مضى جيشا يتعدى الاربعمئة وخمسين الف رجل يشترك قسم منه في الحرب ويبقى القسم الاخر لحراسة الولايات . ولا يزال النظام القديم معمولا به . لكن

القوانين ليست صارمة كما كانت قبلا وانحطت هذه الموءسسة العسكرية التي كانت سابقا هائلة الى درجة اصبحت بالكاد تتالف من ستين الف رجل .

الفصل الخامس

الجيوش الغيرعادية والفرق الحرة

وهي تتالف من العساكر الميرية (ميرى عسكرى) والعساكر المحلية (يرلي نفارات) واصحاب السيوف المسلولة (دال قلج) والفدائيين (سردن كشدى) ام بالمعنى الحرفي : الذين تخلوا عن روءسهم " والمتطوعيين (كونللو).

١) يطلق اسم العساكر الميرية اى التي تتناول مرتبات على كتائب موءلفة من الف رجل من المشاة او الخيالة يجندها ضباط يقودونها حاملين لقب " بن باشي " اى رئيس الالف ويقبل فيها كل شخص يتقدم ويكون حاملا بندقية وسيفا او رمحا ومسدسين ويعطى له عند دخوله خمسة وعشرون قرشا اجرة تعهده للخدمة مدة الحرب اما الراتب فيكون قرشين ونصف في الشهر للجندى من المشاة وخمسة للفارس . ويتناول رئيس الكتيبة الفي قرش كراتب له مدة الحرب وياخذ عدا ذلك عشر ما يعطى لرجاله . ويعطى للعساكر الميرية عند وصولها الى المعسكر الموءن والعلف لخيلها كما يعطى لها خيم ايضا . وعندما تنتهي الحرب تعطى للجنود الحرية في ترك الخدمة او في تجديدها . وكان انحطاط موءسسة الجيوش الاقطاعية هي التي دعت الى ضرورة تجنيد هذه العساكر التي كانت توءلف القسم الاكبر من جيوش السلطان مصطفى الثالث الذى كان يخاف من ان يزيد عدد الانكشارية ورجال السباه . وكان يوجد في الجيش العثماني اثناء الحملة التعيسة حوالي سنة ١٧٦٩ عند ابتداء الحرب ضد روسيا ، سبع وتسعون كتيبة من العساكر الميرية الا ان الجنود كانوا عديمي الطاعة والروءساء خالين من اى خبرة عسكرية .

٢) العساكر المحلية . يجند رجالها من سكان المكان المهدد لتقوية الجيش المرابط الموءلف من فرق منظمة . وتوءلف من هذه العساكر بلكات تسرح بعد زوال الخطر .

٣) اصحاب السيوف المسلولة . هو اسم يعطى للبلكات موءلفة من مئتين الى خمس

مئة رجل ينتخبون من مختلف فرق العسكرية . ويتناول الواحد منهم يوميا من عشر بارات الى عشرين بارة . وهم يقومون باكثر الاعمال خطورة كحفر الخنادق ووضع الالغام. والقيام بالهجمات الخ . وفي كل مرة يقوم الواحد منهم بعمل مجيد يضاف الى راتبه ثلاث بارات . وعندما تنتهي الحرب يرجعون الى فرقهم ويتمتعون طيلة بقية حياتهم بالفوائد التي اكتسبوها بمآثرهم.

٤) الفدائيون وهم كسابقيهم كتائب من الاولاد الضائعين ولكنهم اكثر منهم جرأة ويمشون امامهم في الهجومات الخطرة جدا . وهم عادة من الانكشارية يؤلفون عددا من الكتائب تتالف الواحدة منها من (١٢٠) رجلا يتناول الجندي منهم بين عشرة وعشرين قرشا عند دخوله في الكتيبة ويضاف الى راتبه بين الخمس والخمس عشرة بارة . وعدا ذلك فانهم يكافاون على شجاعتهم في المناسبات الكبيرة بهبات عظيمة . ويطلق على رئيسهم لقب اغا الفدائية . وتجند فرق الخيالة ايضا من هولاء الاولاد الضائعين .

٥) المتطوعون وهم رجال دفعهم البوس او حب الغنيمة او العصبية الدينية الى حمل السلاح . ويعمل في ايام الحرب رجال من الدراويش المتحمسين في اشعال حمية المسلمين الدينية بخطبهم ويحضونهم للسير ضد اعداء الدولة والملة واعداء الاسلام . وهم ينجحون دائما في اكثر الولايات في وضع نواة فرق المتطوعة هذه . ويستلم القيادة اشهر واجرأ هولاء المتطوعين فيسيرون نحو المعسكر رافعين راية احدى فرق الجيش المنظمة وتكون عادة راية فرقة الانكشارية . ويزيد عدد المتطوعين كلما توغلوا في السير وويل للسكان الذين يرفضون تقديم الاطعمة لهذا الجيش . وتقدم لهم الدولة عندما ينضمون الى الجيش كل ما يحتاجون اليه طالما هي بحاجة اليهم ثم انها بعد ذلك تبذل كل ما بوسعها لارجاعهم الى بلادهم. اما يصبح هولاء المسرحون من الخدمة العسكرية من المتطوعين وغيرهم من الجنود الذين انتهت مدة خدمتهم والهاربون من فرق الجيوش المنظمة مصيبة على الولايات بما يقومون به من اعمال السلب . ويظل هذا الحال معهم طيلة امد الحرب وبعدها بمدة طويلة ايضا .

ولا يتخذ السلطان ابدا جنودا من رعاياه من اهل الذمة كما انه لايقبل فرقا اجنبية في جيوشه لان المعتقدات الدينية تمنع ذلك ويعتقد الناس بان اشتراك غير المؤمنين مع المسلمين لايمكن ان يسبب غير المصائب . وما من مؤرخ مسلم الا ويلوم بشدة اتفاق الخلفاء الفاطميين في مصر مع الصليبيين في فلسطين ضد بني ايوب في الشام . واتفاق بني حمدان مع

البزنطيين ضد المصريين . اذ يقولون بانه غير ممكن الا ان يشعر الانسان بالعار عندما يرى اتحاد الصليب مع الهلال واختلاط الاعلام الاسلامية برايات المسيحيين . ويلوم المؤرخون العثمانيون بنفس الشدة السلطان بايزيد الاول لقبوله في جيشه فرقة اضافية مؤلفة من عشرين الف صربي . وهم ينسبون انهزامه امام تمرلنك سنة ١٤٠٢ لعمله هذا . وعندما اندلعت الحرب الاهلية بين ابناء بايزيد الاول وجد الامير محمد نفسه مكرها لقبول مساعدة الامبراطور عمانوئيل الثاني/ وذلك عندما سار عام ١٤٢٣ لمحاربة الامير موسى الذى كان لايزال سيدا على الروم ايلي . الا انهما اتفقا في ان يعمل الجيشان دائما بعيدين عن بعضهما .

ولم يقبل الصدر الاعظم الداماد ابراهيم باشا ان يضم عام ١٦٠٠ الى جيش الدولة ، فرقة مؤلفة من ست مئة افرنسي وعوما بقي من ثلاثة الاف منهم كانوا يؤلفون حامية حصن Papa في المجر ، الابعد ان نزلت بالجيوش العثمانية نكبات هائلة في الحرب الطويلة الامد التي كانت ناشبة بين الدولة العلية والنمسا . وقد عرض هؤلاء الافرنسيون المحاربون خدماتهم على الصدر الاعظم لانهم كانوا على اختلاف مع القواد النمساويين . ويقول المؤرخ حسن بك زاده بانهم خدموا في الجيوش العثمانية باخلاص وانهم اظهروا في كل المناسبات منتهى الحمية والشجاعة . وقد بقي منهم البعض في زمن عثمان الثاني حيث برزوا امام هذا السلطان في محاصرة "خطين" او خوتين

واذا قبل الباب العالي في بعض الاوقات خدمات رجال عسكريين من الاجانب فانهم يكونوا تقريبا دائما من المهندسين او من صناع يقومون بالتعليم .

الفصل السادس

في الحرب

ينتبه دائما الباب العالي في ان يراعي بدقة وعلى الاقل شكليا الاحكام الشرعية قبل ان يعلن الحرب . ويحاول دائما في الدرجة الاولى ان يحلل الحرب شرعيا وذلك بفتوى يصدرها المفتي امام مجلس شورى كبير . ثم بعد اصدار هذا القرار يدخل شيخ كل الجوامع

السلطانية الى الديوان ويقرأ رئيسهم وهو شيخ جامع ايا صوفيا سورة من القران تبحث عن الحملات العسكرية .

ان اول تدبير تقوم به الدولة عند اعلان الحرب هو توقيف وسجن سفير الدولة المعادية . والدافع الى خرق هذه الحقوق الشخصية هو للتاكد من حصول الخلاف بين الدولتين ، ولتهييج حقد الشعب والجنود ، ولمنع الحكومة المعادية من الحصول على معلومات عن حالة الدولة العسكرية وللحصول على واسطة سهلة للقيام عند الحاجة باجراء مفاوضات سرية لعقد الصلح . واخيرا للاحتفاظ برهينة مقابل تامين سلامة الرعايا المسلمين المحتمل وجودهم في بلاد الدولة المعادية .

ويسبق هذا التوقيف دائما اجراء بعض الاعمال القانونية . اذ يدعى السفير لمقابلة الصدر الاعظم الذي يعرض له امام المجلس شكوى الديوان ويساله اذا كان يريد ان يتعهد باسم حكومته بتادية التعويضات المطلوبة للاحتفاظ بالسلام . وامام جوابه الذي يكون بالنفي متذرعا بعدم سلطته يبلغ بان مصلحة الدين والدولة تدفع جلالة السلطان ان يطلب الحق بواسطة السلاح . ويعتبر عوسجين الدولة ويقاد راسا من الباب العالي هو وموظفو السفارة الى حصن السبعة ابراج . فيذهبون على الخيل تخفرهم ارطة الانكشارية التي تؤلف حرس الصدر الاعظم .

وفي اليوم التالي يصدر الباب العالي بيانا يقدمه رسميا لجميع السفارات ا الاجنبية . ثم يتبعه قرار سلطاني " خط شريف " بتقليد الصدر الاعظم قيادة الجيوش وبتثبيت كل الصلاحيات المتعلقة بمنصبه . ويقوم احد كبار موظفي السراى يحمل امر السلطان ا الى الصدر الاعظم ويقدم له من قبله ايضا سيفا مرصعا بالحجارة الكريمة ، وجوادا مجهزا باثمن عدة . ويستقبل رسول السلطان باحتفال كبير . ثم يقرأ الرئيس افندى "الخط شريف" بصوت عال وفي وسط الديوان ويقترب بعد ذلك جميع اعضاء المجلس من الصدر الاعظم لتقبيل ثوبه . وترسل الدولة قبل كل شيء فرمانات الى حكام الولايات تبين اسباب اعلان الحرب مصحوبة بفتوى المفتي وتامرهم باجراء التنظيمات الضرورية للدخول في الحرب.

ومن عادة الباب العالي ان يعلن الحرب في اواخر الخريف لكي يتمكن في الشتاء

من اجراء استعداداته التي لاتسير بسرعة . وفي الربيع تحصل احتفالات عديدة تعلن سير الصدر الاعظم . وتنصب في اليوم والساعة المعينين من قبل منجمي السراى في باحة قصر الصدر الاعظم احد اطواغه وذلك في وسط حلقة من شيوخ الجوامع السلطانية الذين يقومون بالدعاء والتسبيح . وفي الاوقات التي يخرج فيها السلطان نفسه مع الجيوش ينصب في باحة القصر الاولى وامام قاعة الاسلحة وبحضور كبار موظفي الدولة طوغان من الاطواغ الستة التي لاتكون الا للحضرة السلطانية .

ويحتفل بعد اربعين يوما بابهة اكثر من ابهة الاحتفال السابق بتخطيط اول معسكر في سهل داود باشا اذا كانت الحرب في اوروبا وقرب اسكدار ان كانت ضد بلاد العجم ويحضر هذا الاحتفال الكخية باي ورئيس التشريفات ورؤساء فرق الجيوش المنظمة . وفي اثناء ذلك لايفتأ رجال الدين يتلون الادعية طالبين من الله ان يبارك جيوش الدولة العلية . وفي اليوم التالي ينقل الطوغ الذى كان قد عرض على انظار الجمهور مدة ستة اسابيع الى المعسكر حيث ينصب امام خيمة الصدر الاعظم . وهو يدعى طوغ المحطة "كونك طوغى" لانه يسبق دائما بمرحلة القائد الاعلى . بينما يحمل طوغاه الاخران امامه ويوضعان امام خيمته في كل الامكنة التي يتوقف فيها . وكانت تجرى هذه الاحتفالات بابهة عظيمة في ايام حكم السلطان سليمان الاول . عندما اعطيت للصدر الاعظم الفرنك ابراهيم باشا مهمة السير لمحاربة النمسا عام ١٥٢٩ فان اغا الانكشارية هو الذى سلمه قرار تعيينه قائدا اعلى وقد حمل الاغا رسالة السلطان من السراى الى قصر الصدر الاعظم يتبعه ضباط من فرقته . ولقد ارسل له السلطان مع قرار تعيينه ثلاث خلع سنية وثمانية جياد مجهزة وجوادا تاسعا مجهزا باثمن عدة وسيفا وقوسا وكنانة محلاة بالحجارة الكريمة ورزمات عديدة من افخر الاقمشة . فلقد حمل بكلربك الروم ايلي وهو ياتي في الدرجة الاولى بين حكام الالوية اطواغ ورايات الصدر الاعظم الى سهل داود باشا واقام هذا الاخير في معسكره الاول حفلة رائعة لكبار رجال الدولة ولجيوش العاصمة . وفي هذا الوقت زيد في عدد رايات السلطنة . اذ لم يكن هناك الى ذلك الزمن سوى اربع نصفها ابيض اللون والنصف الثاني اخضر كتب عليها بخيوط ذهبية ايات من القران . وقد اضيف اليها ثلاث رايات ويقول المؤرخ حسن باك زادة بان جميعها تمثل الكواكب السبعة السيارة . فكانت واحدة بيضاء والثانية خضراء والثالثة صفراء واثنتان حمراوتان واثنتان مبرقشتان .

وفي اليوم التالي من نقل طوغ الصدر الاعظم الى المعسكر تخرج بلكات عمال الجيش الانكشاري تتقدمهم ارطة العسس باشي التي يتبعها عدد كبير من الدراويش يرددون كلمة الله هو. وفي هذه المناسبة ينضم الى هذه البلوكات كثير من اصحاب الفنون والصناعات من اهل العاصمة وذلك لكي يضخموا الموكب . وتعرف كل واحدة منها براياتها وبعرض نوع اعمالها الخاصة التي يمثلها ولدان يتبعان البلك في عربة مزينة بالاقمشة والاعلام . ويسيرون الحراثون في الطليعة ويكون رئيسهم حاملا مدا يغرف منه بيده الحب ويبذره . ثم يتبعهم اصحاب المكاتب يتقدمهم جملان عليهما اقمشة ثمينة يركبهما ولدان يحملان بايديهما كتاب القران وهما ينشدان التسابيح ثم ياتي الطحانة والخبازون والقصابون والخياطون وصانعو الاحذية والسراجون الخ ....
ويكون معروضا في عربات الصياغ وصانعي الحلى بعض نماذج من اعمالهم تتلألأ بالذهب والحجارة الكريمة . ويكون كل هولاء العمال متسلحين ومرتدين الملابس العسكرية عدا الرعيان الذين يحتفظون بثيابهم الاان الحيوانات التي يقودونها تكون مغطاة با قمشة ثمينة ومزينة رؤوسها بالريش . وياتي الحدادون اخر الجميع ثم تسير وراءهم ارطة من الانكشارية لتختم الموكب وفي اثناء السير يتلو روءساء الارطات بصوت عال الادعية طالبين من الله ان يحفظ بقاء السلطان وان يعز جيوشه كما ينزلون ايضا اللعنات على اعداء السلطنة . وتردد الجماهير قول امين وتسمع في الفضاء طلقات البنادق والمسدسات اشارة الفرح .

ويترك الانكشارية بعد يومين العاصمة ويسير على راسهم " السقاة " اى " اون باشية " كل البلكات وتسير الارطات بالترتيب حسب اقدمية روءسائها ويمشي الجنود يتقدمهم اثنان يحملان البنادق ويكون لكل بلك جوادان يحملان راياته وقدوره . وبعد مرور البلكات يظهر ضباط كل الارطات من اصحاب رتبة الاوضة باشي فما فوق ويتقدم بعدهم الشوربجية وكبار قواد الجيش . ثم ياتي بعدهم الاغا تتقدمه جياده واطوله واعلامه وراية الانكشارية . ويكون محاط بالدراويش ومعظمهم من فرقة البقطاشية ثم يتبعه حرسه الموءلف من خمس مئة رجل يرتدون زيا خاصا . وينتهي الموكب برجال الموسيقي العسكرية . وتتلى الادعية من كل صوب طالبة فلاح السلطنة كما تسمع التسابيح الدينية والاغاني الحربية مطربة المجد العسكرى ومشيرة الى النصر الذى يعد به الدين الاسلامي المومنين ، والى واجب الجندى في ان يتحمل بصبر الام الحرب وان يضحي حياته بسرور دفاعا عن الدين وعن الدولة . وتعمل هذه الاغاني لعظم التاثيرات في

روح الجماهير وخصوصا على النساء اللاتي يجبن على هذه الاغاني بمباركة العساكر وهن يعولن باكيات م

اما بقية فرق الجيش المنظمة فانها تسير في الايام التالية.عندها يذهب الصدر الاعظم ويطلب الاذن من السلطان للمسير . فيحضر الى السراي يرافقه كبار اعضاء هيئات الدولة الثلاث. ولما يدخل قاعة العرش يضع عليه رؤوساء موظفي قصر السلطان وبحضور هذا الاخير ثوبا من الحرير الاطلس الابيض محلى بفراء السمور وله طوق عريض يتدلى ومزين بمشابك من الذهب . كما يقدمون له سيفا وقوسا وكنانة ووسامين مرصعين بالحجارة الكريمة ويتناول من يدي السلطان الراية النبوية بينما يكون المفتي ورجال الدين يتلون الادعية . وعندما يخرج يناول الراية لرئيس الاربعين ضابط وجوق الضباط عينوا خصيصا لحراستها ثم يمتطي احد جياد السلطان ويمنحه هذا ايضا عشرة جياد مجهزة بابهى عدة ومئتين عبرها مغطاة بالاقمشة .

ويذهب الصدر الاعظم الى المعسكر مجتازا المدينة بموكب حافل فخم يتقدمه كبار رجال الدولة يتبعهم موظفو دوائرهم ورجال حاشيتهم . ويكون في هذا الموكب جماعة من الدراويش ينتمون الى مختلف الفرق ويحملون الفؤوس منشدين التسابيح، كما يكون ايضا هيئة مؤلفة من ستة الاف امير بالبستهم وعماماتهم الخضراء. وعدد من العلماء يمتطون الجياد ، وخمس مئة كاتب من موظفي مكاتب الدولة ، وكل رؤوساء الحجاب بالبستهم الرسمية والثمانية عشر جوادا التي تقاد باليد وهي تخص الصدر الاعظم ، وجياد القائم مقام وامير البحر وعددها تسعة . ويتقدم اميرالبحر حاشيته وكتيبة مؤلفة من اربع مئة بحري بزيهم الخاص وحاملين اسلحة نارية ، ثم ياتي بعدهم القائم مقام وحرس الصدر الاعظم المؤلف من كتيبتين الواحدة منهما مؤلفة من اربع مئةانكشاري يرتدون الملابس الحمراء وعليهم جلد النمور ويكونوا مسلحين بالحراب ، والثانية من مئتي واربعين " تفنكجي ؟ يرتدون الملابس الخضراء ويحملون البنادق . وهم يقودون خمسة جمال يحمل كل منها مدفعين صغيرين . ثم ياتي بعدهم : موظفو الصدر الاعظم يحملون اطواغه واعلامه ثم القاضيا عسكر ونقيب الاشراف ، والراية النبوية يحيط بها اربعون ضابطا " سنجقدار " خصصوا لحراستها ، وخمسون رجلا من فرقة حرس السلطان ، وكل قارئي القران التابعين للسراي والجوامع الكبيرة وهم يرتلون التسابيح . واخيرا ياتي الصدر الاعظم ممتطيا

جواده وماشيا على يمين المفتي الذي يكون راكبا عربة تتبعه حاشيته المؤلفة من ست مئة رجل البعض منهم يلبس الدروع والبعض الاخر اردية حمراء محلاة بشارات ذهبية وفضية والكل مسلحون يحملون الحراب بايديهم . ويأتي بعد الصدر الاعظم الكيخية بك يتقدمه اربع مئة من حملة البنادق ، ثم قائدا فرقتي السباه والسلحدار وهما على راس ثلاثة الاف فارس ، وينهي الموكب اغا الانكشارية مع ثلاث مئة رجل يلبسون الدروع.

ان ترتيب سير هذا الموكب يكون بموجب عادات قديمة يقوم بتطبيقها رئيس التشريفات يساعده ثلاثة من رجاله ، ويكون على جانبي الطريق عند سير الموكب صفان من رجال الانكشارية يمتدان الى خارج المدينة ثم يقف بعد هذين الصفين رجال الجبه جيه والطوبجية والطوب عربجيه ثم يقف بعدهم على طريق المعسكر حراس الخيم . وعند وصول الموكب يذهب الصدر الاعظم لوضع الراية النبوية في السرادق المخصص لها . ويكون المفتي ونقيب الاشراف ومشاهير العلماء حاضرين هذا الاحتفال الذي يجري على اصوات التسابيح واطلاق المدافع وانغام الموسيقى العسكرية .

انما تحصل دائما فوضى اثناء سير هذا الموكب الفخم وهي مسببة عن اباحة الجنود وعن عصبية الدراويش والاشراف الذين ينتقمون للراية النبوية التي يعتقدون انها تدنست من انظار غير المسلمين ، بشتم واهانة اهل الذمة الذين يدفعهم الفضول للتفرج على الاحتفال . ولم يصل هذا الحقد من الشدة كما وصل اليه في يوم ٢٧ اذار سنة ١٧٦٩ عندما ذهب الصدر الاعظم امين محمد باشا من الاستانة الى محاربة الروس فبينما كان يجتاز المدينة بموكبه خرج صوت وسط ذلك السكون العميق يصيح " ابعدوا الكفار " وفي الحال ردد الجمهور هذه الكلمات واضيف اليها " اطردوهم اضربوهم " وعلى اثرها نزلت الشتائم على المسيحيين الذين كان عددهم اكثر من غيرهم بين المتفرجين . ثم زاد الهياج وهجم الجنود عليهم بحرابهم ورماحهم . واخذ هؤلاء المساكين الذين هوجموا بغتة يفرون من كل صوب . وكثيرون منهم لما لم يتمكنوا من الهرب خلعوا قلانسهم معلنين اسلامهم . ولم تراع حرمة النساء اذ كانوا يسوقوهن بالحراب ويطرحوهن ارضا ويسحبوهن من شعورهن لرميهن في الازقة المجاورة او في الدكاكين . ولقد قتل بضربات هؤلاء المجانين مئة شخص تقريبا وجرح اكثر من اربعمئة . وكان بينهم عدد كبير من المسلمين الذين ارادوا حماية المسيحيين . ولقد اهين ايضا بقساوة عدد من الاوروبيين منهم احدى

العيارات المحترمة عيلة احد السفراء الاجانب (١). ولم يطلع الصدر الاعظم على هذه الاعمال الشرسة الا بعد وصوله الى المعسكر . وبالرغم من التفتيشات الدقيقة التي قام بها رجال الامن فان السلطة لم تتمكن من اكتشاف ومعاقبة سوى عدد يسير جدا وكانوا من الاشراف والجنود .

ان ذهاب الصدر الاعظم يسبب فوضى في الادارة الحكومية اذ يصطحب معه وزراء الدولة الثلاثة ووزير الخزينة ودوائرهم . وتعين الدولة وكلاء عنهم يحملون نفس الالقاب ويديرون اعمالهم مدة غيابهم . ويعين بدل الصدر الاعظم نفسه وكيل عنه يسمى قائم مقام. وتعوق هذه الادارة المزدوجة سير الاعمال بسبب اختلاف الاراء وتصادم الصلاحيات وكل ما يجرى من اعمال الدسائس والطمع .

ويعين بنفس الوقت في المعسكر موظفون للقيام بشوئونه وهم : ١) القاضي ٢) الخطيب ٣) الشيخ ٤) مفتش الاوزان والمكاييل واسعار الاطعمة . ٥) كاتب حسابات .
٦) حارس لاطواغ الصدر الاعظم ٧) وكيل الزخائر ٨) وكيل الخيم والعلف ٩) مفتش على الجياد والبغال ١٠) مفتش على الجمال ١١) وكيل المسالخ ١٢) وكيل الافران ويبقى الوزير عدة اسابيع في معسكره الاول فيقوم باتمام الاستعدادات العسكرية لبينما يجتمع كل الجيش في ادرنه التي تكون عادة مركز الالتقاء العام . واذا اراد في هذه المدة دخول المدينة فانه يفعل ذلك انما يكون على غاية من التخفي . ويتبع الموظفون الذين ياتون الى المعسكر لمقابلته مثل هذه الحيطة .
انما تجرى الزيارات التي يوءديها له السفراء الاجانب كل على حدة بحسب المراسيم المعتادة وبابهة عسكرية مهيبة فيجتاز السفير ليصل الى السرادق الذى اعد لتجرى فيه الجلسة صفين من الجنود يلبسون الدروع والخوذ ، ويكون السرادق مزين بالاسلحة على اختلاف انواعها ويوضع بعض منها على الاريكة وهي مرصعة بالذهب والحجارة الكريمة. ويكون الصدر الاعظم جالسا في صدر الاريكة يحيط به وزراء الدولة وهم وقوف . ويجلس السفير على مقعد وورائه رجال حاشيته ثم يوجه بعض الاقوال التقليدية للصدر الاعظم الذى يكون جوابه دائما بنفس هذه العبارات وهي بما انه يسير تحت ظل العناية الالهية وبحماية الراية النبوية وبرعاية لعظم واقوى السلاطين فانه يامل ان يحصل على انتصارات باهرة على اعداء الدولة وان يرجع منتصرا عن قريب.
وفي اليوم المعين لسير العسكر يذهب السلطان منذ الفجر ومعه حاشية كبيرة الى

(١) هي امرة البارونه دي بروغناره سفير نابولي الفا . ولقد كان الدكان حاضرا هذا المشهد الفظيع .

" انجرلي " وهو مكان واقع على بعد ميل من سهل داود باشا وذلك كي يقدم خضوعه العميق للراية النبوية . وعندما تقترب هذه منه يخرج من خيمته ويؤدى لها التحية محنيا راسه ثلاث مرات وواضعا يديه على صدره ثم يرافقها حتى السرادق المخصص لها، ثم لما يحضر الصدر الاعظم لخيمة السلطان لتقديم احترامه له يخلع عليه هذا فروة من جلد السمور وخنجرا مرصعا باللاءلي، وجوادا من جياده يقدمه له رئيس الاسطبلات .

وحينئذ يتابع الصدر الاعظم سيره ماشيا امام الراية التي يرافقها السلطان بمسافة ميل ثم يقف في مكان يدعى " عبد السلام " حيث يستاذن منه الصدر الاعظم بمتابعة طريقه وذلك بتقبيل ركاب السلطان وباحناء ركبته ثلاث مرات.

ويقيم وكيل السلطان في ادرنه منتظرا انتهاء الاستعدادات العسكرية ثم قبل ان يغادر هذه المدينة يقدم له احد موظفي السراى منحة من السلطان موءلفة من حسام وفروة من جلد السمور ورسالة من السلطان كلها مواعظ وادعية لنجاح الجيش ،

ومما يضايق المعسكر العثماني وجود طائفة من العمال المدنيين فيه ووجود رجال الدين والدراويش والبائعين والخدم وكمية هائلة من الخيم والامتعة . وتتالف الجيوش بصورة خاصة وبمقتضى النظام الجديد من عساكر غير منظمة . وهناك جماعات كثيرة من المغامرين والاشقياء ايضا يزيدون في عدد رجال الارطات التي التحقوا بها تحت اسم متطوعين . فيجتمع منهم مابين الثلاث والاربع مئة الف رجل (كما جرى في حملة سنة ١٧٦٩) بدون ان توءمن لهم معيشتهم وبدون ان تجمع لهم الكمية الضرورية من الذخيرة . ولم يكن يوضع اى تصميم للحركات الحربية وكان الجيش لايدخل الحرب قبل الثالث والعشرين من نيسان ويلجأ الى معسكره الشتوى منذ عيد القديس ديمتريوس اى في السادس والعشرين من شهر تشرين اول وبعد ان يكون قد سرح قسم من العساكر ولايكون في الغالب عند الروءساء اى فكرة عن الفن الحربي وكانوا ينتخبون بدون تمييز من مختلف هيئات الدولة . واذا كان عندهم نبوغ فان الافكار الخرافية تشل حركتهم ولا يقومون باى مشروع مهم قبل ان يوافق عليه المنجمون ويحدث ان تتناقض الادلة التي يشير اليها منجمو الجيش ومنجمو السراى الامر الذى يجعل القواد في حيرة غريبة . ويرجع القواد ايضا الى التقاويم لانتقاء الايام المناسبة للقيام باعمالهم الحربية ومن القواد من يكون قد احرز انتصارا في احد ايام الاسبوع

منراه يرفض ان يحارب في غير مثل ذلك اليوم . ولكل منهم ايضا يومه المشوؤم يمتنع الشروع باى عمل فيه وكثيرا مايرجعون الى الايات القرانية اى انهم يفتحونه كيفما صدف ويشدون حسب معنى اول اية من الصفحة . ويحصل تغيير كثير في منصب قيادة الجيش وذلك مسبب عن الدسائس والاهواء والمعتقدات الخرافية . واسوء من ذلك هوان الجندى عندما لايتداول كل مرتبه يثور ويبيح لنفسه القيام بكل انواع التعديات . ويضطر القواد حينئذ الى تركهم يقومون بجولات في اراضي الاعداء حيث يذهبون في الغالب ضحية جشعهم المفرط .

ان الغزوات هي النوع الحربي الذى يوافق طبيعتهم فانهم يكتسحون البلاد العدوة ويتلفون كل ما لم يتمكنوا من حمله ويجرون في الاسر الرجال والنساء والاولاد . ويصيب ولايات الدولة التي على الحدود مثل هذا المصير الشاق عندما تحاول العساكر ان توقف هجمات عدو يفوقها عددا . وهي اعمال هائلة استعملت في كل الحروب تقريبا التي شنتها الدولة على العجم .

ولقد كان الجندى التركي في كل الازمنة شرسا عديم الطاعة . ولم يتمكن اقدر السلاطين واكثرهم شدة من اخضاع ميولهم التمردية . ولايمكن للانسان الا ان يتعجب عندما يقرأ حكم احد المؤرخين العثمانيين وهو علي محمد افندى حكمه الخالي من المحاباة عن امته في حادث نهب مدينة تبريز . فلقد اتخذ الصدر الاعظم ازدمير اوغلو باشا بعد ان استسلمت هذه المدينة عام ١٥٨٥ كل التدابير التي توحي بها الحكمة للمحافظة عليها وعلى ارواح سكانها . الا ان نزاعا وقع في اليوم الرابع بين بعض الاهالي وبعض الجنود اوقع بهذه المدينة الجميلة كل الاهوال التي تصيب مدينة وقعت بايدى الاعداء بعد هجومهم عليها . وجرى فيها النهب مدة ثلاثة ايام ولم يكن بالامكان ايقاف اندفاع الجنود . وكان الصدر الاعظم مريضا الا ان الاحوال اضطرته الى ان يامر بنقله على حمالة الى شوارع المدينة ولم يتمكن من وضع حد لهذه المذبحة الا بعد ان امر بتقتيل اكثر الجنود عنادا . ولقد قتل في هذه المجزرة عشرة الاف شخص اما تبريز وهي من اكثر المدن العجمية ازدهارا فقد اصبحت خرابا . وبعد ان يصف المؤرخ قصورها وجوامعها وحماماتها وفنادقها وحدائقها وجميع انواع ابنيتها افخم وصف يقول : " يجب ان نقدر ذوق العجميين نحو الفنون وما يبذلونه من عناية في تحسينها كما يفعل الاروبيون . ولايسعنا ان نقول نفس الشيء نحو امتنا العثمانية التي عوضا من ان تقتبس مثل هذه الثمرات من المدنية فانها تحتقر حتى المحافظة

على المنشآت التي تكسبها بحروبها وابعد من ذلك فان عندهم دافع يدفعهم الى جنون/ تهديم كل شيء ٠٠

تصدر من المعسكر العثماني في اوقات الصلاة اصوات المؤذنين والدراويش والاشراف وهم يرتلون ايات القرآن ٠ وهم يتنقلون اثناء المعركة بين الصفوف ويذبون الحماس في الجنود بمواعظهم الدينية مرددين بلا انقطاع هذه الكلمات : "ياغازي ، ياشهيد " ويرمون التراب على الاعداء متشبهين بالنبي ٠ ويعطي القواد اشارة ابتداء الحرب بدعوتهم أسم الله " الله الله " وان يقرأوا اياتاً من القران مثل هذه : " وما من نصر الامن عندالله حاربوا في سبيله تعالى الخ ٠٠٠" وهم يامرون بتقديم الضحايا فتذبح الخراف والمعز على اصوات التسابيح ٠ وعند ابتداء الحرب تقام الصلوات العامة في مساجد العاصمة ٠ وتكرر من جديد اذا نزلت بالجيش هزيمة ٠ وتجتمع في ايام النحس الجماهير من الجنسين ومن مختلف الاعمار في الهواء الطلق طالبة معونة الله ٠ وقد حصل في مثل هذه الحالات ان قام بعض السلاطين وانتخبوا اثنين وتسعين موظفا من اتقى موظفي بلاطهم يحملون كلهم اسم محمد ويامرونهم بقراءة اول سورة من القران اثنين وتسعين مرة في الاسبوع ٠ ويكون ذلك اثناء احدى المواقع او طيلة مدة الحرب ٠ ويامر قائد الجيش بجمع شيوخ المعسكر حول الراية النبوية لقراءة سورة من القران اثني عشر الف مرة واحيانا سبعين الف مرة ٠ حتى انهم يلحون في بعض الاوقات في قراءة كل القران او قراءة مجموعة من الاحاديث النبوية ٠ وهو عمل لايمكن انجازه الا بعد ايام ٠

واذا اصابت الجيش هزائم ممكن ان تفل من عزيمة رجاله فان السلطان يرسل الى القواد "خط شريف " كله مواعظ ووعود ٠ وسوف نذكر قطعة من الرسالة التي وجهها السلطان مراد الثالث سنة ١٥٧٩ لجيشه الذى كان يحارب العجم ٠ وبعد ان ذكر بان اولى واجبات المسلم هي محاربة الملحدين اعداء المعتقدات السنية ، وبعد ان حض الجنود في التشبه باجدادهم الذين اشتهروا بمآثرهم المجيدة العديدة قال لهم : " تسلحوا بالسيف الابتر وادخلوا بشجاعة في ميدان البطولة ٠ اجعلوا هذا الخليط من المنافقين والبرابرة يشعر بكل وطأة سخطكم وبمنتهى قوة باسكم وبافضلية معتقداتكم ٠ وكلما رفعت انتصاراتكم سناء الاسلام ومجد السلطنة وعظمة العرش كلما استحققتم حسن التفات سلطانكم ٠ فالرتب والتقدمات والاعطيات وثروات لانهاية لها من النعم ستوزع عليكم كل حسب همته واعماله ٠ فكروا انني

بينكم لاني معكم روحا وقلبا ان ادعيتي ومباركتي لكم لاتنقطع وهي ترافقكم في اعمالكم."

وكانت النداءات التي وجهها مصطفى الثالث لجيشه في الحرب الغير الموفقة التي كانت قائمة بين الدولة وبين الروسية مليئة بالشكوى والتوبيخ . وخصوصا ذلك النداء الذى وجهه في اخر حرب سنة ١٧٧٣ قبل وفاته بقليل . فلقد نسب اندحار جيوشه لعدم مقدرة قواده ولعدم وجود الحمية والتيقظ والبسالة عند الضباط ولعدم طاعة الجنود . وقد نوه بشدة الالم الذى انتابه وخصوصا عندما تذكر انتصارات اجداده ولقد تحسر من ان جيوشه عوضا من تجديد الجهود لاجتياز الدانوب وطرد الاعداء من الضفة الثانية تركت نفسها تفاجأ وهي على الضفة اليمنى حيث بدا ان كل شيء اصبح تحت رحمة الكفار . وذكر بانه ما من شعب اسلامي اصابه مثل هذا العار الذى حل بالعثمانيين ثم قال : "اين هي اذن غيرتكم لاعلاء مجد النبي وشرف الاسلام وعظمة السلطنة ؟ الى متى اذا سيعدل الجندى العثماني عن ترك مركزه والتخلي عن راياته وعن الفرار من معسكراته وعن الهرب المخجل من امام اعدائه ؟ اى متى سيقوم بواجبه اذا كان ينسى ان يفعله في اكثر الاوقات اهمية ؟ اهل هذه هي اعمال الغيرة والاخلاص الصادرة عن الذين هم مدينون في كل شيء للدولة والذين يعيشون من كرم سلطانهم ويتناولون خبزهم ولحمهم من خزينة الامة . كيف يمكن للمحارب المسلم ان يتحمل كل هذا العار؟ افلا يعلم بان القران الكريم يقول بان الله سعيذبه اشد العذاب ؟ وما سيكون مصير السلطنة اذا اصابتكم من سوء الحظ هزائم جديدة ايقظوا فيكم اذاً الحمية الحربية لتردوا الكفار وتنتقموا منهم ولتعيدوا شرفكم العسكرى ولتحطوا من تعجرف الاعداء المصطنع والذى ليس له حد واخيرًا لتستحقوا نعم سلطانكم في هذه الدنيا وثواب الله في الاخرة ".

وسنذكر ايضا "الخط شريف " الذى يوجه للجيوش بمناسبة انتصاراتها . فان الانتصارات الاولى التي احرزها الصدر الاعظم الداماد علي باشا سنة ١٧١٥ في الموره جعلت السلطان احمد الثالث يوجه رسالة للجيش ابدى فيها منتهى سروره . واظهر فرحه من جراء الاستيلاء على كورنت محرضا الجيش على متابعة غزوته بنفس الحمية لكيما يستحق كل شخص حسب اعماله المكافات التي يعد بها الدين والدولة . ثم قال : فلتحظوا كلكم ولتتشرفوا بتحيتي السلطانية . ايها الجنود الشجعان الذين يسيرون على طريق الدين والبطولة والذين ليس لهم من سرير يستريحون عليه غير الارض ومن وسائد سوى الحجارة . انتصروا على الدوام ولتكن

وجوهكم بيضاء كصفحة النهار وبهية كبهاء الجيوش المنتصرة . ولتكن سيوفكم دائما قاطعة ، لامعة ومشدودة بعقد معقدة بنجادة البسالة . وليبارك الله الخبز والملح الذى تقدمه لكم نقودى السلطانية . اني اترك كل منكم في حراسة الله تعالى . وبركتي ترافقكم . ان افكارى وروحي هي معكم ليلا نهارا لكم التحية والسلام " .

واذا احرزت الجيوش انتصارا ما فان الادعية تصعد من كل المعسكر ، وتقام في جوامع اشهر مدن الدولة صلوات الشكر لله تعالى . وتصدر الاوامر باضاءة الانوار وان يعم السرور مدة ثلاثة او سبعة او تسعة ايام . وكان القائد فيما مضى الذى يفتتح مدينة ما يرتب احتفال دخوله فيها ظهر يوم الجمعة . فيذهب راسا الى الكنيسة التي يحولها الى جامع ويقوم باجراء الاعمال الدينية كما يقيم الصلوات باسم السلطان .

ويرسل السلطان للصدر الاعظم عندما تحرز الجيوش انتصارات هامة رزمات من الفراء والخلع ليمنحها للضباط الذين ابلوا بلاء حسنا . ويجرى التوزيع باحتفال وبحضور هيئة مجلس اركان الحرب . وهناك شارة امتيازات عسكرية وهي اوسمة من الذهب او الفضة "تشلنك" توضع على العمامة ولا يستعملها غير الرجال العسكريين . وكان الغزنك ابراهيم باشا هو اول من حاز على واحدة منها وكان ذلك بعد انتصاره على النمسويين في موهاكز سنة ١٥٢٦ . ولا تمنح الاوسمة الذهبية الا لمشاهير الضباط . اما الفضية وهي مخصصة لبقية الرتب فانها على خمسة انواع مختلفة تؤلف خمس طبقات مناسبة لها . فالصدر الاعظم اى القائد الاعلى هو الذى يعين الرتب العسكرية لرجال الجيش وهو الذى يتصرف ايضا في المناصب المدنية للولايات القريبة من الامكنة التي تجرى فيها العمليات الحربية .

ويتوصل ايضا لازكاء حماسة الجنود بما يمنحون من اعطيات في مناسبات كثيرة . اذ تفرق عليهم مبالغ كثيرة في المعسكر الاول تحت اسم " منحة الحرب " . وعند الشروع في الحرب كان السلاطين فيما مضى يمنحون للشخص الواحد الف بارة او الفا وخمسماية او الفين ايضا . وقد جعل السلطان مراد الرابع هذه الاعطية ذهبا (دوقة) . وان ربح معركة او افتتاح مكان للسلطان ما تسبب للجنود منح جديدة . انما وجد انه من الانفع تقديم المنح للذين يبلون بلاء حسنا في رحى المعارك . فيكون الصدر الاعظم او احد كبار موظفيه محاطا باكياس الذهب والفضة

فيتداول بقبضته منها ويعطي كل من يقدم له اسيرا اوراس جندى من الاعداء . وفي بعض الاحيان يخرج المنادون في الليلة السابقة للمعركة وينادون في المعسكر الثمن الممنوح لكل راس اولكل اسير ويكون عادة بضع قطعات ذهبية . وكان الصدر الاعظم الداماد ابراهيم باشا يدفع في غزوته للموره سنة ١٧١٥ بين (٢٠٠)و(٣٠٠) قرش لكل راس ومن ٤٠٠الى ٥٠٠) قرش للاسير ولقد امتنع عثمان الثاني عندماكان يحارب البولونيين من اتباع العادة وذلك حبا بالاقتصاد الا ان هذاالعمل اثار عليه صخب الانكشارية وكان من احدى شكاياتهم ضد هذا السلطان التعيس عندما ذهب بعد بضعة اشهر ضحية هياجهم. ويتناول الجندى ايضا من رؤسائه ثمنا ما للانوف والاذان التي قطعها من جثث الاعداء هذا بالرغم من ان التمثيل بالاموات ممنوع شرعا عند المسلمين . وكانوا يعملون منها عادة مسابح هائلة يفتخرون بحملها في العاصمة .

وتسرع الدولة بعد انتهاء الحرب من تسريح قسم من العساكر الجديدة الا ان اسمائهم تظل مسجلة في قائمةالجيش . وتستعمل الدولة حذاقة في انها تعرض على عساكر ولايات اوروبا الذهاب والخدمة في الولايات الاسيوية القاصية وللجنود الاسيويين في الحدود الاوروبية ويسمح لهم ترك الخدمة ان ارادوا . ومعظمهم يفضلون ترك الخدمة اذ لايرضون بالراتب الزهيد المعطى لهم في وقت السلم ويرجعون الى بلادهم حيث يشتغلون بمهنهم . وتوسط السلطة احيانا نائبي الضباط لاقناع الجنود الذين قرروا البقاء بترك الخدمة وان يطلبوا من ذاتهم الاذن بالتسريح . لان الحكومة لاتريدان تستعمل معهم القوة.واذا ظل بالرغم من هذه الاجراآت عدد الجنود كبيرا جدا فانها تتراك للزمن امرتخفيفه شيئا فشيئا . وقد ادت الاصلاحات السريعة التي تعمل وقت السلم في غالب الاحيان الى نتائج سيئة . ولماكان ليس لدى الجنود المسرحون مالا للرجوع الى بلادهم فانهم كانوا ينشرون في الولايات ويعيشون من السلب . وقد كان ذلك السبب الاول في حصول الاضطرابات المؤسفة التي قامت في الروايلي بعد صلح سيستوفا وصلح جاسي .

ونحن نرى من التعليمات التي وجهها الصدر الاعظم الداماد ابراهيم باشا للسرعسكر احمد باشا الذى كان يقود الجيوش سنة ١٧٢٦ في الحرب ضد العجم ، نرى كيف يجب ان تكون سيرة قائد عثماني في اوقات الحرب . وتوجد هذه الرسالة التي كتبت بانشاء فخم وعلى غاية من الاسهاب في تاريخ جلبي زاده بنصها الكامل . فالصدر الاعظم يوصي القائد الايقوم باى عمل قبل ان

يستشير المجلس العسكري وان يراعي اراء القواد الذين اشتهروا باختباراتهم ومقدرتهم ، وان يتبع في كل اعماله قوانين الفن الحربي ، وان يجيد وضع جنود طلائعه ، وان يضع حرسا من الخيالة يسهرون كل الليل لكي لايوءخذ على حين غره ، وان يمنع الجنود الذين يذهبون في جلب الكلاء للخيل عن الابتعاد كثيرا ، وان يراقب الاعداء ويكون كله عيوناواذانا ليعلم قوتهم ، ويحبط خططهم ، وان يستعمل ضدهم اما السلاح واما الحيل نظرا لكون الحرب حيلة • وان يتحصن جيدا بالمتاريس اذ كان قريبا منهم وان يحسن اختيار موقع المدفعية ، وان يترك الطرود والامتعة الكبيرة بين جنود الموءخرة وبين الجيش المحارب • وان يكون لديه دائما احتياطي من الفرسان لكي يسيروا بسرعة عند اول اشارة لمساعدة الجناحين • وقال له بانه يترتب عليه بعد ان يعين مراكز العساكر قبل المعركة ان يتفقد الصفوف وان يكلم الجنود بحنان ابوي ويذكر كل ما يمكن ان يدب فيهم الحماسة مرددا اسماء ابائهم واخواتهم واولادهم واصدقائهم ، وان يذكر جميع الجنود اسم الله تعالى عند ابتداء المعركة ويطلبوا منه النصر • وان يسجد القائد ويضع جبهته على الارض عندما يعطي اشارة الحرب طالبا من الله وهو يبكي وبمنتهى الخشوع معونته وطالبا شفاعة النبي ومساعدة الارواح السماوية • ثم عليه بعد ان يمتطي صهوة جواده ان يستل حسامه ويضرب به الهواء ثلاث مرات : الى الجانبين والى الامام ثم يوجهه صوب العدو وهي وسيلة لطلب النصر • وان يكون اثناء القتال اشولة للجلد والبسالة وان يضحي بحياته اذ قضى الامر في سبيل مجد الدين وفي خدمة السلطان •

ومنذ عهد سليم الثاني لم يقود السلاطين بانفسهم الجيوش كما ان الروح العسكرية في الامة ضعفت • لم يكن العلماء متحمسين كالسابق بذلك الاندفاع التعصبي لمحاربة الكفار • وهم مع كونهم يقولون بضرورة الحرب من الناحية السياسية وكونها مطابقة للشرع فانهم يبذلون كل مابوسعهم لمنع السلطان من ترك العاصمة ويظهرون له من اجل ذلك حججا قوية مثل الاخطار التي يمكن ان يتعرض لها شخصه المقدس والمصاريف الكبيرة التي تسببها تنقلاته هذه • ويهم المفتي شخصيا كما يهم القضاة عسكر في ان لايذهب السلطان على راس الجيوش لانهم يضطرون حينئذ الى مرافقته • وبما انه يترتب ايضا على وزراء الدولة ان يرافقوا الصدر الاعظم فانهم يبدون نفس الممانعة نحو فكرة الحرب لانها تسبب لهم مصاريف زائدة وتمنعهم من التنعم بحياة ناعمة سعيدة • وليس لدى

الصدر الاعظم ايضا دوافع تجعله يطلب الحرب اذ هناك مايجعله يخاف اكثر كثيرا من مكائد منافسيه مدة غيابه وخصوصا من الذى ينوب عنه لانه القائم مقام يكون عادة من اكبر اعدائه اذ يقدح فيه ويعمل في معارضته ليتمكن من اخذ مركزه . وقد حصل في عهد عدة سلاطين ان تقوم خصومات فاضحة بين الصدر الاعظم الذى يكون على راس الجيوش وبين نائبه في العاصمة تسبب قلاقل في الدولة . ولهذا فان الصدور العظام يبدون كل ما بوسعهم للرجوع الى العاصمة او لاقناع السلطان للمجيء واستلام قيادة الجيش . ولما اضطر الصدر الاعظم سنان باشا عام ١٥٩٦ للسير الى النمسويين فانه عرض على السلطان محمود الثالث كي يحثه للحضور الى المعسكر بان القواد الماهرين يخفقون دائما ويرجع السبب للمنافسة المشؤومة التي تحصل بين رؤساء الدولة . فلقد قال : " ان كان الصدر الاعظم هو الذى يقود الجيوش فان القائمقام عوضا من ان يساعده يضيق عليه املا ان ينهزم الصدر الاعظم فيقال من منصبه ويأخذ هو مركزه . وان كان السرعسكر الذى يقود الجيش فان الصدر الاعظم المقيم في العاصمة يسيء اليه ويعارضه ويقطع عنه كل مساعدة خوفا من ان يحرز انتصارات باهرة تكون السبب في اعطائه الخاتم الهمايوني بدلا منه ." واذا هاج الجند فان الصدر الاعظم يتخذ ذلك وسيلة للانسحاب من امام العدو اولوضع نهاية للحملة . فانه يحرضهم خفية كي يلحوا في طلب ارجاعهم الى مراكزهم الشتوية ويمضي هو بسرعة الى العاصمة ليحبط مكائد منافسيه .

ونعيد القول بان الجيوش العثمانية في ايامنا هذه تتالف بصورة خاصة من عساكر غير منظمة لا تجند الا لمدة ستة اشهر وبما انها عديمة الطاعة وخالية من اختبارات الخدمة العسكرية فانها تزيد في عدد الجيش اكثر من ان تزيد في قوته . ويمكن للدولة في الحملة الاولى من تعبئة ثلاث مئة الف جندي تقريبا على قدم الاستعداد للسير . واذا كانت العمليات الحربية ناجحة فانه لا يحصل هناك عجز في تجنيد الجيش الا ان اقل الانهزامات كافية لدب اليأس في النفوس . ويقل عدد العساكر بما يهرب من الجنود اثناء الخدمة . ويصبح من الصعوبة بمكان تعبئة جنود جدد . وينطفيء الحماس العسكرى كما يزول امل غزو البلاد المعادية لاخذ الغنائم الحربية . عند ذلك تعمل الافكار الخرافية في اخماد النفوس . فتنسب الانهزامات الى غضب الالهة والى عدم التوفيق اللاحق بالسلطان وبعماله . ويخضع الناس لمشيئة القدر بدون ان يفتشوا عن السبب الطبيعي

على المصائب النازلة بهم .

الباب الثامن

بحرية الدولة العثمانية

كانت غليبولي اول مرفأ عسكري للعثمانيين حيث ظلت بحريتهم مدة طويلة تتالف من demi-galea ، brigantin وغيرها من المراكب الصغيرة . وكان اليونان والطليان اساتذتهم في فن الملاحة كما يدل على ذلك الاصطلاحات البحرية التي استعاروها من اللغتين الطليانية واليونانية . ولم تصبح قوة الدولة البحرية عظيمة الابعد فتح الاستانة . وكان بالطه اوغلوسليمان بك حينئذ رئيس الاسطول برتبة قبودان وهو الذي ساعد في احتلال هذه المدينة وذلك بان انشأ سفنا صغيرة في المكان المعروف الان بحصن الروم ايلي على البوسفور ونقلها برا ثم انزلها في المرفاء في مكان يسمى قاسم باشا . ولقد منحه السلطان مكافاة له على هذا لقب قبودان باشا مع طوغين كما منحه حكم مدينة غليبولي . ورقي بعد بضعة اعوام الى رتبة وزير وزادت موارده بما انعم عليه السلطان من اعطيات جديدة ولا يزال يحتفظ خلفاوءه بالتمتع بنفس هذا الفخر وهذه الارباح .

كان الاسطول العثماني في عهد سليمان الاول ينافس اساطيل دول جنوبي اوروبة متحدة للسيطرة على البحر المتوسط وكانت مراكب الدولة تمخر في الخليجين العربي والفارسي وفي بحار الهند . ولكن بعد هذا العهد اصابت الاسطول صدمة هائلة وذلك في خليج ليبانت . ومن ذلك الحين اثرت عليه ~~كما اثرت عليه~~ كما اثرت على بقية فروع الادارة الحكومية حالة الفتور التي اصابت السلطنة عندما توقف السلاطين عن حكم الدولة بانفسهم . انما نهض الاسطول في اخر القرن الماضي وكان ذلك بهمة اميري البحر ، الغازي حسن وكوجوك حسين .

يتالف الاسطول حاليا من واحد وعشرين سفينة كبيرة منها اربعة من ذوات الطبقات الثلاث وست " فرقتات " او بوارج واربع نقائر " كورفيت " وحوالي الاربعين صندلا منها ما هو مسلح بالمدافع ومنها ما هو مخصص لضرب القنابل المحرقة . وتتركز هذه العمارات في نهاية المرفاء وعلى طول الشاطئ حيث يمكن تسليحها ويكون عمق الماء من سبعة الى ثمانية اذرع .

وكان في الترسانة اوار الصناعة في الايام الاخيرة حوض لانشاء السفن وهو من صنع احد المهندسين الاسوجيين . وفي الاستانة تسع (ورشات) خمس منها في الترسانة و واثنان في "خاص كوى " واثنان في "ايوان سراى " وهناك عدد كبير منها في شواطئ البحر الاسود مثلا في حوبنلر وحاجي اغزى وقومجكاز وغلتز وقرة اغتش وفي "سينوب" . وانشئت في البحر الابيض ورش في نيكوميديا وبدرون ومارمارس وتاجوز وميلتين ورودس وكمرلر وكازدغي . وهذى الورش الاخيرة هي اعظمها .

ولا يمكن لاي دولة ان تحصل على اسطول بتكاليف ضئيلة مثلما يمكن ان يحصل عليه الباب العالي فيما اذا عرف كيف يستفيد من الهبات التي حبت الطبيعة بها البلاد الخاضعة له لانها تنتج كل ما هو ضروري للاعمال البحرية . فغابات نيكوميديا وكرداغي وبندرما تعطي خشب السنديان والصنوبر بكثرة . ويوجد الحديد في ساماقو وايندادا وقوله . ويستخرج الصمغ من تيفريبون والزفت والقطران من ؟ كازدغي " . وتنتج صامسون وفهصه واونيه القنب وتصنع الشراع في البلاد التي على الدردنيل . وعلى كل مقاطعة من هذه المقاطعات ان تقدم سنويا للبحرية السلطانية كمية معينة من منتوجاتها باسعار زهيدة جدا حددت منذ القديم (١) واذا لم تكن الدولة بحاجة الى شيء من هذه الاصناف فانها تباع باسعار السوق الحالية . اما بقية اللوازم مثل الحبال والخام والبقسماط (الخبز) والزيت فان ~~يقدم من يتكلف~~ الملتزمين يقدمون بتقديمها باسعار قديمة وزهيدة جدا . ولهذا فانها تكون من النوع الرديء . ويصل للدولة ايضا سفن كبيرة وبوارج يقدمها حكام الولايات الذين يترتب عليهم انشاؤها للحكومة . الا ان بناءها يكون في الغالب غير متقن وتضطر الدولة الى اعادة النظر فيها في ترسانة الاستانة . ولكن بالرغم من هذه الاصلاحات فانها لا تكلفها كثيرا وهي لا تظهر ترددا في عدم اعطاء الحكام ثمنها او انها

---

(١) وهي ثلاثة الاف قنطار صمغ ومثلها من الزفت والقطران بسعر قرش واحد للقنطار . وستة الاف قنطار من الحديد من ساماقو بخمسة قروش القنطار . وتسعة الاف قنطار من الحديد من ايندادا ←

على الاقل لاتدفع لهم سوى بعض ما تكلفوه .

ويوجد معملان كبيران لصنع المدافع . وفي الاستانة وغليبولي وسالونيك معامل لصنع البارود كما انشيء منذ سنة ١٧٠٨ في التوسانة معمل كبير للحديد لصنع المراسي .

كان يتالف اسطول الدولة دائما وذلك حتى اواخر القرن الماضي من اربعين سفينة من ذوات الستة عشر مقعدا للتجذيف يبنى معظمها على حساب مختلف المدن والجزر وتحمل اسماءها . وكان يقود هذه السفن " بكوات " يتحدرون من اصل رفيع وهم من اصحاب الطوغين ويكون التعيين مدى الحياة ووراثيا ايضا . انما اهمل الباب العالي استعمال مثل هذه السفن وذلك في عهدي السلطانين مصطفى الثالث وعبد الحميد الاول ولم يحتفظ بغير سفينة امير البحر المسماة " باشترده " وهي كثيرة الزينة وتستعمل في بعض الاحتفالات .

ان كبار موظفي البحرية الذين ياتوا بعد القبودان باشا امير البحر هم : القبودانا والباترونا والريالا الذي يمكن من ناحية الرتبة مقارنة الاول بالاميرال والثاني بنائب الاميرال والثالث بالكونتر اميرال . واطلقت منذ عهد محمد الثاني هذه الاسماء على الثلاثة سفن كبيرة واصبحت القابا للذين يقودونها . واطلق على سفينة رابعة عام ١٧٦٤ سفينة الباشا (وهي مخصصة لامير البحر . وعليها ثلاثة مصابيح في المؤخرة ومصباح على الصاري الكبير وراية طويلة فوق العلم وعلى نفس الصاري . وتكون هذه الراية تحت العلم في سفينة القبودانا وعلى الصاري الامامي في سفينة الباترونا وعلى الصاري الخلفي في سفينة "الريالا" وهناك نوعان من الاعلام الواحد اخضر يمثل سيفا بحدين " ذو الفقار" والثاني احمر عليه رسم هلال ونجمة (١) اما علم امير البحر فانه عدا ذلك يحمل رمز السلطان "الطغرة" . وتسمى هذه السفن الاربع السفن ذات العلم (سنجق كملري) لتمييزها عن بقية المراكب الكبيرة (التايي كملري) .

وتخرج في كل سنة من الاستانة عمارة يقودها امير البحر متجهة الى البحر الابيض . والسلطان بايزيد الثاني هو الذي امر سنة ١٥٠٢ بخروج مثل هذه الدوريات وذلك لحماية بحار وشواطيء الممتلكات الاوروبية ضد العمارات الاجنبية وضد كثير من القراصنة الذين يغيرون

بأربعة قروش القنطار . وستة الاف قنطار من القنب بستة قروش القنطار . واثنتا عشرة قطعة من الشراع كل قطعة بطول سبعة اذرع ونصف بست واربعين بارة .

(١) ولا يرى الهلال فيما عدا ذلك الا على راس المآذن وفي منتهى بعض ابنية الدولة وعلى الكرة التي في راس عصا العلم .

عليها .

وفي مطلع القرن السابع عشر اخذت عمارة ثانيه تجوب البحر الاسود للقضاء على اعمال رجال القوزاق الذين كانوا يعيثون فسادا على شواطئه وقد تجروا عام ١٦٢٤ الى التقدم بقواربهم حتى منتصف البوسفور . اما الان فخروج الاسطول ليس له من هدف سوى جباية الجزية من جزر الارخبيل وجعل امير البحر قادرا على اجراء سيطرته العليا على ممتلكات الدولة البحرية .

اما رجال الاسطول فانهم مؤلفون من جنود بحرية لَوَنْدْ وطوبجية ونوتية ومن بحارة اكثراختيارا مخصصون لتسيير السفن . وهم يجندون لمدة ستة او سبعة اشهر ويتناول الجميع بلا تمييز ستة واربعين قرشا كراتب لكنهم ياخذون نصف المبلغ سلفا والباقي في منتصف شهر اب وهو نظام قديم تمشت عليه الدولة . ويجرى تسجيل اسماء الجنود ودفع القسم الاول من راتبهم باحتفال في قاعة مجلس امارة البحر بحضور القبودان باشا والدفتردار الثاني ومفتش معين من قبل الباب العالي وعدد كبير من موظفي دائرتي المالية والبحرية .

ويوجد في سفينة امير البحر ستون ضابطا وفي بقية السفن عدد من الضباط مناسب لحجمها . ورئيسهم هو " الصوارى قبوداني " يامر على ثلاثة من الملازمين يسمى الواحد منهم " ملازم قبودان " ولكل سفينة عشرون رئيسا يقومون بتسييرها ولهم الاشراف على الشراع والالات . كما انه يوجد رئيس لعنابر الذخيرة يسمى " يلكنجي " ، ورئيس على الجنود البحرية يدعى " قليون اغاسي " وله نائبان يطلق عليهما اسم " اوضه باشي " . اما النوتية فانهم تحت امرة " باش شاوش " يكون له ستة ضباط " قليون شاوشي " يكون ثلاثة منهم في مقدمة السفينة وثلاثة في المؤخرة . يمسكون عصا بايديهم ويراقبون سير السفينة . ويقوم على حراسة السلم اربعة من الجنود Guardiyams يحبسون في كل ليلة العبيد في اسفل المركب . كما يوجد ايضا إمام ومؤذن و" دومنجي باشي " اى قائد الدفة يساعده ستة من الرجال و" عنبرجي باشي " نائب رئيس العنابر ومعه عشرون حارسا للعنابر . و" جبخانجي باشي " يساعده اثنان من الوكلاء و" طوبجي باشي " مع ستة ضباط للمدفعية . واربعة من رؤساء النوتية . " ورئيسان فلوكه " واحد لقيادة صندل القبودان باشا والثاني لصندل " الصوارى قبوداني " يساعدهما ثلاثة ضباط ، واخيرا " الصندل رئيسي " رئيس السفينة المسماة صندل . اما البحارة فانهم يتالفون

من مئتي بحري واربع مئة نوتي وطبجي وخمسين " فلوكه جي " اي جذاف وخمسين من العبيد .
ويتناول هولاء العبيد بعد ان يكونوا قد عملوا في غزوة واحدة، ستة واربعين بارة في اليوم وكمية من الطعام مثل بقية البحارة .

وتقدم الدولة لكل رجل من رجال البحرية وطيلة مدة الحملة كيلوين من الرز ومثلهما من العدس وثلاث اقات من الزيت كما تقدم لكل منهم اقتين ونصف من الخبز عن كل خمسة ايام .
وينقسم البحارة في السفينة الى بلكات "مانكا" بحسب بلدان لكل مدفع . ولكل مانكا طباخ ووكيل يدعى "مانكا باشي" ويعين عادة في هذا المنصب اكبرهم سنا يقوم بتامين كل ما يلزم رجاله من ادوات ومؤن . ويترتب عليه الا يقدم لهم اللحم الامرة كل اسبوعين . والرز مرتين في الاسبوع . وهو ياخذ من اجل ذلك من القبودان مثتي قرش من اصل مرتبات البحرية وهو يعطي بيانا بالمبالغ التي صرفها عندما ترجع العمارة الى الاستانة . وعندئذ يبيع القبودان بالمزاد العلني وعلى نفس السفينة ادوات كل مانكا على حدة كما يبيع مازاد عنها من المؤونة ثم يفرق الثمن على رجالها .

ويتناول القواد الذين في الخدمة الف قرش للحملة السنوية . اما راتب القبودانية الذين ليسوا في الخدمة فيكون قرشا فقط في اليوم . الا ان كل واحد منهم يتناول راتب ثلاثة من البحرية فياخذ عن كل واحد ستة واربعين قرشا وهذا الراتب يعتبر مخصص لاولادهم .
وللقبودانا راتب محدود يقدر باربعة الاف وخمس مئة قرش . وللباترونا ثلاثة الاف وخمس مئة ويتناول كل واحد منهم راتب عشرة الاف بحري . عدا ذلك فانهم يربحون مرابح عظيمة من مرتبات عساكر بحريتهم . فالاول يتناول مرتبات من اجل الف رجل والثاني من اجل ثمان مئة والثالث من اجل سبع مئة . اما عدد بحرية بقية السفن فانه يحدد كل مرة من قبل اميرالبحر . الا انه لايكون تاما ابدا فيتناول قواد السفن مرتبات وطعام الرجال الذين ينقصون . وفي الحقيقة فانه لايحصل استعراض البحرية الا قرب الدردنيل عند ذهاب العمارة ووقت رجوعها . انما يعرف الروؤساء كيف يتجنبون تاثير هذه المراقبة وذلك اما بالاتفاق مع المراقبين اوبتقديم بحريين مجندين موقتا . وهم يتمتعون بمرابح اخرى مباحة لهم . وهي انه يحق لهم ان يقبلوا في سفنهم ركابا من ذوي المكانة . والاهم يستفيدون من حكام الولايات الذين ينقلهم الباب العالي كثيرا من هذه العملية يدفعون عادة اجرة سفرهم الفي قرش يرفقونها بفروة من جلد السمور . عدا ذلك فان ضباط البحرية

الذين ترسلهم الدولة في ماموريات الى البلاد التي على الشواطئ، يجدون بسهولة الوسائل لزيادة ثروتهم .

ولامير البحر سلطة تقريبا مطلقة في دائرته كما في الامكنة التي يمر فيها باسطوله . ولهذا فانه يدعى سلطان البحر . ويرافقه في تنقلاته قلم يصدر بحضور امير البحر احكامه في الشوءون المدنية والجزائية كما يرافقه ترجمان من اصل يوناني يقوم بشرح التفاصيل الدقيقة للامور المتعلقة بجزر الارخبيل . ويسافر معه في سفينته الخاصة اربعمئة شخص تقريبا من حاشيته : من موظفين وغلمان وخدم .

وتنزع الاسلحة عن العمارة عندما ترجع الى الاستانة في اواخر فصل الخريف . ويسرح البحارة عدا عدد ضئيل من النوتية ورجال المدفعية ولهولاء الاخيرين ثكنة قرب الترسانة . الا انه من المعتاد ان تقوم ثلاث او اربع سفن في متابعه طوافها مده الشتاء في البحر الابيض حتى شواطئ مصر والشام . ويحق للقبودانية نقل البضائع بسفنهم من مكان الى اخر مما يجلب لهم مرابح كبيرة

ويحظى امير الاسطول بمقابلة السلطان مقابلة فخمة في الليلة السابقة لذهابه الى الارخبيل ويكون ذلك في "بالي كشك" الكائن في السراى على ضفاف البوسفور . ويمنحه السلطان بهذه المناسبة كيسا فيه الف سيكان اوفندقلي اي (٢٨٩٠) قرشا كمصاريف ادوية . وجرى السلاطين على هذه العادة منذ عهد السلطان مراد الثالث الذي منح مثل هذه الاعطية لاحد امراء الاسطول ويحظى القبودان باشا بمقابلة السلطان مرة اخرى حين رجوعه الى العاصمة في نفس المكان وبنفس الاحتفال .

ولا يعين ابدا لأمير البحر راتب محدد ولكنه يتمتع بموارد عظيمة . فانه يوءجر الثلاث والثلاثين جزيرة صغيرة التي تمنح له في الارخبيل لعدد مماثل من الحكام . (ڤويڤود) بقيمة ثلاث مئة الف قرش تقريبا في السنة وهو لايعطي الدولة منها غير خمسة وثمانين الف قرش كما انه يتناول من كل قبودان في الخدمة ضريبة من المال . فياخذ اربعة الاف قرش من القبودانا وثلاثة الاف من "الباترونا" والفين وخمسمئة من الريالا . "وياخذ من القواد العاديين الفا وخمسمئة وبما ان للقبودانية الذين يقومون بالطواف مدة الشتاء مرابح اكثر من غيرهم فانهم يدفعون له سته الاف او ثمانية الاف واحيانا عشره الاف قرش . ويدفع له كل من موظفي امارة البحر المدنيين الذين هم ايضا تحت اشرافه بين الف والفي قرش . ويتناول من كل مدينة بحرية خاضعة لحكمه مبلغا

معينا تحت اسم " طعمية " . هذه هي موارده الرسمية ومن السهل عليه ان يزيدها كثيرا جدا فيما لو اراد ان يسيء استعمال سلطته .

ولكنه مضطـر ايضا ان يقوم بنفقات كبيرة . فان علو مركزه يتطلب ان تكون حاشيته مؤلفة من خمس مئة الى ست مئة شخص . ويترتب عليه ان يقدم في عيدي الفطر والاضحى هدايا ثمينة للسلطان ولوالدته ولنسائه ولكبار موظفي البلاط . وعليه ان يفعل نفس الشيء في كل مرة يرجع بها من جولاته البحرية . ويتناول منه الموظف الذي ياتيه بامر السلطان للرجوع الى الاستانة (١٢٥٠٠) قرش وفروة من جلد السمور وجوادا مجهزا . وتكلفه المقابلتان اللتان يسمح له بهما السلطان في كل سنة (٢٠٠٠٠) قرش يدفعها لخزينة هذا الاخير تحت اسم " ثمن اثاث القصر " و " شيمة بهاء " ومن هنا ياتي اسم الكشك الذي يقابله السلطان فيه .

يرتدي امير الاسطول ملابس الباشاوات من اصحاب الاطواغ الثلاثة . وعندما يكون امراء البحر الثلاثة بملابسهم الرسمية يضعون على راسهم عمة صغيرة وثيابا مزينة بالفراء . بينما تكون ثياب القبودانية من الجوخ وبدون فراء . ويتميز امراء البحر ايضا بعصي الامارة التي يحملونها فتكون خضراء للقبودانا وزرقاء للبقية . ولرئيس المرفأ ايضا الذي يتمتع بميزتهم نفسها . ولهذا السبب يدعو الرؤساء الاربعة الاولون باصحاب العصي " صاحب دينق " .

ان العثمانيين غير متقدمين كثيرا في علم الملاحة . واذا وجد بين عساكرهم البحرية ضباط مهرة توصلوا الى ذلك بعد اختبار طويل فانه يوجد غيرهم يجهلون حتى المبادىء الاولى من مهنتهم . وترتكب الدولة هنا نفس الخطأ الذي ارتكبته نحو الجيوش البرية . وهي في ان المحسوبية وحدها هي التي تقرر امر انتخاب امير البحر الذي يؤخذ عادة من بين موظفي البلاط ويكون لا يفقه شيئا من امور البحر . ولا يحصل اهتمام ايضا عند تجنيد البحارة وذلك في ان يحصل انتقاؤهم من بين الذين يحسنون الخدمة . اذ يجري قبول كل من يتقدم . اما من جهة العساكر البحرية (لوند) فانه يكفي لقبولهم ، وذلك جريا على انظمة قديمة ، ان يكونوا مسلحين ببندقية وسيف او من حربة ومسدسين .

واشهر موظفي امارة البحر الدينية هم :

١) _ الترسانة اميني وهو يدير بناء واصلاح وتسليح السفن وله الاشراف على المستودعات

المعينة لمصلحة الاجير البحرية . وهو يتناول عشرة بالمئة من الاموال التي تخرج من الصندوق الذى هو مديره . وعند غياب امير الاسطول يقوم هو مقامه .وهو يوءخذ عادة من بين كبار "الخوجوات ". (١) .

٢) " القليون لر كاتب " رئيس مكاتب البحرية التي الابنية بالاعمال وهي :

١) تجنيد عساكرالبحرية ٢) دفع مرتباتهم ٣) تامين الموءن للسفر ٤) تامين الذخيرة ٥) تامين الخشب لصنع المراكب ٦) دفع مرتبات العمال ٧) تامين اعاشة العبيد الذين هم في خدمة امارة البحر .

ويعطى عادة هذا المنصب الكثير الربح لاحد قدماء موظفي غرفة السلطان .

٣) ـ " العنبرلر اميني " اى وكيل العنابر

٤) ـ " العنبرلر ناظر " اى ناظر العنابر

٥) ـ " الترسانة رئيس " رقيب السجلات المخصصة للاقطاعات العسكرية "الزعامة والتيمار " الواقعة في الولايات البحرية التي هي تحت حكم امير البحر .

٦) " الترسانة كيخية " وكيل السفن الحربية ويقوم بشوءون رجال حرس البحرية وعددهم ست مئة وخمسون . يعين منهم كل ليلة مئة رجل للحراسة على طول رصيف الترسانة . كما يكون هناك دائما ثلاثة في كل سفينة راسية في المرفا يقومون بحراستها .

٨) ـ " السرغي اميني " يقوم بدفع مرتبات الجنود والعمال .

وتعين امارة الاسطول في خدمتها عشرة من البنائين المسلمين ويكون لرئيسهم ذراع يقيس فيه وهو من خالص الفضة كاشارة مميزة له وهو يامر على عشرين بناء يونانيا يساعدونه في العمل . ولكن كلا الفريقين على جهل بالعلوم الرياضية ولا يمكنهم حتى وضع تصميم بناء سفينة . وليسوا في الواقع سوى مهرة النجارين الذين يديرون اعمال اربع مئة نجار من المسلمين والمسيحيين. واذا كان للباب العالي الان اسطولا قويا فانه من صنع مهندسين اسوجيين وافرنسيين وراجع للهمة التي ابداها امير البحر كوجوك حسين باشا في تسيير شوءون ادارته .

ويوجد دائما تحت تصرف امارة البحر عدد كبير من العبيد يقسمون الى قسمين : " الباى زند " اى المحكومين بالاشغال الشاقة حيث تقيد ارجلهم بالسلاسل . والاسرى الذين يوءخذون وقت الحروب او من سفن الاعداء . ويقوم الاخيرون بالعمل في الاسطول حيث ينتفع منهم جدا في

---

(١) وقد أعطي لهذا الموظف عام ١٨٠٥ لقب " ترسانة دفتردارى " مع صلاحيات اوسع كما عين له كرسي في الديوان بين الدفتردارين الثاني والثالث . وحصل هذا الترتيب آنذاك لسعيد علي افندي سفير الباب العالي السابق في باريس .

في تسيير السفن . الا ان عملهم في المراكب الحربية لم يكن دائما يتم بدون حصول اضرار . وذلك انه جرى سنة ١٦٦٠ تسليح عمارة لتذهب وتقضي على اعمال قرصنة القوزاق في بحر الاسود . وقد اقام قبودانية احدى البوارج الراسية في مياه البوسفور حفلة طعام قبل اقلاعه لعدد من موظفي امارة البحر . واغتنم الاسرى المسيحيون الذين يشتغلون في السفينة الفوضى القائمة من جراء هذه الحفلة فقتلوا تقريبا كل البحارة واوثقوا الضباط ونصبوا الشراع واتجهوا نحو نحو البحر الابيض . وبعدها لم يسمع الباب العالي شيئا قط عن هذه البارجة . ولقد جرى مثل هذا الحادث سنة ١٧٦٠ في عهد السلطان مصطفى الثالث في الجولة العادية التي كان يقوم بها الاسطول في البحر الابيض اذ بينما كان الضباط يقومون بصلاة الجمعة في جزيرة Stanchio ستانشيو اغتنم العبيد الاوروبيون الذين هم في سفينة نائب امير البحر الفرصة وقتلوا البحارة المسلمين وقطعوا الحبال وهربوا . ووصلوا الى جزيرة مالطة بعد ان تمكنوا من الافلات من بقية السفن التي لاحقتهم . وقد اضطر الباب العالي ان يستعين بما لبلاط فرنسا من نفوذ لدى اولي الامر في مالطة كي يستعيد هذه السفينة التي رجعت الى الاستانة بعد اربعة عشر شهرا وعلى ظهرها اسرى من المسلمين بدلا من العبيد المسيحيين .

الباب التاسع

علاقات البلاط العثماني مع الدول الاجنبية

تتالف الامبراطورية العثمانية من بلاد فتحت حربا . لقد اقبل الى اسيا الصغرى زعيم قبيلة تركية موءلفة من اربع مئة واربعين عائلة هاجرت من العجم هربا من جيوش جنكيز خان وحصل عام ١٢٣١ على اذن من سلطان قونيه السلجوقي للاقامة قرب انقره .وهاجم هذا الزعيم المسمى ارطغرل سكان Bithyine بصورة دائمة حيث قام بعدة فتوحات . وخلفه ابنه عثمان في حكم مقاطعة سنكجياك واصبح مستقلا مثل بقية حكام الولايات بعد سقوط عرش سلاجقة اسيا الصغرى واتخذ سنة ١٣٠٠ لقب سلطان . وقام السلطان عثمان وخلفاوءه الثلاثة من بعده بشن حروب موفقة على البزنطيين من جهة وعلى الدويلات التي قامت على انقاض مملكة السلاجقة من جهة ثانية . واكتسحوها كلها عدا قرمانيا التي لم تسقط الا امام جيوش السلطان محمد الثاني ~~السلطان الذي~~ وقد اتبعها بتقويض الامبراطورية البزنطية واصبحت بيزانس عاصمة الولايات العثمانية التي ضم اليها السلطان سليم الاول بعد نصف قرن بلاد الشام ومصر والحجاز .

ومن حينئذ اى لم يبق لامبراطورية عثمان من دول مجاورة في اسيا غير مملكة العجم . وقد نشبت بينهما الحروب عديدة ظلت مدة قرنين يشعلها نار الطمع ومتتابعة بحمية العصبية الدينية . ومشيرة الى المنافسة القائمة بين هاتين الدولتين المجاورتين . واخيرا تمكن العثمانيون بفضل تفوق جيوشهم من الاستيلاء على بلاد بابل والعراق وسيسيليا وكردستان وهي ولايات كانت اثناء تعاقب هذه الحروب الدموية توءخذ وتسترد مرات كثيرة . الا ان الحقد السياسي القائم بين هاتين الدولتين الاسلاميتين اخذ يخف في القرن الماضي بسبب سقوط عرش الصفويين وما قام على اثر هذه النكبة من فتن انهكت بلاد العجم .

ان المعاهدات التي كانت تنهي الحروب بين العثمانيين والعجم كانت تعقد دائما على اساس منح الحرية الدينية للسنيين الموجودين في العجم ومثلها للشيعيين العجم الموجودين في مكة والمدينة وفي المساجد التي فيها قبور الائمة العلويين التي في بغداد . وبعد هذه

البنود الرئيسية ياتي البحث فيه الشوءون السياسية وفي الاحيان التي كان العثمانيون هم الذين يفرضون الصلح على العجم كانوا يطلبون هدية سنوية موءلفة من مئة وخمسين او مئتين حمل من الحرير وغير ذلك من منتوجات العجم .

ان فتوحات العثمانيين في اوروبا جعلتهم منذ اول عهد الدولة على اتصال مع الدول المسيحية الواقعة على نهر الدانوب . والتي كانوا يسيطرون عليها كانت اما ان تضم الى السلطنة او تحتفظ بملوكها وتدفع جزية سنوية . عدا ذلك فانه كان يترتب في الغالب على هذه الدول ان تدفع مالاكي تحصل على الصلح من العثمانيين . ان مثل هذه الضرائب المفروضة على غير المسلمين يامر بها الشرع الاسلامي وهي ناحية دينية تمشى عليها العثمانيون بكل دقة .

وكانت تراقيا والصرب والبوسنه وبلغاريا وايلليريا واسكلاڤونيا وكل البلاد الكائنة ماقبل نهر الدانوب ومن ضمنها الامبراطورية البزنطية ، كانت كلها تدفع الجزية حتى زمن ضمها الى الولايات العثمانية . واول ضريبة مالية فرضت على بلاد الصرب سنة ١٣٧٥ كانت تتالف من خمسين اقة من خالص الفضة وقد تضاعفت سنة ١٤٢٨ ووصلت الى ثلاثين الف ذهب (دوقه) سنة ١٤٥٤ . وفي عام ١٣٩٦ فرضت على الامبراطور عمانوئيل الثاني دفع جزية موءلفة من عشرة الاف ذهب واخذ هذا المبلغ يزداد في عهد كل سلطان جديد الى زمن فتح القسطنطينية .

واول جزية دفعتها الافلاق سنة ١٣٩٠ في عهد ميرزا الاول كانت تتالف من ثلاثة الاف ذهب وثلاثين فرسة وعشرين بازا . وتضاعفت منذ السنة التالية . ولم يفرض على البغدان في بادىء الامر وفي عهد Voyvode Bogdan سوى دفع اربعة الاف ذهب واربعين فرساً واربعة وعشرين بازا . وعدا هذه الضرائب التي كانت تزداد دائما مع الزمن فانه كان يترتب على كل Voyvode ان يقدم الهدايا الثمينة لوزراء البلاط العثماني . وكان يتناول الصدر الاعظم خمسين او ستين الف ذهب . وقد طلب الصدر الاعظم رستم باشا في عهد السلطان سليمان الاول مئة الف وكثيرون ممن خلفوه زادوا ايضا مطاليبهم الى اكثر من ذلك .

وقد تعهد حنا زابولسكي سنة ١٥٢٦ وهو اول امير على ترنسلفانيا وخاضع لسليمان الاول بدفع جزية سنوية موءلفة من ثلاثين الف ذهب . وقد توصل ايتيان زابولسكي عام ١٥٤٢ الى جعلها عشرة الاف الا انها حددت زمن سليم الثاني بخمسة عشر الفا وزيدت الى الاربعين الفا عندما انتخب Emérie Tékéli ملكا على المجر سنة ١٦٨٢ .

وبدأت جمهورية البندقية سنة ١٤٠٨ بدفع الف وست مئة ذهب . وقد تعهدت عام ١٤٧٩ بدفع عشرة الاف . ولم تتمكن من الحصول على صلح من سليمان الاول سنة ١٥٤٠ الا بعد ان قبلت ضريبة ثلاث مئة الف ذهب تدفعها على ثلاث سنوات . وقد اضطرت ايضا سنة ١٥٧٣ بعد ان خسرت جزيرة قبرص الى دفع مئة الف ذهب للسلطان سليم الثاني .

وبمعاهدة عقدت سنة ١٥٤٤ تعهد الارشيدوق فرديناند ملك الرومانيين بدفع جزية سنوية للسلطان عن بلاد المجر وقدرها ثلاثون الف ذهب وعليه عدا ذلك ان يدفع اربعة الاف للصدر الاعظم مع ارسال هدايا له ولبقية اعضاء الديوان .

اما ملوك روسيا فانهم لم يدفعوا مالا الا لخانات القرم . ولكي يحصل القيصر ايفان الرابع على الصلح من " دولت كراي خان الاول " سنة ١٥٧١ تعهد له بدفع جزية سنوية قدرها ستون الف روبل .

وكان خانات القرم بدورهم خاضعين للسلاطين العثمانيين . وكانوا يحصلون على امر تنصيبهم بخلعة يمنحها السلطان مصنوعة من القطيفة الخضراء ومزينة بفراء من جلد السمور ومحلاة بتسعة صنوف من المشابك مصنوعة من الحجارة الكريمة ، ويكون مع هذه الخلعة سيف وخنجر ومنطقة مرصعة بالحجارة الثمينة وقوس عليه صفائح من الذهب وجعبة مزركشة باللآلئ . وقلنسوة (قلبق) من القطيفة الخضراء مصنوعة اطرافها من فرو السمور ومزينة بوسامين من الماس . وقد رفض الخانات الاولون ان ياخذوا اى راية او طبل او طوغ من السلاطين العثمانيين وهي الشارات العادية للامارة عند التتر . وقد لقي السلطان سليم الاول صعوبة كبيرة لاقناع " سعادة كراى خان الاول " لكي ياخذ منه عام ١٥١٨ راية سلطانية وراتب الف بارة في اليوم . وتقول التواريخ بان السلطان اراد تحقيق ذلك كي يؤكد للتتر خضوع هولاء الخانات للسلاطين العثمانيين . الا انه لم يذكر اسم السلطان قبل اسم الخان في الخطبة الا سنة ١٥٨٧ عندما قام بذلك "اسلام كراى خان الثاني" نحو مراد الثالث .

ان شارات التولية لامراء الافلاق والبغدان كانت خلعة من الجوخ الاحمر مزينة بفراء السمور ، وراية ، وطوغين مع قلنسوة (كوكا) مزركشة بالذهب شبيهة بقلنسوة قواد الانكشارية . وهي ميزة منحها السلطان بايزيد الثاني سنة ١٤٩٧ لبغدان امير البغدان مكافاة له على البسالة التي

ابداها في الحرب ضد البولونيين . اما الامراء الحاليون فبالرغم من انهم حكام عاديون يحملون لقب Voyvode او بان فانهم يتمتعون بهذه الميزات نفسها .

ونلاحظ في التاريخ ان امراء ترانسلفانيا الذين كانوا خاضعين للباب العالي ويحملون لقب ملوك المجر مثل حنا زابولسكي و Etienne Boschai و Bethléem-Ghabor و Emeric - Tekeli الخ ... كانوا يستلمون امر تنصيبهم بخلعة من الديباج وتاج ذهبي وسيف مرصع بالحجارة الكريمة وراية وطوغ وجواد مجهز باثمن عدة .

وكان يمنح في السابق ايضا لامراء جورجيا وداغستان خلعة سنية مع نبوت (دبوس) من الذهب وراية وطوغ . ونفس هذه الشارات كانت تمنح ايضا لامراء القوزاق (Hatmans) مرفوقة بقلنسوة من القطيفة اطرافها من فرو السمور . وكانت تمنح لهم الدولة في بعض الاحيان مع هذه الشارات سيفا ووساما مرصعين بالحجارة الكريمة .

لم يكن للعثمانيين قبل فتح القسطنطينية العلاقات وقتية مع جيرانهم الدول الاوروبية وكانوا يقومون في غالب الاوقات بهجمات على اراضيهم وكانوا يانفون من الارتباط بمعاهدات مع الكفار . وبعد سقوط الامبراطورية البيزنطية كان البندقيون هم اول من ارتبط بمعاهدات صداقة مع المنتصرين . فمنذ السنة التالية لفتح القسطنطينية ارسل مجلس شيوخ جمهورية البندقية سفيرا لها لدى السلطان محمد الثاني يدعى Barthélemi Marcello الذي حصل على معاهدة تؤمن بموجبها حرية التجارة والملاحة لرعايا الدولتين . واتفقت الحكومتان على ان لا تقدم الواحدة منهما اي مساعدة او حماية لاعداء الحكومة الثانية وقبل السلطان ان يقيم سفير الجمهورية البندقية Bayle في ~~القسطنطينية~~ القسطنطينية .

واضطر مجلس شيوخ الجمهورية على اثر حرب خاسرة ضد نفس السلطان ان يتعهد بالتخلي عن اسكدار و Croya ويدفع مئة الف ذهب كتعويض ويدفع جزية سنوية قدرها عشرة الاف ذهب .

وقد انتصرت جيوشها على جيوش السلطان سليمان الاول الا انها لم تستفد من هذا الانتصار اذ لم يتوصل مفاوضها Louis Badouel للحصول على الصلح سنة ١٥٤٠ الا شرط التخلي عن الاربع عشرة جزيرة التي في الارخبيل والتي هي في ذلك الوقت تحت سلطة الدولة وبالتخلي عن جزيرتي Malvoisie و Naples الرومانيتين .

الا انها حصلت لرعاياها ... التامين ... للرعايا

ابداها في الحرب ضد البولونيين . اما الامراء الحاليين فبالرغم من انهم حكام عاديون يحملون لقب Voyvode او بك فانهم يتمتعون بهذه الميزات نفسها .

ونلاحظ في التاريخ ان امراء ترانسلفانيا الذين كانوا خاضعين للباب العالي ويحملون لقب ملوك المجر مثل حنا زابولسكي و Etienne Boschai و Bethléem-Ghabor و Eméric Tékéli الخ ... كانو يستلمون امر تنصيبهم بخلعة من الديباج وتاج ذهبي وسيف مرصع بالحجارة الكريمة وراية وطوغ وجواد مجهز باثمن عدة .

وكان يمنح في السابق ايضا لامراء جورجيا وداغستان خلعة سنية مع نبوت (دبوس) من الذهب وراية وطوغ . ونفس هذه الشارات كانت تمنح ايضا لامراء القوزاق (Hatmans) مرفوقة بقلنسوة من القطيفة اطرافها من فرو السمور . وكانت تمنح لهم الدولة في بعض الاحيان مع هذه الشارات سيفا ووساما مرصعين بالحجارة الكريمة .

لم يكن للعثمانيين قبل فتح القسطنطينية اعلاقات وثيقة مع جيرانهم الدول الاوروبية وكانوا يقومون في غالب الاوقات بهجمات على اراضيهم ويانفون من الارتباط بمعاهدات مع الكفار . وبعد سقوط الامبراطورية البزنطية كان البندقيون هم اول من ارتبط بمعاهدات صداقة مع المنتصرين . فمنذ السنة التالية لفتح القسطنطينية ارسل مجلس شيوخ جمهورية البندقية سفيرا لها لدى السلطان محمد الثاني يدعى Barthélemi Marcello الذى حصل على معاهدة تؤمن بموجبها حرية التجارة والملاحة لرعايا الدولتين . واتفقت الحكومتان على ان لاتقدم الواحدة منهما اى مساعدة او حماية لاعداء الحكومة الثانية وقبل السلطان ان يقيم سفير الجمهورية البندقية Bayle في القسطنطينية .

واضطر مجلس شيوخ الجمهورية على اثر حرب خاسرة ضد نفس السلطان ان يتعهد بالتخلي عن اسكدار و Croya وبدفع مئة الف ذهب كتعويض وبدفع جزية سنوية قدرها عشرة الاف ذهب .

وقد انتصرت جيوشها على جيوش السلطان سليمان الاول الا انها لم تستفد من هذا الانتصار اذ لم يتوصل مفاوضها Louis Bardonet للحصول على الصلح سنة ١٥٤٠ الا شرط التخلي عن الاربع عشرة جزيرة التي في الارخبيل والتي هي في ذلك الوقت تحت سلطة الدولة وبالتخلي عن جزيرتي Malvoisie و Naples الرومانيتين .

الا انها حصلت لرعاياها في الشرق على فوائد عديدة مثل ١) التامين الممنوح للرعايا

البندقية بعدم ملاحقتهم في المسائل الجنائية وامور الدين ٢) عدم السماح للقضاة العثمانيين من الحكم في الدعاوى القائمة ضد الرعايا البندقيين بدون حضور مترجم من ملتهم. ٣) اعفاء البنادقة الذين لايقطنون الولايات العثمانية من دفع الجزية. ٤) تسليم المجرمين بين الدولتين ٥) تسليم المساجين المسيحيين الهاربين باستثناء الذين اعتنقوا منهم الديانة الاسلامية انما يدفع لجمهورية البندقية مبلغ الف بارة عن كل شخص. ٦) انزال العقاب الصارم بكل من يحاول ان ياخذ اسرى في البحر او البر من رعايا الفريق الثاني والتعهد بارجاعهم او بمنح حرية الذين اعتنقوا منهم الديانة الاسلامية. ٧) التامين التام لكل مركب يجنح على الشاطيء وللبضائع المشحونة فيه ولبحارته وركابه. واخيرا ترك الحرية للجمهورية في تعيين سفير جديد لها كل ثلاث سنوات لدى الباب العالي.

وفي معاهدة الصلح المعقودة سنة ١٥٧٣ تخلت البندقية عن حقوقها في جزيرة قبرص التي فتحها العثمانيون كما ارجعت لهم مدينة Sapota على شاطيء البانيا ثم بعد ذلك سببت مسالة الاستيلاء على جزيرة كانديا حربا شديدة بين الدولتين. وبعد محاولات دموية دامت خمسا وعشرين سنة عقدت الهدنة سنة ١٦٦٩ في معسكر الصدر الاعظم كوبرللي زاده احمد باشا تحت اسوار مدينة كانديا التي كان يحكمها الجنرال "فرنسيسكو موروسيني". وكانت اهم الشروط هي: ١) التخلي عن حصن كانديا للعثمانيين ٢) التعهد بسلامة المراكب العثمانية في البحر الابيض ودفع تعويض للرعايا العثمانيين عن كل سفينه تؤخذ منهم ٣) ارسال بعثة فوق العادة للاستانة مع هدايا.

وقد اشتركت البندقية عام ١٦٨٤ بالاتحاد الذى حصل في السنة الفائتة ما بين النمسا وبولونيا ضد العثمانيين. وهذه الحرب التي اشتركت فيها روسيا سنة ١٦٩٥ انتهت سنة ١٦٩٩ بمعاهدة كرلوفيتز التي دلت على انحطاط عظمة العثمانيين. وقد املت الدول الاربع المتحالفة شروطاً وجد السلطان مصطفى الثاني نفسه مضطرا لقبولها. وفي معاهدته مع البندقية اشترط الباب العالي على هدنة تدوم ثلاثين سنة وتخلى للجمهورية عن المورة حتى Hexamilon وعلى جزر Engia و St Maure و Leucade و Zanthe مع مدن كثيرة من مدن دلماسيا. الا انه يترتب على الجمهورية ان تسحب قواتها من Prévéza و Castel Novo وان تهدم Lépanthe وبنفس الوقت منح الباب العالي الامان العام لكل الرعايا المسيحيين الذين اظهروا في هذه

الحرب خيانتهم للدولة او غير ذلك من الجنايات السياسية .

وقد احتفظت جمهورية البندقية في معاهدت الصلح المنعقدة في باساروفيتز سنة ١٧١٨ بكل ماغنمته في بلاد البوسنه ودلماسيا والبانيا . وحصلت على تخفيف الضرائب الجمركية في الولايات العثمانية وجعلها ثلاثة بالمئة . كما انه يجب على الباب العالي ان يامر المقاطعات الافريقية الثلاث : مراكش وتونس ومقاطعة Dulcigno في الجبل الاسود باحترام الراية البندقية . وبما انه حصلت مفاوضات عن القاعدة Uti possidetis فان الدولة ظلت محتلة المورة التي فتحتها ، وذلك بدون ان يشارفي المعاهدة الى انضمام هذه المقاطعة . وقد ظلت هذه المعاهدة معمول بها الى الزمن التي ابيدت فيه الجمهورية .

ان التواريخ العثمانية تلزم الصمت عن اقدم المعاهدات المعقودة بين الباب العالي وبين بولونيا . واول معاهدة ياتي ذكرها هي المعاهدة المنعقدة سنة ١٥٩٨ بين السلطان محمد الثالث وسيجيسوند الثالث . واهم المواد هي : في ان يامر الباب العالي التتر باحترام الاراضي البولونية . وتتعهد بولونيا بدورها في الاتقوم باعتداءات على التتر وعلى سكان البغدان وان تتابع بتقديم الاعطيات التي كانت تعودت ان تمنحها لخانات القرم (١) . وان لايمرر السلطان ابدا جيشا تتريا في الاراضي البولونية . وان يسمح للخان بالسير لمساعدة بولونيا اذا طلب منه الملك ذلك ، وان يتعاطى رعايا الفريقين التجارة بحرية بعد ان يدفعوا الرسوم المفروضة .

وقد جددت هذه المعاهدة سنة ١٦٠٧ في عهد السلطان احمد الاول وزيد عليها مادتان : حرية التعامل بالقروش العثمانية . ومنع التعامل بالنقود البولونية التي عليها صورة اسد في الولايات العثمانية لكونها ذات قيمة ضئيلة .

وعلى اثر بعض تعديات حدثت في عهد هذا السلطان فلقد عقدت هذه المعاهدة سنة ١٦١٧ وقد اشترط الايدخل القوزاق ابدا الى البحر الاسود والايقوموا بغارات على البغدان او ترانسلفانيا او الافلاق وان يرسلوا في كل سنة الهدايا التي اعتاد ان يقدمها

---

(١) كانت هذه المنحة السنوية تتالف حسب رواية المؤرخ العثماني Selanike من عشرة الاف ذهب وبعدد من جلود السمور .

خانات القرم .

ولقد جدد عثمان الثاني هذا العقد سنة ١٦٢١ تحت اسوار خطين/ خوتين بشرط ان تتعهد تلك الجمهورية بارجاع هذه المدينة الى البغدان وبايقاف اعمال قرصنة القوزاق في البحر الاسود وبدفع مبلغ اربعين الف فلوران لخان التتر .

ونشبت حرب جديدة في عهد السلطان محمد الرابع انتهت سنة ١٦٥٣ بمعاهدة Caminiec تعهد بموجبها بلاط فرسوفيا بتقديم المساعدات التي يطلبها خان القرم عند الضرورة وان يدفع له سنويا ضريبة معينة وان يسلمه رجلين من اشراف البولونيين رهينة لتامين القيام بتعهداته .

وفي معاهدة صلح Bouczacz المعقودة في غاليسيا سنة ١٦٧٢ في معسكر القائمقام قره مصطفى باشا اشترط على الجمهورية ان تدفع سنويا للباب العالي كهدية مبلغ اثنين وعشرين الف فندقلي (سيكان) ؛ وان تمتنع عن تقديم هذا المبلغ في السنة التي يقوم فيها العثمانيون او التتر او القوزاق باتلافات في الاراضي البولونية بدون ان يقدم الباب العالي اي تعويض عن ذلك . وان تضم بودوليا الى الدولة العثمانية واوكرانيا الى القوزاق وان تحترم الجمهورية تعهداتها نحو خانات القرم . وان يسير خان القرم لمساعدة ملك بولونيا اذا كان هذا في حرب غير موفقة مع احدى الدول المجاورة .

ولقد سبب عدم اجراء هذه المعاهدة المخزية من قبل بولونيا حربا جديدة بين الدولتين ولكن الخسائر التي مني بها العثمانيون جعلتهم يعدلون عن اخذ الجزية السنوية البالغة اثنين وعشرين الف ذهب (١) ويوافقون على التخلي عن موقعـــي Bialozerkew و Pawletz المهمين . تلك كانت شروط الهدنة المنعقدة في Zurawno سنة ١٦٧٦ . وكانت اللجنة المفاوضة مؤلفة من ممثلين بولونيين من جهة وخان القرم "حجي سليم كراي" والسر عسكر اوزون ابراهيم باشا من جهة اخرى .

---

(١) للمترجم — ذكر د وسون في الفقرة السابقة سيكان ثم قال في هذه الفقرة ذهباً (دوقة) فهل يريد بهما نفس الشيء ؟ اما الأرجح انه ذكر ذلك خطأ .

وفي سنة ١٦٨٣ تحالفت بولونيا مع النمسا ضد الباب العالي . وارجع الى بولونيا بموجب معاهدة كرلوفيتز التي انهت هذه الحرب سنة ١٦٩٩ حصن Kaminiec مع Podolie واوكرانيا وكلها واقعة فيما قبل نهر الدينبر .

ومن الظاهر ان اول معاعدة بين الباب العالي وبين النمسا عقدت في الاستانة سنة ١٥٤٤ في عهد السلطان سليمان الاول . وكانت تنص على هدنة سنتين ومددت الى خمس اخرى عام ١٥٤٧ وذلك مقابل جزية سنوية قدرها ثلاثون الف ذهب تعهد فردينان الاول بدفعها الى السلطان عن ممتلكاته المجرية .

واشهر معاهدة بعد هذه هي معاهدة Zeidewa قرب Strigonie التي انتهت بها الحرب سنة ١٦٠٦ القائمة بين السلطان احمد الاول والامبراطور رودلف الثاني . وكانت اهم المواد : ١) هدنة لمدة عشرين سنة ٢) تعاطي الرسائل بين الملكين وتكون مليئة بعبارات الاكرام والصداقة كتلك التي تكون بين اب وابنه . ٣) ان يعطي السلطان من الان فصاعدا لامبراطور المانيا لقب قيصر الرومان عوضا عن لقب Cral ٤) ان يرسل كل واحد للاخر بعثة فوق العادة مع هدايا تليق بالملكين . وان يحدث مثل هذا ايضا في سنة الصلح الثالثة ٥) ان يقدم الامبراطور بواسطه سفيره مبلغ مئتي الف قرش .

وبعد حصول انشقاق جديد تبعه معاهدة صلح جرى التفاوض فيها وعقدت في فينا سنة ١٦١٥ من قبل احمد اغا المفوض العثماني وكان ذلك في عهد الامبراطور ماتياس تمددت الهدنة فيها الى عشرين سنة مع تاييد معاهدة Zéidewa وقد منح السلطان الرعايا النمسويين الموجودين في الولايات العثمانية حرية التجارة مع القيام بطقوسهم الدينية . وخفف لهم ضرائب الجمرك الى ثلاث بالمئة . ويسمح لعمال الامبراطور اخذ ضريبة اثنين بالمئة عن بضائع الرعايا العثمانيين المحملة على سفن نمساوية . ولهم وحدهم الحق في معرفة شؤون التجار الذين يجب الا يفحص متروكاتهم احد من موظفي المالية وانه يجب على قاضي عسكر الاستانة فقط ان ينظر في حكم الدعاوى التي يكون المبلغ المطلوب فيها اكثر من اربعة الاف بارة .

وعقدت معاهدت اخرى في Sonbor سنة ١٦٢٨ بين مراد الرابع وفردينان الثاني وهي تنص على هدنة خمس وعشرين سنة وعلى الشرط التالي وهو ان يتخلى Voyvode

او امير ترانسلفانيا Bethleem Ghabor عن تاج المجر لامبراطور النمسا

وقد تلى هذه المعاهدة معاهدة Vasvar المنعقدة سنة ١٦٦٤ بين السلطان محمد الرابع والامباطور ليوبولد الاول . وهي تنص على هدنة عشرين سنة ، وتتعهد النمسا بسحب قواتها من ترانسلفانيا والاعتراف بحقوق Michel Apaffi عليها وان تتخلى للباب العالي عن عدة حصون واقعة على الحدود المجرية .

انما في معاهدة كرلوفيتز التي عقدت سنة ١٦٩٩ احتفظ الامبراطور بترانسلفانيا التي تخلى عنها له لسنتين خت الامير M. Apaffi II وظلت Banat التابعة لمقاطعة Temeswar بايدي العثمانيين .

وكانت شروط صلح باساروفيتز المنعقد سنة ١٧١٨ بين احمد الثالث وشارل السادس من صالح البلاط النمساوي اكثر من المعاهدة السابقة . اذ ظل محتفظا بـ Banat وبالقسم من الافلاق الواقع غربي نهر Olt وبالقسم الاكبر من بلاد الصرب التي كانت النمسا محتلتها وقت انعقاد الصلح . وتقريبا بنفس هذا الوقت الذي عقدت فيه الهدنة لمدة اربع وعشرين سنة عقدت معاهدة تجارية تؤيد تخفيف الضرائب الجمركية التي على البضائع الى ثلاثة بالمئة تدفع نقودا او عينا . وسمح لرعايا الامبراطور في الملاحة في نهر الدانوب ولكن على الا يتعدى مصبه ، ويترتب عليهم ان يستعملوا مراكب عثمانية في Kili ، Isackza ، Ibrail الخ ... لنقل البضائع الى الاستانة والقرم ومرافيء البحر الاسود ـ وللبلاط النمسوي الحرية في وضع سفراء له في مرافيء البحر الابيض التابعة للدولة العثمانية واحتفظ الباب العالي بحق تعيين عمال له تحت اسم شاه بندر في الولايات النمسوية يقومون بحماية الرعايا العثمانيين . وقد اشترط في الايكونغ استيلاء القراصنة المالطيين او غيرهم على السفن العثمانية سببا في التنكيل بالسفن النمساوية او الرعايا النمسويين الموجودين في الدولة العثمانية . وانه يمكن للتجار العجم اجتياز الولايات العثمانية ليصلوا الى الاراضي النمساوية مقابل دفع ضريبة مرور قدرها خمسة بالمئة يدفعونها على الحدود وتعطى لهم الحرية في حال وقوع حرب بالانسحاب من البلاد المعادية بعد ان يصفوا اعمالهم .

وقد نصت معاهدة بلغراد سنة ١٧٣٩ بتوسط دولة فرنسا باجراء هدنة تدوم سبعا وعشرين سنة وبارجاع بلغراد للعثمانيين مع اورزوفا وبلاد الصرب والافلاق النمسوية وبجعل نهري الدانوب والساف حدودا للدولتين . وقد تحولت هذه الهدنة الى سلم دائمي في السادس

والعشرين من شهر مارس سنة ١٧٤٧ وفي نفس الوقت عقد البارون بذكر معاهدة تجارية في الاستانة باسم الامبراطور فرانسوا الاول بصفته اى البارون الدوق الاكبر لتوسكانيا . واعطي للتوسكانيين في هذه المعاهدة نفس الحريات والاعفاءات الممنوحة في الولايات العثمانية للشعوب الاوروبية المفضلة على غيرها .

ولقتنم بلاط فينا انهزامات الباب العالي في حربه ضد الروسية بضم كل قضاء Buccowina سنة ١٧٧٥ الذى كان يؤلف جزءا من البغدان وسبيلا للاتصال بين غاليسيا وترانسلفانيا .

وحصل الامبراطور جوزيف الثاني سنة ١٧٨٤ على تجديد كل المعاهدات التجارية القديمة ، وعلى كل الاعفاءات التي كانت قد منحت لروسيا في العام السابق .

وانتهت معاهدة سيستوفا المنعقدة سنة ١٧٩١ اخر حرب بين الباب العالي والنمسا واشترط فيها ان ترجع كل دولة للثانية البلاد التي احتلتها .

ان العلاقات المباشرة بين الباب العالي وروسيا لاترجع الى امد بعيد . ففي حروب هذه الاخيرة مع تتر القرم لم يقم الباب العالي الا بدور مساعد للخانات الخاضعين له فقدم لهم المعونة بالرجال والاموال والذخيرة .

وحسب التواريخ العثمانية لم يظهر لاول مرة سفير روسي في الاستانة سوى عام ١٦٢٢ كان مرسلا من قبل القيصر مخائيل الثالث رومانوف ليعرض للسلطان مصطفى الاول التحالف معه ضد بولونيا الا انه لم يوافق على ذلك ويرجع السبب بصورة خاصة للفتن القائمة في الدولة منذ نكبة السلطان عثمان الثاني . ولم يدخل الباب العالي في علاقات مع روسيا الا سنة ١٦٧٧ في عهد السلطان محمد الرابع وذلك بمناسبة قلاقل القوزاق الذين كانوا يخضعون تارة لبولونيا وتارة اخرى للباب العالي وروسيا . وعلى اثر بعض حوادث حربية كانت الغلبة فيها للروس عقد الباب العالي سنة ١٦٨١ بواسطة خان التتر مراد كراى معاهدة مع القيصر فيدور الثالث اشترط فيها عقد هدنة لمدة عشرين سنة مع استقلال القوزاق و وجعل مجرى نهر البوريستين حدا فاصلا بين المبراطورتين .

ولقد نقضت هذه الهدنة عام ١٦٩٥ من قبل بطرس الاول الذى استولى على مدينة ازوف الا انها جددت في موءتمر كرلوفيتز الا ان مفاوضي القيصر لم يقبلوها الا ان تكون لسنتين . وعقدت الدولتان بعد ثمانية عشر شهرا اى سنة ١٧٠٠ معاهدة صلح لمدة ثلاثين سنة . وتعهدت روسيا بارجاع مقاطعة Aozocow الى الباب العالي والاحتفاظ بازوف مع الاراضي التابعة لها .

وتحررت من دفع اي شيء لامراء التتر كما يحق للرعايا الروسيين من التمتع بالامان التام في الولايات العثمانية . كما انه سمح لهم بزيارة بيت المقدس بمنتهى الحرية . وبدون ان يكونوا خاضعين لدفع اية ضريبة . واحتفظت روسيا بخاصية تعيين سفير لها في الاستانة يتمتع بكل الامتيازات الممنوحة لسفراء الدول الاوروبية .

وعقد في الاستانة سنة ١٧٠٥ اتفاق عن الحدود بين الدولتين .

وثبتت المعاهدات الجارية وذلك سنة ١٧٠٩ بعد معركة بولتافا بطلب من روسيا التي كانت تخاف ان يشهر الديوان السلاح مؤيدا شارل الثاني عشر .

الا ان الحرب ما لبثت ان نشبت بين الدولتين ولكنها انتهت منذ اول معركة بمعاهدة بروث عقدت سنة ١٧١١ في معسكر الصدر الاعظم بلطه جي محمد باشا . وهي تنص على ان يرد القيصر مدينة ازوف وان يسحب قواه من كل بولونيا والا يضطهد البولونيين ولا قوزاق اوكرانيا و وليتوانيا الخاضعين لبولونيا ولخان القرم . والا يبقى سفير روسي في الاستانة ولكن يظل رعايا الروس يتمتعون بحرية التنقل وتعاطي التجارة في الولايات العثمانية وان يعطى لملك السويد امان الرجوع الى بلاده . ونلاحظ في تاريخ رشيد ان هذه المعاهدة كان عنوانها ~~كككككك~~ الاستسلام " امان نامه " اذ نجد فيها ما يلي " بما ان الجيوش الاسلامية المنصورة على الدوام تمكنت بمعونته تعالى من تطويق ومحاربة واخضاع قيصر روسيا وجميع جيشه اخضاعا تاما على شاطئ نهر بروث فان هذا الملك يطلب الصلح الخ .... "

وتبع هذه المعاهدة معاهدتين القسطنطينية سنة ١٧١٢ وادرنه سنة ١٧١٣ وكانت الشروط الرئيسية متعلقة بوضع الحدود بين الدولتين وتعهدت روسيا بسحب جيوشها من بولونيا . ولم يكن بينهما سوى هدنة لمدة خمس وعشرين سنة الا ان الدولتين عقدتا سنة ١٧٢٠ معاهدة صلح دائمة اتفق فيها ان يكون دائما لدى الباب العالي وزير او سفير روسي . وان تتحرر روسيا من دفع اربعين الف ذهب التي تقدمها سنويا لخانات القرم . وقررت الحكومتان صيانة قوانين الجمهورية البولونية ومنع قيام الملكية في تلك البلاد او منع تعاقب الحكم الوراثي على العرش .

وعلى اثر حصول فتن في بلاد العجم اغتنم الباب العالي الفرصة مع روسيا لمحاولة ضم الاراضي الواقعة على شاطئ بحر قزوين التابعة لهذه المملكة فعقدت من اجل ذلك معاهدة

بتوسط فرنسا سنة ١٧٢٤ تقرر اقتسام الاراضي بين الامبراطورتين .

ولكن نشبت حرب جديدة بينهما تبعتها معاهدة صلح بلغراد المنعقدة سنة ١٧٣٩ وقد جرى التفاوض فيها بتوسط سفير لويس الخامس عشر . وكانت اهم المواد فيها تنص بهدم مدينة ازوف وبوضع الحدود بين الدولتين بمقتضى معاهدة سنة ١٧٠٠ ومنع السفن الروسية من عبور بحر ازوف والبحر الاسود وخصوصا السفن الحربية . ومنح الاستقلال التام لمقاطعتي الـ : Cabartas وترك الاسرى الذين هم عند الدولة او عند الشعب بدون دفع اي فدية عنهم انما باستثناء المسيحيين الذين اعتنقوا الديانة الاسلامية والمسلمين الذين اعتنقوا الديانة المسيحية . مع منح الامتيازات التجارية التي تتمتع بها سائر الدول . والحرية المعطاة للرعايا الروس بنقل بضائعهم في البحر الاسود على مراكب عثمانية . وحرية القيام بطقوس ديانة دولة روسيا في الولايات العثمانية . وتعيين وزير روسي دائمي في الاستانة متمتعا بالامتيازات الممنوحة لوزراء اعظم الدول الاوروبية ومنح لقب امبراطورة للقيصرة .

وقد دام هذا الصلح ثلاثين سنة اذ اعترضته حرب خاسرة نحو العثمانيين انتهت سنة ١٧٧٤ بمعاهدة قينرجه وكانت شروطها : ١) استقلال القرم وملحقاتها . الكوبان وجزيرة تامان . وان يحصل انتخاب الخان من رجال امته ومن بين امراء اسرة جنكيز خان والا يخضع للسلطان العثماني الا في المسائل الروحية . وتتعهد الدولتان بالا تتدخلا ابدا لا في مسالة انتخابه ولا في شؤون بلاده الداخلية ٢ التخلي عن كرش ويني قلعه" وكلبورون لروسيا مع لسان من الارض يقع بين نهري الدنيبر والبوغ ٣) التخلي ايضا لروسيا عن مدينة ازوف مع ناحيتها مع مقاطعتي الـ : Cabartas ٤) حرية الملاحة للمراكب الروسية في جميع بحار الدولة العثمانية . ٥) منح الامن العام لرعايا الباب العالي الذين ايدوا روسيا . ٦) القيام بالتعهد الذي اخذه السلطان على نفسه لحماية الديانة المسيحية في ولاياته والسماح بترميم الكنائس القديمة وتشييد اخرى جديدة . وتثبيت رعاياه المسيحيين في املاكهم ومراكزهم . وان يؤجل لهم دفع المتاخر من ضرائبهم . وان يعفيهم من اي ضريبة مدة السنتين التاليتين . والا يمنع هجرة العائلات اللاتي تريد ان تغادر البلاد حاملة حوائجها في مدة السنة الاولى من الصلح . وان يقضي اخيرا على اعمال الشدة والظلم التي ينزلها الحكام وغيرهم من موظفي الدولة على الرعايا المسيحيين .

٧) تعهد الديوان بان يرجع امارتي الافلاق والبغدان الى حقوقهما القديمة . والا يطلب منهما غير الجزية التي حددت في عهد السلطان محمد الرابع . وان يعامل الباب العالي عمال اميريهما

معاملة حسنة . والا يعزل هذين الاميرين الا اذا كانت هناك اسباب قوية . وان يتقبل بلطف العروض التي من الجائز ان تقدمها البعثة الروسية لقاء اذا قضت الحال عن هاتين الامارتين .
٨) ان يعطي السلطان لقب باديشاه لملك روسيا . ٩) ان يقيم في الاستانة وزير روسي من الدرجة الثانية تكون له الافضلية على جميع الوزراء الاجانب بعد سفير امبراطور المانيا . ١٠) ان تكون للوزير الروسي الحرية بتشييد كنيسة لاهل ملته في حي بيرا ١١) وضع سفراء روسيين في كل بلاد الدولة العثمانية التي يلاحظ ان وجودهم ضروري فيها . ١٢ توسط الباب العالي مع دول افريقيا لتعقد اتفاقات تجارية مع روسيا وان تتعهد الدولة بسلامة السفن التجارية الروسية . واخيرا تعهد الباب العالي في مادة مستقلة بدفع خمسة عشر الف كيس اى سبعة ملايين وخمس مئة الف قرش لروسيا كنفقات الحرب .

وعقد قبل امضاء هذه المعاهدة اتفاق سنة ١٧٧٥ يعين باكثر دقة حقوق السلطان المتعلقة بالقرم . وهو يتناول ١) ان يحتفظ السلطان بسلطته الروحية على خانات القرم ٢) ان يثبت الخان الذى انتخبه الشعب وان يرسل له شارات التقليد حسب العادات القديمة ٣) ان يتابع ذكر اسم السلطان في الخطبة في ولايات الخان وضرب النقود باسمه . ٤) ان يتناول قضاة التتر رسائل تعيينهم من قاضي عسكر الاستانة .

وقد عقد اتفاق اخر سنة ١٧٧٩ في Aiinali - Cavak وضع حدا لمنازعات جديدة . ولقد اشترط فيه ان يعترف الباب العالي بالخان شاهين كراى الاول والاتوثر سلطة السلطان الروحية على استقلال الخانات المنتخبين . وان تنسحب القوى الروسية بمدة ثلاثة اشهر من القرم والكوبان . وان يتعاهد الملكان في الايقوماها منذ ذلك الحين باى محاولا عسكرية في حال حصول اختلافات جديده بينهما فيما يتعلق بالتتر قبل ان يقوما بحل الخلاف حبيا . وان يصبح معترف باحتلال السلطان للبلاد الواقعة بين نهرى البوغ والدنيستر . وان يتعهد الديوان برد القوزاق الملتجئين اذا ارادوا ان يستفيدوا من الامان الممنوح لهم والا فعليه ان ينقلهم الى داخل بلاد الدولة . وان يكون الروس احرارا في الملاحة في البحر الاسود مع مراكب تجارية لايزيد محمولها عن ستة عشر الف كيلو قمح او اربع مئة واثنين وعشرين برميلا . وان لاتستخدم روسيا ابدا في هذه الملاحة اشخاصا من رعايا الباب العالي بدون ان تاخذ

موافقته . وان يحتفظ الفريقان الى ما بعد القيام باجراء مفاوضة عقد معاهدة تجارية مماثلة لتلك المنعقدة بين الباب العالي وفرنسا وانكلترا . وان يعد السلطان باحترام الامتيازات الممنوحة للافلاق والبغدان والا يقوم البلاط الروسي من جهة بتطبيق حقه في التدخل والتوسط عن هاتين الامارتين كما نصت على ذلك معاهدة قينرجة . وان يتعهد الباب العالي بدفع تعويضات لسكان المورة عن املاكهم التي فقدوها والتي لايمكنهم استرجاعها نظرا لكونها تحولت الى وقف في عهد السلطان السابق .

وتبع هذا الاتفاق معاهدة تجارية عقدت سنة ١٧٨٣ مؤلفة من واحد وثمانين مادة حصلت روسيا بموجبها على تعهد من الباب العالي في تامين سلامة السفن الروسية من قراصنة البربر . وبتعيين سفراء لها في مرافيء البحر الابيض التابعة للدولة وحرية اجتياز البوسفور للسفن الروسية المحملة موادا غذائية وغيرها من البضائع وحصلت على غير ذلك من المنح . وقد اتفق ايضا في حال حصول خلاف بين الدولتين ان يعطى لرعايا الفريقين مدة ستة اشهر لتصفية اعمالهم قبل مغادرة البلاد .

الا ان اهم عمل جرى بين البلاطين يستحق الاعتبار هو الذي حدث سنة ١٧٨٤ وبه يعترف الباب العالي بضم القرم لروسيا الذي كان اجراه شاهين كراي سنة ١٧٨١ وكان يكفي لاتمام ذلك الغاء مواد معاهدة قنيرجة واتفاقية Aïnali - Cavak المتعلقة باستقلال القرم وبحقوق التتر السياسية . وكان نهر القوبان في اسيا ونهر Aczacou مع المقاطعة التابعة له في اوروبا يشكلان حدود الامبراطوريتين . وتعهدت روسيا في انها لن تحاول ابدا ان تستفيد من حقوق خانات التتر التي كانت لهم على مقاطعة Soudjak في القوبان .

وحدث نزاع جديد بين الدولتين سنة ١٧٨٧ زاد في اذلال البلاط العثماني وفي خسارته . وقد اوصلت معاهدة جاسي المنعقدة سنة ١٧٩٢ حدود روسيا حتى نهر الدنيستر (١) .

ولم يكن للعثمانيين بعد قرن من افتتاح القسطنطينية وبالرغم من انهم كانوا اسياد الاراضي الممتدة حتى شاطيء الدانوب من علاقات مع اي دولة اوروبية عدا تلك التي كان

---

١) (ملاحظة الناشر الكتاب وهو M. C. d'Ohsson ابن المؤلف) لقد تخلى الباب العالي لروسيا في معاهدة الصلح الاخيرة المنعقدة في ٢٨ مايس سنة ١٨١٢ عن قسم من البغدان وبسارابيا بحيث اصبح نهر البروت والدانوب بملتقاه الآن الحدود الغربية للدولتين .

جوارها لهم يعرضها لهجمات جيوشهم . وكانت جميع اوروبا تنظر اليهم انئذ كاعداء مشتركين لها وذلك بسبب البغض الذى كانوا يظهرونه نحو المسيحيين وبالاعمال البربرية التي كانوا يقومون بها في البلاد التي يكتسحونها وبالذعر العام من تقدم سلطتهم ولهذا فان الملوك المسيحيين الذين كان البابا دوما يحمسهم كانوا يجدون من الواجب عليهم تقديم المساعدات للشعوب المجاورة للعثمانيين والمضطرة دائما للمحاربة من جراء هجمات السلاطين العثمانيين المتكررة . وكل يعرف المحالفات التي حصلت والتي كانت نتائجها معارك كاسوفيا ونيكوبوليس ووارنا الشهيرة .

وكان بلاط فرنسا هو اول من تنحى عن هذا التحالف العام . فلقد تكونت عند فرانسوا الاول فكرة التقوى بالتحالف مع السلطان سليمان ضد قوة البلاط النمساوى الهائلة . الا ان محاولات بعثاته الاولى السرية التي ارسلها الى الاستانة في سنتي ١٥٢٥ و١٥٢١ لم تحصل على اية نتيجة . الا ان مفاوضات ده لافوريست ادت سنة ١٥٣٥ الى عقد معاهدة تجارية بين الدولتين .

وكانت اهم شروط هذه الاتفاقية الاولى بين الباب العالي وفرانسا هي : ١) ان يقيم سفير افرنسي في الاستانة وقنصل اخر في الاسكندرية × ٢) الا يدفع التجار الفرنسيون عن بضائعهم ضريبة جمركية سوى خمسة بالمئة . ٣) وان يعفوا من كل الضرائب مدة العشر السنوات الاولى من اقامتهم في الولايات العثمانية انما يخضعون بعد انقضاء هذه المدة لدفع الخراج وبقية الرسوم العادية . ٤) في انه يمكن لبقية الشعوب الاوروبية مثل الانكليز والقطلانيين والراغوزيين والصقليين والجنويين والبرتغاليين الخ ... الذين ليست حكوماتهم مرتبطة مع الباب العالي بمعاهدات صداقة ان يتنقلوا في السفن الافرنسية في جميع البحار وان يتعاطوا التجارة تحت حماية فرانسا في كل البلاد التابعة للعثمانيين . ٥) ان يتمتع الافرنسيون بحرية القيام بطقوسهم الدينية وان يقوم رهبان كاثوليك في المحافظة على الامكنة المقدسة في فلسطين ٦) الا انه لايحق وذلك حسب الشرع الاسلامي لاى افرنسي او دير او كنيسة لاتينية الاحتفاظ بعقارات في اراضي الدولة ٧) واتفق على ان يكون الاولاد الذين ياتون من اب افرنسي وام من اهل البلاد رعايا للسلطان يدفعون الجزية .

ولم يتم التحالف الذى كان في النية اجراؤه الا عام ١٥٤٢ الا اننا نلاحظ من التحفظات التي اتخذها فرانسوا الاول ليجعل مفاوضاته مع البلاط العثماني سرية بالمعاذير التي

قام في ابدائها ليعطي لونا جميلا لعلاقاته مع الكفار - نلاحظ من كل هذا كيف انه كان يعمل ضد اراء المسيحية العامة . وقد قام في المفاوضة بهذا التحالف الكابتن بولان Paulin الذي اصبح من ذلك الحين البارون ده لاغارد de Lagarde ومنذ السنة التالية قام اسطولا السلطان سليمان وفرانسوا الاول باعمالهما ضد ممتلكات شارلكان البحرية . وجرى ايضا نفس هذا العمل المشترك في عهد الملك هنري الثاني .

وفي عهد السلطان سليم الثاني حصل Claude du Bourg سفير الملك شارل التاسع على تجديد المعاهدة التجارية سنة ١٥٦٩ مع ادخال مواد جديدة فيها هي من صالح فرانسا . التي يمكنها بموجبها تعيين قناصل في بلدان الشرق . ولكنه ذكر فيه انه لايمكن لاى شخص من رعايا السلطان القيام بهذه المهمة . ويحق للسفراء والقناصل محاكمة الاشخاص من مواطنيهم . والافرنسيون احرار في التصرف بميراثهم . واذا مات احد منهم بدون ان يكتب وصية فان السفير او القناصل يجمعون امواله لينقلوها لورثائه الشرعيين . ولايحق ملاحقة افرنسي بسبب ديون غيره الا اذا كان كفله كما لايلاحق بسبب جريمة ما ارتكبها افرنسي اخر قد اختفى . ولاتقبل في المحكمة اى دعوى ضد احد الافرنسيين الا اذا كانت قائمة على اساس صحيح ولايحق للقاضي ان يكتفي بادلة الشهود فقط . ومنع على المحاكم ان تقبل بسهولة تشكيات الشتم الصادرة ضد الافرنسيين بحق سكان البلاد الذين يقدمون شهود زور لاثبات دعواهم ولابتزاز الاموال منهم . ويحق لتاجر افرنسي اذا دعي الى المحكمة ان يوقف الدعوى اذا لم يتمكن المترجمان القائم فيخدمة الرعايا الفرنسيين من حضورها الا انه يجب على هذا الاخير ان يثبت سبب غيابه لكي لايكون هذا العمل سببا لتجنب او تاخير سير الدعوى .

وعلى التراجمة الداذونين ان يقيموا في الامكنة التجارية التي عينوا فيها . ويعفى كل افرنسي متزوج في البلاد اوغير متزوج من دفع الخراج . ويحق للسفراء والقناصل طلب الاسرى الافرنسيين الذين هم في حوزة المسلمين كما يحق لهم طلب انزال العقاب بالقراصنة الذين اسروهم وباعوهم مع العلم بان الاسرى الذين اعتنقوا الاسلام تمنح لهم حريتهم بدلا من تسليمهم . ويجب ان تصدر الاوامر للاسطول البحرى العثماني في ان يعامل كل سفينة افرنسية معاملة حسنة . وتعهد الباب العالي بارجاع كل ماقد يؤخذ من المراكب الافرنسية وبمعاقبة المجرمين معاقبة شديدة وتقدم المساعدات للسفن الافرنسية التي تجنح الى الشواطيء التركية ولايمس شيء من حوائجها

وبضائعها ، واخيرا لا يحق للفرنسيين ان يتمتعوا بكل الامتيازات الممنوحة للبندقيين بالمعاهدات المنعقدة بين الباب العالي والبندقية . وان يعطي السلطان بهذه الاتفاقية لقب باديشاه لملك فرانسا تمثلا بابيه السلطان سليمان الذى كان في اخر رسالة لفرانسوا الاول ولهنرى الثاني يدعو هذين الملكين بهذا اللقب .

وعقد عام ١٥٨١ اتفاقية جديدة تحوى على امتيازات جديدة اخرى وكان المفاوض السفير Germigni بارون ده غارميول وكان ذلك في عهدى السلطان مراد الثالث والملك هنرى الثالث . وحصلت فرانسا لسفرائها التقدم على كل بقية الوزراء الاجانب . وقال: " وذلك راجع لارتباطات الصداقة القديمة التي كانت بين السلاطين العثمانيين وملوك فرانسا الذين كانوا في جميع الاوقات متصلين باخلاص مع الباب العالي وهم في جميع الاحوال اشهر ملوك المسيحيين .

وقد حصلت فرانسا ايضا على امتيازات اخرى في عهد السلطان محمد الثالث وكان ذلك بمجهودات سافارى دوبريف سفير هنرى الرابع . ويترتب على الدولة الاجنبية في عهد كل سلطان جديد ان تطلب تثبيت الامتيازات القديمة نظرا لكون كل سلطان لايتعهد الاعن نفسه بدون ان يذكر شيئا عن خلفائه ولهذا فان السفراء الاجانب يغتنمون مثل هذه الفرص ليعملوا في الحصول على امتيازات جديدة وهذه الاتفاقية الرابعة الحاوية على امتيازات جديدة التي وقعت عام ١٥٩٧ كانت تمنح الافرنسيين ١) حرية تصدير القطن الخام والمصنوع والجلود والسختيان والشموع الخ ... ٢) الاعفاء من دفع الخراج ومن بقية الضرائب الشخصية . ٣)وضع ضريبة على بضائع الرعايا العثمانيين المحملة على السفن الافرنسية ٤) منع القضاة من مضايقة القناصل وتوقيفهم وسجنهم وان اى عمل يقوم ضد القنصل يجب ان ينظر فيه محكمة الصدر الاعظم ٥) التعهد بان تحترم ولايات شمال افريقيا المراكب الافرنسية وارجاع ما يمكن ان يستولي عليه قراصنتها . ٦)ازالة كل فرمان يخالف فحوى الامتيازات .

وقد حصل سافارى ده بريف سنة ١٦٠٤ في عهد السلطان احمد الاول على امتياز خامس للافرنسيين . اذ اعطيت لهم الحرية في ان يرسوا سفنهم في مدينة الجزائر وفي صيد المرجان على شواطي ، شمال افريقيا وفي قبول اوعدم قبول القراصنة الجزائريين في المرافي ، الافرنسية ووعد الباب العالي في ان هذا الرفض لايوثر ابدا في تعكير السلام بين الدولتين

ويسمح لرعايا دولة فرانسا او للذين هم تحت حمايتها في الحج الى بيت المقدس ويؤمن الباب العالي حماية كهنة كنيسة القبر المقدس .

وفي عهد السلطان محمد الرابع قام المركيز ده نوانتل سنة ١٦٧٣ بمفاوضات مع الباب العالي وحصل على امتيازات جديدة وضعت شروطها في اتفاقية مؤلفة من واحد وتسعين مادة كان بعضها يثبت الامتيازات السابقة والبعض الاخر ينص : ١) على تحويل الضرائب الجمركية التي على البضائع من خمسة الى ثلاثة بالمئة يكون دفعها نقودا اوعينا . ٢) وان يدفع الافرنسيون ضريبة الجمرك المسماة "مسطرية" كما يدفعها الانكليز ٣) ان يقبل التعامل بالنقود الافرنسية في الدولة العثمانية ٤) وان يفك سبيل الركاب الافرنسيين الذين يقبض عليهم وهم في سفن معادية وان تحفظ حوائجهم . وعدم التعرض للسفن الافرنسية التي تنقل مواد اغذائية بين دولتين اجنبيتين ٦) ينظر الديوان في الدعاوى النقدية القائمة ضد الافرنسيين التي تكون قيمتها اكثر من اربعة الاف بارة .

ولقد ثبتت هذه الامتيازات سنة ١٧٤٠ في عهد السلطان محمود الاول بواسطة اتفاقية قام بالمفاوضة فيها المركيز ده فيللونوف سفير دولة فرانسا وكانت تحوي امتيازات جديدة ايضا وهي : الاعفاء من دفع ضرائب الجمرك المسماة مسطرية وقصابية الخ .... الحرية المعطاة للسفراء وللقناصل في ان يستخدموا عندهم ما يروقهم من التراجمة من اهل البلاد او الانكشارية . اعفاء خدمهم الذين هم من اهل البلاد من رعايا السلطان من دفع الضرائب العامة على ان لايتعدى عددهم الخمسة عشر . اعفاء الخمور التي يستعملها الافرنسيون من الضرائب . اعطاء الامر الى القضاة في ان ياخذوا مصاريف المحاكمة من الذين اقاموا الدعوى على احد الافرنسيين ويكونوا خسروها وان لاياخذوا غير اثنين بالمئة كمصاريف المحاكمة من الافرنسيين الذين اقاموا الدعاوى وربحوها . وقد جاء في المادة التاسعة والثلاثين : "عندما يذهب رعايانا من اهل الذمة لعند الافرنسيين او اذا حصل العكس للبيع والشراء او لنحو ذلك من الاعمال فانه لايمكن ان يضايقوا من اجل هذا التعامل ." وهي مادة تسمح بصورة غير مباشرة للروم الكثوليك من اهل البلاد في التردد على الكنائس الافرنسية لانهم كانوا معرضين للاضطهاد من بطارقة الروم او اليونان الذين يعارضون دوما هذه الخيانة الروحية من قبل ابناء ملتهم . وتنص المادة الاربعون : "على ان

"الامتيازات الممنوحة لبقية الشعوب الاوروبية تكون ايضا ممنوحة لرعايا الامبراطورية الافرنسية وان يعاملوا باحسن معاملة نظرا لان ملكهم كان صديقا للدولة العلية اقدم من بقية الملوك ."

ان هذه الاتفاقية وهي اخر واحدة من نوعها عقدت بين عائلة البوربون وبين بلاط ال عثمان والتي تحتوي على كل الامتيازات والاعفاءات التي منحت للامة الافرنسية بصورة متتابعة ـ قد جددت وتثبتت عام ١٨٠٢ في معاهدة عقدت في باريز ووقع عليها سعيد غالب افندي . ولقد منح بموجبها حق جديد للافرنسيين وهو حرية الملاحة في البحر الاسود . وتعهدت كل من الدولتين احترام سلامة ممتلكاتهما . ومنحت كل واحدة للاخرى كل الامتيازات التي كانت قد منحت الى الان او التي سوف تمنح لبقية الدول ويكون ذلك بصورة مؤكدة كما لو كانت اشترط عليها في المعاهدة نفسها .

وبالرغم من التغييرات التي طرأت في اوقات مختلفة على العلاقات القائمة بين الباب العالي وبلاط فرانسا فان العثمانيين لم يتوقفوا قط عن اعتبار الافرنسيين كاقدم وافضل اصدقائهم . ويزداد هذا الايثار ايضا قوة بما هو مزعوم في انه كان هنالك فيما مضى ارتباط عائلي بين العائلتين المالكتين اذ يروي كثير من المؤرخين العثمانيين (Aali-Efendi ، Sélaniki ، Petchévi) ان امير البحر ساروجه باشا اسر سنة ١٤٢٨ قرب عليبولي مركبا عليه حمولات ثمينة وفيه اميرة افرنسية معدة للامبراطور البزنطي حنا السادس . الا ان مراد الثاني الذي كان السلطان الحاكم انئذ الحقها بحرمه وترك كل ما معها من بائنة لامير البحر ليقوم بانشاء مسجد فخم في عليبولي . ويضيف هؤلاء المؤرخون بان السلطان فتن بملاحة ورجاحة عقل هذه الشابة الاسيرة التي انجبت له السلطان محمد الثاني ولعتنقت الديانة الاسلامية تحت اسم عليمه خانم (١) .

ولم يبد بلاط لوندرة ايضا الرغبة في الارتباط مع العثمانيين بعهود الصداقة والتجارة الا بعد ثمان وخمسين سنة من حصول اول علاقات بين الباب العالي وبين فرانسا . وقد حصل ادوار بورتن Edouard Berton سفير الملكة اليزابت سنة ١٥٩٣ للرعايا الانكليز على نفس الامتيازات التي كانت قد منحت لفرانسا . وجددت هذه الاتفاقية في عهد السلطان الثاني وهو محمد الثالث وحصلت انكلترا اذ ذاك على الامتياز التي تتمتع بها فرانسا وهي ان تمنح سفنها وحمايتها في البحار والولايات السلطانية للبلاد التجارية التي لم ترتبط بعهود صداقة مع الباب

---

(١) لقد ذكر المؤرخون خطاءا ان هذه الاميرة التي يدعى انها افرنسية هي والدة بيازيد الثاني .

العالي . وقد ابدت فرانسا التي كانت ترى ان هذا الامتياز خاص بها احتجاجات شديدة للديوان . وقد حصلت من اجل ذلك مرارا على تامينات مرضية الا انها لم تتم ابدا . واستعان السفير سافاري ده بريف سنة ١٦٠٢ بالمفتي خوجه زاده محمد افندي للحصول على فتوى تؤيد طلبه المرتكز على اساس هذا المبدأ في انه لكون الامتياز الممنوح لبلاط فرانسا هو خاص به فانه يبطل الحق الممنوح بعد ذلك للانكليز .

وبعد بضعة اعوام عقدت هولندا ايضا سنة ١٦١٢ مع الباب العالي معاهدة صداقة وتجارية شبيهة بمعاهدة انكلترا .

وبالرغم من العلاقات المتينة التي نشأت بين السويد والباب العالي من جراء اقامة الملك شارل الثاني عشر في بندر Bender فانه لم تعقد معاهدة تجارية بين الدولتين قبل عام ١٧٣٧ التي قام بالمفاوضة فيها هوبكن Hoepken وكارلسون Carlson وزير الملك فريديريك . وبعد اعوام ثلاثة اتحد البلاطان بمحالفة دفاعية ضد روسيا .

وقد عقد الباب العالي سنة ١٧٤٠ معاهدة صداقة وتجارية مع بلاط نابولي . و وسنة ١٧٥٦ مع الدنمرك وسنة ١٧٦١ مع بروسيا وسنة ١٧٨٢ مع اسبانيا . ان هذه المعاهدات تحوي تقريبا نفس الشروط المتعلقة بالتجارة ومنح الباب العالي رعايا هذه الدول نفس الامتيازات التي يتمتع بها رعايا بقية الدول الاوروبية .

ولم يكن السلاطين العثمانيون يعطون اباطرة البزنطيين وامراء نيقية وطربزون والبوسنه وبلغاريا الخ ... قبل سقوط الامبراطورية البزنطية الالقب تكيور او تكفور وهو محرف من كلمة تاكافوريTacavor وهو اللقب الذي كان يتخذه قدماء ملوك ارمينيا . ثم اخذوا يدعون الملوك المسيحيين بلقب كرال Cral وهو لقب قدماء ملوك الصرب . الى ان اعطى الباب العالي سنة ١٦٠٦ لامبراطور المانيا لقب قيصر الرومان الذي يضاف اليه غالبا كلمة "الجليل" ويرجع ذلك لذوق الشرقيين في حب السجع . كما كان يعطى لملوك روسيا لقب قيصر (Tschar : Czar مصحوبا ايضا بكلمة الجليل . الا انه في سنة ١٧٣٩ ابدل هذا اللقب بلقب امبراطور .
ثم حصل اتفاق سنة ١٧٧٤ في معاهدة قينرجة في ان يعطي السلطان لقب باديشاه لملوك روسيا وهو من اسمى الالقاب التي يتخذها الملوك المسلمون ويراد به الملك الكبير . وقد مر معنا بان هذا اللقب منح لفرانسوا الاول من قبل السلطان سليمان الاول ~~مرارا على ابداء عرضية~~

ويعطي الباب العالي للملوك الاوروبيين هذه الالقاب : " لأجلّ الامراء المسيحيين ولاسمى ملوك العقيدة المسيحية منظم شؤون الامم المسيحية السياسية وحامل رايات العظمة والابهة المحاط بالعز والشرف ، العظيم الجليل السني ....."

الا ان الباب العالي هو اكثر سخاء في منح صفات الابهة للملوك المسلمين . ففي تقارير معاهدة الصلح الموقعة في الاستانة ، في ٢٩ مايس سنة ١٥٥٥ بين سليمان الاول وتحمسب الاول" اعطى السلطان الشاه القاب : "شمس العجم والملك الذي لايقارن، جمشيد (١) عصره وسيد الفلاح والعز ومرجع لعمدة العظمة والجلال الخ ..." والشاه من ناحيته لقب سليمان "بملك الملوك وملجأ الامراء وزينة القياصرة وحكم ملوك الارض والمحسن للجنس البشري وبلية الكفار وحامي الاسلام المجيد قرين سليمان في الحكمة وداريوس في العظمة والاسكندر بالسطوة وقرين الشمس بالبهاء ، الذي كان سيفه يلقي الرعب في قلوب الاشرار ، والذي كانت ارادته قانون الزمن ، ورحمته نعيم الدنيا الخ ...."

وفي كل الاحيان التي يرد فيها اسم سفير دولة اجنبية في اوراق الدولة العلية فانه يذكر مع اسمه هذا اللقب : افضل اسياد الديانة المسيحية .

وتؤيد المعاهدات بقسم السلطان الذي يكون بهذه الجمل : " انني اعد بمراعاة هذه الشروط طالما بقي الفريق الثاني مخلصا لتعهداته . اي نعم اني اقسم على ذلك باسمه تعالى العظيم خالق السماء والارض وبمعجزات نبينا محمد العديدة ، شمس العالمين والسبب الخفي لخلق الدنيا ، وبقدسية القران وبروح ابي واجدادي وبراسي وراس اولادي الخ ..." ويضيف بعض الاحيان : " بالاحترام الذي للمئة واربع وعشرين الف نبي ، وبالسيف الذي اتقلده ، وبالجواد الذي امتطيه الخ ....." وهو يقسم عندما تكون المعاهدة موقعة مع احد الملوك المسلمين : بقدسية السور التي تبدأ بـ "حم" وبالاعتبار الذي لسيف الله ولكتابه وقلمه " (٢)

---

(١) احد قدماء ملوك الفرس

(٢) السور التي تبدأ بـ "طسم" هي اربع سور من القران (٢٠-٢٣) والسور التي تبدأ بـ "حم" سبع اخرى (٤٠-٤٦) اما السيف فانه يشير الى سلطة السلطان . والكتابة الى عقيدة انه مقدر كل شيء على الانسان منذ الازل والقلم يشير الى الالة الخفية التي خطت ايات القران .

تكتب رسائل السلطان الموجهة الى ملك اجنبي باحرف كبيرة على قطعة كبيرة من الورق تطوى وتوضع داخل كيس من الجوخ الذهب . وتكون مرفوقة دائما برسالة من الصدر الاعظم . ومن المعتاد اذا وجه احد الملوك رسالة الى السلطان لم يوجه واحدة اخرى بنفس الفحوى للصدر الاعظم ولكن ما من سلطان قط فعل بالمقابل مثل ذلك.

لم يكن الباب العالي عند نشوب حرب ليحترم الصفة الرسمية التي لسفير الدولة المعادية الافيماندر اذ يقبض على ممثليها ويسجنهم ويعاملون في بعض الاحيان معاملة اسواء من هذه يشهد على ذلك ما حل بكثيرين من ممثلي البندقية Bayles وقد يتعرض في اوقات السلم ايضا سفراء ملوك هم اصدقاء للباب العالي الى اهانات تدل على الخشونة والكبرياء . ويمكن ان نشير كمثل على ذلك ماحل بستة سفراء افرنسيين . ففي عهد السلطان مراد الثالث قبض على Lancome واودع السجن وكتب الصدر الاعظم رسالة لهنرى الرابع مملوءة بامر التشكيات نحو ممثله الذى يتهمه بالخداع موءكدا انه لولا صفة الرسمية والاكرام الواجب نحو ملك فرنسا لكان جزاءه الموت . وفي سنة ١٦٢٨ اوقف الباب العالي البارون سانسي Sancy de la Molle ده لامول سفير لويس الثالث عشر . ونقل في سنة ١٦٣٤ الكونت ده مارشوفيل الى ظهر احدى السفن وطرد من الاستانة . واوقف وقتيا ثلاثة من سفراء لويس الرابع عشر وهم : De la Haye سنة ١٦٥٨ وابنه De la Haye Vantelet سنة ١٦٦٦ و Guilleragne سنة ١٦٨١ ولكن منذ قرن من الزمن اخذ الباب العالي يحسن معاملة وزراء الدول الاجنبية .

انه من العادات الشرقية الا يمثل احد امام السلطان بدون ان يقدم له هدية . وكان كل السفراء المبعوثين الى الاستانة يجلبون معهم فيمامضى هدايا له . ولما لم يكن مع François de Noailles اسقف Acqs شيئا يقدمه للسلطان فانه لاقى صعوبة كبيرة سنة ١٥٧٢ لمقابلة السلطان سليم الثاني لكي يقدم له اوراق اعتماده . وكان يرسل ملوك اوروبا المرايا والساعات والمراصد واواني الطعام الخ ... اما الاواني المصنوعة من الذهب او الفضة او الفضة المذهبة فانها معتبرة اشياء دنسة لهذا فانها اما تباع او ترسل الى دار ضرب النقود . اما هدايا السلطان فانها كانت تتالف من الطيوب والخيم . والسجاد العجمي اوالمغربي والجياد المجهزة باثمن عدة والسيوف والنياشين المرصعة بالحجارة الكريمة الخ ... ولكن الغيت عادة ارسال الهدايا منذ امد طويل وليس هناك غير الدول المطارة التي لاتزال ترسل الهدايا بمناسبة توجيه سفير فوق العادة .

كانت الدولة العثمانية تقوم بنفقات السفراء الفوق العادة منذ دخولهم الاراضي العثمانية حتى خروجهم منها . وكانت ترسل موظفا يحمل رتبة مهمندار ليستقبلهم على الحدود وليؤمن لهم كل ما يحتاجونه طيلة مدة اقامتهم . وكان الباب العالي يقدم سنة ١٥٨٩ لسفير العجم مئة من الخرفان ومئة قالب من السكر مع غير ذلك من المواد وهذا عدا مبلغ عظيم من المال في كل اسبوع . وكان يتناول سفير النمسا الكونت de Leslie بعد صلح Vasvar المنعقد سنة ١٦٦٥ مئة وخمسين قرشا في اليوم وكل ما يلزمه من الطعام مع علف خيله . وكانت تختلف كمية هذا "التعيين" وذلك حسب الظروف وحسب الملوك الذين يرسلون السفراء . وكانت الدولة حتى اخر القرن الماضي تتحمل نفقات الوزراء الاجانب من الحدود حتى العاصمة وكان يتناول وزراء الدول المجاورة تعيينا يكون مئة او مئة وخمسين او مئتي قرش في اليوم وذلك مدة الثلاثة او الاربعة اشهر الاولى من اقامتهم . ولكن منذ ان اخذ الباب العالي يرسل بعثات الى البلاطات الاوروبية فانه الغى هذه العادة القديمة وهو منذ سنة ١٧٩٤ لم يمنح تعيينا الا لسفراء الدول المجاورة الفوق العادة . ولقد كان من العادة ايضا ان تخصص الدولة في كل مرة ينعقد فيها مؤتمر في بلادها تعيينا من النقود للمفوضين الاجانب ولوزراء الدول المتوسطة في الصلح للاشخاص التابعين لهم .

كان الوزراء الاوروبيون يسكنون فيما مضى في العاصمة نفسها ويقيمون عادة في فندق كبير يعين لهم وهو لايزال حتى الان يدعى " ايلجي خان " اي خان السفراء . وكان سفراء البندقية هم اول من قطنوا البيره Pera وما لبث ان تمثل بهم في ذلك بقية السفراء ولقد اخذوا منذ امد طويل يقطنون في نفس هذا الحي .

تعقد الجلسات للوزراء المفوضين الاجانب بمظاهر العظمة والاصول الدقيقة التي تسيطر على كل احتفالات البلاط العثماني . وبعد ان يعلن السفير الجديد نبأ قدومه يزوره في اليوم التالي ترجمان الباب العالي فيقدم له التهاني باسم الصدر الاعظم ووزراء الدولة . ويسبق هذه الزيارة هدية من الورود والفاكهة توضع على اطباق وتقدم من قبل الصدر الاعظم . ثم ياتي رجال من حرس الشرف مؤلف من بلك من الانكشارية يقيمون في قصر مجاور لقصر السفير .

ويقيم له الصدر الاعظم في بادىء الامر جلسة رسمية ليأخذ منه اوراق اعتماده الموجهة له حسب العادة من الملك الذي ارسل السفير ومن وزير شؤونه الخارجية . فيذهب الوزير المفوض

لحضور الجلسة فيسير امامه حرس الشرف وتتبعه حاشية مؤلفة من موظفي سفارته ومن كبار شخصيات مواطنيه ومن سواح اوروبيين يغتنمون هذه الفرصة ليشاهدوا بلاطا لايمكنهم في غير هذه المناسبة الوصول اليه . فيجتاز المرفاء على قارب " الشاوش باشي " الذى له سبعة ازواج من المجاذيف . وعندما يصل الى اليابسة على الضفة الثانية يستقبله موظفان من الحجاب " شواش " ويقودانه الى جناح حيث لايلبث ان ينضم اليه "الشاوش باشي " الذى يقوم بوظيفة تقديم الشفراء ثم يقدم للوزير المفوض الدخان والقهوة والمربيات والشراب " ويدعى بعد ذلك لامتطاء صهوة جواد من جياد السلطان مجهز باثمن عدة . ثم يتابع طريقه ماشيا يسير عن شمال "الشاوش باشي" يتقدمه موكبه المؤلف من رجال حرسه الانكشارية ومن "العسس باشي" والصوباشي "وهم وكلاء الشرطة ، ونائب اسطبلات السراى ، ومن ثلاثين الى اربعين شاوشا . ورئيس الارطة ، والمهمندار الخ .... ثم تاتي بعدهم جياد السفير وهي غير ممتطاة ثم خدمه ، ثم بعد ذلك ياتي تراجمة السفارة واخيرا امين سره حاملا رسائل اعتماده محفوظة في اكياس من الجوخ المذهب ويحيط ال ~~بلكك~~ Haydouks بالسفير ويمتطي الخواص من حاشيته ايضا جيادا تابعة للسراى .

وعندما يصل الى قصر الباب العالي يصطف كل موظفي حاشية الصدر الاعظم في باحة القصر للقيام بالتعظيم له . ويستقبله ترجمان الباب العالي في اعلى الدرج ثم يقوده الى القاعة حيث يكون موجودا فيها رئيس التشريفات وكثير من الموظفين . ومن هنا يُدخل الى قلعة المقابلة حيث يحتل رجال من الشواش والحجاب وغيرهم قسما منها . ثم يُفتح باب خفي يتقدم منه الصدر الاعظم ويكون متكئا على الكيخية باك جهة اليمين وعلى القبودجي لركيخية سى " رئيس حجاب القصر جهة اليسار ويتقدمه وزراء وامناء سر الدولة وهم يمشون بوقار اثنين اثنين . ثم على الاثر تسمع في القاعه اصوات الادعية في ان يحفظ الله السلطان ونائبه .

يجلس الصدر الاعظم في صدر الاريكة ويقف الموظفون الذين سبقوه على الاريكة نفسها وايديهم وايديهم مشتبكة فوق صدورهم . ويكون عن يمينه الرئيس افندى والشاوش باشي ورئيسا الاستدعاءات وامين سره الخاص . وعن يساره الكيخية باك مع اربع رؤساء الارطات وهم ممثلو فرق جيش المشاة الاربع لدى الباب العالي . ويجلس السفير على مقعد حيث يتلو خطبة يقوم بنقلها الى اللغة التركية ترجمان الباب العالي الذى يكون واقفا عن يساره . فيجيبه الصدر الاعظم برزانة ثم بعد

ان ينقل نفس الترجمان كلامه الى السفير يقوم هذا الاخير ويتناول اوراق اعتماده من يد امين سره ويقدمها للرئيس افندى الذى يضعها على وسادة قرب الصدر الاعظم وعندها يقوم غلمان مرتدين البسة ثمينة فيضعون على ركبتي الصدر الاعظم وركبتي السفير قماشا من الحرير مزركشة اطرافه بخيوط الفضة ثم يقدمون لهما المربيات والقهوة والشراب وعطر العنبر وماء الورد . الا انهم عندما يخدمون الصدر الاعظم يضعون احدى ركبتيهم على الارض . وبعد ان يشرب كاس الشراب يحيه الحضور برفع يدهم اليمنى من فمهم الى جبينهم . وبعد الانتهاء من هذه المادبة يقوم رئيس التشريفات ويضع بين ثياب السفير وردائه منديلين من الحرير مزركشين بالذهب ويلبسه فروة من جلد السمور . ويفرق على رجال حاشيته ثلاثون او اربعون "قفطانا" ويكون الصدر الاعظم اثناء ذلك يحادث السفير الا انه لا يتحرك من مكانه عندما يقف السفير ويهم بالانسحاب ولا يرد له اخر تحية الا باحناء راسه قليلا . وعندما يرجع السفير الى قصره تستقبله الموسيقى العسكرية حيث يقوم بالعزف بتتابع الفرق الموسيقية الاربع التابعة للسراى وللباب العالي "ولدمير قابو" ولبرج غلطة . ويجرى له ذلك تبعا للعادة المستعملة نحو الموظفين العثمانيين الذين يهنأون يوم تنصيبهم او تثبيتهم في مراكزهم بمعزوفات نفس هذه الفرق الموسيقية العسكرية . ويقدم ايضا للسفير من قبل الصدر الاعظم اطباق عليها الورود والفواكه .

ولا يقابل السلطان احدا الا في ايام انعقاد الديوان . ولقد وصفنا الاحتفالات التي تجرى بمناسبة انعقاد هذا المجلس . وسوف لا نبحث هنا الا فيما يتعلق بمقابلة وزير مفوض اجنبي . فعليه ان يغادر قصره في جميع الفصول عند الصبح ويكون له نفس موكب الاحتفال السابق انما عليه ان يقف في انتظار الصدر الاعظم عندما يصل الى "الاى كشك" الكائن على مدخل طريق كبير يؤدى من الباب العالي الى السراى . وكان ينتظر فيما مضى ساعة كاملة اما الان فانه لا يبقى غير ربع ساعة تقريبا . وعندما يمر الصدر الاعظم مع حاشيته البهية يتابع الوزير طريقه ثم ينزل من على صهوة جواده لما يصل الى باب السراى الثاني حيث يكون ترجمان البلاط واقفا لاستقباله . ويضطر ايضا ان يقف ما يقارب النصف ساعة تحت هذا القبة . ثم يجتاز على قدميه باحة السراى الثانية يتقدمه الجاوش باشي ورئيس حجاب السراى (القبوجي لركهخية سي" وهما يضربان بتتابع الارض بعصيهما المحلاة بصفائح الفضة . وعندما يدخل الى هذه الباحة يرى من ناحية رجال الانكشارية مسرعين لاخذ صحون الرز ومن ناحية ثانية رجال خدمه وهم يهمون بتناول الاطعمة المقدمة لهم .

عندما يدخل السفير الى قاعة الديوان يجد فيها كل اعضاء المجلس عدا الصدر الاعظم الذى يدخل بعد برهة وجيزة من باب خفي . وبعد ان يجلس الصدر الاعظم يجلس السفير على مقعد يقف عن يمينه امين سر السفارة حاملا رسائل الاعتماد وعن شماله ترجمان الباب العالي .
وباشارة من الصدر الاعظم يتقدم هذا الاخير منه ويقبل ثوبه ويصدر له الامر بان يسال السفير عن صحته . فيقوم بمهمته بصوت خافت ثم يرجع لعند الصدر الاعظم ليعطيه الجواب فيقبل ثوبه ايضا ويرجع الى مكانه .

عندئذ تبتدئ جلسة الديوان التي تدوم ساعة تقريبا . وعند انتهائها يوجه الصدر الاعظم عريضة للسلطان يطلب فيها ان يتكرم ويمنحهم المثول بين يديه . وبعد وصول الخط شريف الذى يمنحهم ذلك تنصب خمس موائد صغيرة واحدة امام الصدر الاعظم يدعى اليها السفير وثلاث اخرى امام القبودان باشا والنيشنجي والدفترداريون الثلاثة حيث يتناول الاوروبيون من حاشية السفير الطعام معهم . وتخصص الخامسة لقاضي عسكر فقط اذ يعتقد بانهما يتدنسان اذا قبلا كفارا على مائدتهما . وليس هناك اغطية للموائد ولا ادوات . ويقدم على كل مائدة من هذه الموائد خمسون صحنا يوضع الواحد بعد الاخر . والصدر الاعظم هو الذى يبدى دائما فيتناول الطعام من الصحن الذى مسه باصابعه او وضع فيه ملعقته وهو يدعو في كل مرة ضيفه باشارة من يده ليحزو حزوه . ويقف الترجمان على قربة منهما . ولا يقدم للشرب سوى مرة واحدة وذلك في اخر الطعام ويكون ما يسمونه " شربة " اى شراب ويصب الغلمان الماء على ايدى المعزمين قبل تناول الطعام وبعده
ويحصل في بعض الاحيان فضول عند السلطان كي يشاهد في قاعة الديوان الاوروبيين الذين سيمتثلون بين يديه . عندها يُرى من خلال الشعرية المذهبة التي تكون على نافذة مرتبته الكائنة فوق مقعد الصدر الاعظم .

وبعد مضي نصف ساعة يكون مخيم فيها على الجميع صمت عميق يقاد السفير من قبل مترجم الباب العالي ورئيس التشريفات الى مكان في الباحة معين واقع بين قاعة الديوان وقاعة العرش حيث يلبس فروة من جلد السمور . وتفرق في نفس الوقت الخلع "القفاطين" على رجال حاشيته .
وعندما يخرج اغا الانكشارية والقاضيا عسكر من قاعة المجلس يتوجه الصدر الاعظم ومعه القبودان باشا نحو قصر السلطان حيث يتبعهما السفير . وعند وصوله الى باب السعادة يتقدم منه اثنان

من رؤوساء الحجاب (قبودجي باشي) فيسلعدانه من تحت ذراعيه . ويقوم غيرهما باجراء نفس الشيء مع الاوروبيين الذين يرافقون السفير . ويجتاز الجميع رواقا يصطف على جانبيه موظفو غرفة السلطان "خاص اوضه لي" والغلمان .

وعند دخوله الى قاعة العرش ينحني السفير ثلاث مرات ويقف على بضع خطوات من السلطان الذي يكون جالسا على الطريقة الاوروبية . ويقف الصدر الاعظم وامير البحر والميرعلم امام العرش كما يقف مقابل الحائط عن يسار السلطان ثلاثة موظفين من الخصيان البيض ويقوم ترجمان الباب العالي بترجمة الخطبة التي يلقيها السفير ولكن خشوعه وصوته الغير واضح يدلان على الخوف اكثر مما يدلان على الاحترام (١) ويامر السلطان الصدر الاعظم باشارة من راسه ان يجيب . فيفعل وينقل كلامه الى السفير الذي يتناول رسائل اعتماده من يدي امين سره ويقدمها للميرعلم الذي يقدمها بدوره لامير البحر فيعطيها هذا للصدر الاعظم الذي يضعها على احدى وسائد العرش . وعلى اثرها ينسحب السفير فيمتطي جواده عند باب السراى الثاني ويصطف مع موكبه في باحة القصر الاولى منتظرا مرور الصدر الاعظم بعدها يتابع سيره وعند وصوله الى قصره تهنوء الفرق الموسيقية الاربع التي تكلمنا عنها .

ويجري مثل هذا الاحتفال للسفراء وللوزراء المفوضين من ذوي الدرجة الثانية . ولايكون هناك اختلاف الا في عدد الانكشارية الذين يوءلفون رجال حرس الشرق وبعدد الخلع (قفاطين) الممنوحة وجياد السراي وبعدد اشخاص الحاشية الذين يقبلون في قاعة المجلس . ويمكن ان يرافق السفير من عشرين الى خمس وعشرين شخصا بينما لايرافق الوزير سوى خمسة عشر شخصا .

كان لايمنح لممثلي الدول الاوروبية في بادي الامر سوى الخلع السنية (القفاطين) . الا ان سفيرا نمسويا فوق العادة كان اول من منح له فروة من جلد السمور وكان ذلك سنة ١٦٤٤ وهي ميزة مخصصة عند العثمانيين لباشوات الاطواغ الثلاثة وللثلاث شخصيات الاولى من هيئة العلماء انما رجع الباب العالي في عهد السلطان احمد الثالث الى منح الخلع . وظل حريصا على اتباع ذلك حتى نقضها عام ١٧٧٢ اكراما لوزير مفوض جديد اسوجي وهو : M. Ulric de Celsing وظلت هذه المنحة متبعة منذ ذلك الوقت نحو كل الوزراء الاجانب .

يظلل الاوروبيون في الجلسات التي جئنا على وصفها محتفظين بقبعاتهم على رأسهم

---

(١) بما ان ترجمان الباب العالي لايظهر امام السلطان الا في مناسبة مقابلة هذا الاخير مع سفير اجنبي فانه يجب عليه عند دخوله الى قاعة العرش ان يسجد ويضع جبهته على الارض مع انه ليس هناك اي موظف مسلم يحيي السلطان بمثل هذه الطريقة الذليلة .

انما لايحق لهم المثول بين يدي السلطان حاملين سيوفهم . ففي سنة ١٧٠٠ اخبر سفير ترجمان الباب العالي سفير فرانسا M. de Ferriol في الوقت الذي كان سيدخل فيه الى قاعة العرش ان العادة تقضي بان يترك سيفه . الا انه رفض بعناد بالرغم من انهم اخبروه ان مثل هذا العمل طبق على السفراء الذين خلفهم وعلى بقية الوزراء الاجانب . واوصلوا الخبر الى الصدر الاعظم الذي كان اذ ذاك عند السلطان . ولكن مصطفى الثاني رفض ان يحيد عن القاعدة القديمة . واعطى الامر للترجمان ان يعلن للسفير عدم السماح له بالدخول اذا لم يوافق على ترك سيفه . وظل Ferriol مصرا وانسحب تاركا " القفطان " الذي منح له . وحذا رجاله حذوه . وردت له الهدايا التي جلبها معه والتي كانت لاتزال معروضة امام قاعة العرش (١)

وكان سفراء البندقية هم الوحيدون الذين يدخلون باحتفال عام .... فياتون كل ثلاثة اعوام مع مراكب حربية الى الدردنيل حيث تكون بانتظارهم سفينة عثمانية لتقلهم الى الاستانة . وبعد بضعة ايام من مجيئهم يجتازون حي غلطة تتبعهم حاشية كبيرة ويرافقهم Voyvode هذا الحي والشاوش باشي . ويلبسون في هذه المناسبة رداء طويلا كما يلبسونه وقت الجلسة .

ويأتي سفراء راغوزة مرة كل ثلاثة اعوام وذلك لتقديم الجزية التي فرضها الباب العالي على هذه الجمهورية ولتجديد خضوعهم له . انما يترتب عليهم اثناء اقامتهم في العاصمة التي تدوم بضعة اسابيع ان لايحلقوا ذقنهم وان يرتدوا الثياب الشرقية وان لايحتفظوا بثيابهم الاوروبية الا بقبعتهم . وهم يرتدون الثياب الرسمية فيما يحضرون جلستي الصدر الاعظم والسلطان حيث تجريان بدون احتفال . وهم لايقبلون في قاعة الديوان ويتناولون الطعام مع ترجمان الباب العالي في جناح العلماء .

وتعامل الدولة هسبودار الافلاق وهسبودار البغدان كما كانت تعامل سابقا الملوك الوراثيين لهذين البلدين . فتمنح لكل منهما قلنسوة (كوكا) مزينة بريشة وثوبا من الجوخ الاحمر محلى بفراء السمور (قبانيتزا) ولا تكون المقابلة التي تمنح لهما الا رمزا لطاعتهما للباب العالي . وعند دخولهما المجلس ينحنيان ثلاث مرات امام العرش . وكان يجب عليهما فيما مضى ان ينسحبا على الفور بدون ابداء اي كلمة . وكان الامير Mathieu Ghica هو اول من سمح له بمخاطبة السلطان وقد اكتفى بالدعاء طالبا له العز . اما السلطان فانه لايخاطب قط امراء هاتين المقاطعتين انما في بعض الاحيان يوجه كلامه للصدر الاعظم ويقول : " ليكن مخلصا وذا همة ولينتبه "

---

(١) ويضيف المؤرخ رشيد الذي يذكر هذا الخبر في تاريخه ان السفير M. de Ferriol نفذ منه ذلك بالوزير الجديد "دبلي بلجي" .

في حماية رعايا السلطنة وفي دفع جزية بلاده في حينها ."

يقول المؤرخ Sélamki بان الاحتفال الذى كان يجرى فيمامضى لاستقبال الوزراء المفوضين الاجانب هونفس الذى كان يجرى نحو ممثلي الملوك الخاضعين للسلطان . ولم يتحسن ذلك نحوهم الافي اخر عهد مراد الثالث . اذ حصلوا على امتيازات عديدة منها تناول الطعام في قاعة الديوان على مائدة الصدر الاعظم . ويضيف نفس هذا المؤرخ ويقول بانه قد دفعت اموال كثيرة لكبار رجال البلاط بهذا الصدد فاخذوا يدافعون عنهم ويسهلون امر منحهم هذه الامتيازات .

ويُعامل سفراء ملوك المسلمين معاملة افضل وخصوصا سفراء العجم . فيخرج الجاوش باشي على راس فرقة انكشارية لاستقبالهم قبل مدينة اسكدار ويجرى لهم عيد فخم عند وصولهم الى هذه المدينة المجاورة للعاصمة . وكانوا يجتازون البوسفور فيمامضى على سفن حربية بينما تطلق المدافع مشيرة الى مرورهم هذا . ويجرى سيرهم بابهة منذ وصولهم الى الضفة الثانية اى الى الاستانة . حتى المكان الذى عين لاقامتهم . وهم يجلسون على الاريكة عندما يكونون عند الصدر الاعظم اما في قاعة الديوان في السراى فانهم يجلسون على الاريكة قرب النيشنجي . ويدخل معهم الى قاعة العرش اربعون اوخمسون شخصا من رجال حاشيتهم . ولكن السلطان لايخاطبهم اذ الصدر الاعظم هوالذى يرد على خطبهم باسم مولاه السلطان .

وكان يترتب على الوزراء الاوروبيين سابقا في كل مرة يقابلون بها الصدر الاعظم ان يقدموا الهدايا له ولوزراء وامناء سر دائرته . وتتالف هذه الهدايا من الديباج والحرير والجوخ . وتجدد هذه الهدايا في عيدى الفطر والاضحى وعند تعيين صدر اعظم اورئيس افندى جديدين . ان هذه العادة التي تكلف كثيرا والتي يظهر انها وضعت ليكون لها معنى الخضوع الغيت بعد معاهدة قينرجه . ولم يحتفظ الا بالمنح التي تعطى اثناء المقابلات الاولى لرجال الصدر الاعظم ولسواس السراى . وهي ترتفع في كل مرة الى الف ومئتين والف وخمس مئة قرش . ومن العادة ان يقدم الوزراء الاجانب احترامهم للسلطان عندما يزور قصر الغلمان الخدم في غلطة اووقت قيامه بنزهاته في فصل الربيع عندما ياتي ليقضي بضع ساعات في مكان بديع قرب بويوك دره Buyukdéré ويكون ذلك بان يرسلوا له المربيات والحلويات في اواني من البلور اوالصيني . ويرافق ترجمان كل وزير هذه الهدية التي يقدمها لرئيس الخصيان السود

فيعطيه هذا باسم السلطان مئة قرش .

لايقابل الوزير المفوض السلطان ولا الصدر الاعظم بعد المقابلات الاولى التي تمنح له الا اذا اراد تقديم اوراق اعتماد جديدة او ان يسلم رسائل اخبارية . فاذا دعي الى بلاده يمنحه السلطان جلسة يعطى له فيها اجوبة رسائل الاعتماد المقدمة من قبل خلفه . واذا كان سيترك مركزه موقتا فانه لاياخذ السماح بالذهاب الا من الصدر الاعظم .

ولقد كان من الاصول فيما مضى ان يذهب الوزراء الاجانب لتقديم تهانيهم لكل صدر اعظم او امير بحر جديد . ويذهبون ايضا لتوديع هذا الاخير عندما يبحر كعادته سنويا مع الاسطول الى الارخبيل . الاان هذه العادة الغيت منذ عهد السلطان مصطفى الثالث . وانه يمكن الان لوزير اوروبي ان يقيم بضعة اعوام في الاستانة بدون ان ا تحصل له مناسبة الاتصال باى وزير للدولة او اى موظف . ولايحصل مندوب سياسي اجنبي على مقابلة مع الرئيس افندى الا اذا كان الامر على غاية الاهمية . في مثل هذا الحال يكون مع الرئيس افندى ترجمان الباب العالي وامين سره Ameddji ليقوم باجراء البروتوكول . ويصطحب المفاوض الاوروبي امين سر وترجمان السفارة ، فيقوم الاول بتدوين اعمال الجلسة ويقوم الثاني بالتثبت من صحة ما ينقله ترجمان الباب العالي .

ولكن في الشؤون العادية او التي اقل اهمية فان الوزراء المفوضين لايتعاملون مع وزراء الباب العالي الا بواسطة تراجمتهم . فانه ضروري والحالة هذه ان يكون لدى السفارة تراجمة مهرة ولقد شعرت بذلك حكومات اوروبية كثيرة الى درجة جعلتها تنشيء مدارس خاصة ليتعلم الشبان الذين يعدون للعمل في بلاد الشرق . وهم يعملون بعد ان يتعلموا اللغات الشرقية كتراجمة في قنصليات حكوماتهم التي في مرافيء الشرق . ثم يلتحقون بالسفارة ليقوموا بنفس العمل . وبعدها يمكنهم ان يصبحوا قناصل او امناء سر في السفارات .

ولكل سفارة واحد او كثير من التراجمة يقوم الاول منهم بالاعمال السياسية فيحرر باللغة التركية الملاحظات والمذكرات التي يجب ان تقدم عن كل موضوع ويساعده في عمله هذا كاتب تركي يكون في خدمة السفارة . ولا يوقع السفير هذه الاوراق انما يكتفي بوضع ماهره عليها . وهو لايوقع الاعلى الملاحظات التي يقدمها باللغة الافرنسيه او الايطاليه وتكون على شيء من الاهمية في في الشؤون السياسية . ولا يمكنه ان يراسل في اى موضوع كان سوى الرئيس افندى الذى يوجه

طلبه الى الدوائر المختصة . ونلاحظ هنا بانه من شعار اعضاء الحكومة ان يتمهلوا في قضاء الاعمال التي هي على شيء من الاهمية والتي تخرج عن دائرة الشؤون العادية . فيؤجلون النظر فيها من وقت الى اخر ويؤخرونها سنين عديدة بدون ان يبتوا فيها . واذا سوءلوا عنها يرددون القول بمنتهى البرود : سننظر فيها او انشاء الله . وينشأ هذا التردد عن جهلهم وخوفا من تحمل المسوءولية . اذ بما ان الوزير يكون غير متاكد ابدا من ان يظل في منصبه حتى الغد فانه يترك لمن سيخلفه ما يمكن ان يعرضه للمكاره . وان الاعمال العادية للسبب ذاته تقضى بسرعة مدهشة ، اذ يهتم كل موظف ان يقضيها حالا لكي يقبض المال الراجع له منها .

اما بقية تراجمة السفارة فانهم يساعدون مواطنيهم في اعمالهم في المحاكم والجمرك والشرطة الخ ... ويرتدون جميعهم الالبسة الشرقية ويضعون على راسهم "القلبق" مصنوعا من فراء السمور .

ولقد مر بنا كيف ان الدول الاوروبية الكبرى التي اجرت معاهدات مع البلاط العثماني حصلت لسفرائها وقناصلها القدرة على استخدام اناس من مسيحيي البلاد كتراجمة عندهم . ومنح نفس هذا الحق لبقية الدول التي عقدت معاهدات تجارية وصداقة مع الباب العالي . وحدد في بعض هذه المعاهدات عدد التراجمة الى ثلاثين او اربعين . وقد ذكر في غيرها ان يكون للسفير ترجمانان وللقنصل ترجمان واحد . الا ان هذا العدد ضوعف للممثلين الاجانب وذلك في عهد السلطان مصطفى الثالث . وياخذ الوزير المفوض براءة من الباب العالي من اجل الشخص الذي عينه ترجمانا ويتمتع هذا الاخير منذ ذلك الوقت بالامتيازات والحصانات التي يتمتع بها الاوروبيون . ولكن بما ان عدد البراءات التي حصل عليها بموجب المعاهدات تزيد عن عدد التراجمة الذين يعملون في السفارة فان السفراء يبيعونها بمبلغ معين لاناس من اهل الذمة . ويصبحون بهذه الواسطة تحت حماية السفارة ويجدون ملجأ لهم ضد تعديات موظفي الدولة ويدفعون كالاوروبيين ثلاثة بالمئة ضريبة للجمرك من اجل بضاعاتهم . وكلما استعملت السفارات تراجمة وطنيين وزاد عدد القنصليات كلما زاد عدد البراءات المباعة لاهل الذمة .

عدا ذلك فانه يمكن لكل ترجمان ان يستخدم عنده شخصين يعفيان من الخراج ومن اي ضريبة وهما يحملان من اجل ذلك فرمانا من الباب العالي . الا ان هذه الفرمانات لا تلبث ان

تنتقل من ايدي الخدم الى ايدي بقية الناس الذين يشترونها ليضعوا انفسهم تحت حماية سفارة اجنبية . وبعد وفاة صاحبها ترجع هذه البراءة او الفرمان الى السفارة . ويتراوح سعر البراءات بين الفين وخمسمئة واربعة الاف غرش . وسعر الفرمانات بين الاربعمئة والثمان مئة حسب اهمية المركز التجاري التي هي ممنوحة له . وكثيرا ماكانت تسبب هذه البراءات مجادلات عنيفة بين الباب العالي والسفارات الاجنبية . فالباب العالي يحتج بان هذه البراءات اسيء استعمالها وانها تحرم خزينة الدولة من حقها في الضرائب التي كان يجب ان يدفعها اشخاص اغنياء من رعايا السلطان ويدافع السفراء عن حقهم الذي تنص عليه المعاهدات . واذا كانت هذه البراءات تؤمن لهم مبالغ من المال فانها غالبا تسبب لهم مشاكل ايضا . فاذا لاحقت الدولة هولاء الاشخاص الذين هم تحت حماية السفارات ويكون بينهم من اصحاب البيوتات المالية فانها تشتبك بجدال مع السفارات التي تريد ان تحميهم . ويدعم الديوان هذا المبدأ وهو ان كل ترجمان بالاسم فقط يعتبر من رعايا السلطان ولهذا فقد حصل ان حكم على احد حاملي البراءات بالموت وباستصفاء امواله . ويقدم السفراء والقناصل ايضا براءات يضعون بموجبها اشخاصا من العثمانيين تحت حمايتهم ويتالم الباب العالي من سوء الاستعمال هذا الما صعب الاحتمال ولكنه ليس لديه القوة لازالته . وهو يكتفي احيانا باقلاق وتنكيد اولئك الذين يراهم على غير حق في التمتع بحماية اجنبية الا انه استعمل من بضعة اعوام طريقة حكيمة ليحول هولاء الرعايا عن طلب هذه الحماية وذلك انه اخذ يمنح الذين منهم يتاجرون مع الخارج نفس تخفيضات ضرائب الجمرك التي يتمتع بها التجار الاوروبيون المقيمون في اراضي الدولة ومؤكدا لهم ايضا حمايته الخاصة . وهو علاوة عن ذلك يقدم لهم براءات تامينا لوعوده ومنذ ذلك الوقت خفت طلباتهم في الحصول على حماية الوزراء الاجانب .

ولم يرسل البلاط العثماني حتى هذا الزمن الاخير بعثات الا في مناسبات رسمية . وكانت افخمها تلك التي تتوجه الى بلاد العجم حيث تقيم لها هذه الامبراطورية المجاورة حفلات تكريمية كبيرة . ويخرج لاستقبالها خانات وحكام الولايات التي تمر منها ويقيمون لها في قصورهم اعيادا زاهية . ويجرى نفس هذا الاستقبال في الدولة العلية لسفراء العجم . ولم يبتدىء السلاطين في اعلام حكومتي النمسا وروسيا خبر تسنمهم العرش الا منذ عهد السلطان محمود الاول وذلك بارسال سفير من الدرجة الثانية ويكون عادة من حاملي رتبة الباش محاسبجي .

او رئيس المكتب الثاني لدائرة المالية . الا ان السفراء يحصلون غالبا على رتبة باشا وبكلوباك الروم ايلي .

وعلى كل سفير عثماني ان يقدم تقريرا عن رحلته حين رجوعه الى الاستانة . ويمكننا الحكم على قيمة هذه الملاحظات التي يبديها اشخاص لايعرفون اي لغة اجنبية وهم غير مثقفين ويكونوا قد مكثوا مدة ضئيلة فقط . ولهذا فاننا لانجد في تقاريرهم الا اخبارا مفصلة عن الاحتفالات التي قيمت لهم مع ملاحظات تافهة . وهم يجتهدون عادة في اطراء سلوكهم الخاص ومحاولاتهم التي ابدوها في كل المناسبات لجعل الغير يحترم عظمة الاسلام وقدر سلطانهم . ويذكر كل منهم انه استقبل بميزة خاصة وانه اقيمت له حفلات لم تجر لسفير قبله . ومعظم هذه التقارير موجود في تواريخ السلطنة واحسنها تقرير محمد افندي سفير السلطان احمد الثالث في بلاط فرانسا عام ١٧٢١ عندما كان لويس الخامس عشر قاصرا بعد (١) .

وعندما رجع معان زاده حسين باك مندوب السلطان محمد الرابع في بلاط دهلي سنة ١٦٥٣ ساله هذا بفضول عن اغرب شيء استرعى انتباهه وهو في الهند . فاجابه حسين باك حسب رواية المؤرخ نعيمة ، وبمنتهى البرودة بانه لم يلاحظ شيئا وانه كان ملتفتا فقط الى مهمته . وانه كان عديم الصبر لترك البلاد التي لايمكن في اية حال مقارنتها بجمال البلاد التي لها الحظ بان تكون خاضعة لجلالته .

ان العصبيات الدينية نحو غير المسلمين تقوي ايضا هذا الكبرياء الناشيء عن الجهل وعن احتقار كل ماهو اجنبي . وفي التاريخ حادثة من هذا النوع تستحق الذكر . وهي ان شاه العجم خسرو الاول من عائلة Bouyé ارسل سنة ٩٨٠ بكر الباقلاني احد ائمة بلاطه كسفير للامبراطور باسيل الثاني . ويذكر المؤرخ احمد افندي ان هذا الشيخ كان ماخوذا بعظمة الاسلام وعظمة مولاه . ولهذا فانه لدى وصوله الى القسطنطينية قال بانه مع احترامه للامبراطور البزنطي

---

(١) وتحتوي التواريخ ايضا عن تقارير رسمي احمد افندي الذي كان سفيرا في فينا سنة ١٧٥٨ وفي برلين سنة ١٧٦٣ . ودرويش محمد افندي لدى رجوعه من بطرسبرج عام ١٧٥٥ ومحمد اغا سفير السلطان في فرسوفيا سنة ١٧٥٨ ودري افندي المندوب الذي ارسله السلطان سنة ١٧٢١ الى بلاط ملك العجم .

لايمكنه ان ينحني له بدون ان يهين الاسلام بعمله هذا ، فاستفاد رجال الامبراطور من هذا التلميح ودبروا الامر وذلك بانهم عندما قادوه الى القصر لمقابلة الامبراطور وجد نفسه امام باب صغير يؤدي الى غرفة العرش . فلما شعر الامام بالحيلة ادار ظهره ودخل القهقرى . ويضيف المؤرخ بكل رصانة ان سرعة خاطره هذه جعلت له مقاما كبيرا عند المسلمين واعطت المسيحيين ايضا فكرة عالية عن سجاياه .

ولايقوم الوزراء العثمانيون في بلاط فينا باجراء العاده القديمة التي تنص بتقبيل طرف ثوب الامبراطور في اخر المقابلة الاكرعيين . وقد ارسلت الدولة راتب افندى مندوبا لها في فينا سنة ١٧٩٢ اى حالا بعد معاهدة صلح سيستوفا . ولكنه تعمد الايقوم بهذه العادة في المقابلة الاولى التي جرت له مع الامبراطور ليوبولد . انما أُخبر في ذات اليوم بانه اذا لم يتعهد بتقبيل ثوب الامبراطور في المقابلة الثانية التي ستجرى له قبل مغادرته البلاد لن يعترفوا في الحال بصفته الرسمية وسيرسل الى الاستانة من يقدم التشكيات عنه للسلطان . فاضطر راتب افندى ان يخضع للامر . ولكي يعوض عن خطأه فقد قبل مرتين ثوب الامبراطور فرانسوا الثاني .

اما قرر الباب العالي اخيرا سنة ١٧٩٣ ان يعين له مندوبين دائمين في بلاطات باريس وفينا ولوندره وبرلين وكان في نيته ان يعين مندوبا ايضا لدى دولة خامسة الا ان هذه تجنبت بحذاقة هذا العرض . ويترتب حسب هذه الخطة ان يلتحق ثمانية او عشرة شبان عثمانيين بكل سفارة من هذه السفارات حيث تؤمن لهم الوسائل اللازمة لتعلم اللغات والعلوم والفنون الاوروبية ولكن هذا العمل لم يكن من الممكن اجراؤه الا بعد مدة طويلة وذلك لانه كان يتعارض كثيرا والعصبيات الوطنية . ولقد جابه الباب العالي في بادىء الامر صعوبة ايجاد اشخاص من ذوى المكانة يمكن تذليل كراهيتهم للذهاب الى بلاد مسيحية . ولقد اضطر في اخر الامر ان يعدهم بان مهمتهم سوف لاتدوم اكثر من ثلاث سنين . ولقد وجد صعوبة مماثلة في تعيين موظفي السفارة بالرغم من الشروط الجيدة التي عرضها ولكن بعد بضعة اعوام اخذ الباب العالي يلغي هذه السفارات وعين بدلا من السفراء في هذه البلاطات مندوبين يونانيين .